

الجزء الثاني

بول ريكور

الزمان والسرد

التصوير في السرد القصصي

راجعه عن الفرنسية
الدكتور جورج زيناتي

ترجمة
فلاح رحيم



الكتاب
للكتاب

بول ريكور

الزمان والسرد

التصوير في السرد القصصي

الجزء الثاني

ترجمة

فلاح رحيم

راجعه عن الفرنسية

الدكتور جورج زيناتي

شبكة كتب الشيعة



دار الكتاب الجديد المتحدة

shiabooks.net

رابطه يدیل < niktba.net

عنوان الكتاب الأصلي باللغة الفرنسية

Temps et récit: La configuration dans le récit de fiction

Tome 2
Paul Ricœur

Les Editions du Seuil

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الفرنسية عام 1984 في دار سوي الفرنسية

حقوق الطبعة العربية محفوظة لدار الكتاب الجديد المتحدة وذلك بالتعاقد مع دار سوي الفرنسية

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2006 إفرنجي

أوتوستراد شانيل - الطبونة، شارع هادي نصر الله - بناية فرحات وحجيج - طابق 5.
خليوي: 933989 . 3 . 00961 هاتف وفاكس: 542778 . 1 . 00961 - ص.ب. 14/6703 بيروت - لبنان.
بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb - الموقع على الشبكة www.oaebbooks.com

بول ريكور

الزمان والسرد ترجمة: فلاح رحيم

راجعه عن الفرنسية الدكتور جورج زيناتي

17 × 24 سم

348 صفحة

ردمك: (رقم الإيداع الدولي) 7-329-29-9959 ISBN

رقم الإيداع المحلي: 2003/5679

رقم المجموعة: 0-327-29-9959 ISBN

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير/أي النار 2006 إفرنجي

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

توزيع دار لويلا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر،

هاتف: 3407010 . 21 . 00218 - 3407012 . 21 . 00218 - 3407013 . 21 . 00218 - فاكس: 3407011 . 21 . 00218

طرابلس - الجماهيرية العظمى - oaebbooks@yahoo.com

المحتويات

7	مقدمة الترجمة العربية: بول ريكور وما يترتب على النظرية
19	تقديم

القسم الثالث

تصور الزمن في السرد القصصي

27	الفصل الأول: تحولات الحبكة
61	الفصل الثاني: القيود السيميائية على السردية
111	الفصل الثالث: ألعاب مع الزمن
171	الفصل الرابع: التجربة القصصية للزمن
253	الاستنتاجات
265	دليل المصطلحات
277	هوامش الكتاب
331	فهرس الأعلام
335	فهرس المصطلحات

مقدمة الترجمة العربية:

بول ريكور وما يترتب على النظرية

يحتوي الجزء الثاني من «الزمان والسرد» على القسم الثالث من مشروع ريكور، وفيه يتناول نظرية الأدب على مستوى السرد القصصي. وكان القسم الثاني من الجزء الأول قد تناول نظرية التاريخ على مستوى السرد التاريخي. بهذا يكون الجزء الثاني امتدادا وتكملة لما بدأه ريكور في النصف الثاني من الجزء الأول، وقد قال ريكور نفسه إن بالامكان الجمع بين هذين القسمين لتكوين عمل واحد يحمل عنوان «التصور السردى»^(*). وهو عمل يختص بدراسة مشكلات التأليف السردى على المستوى النصي، ويتصدى لكثير من الإشكاليات الخاصة بمنهجية هذه الدراسة والمحاولات المتوفرة لمقاربتها، بما فيها محاولة علم السرد البنيوي. إن الغاية الأساس من هذه المقدمة هي إضاءة المحيط النظري الحاضن لهذين القسمين في إطار الكتاب عموما، وملاحقة ما يترتب على المنطلقات النظرية لريكور بخصوص مشكلات التأليف السردى.

(*) ورد ذلك في السيرة الذاتية الفكرية التي كتبها ريكور ونشرت تحت عنوان: "Intellectual Autobiography," The Philosophy of Paul Ricoeur, ed. Lewis Edwin Hahn (Chicago: Open Court, 1995)، ص. 45. و سأشير إلى هذا المصدر فيما بعد بالمختصر (س ف).

بدلاً من التنكر لمفهوم المحاكاة والنظر إليه باعتباره خروجاً على مبدأ انغلاق النص، ضاعف ريكور هذا المفهوم وتوسع فيه لجعله الإطار النظري لتأملاته في واحدة من أهم معضلات الفكر، وأعني بها العلاقة الغنية بين اللغة والتجربة الإنسانية المعيشة. لقد ظل ريكور يؤكد مراراً على «أن الخطاب لا يوجد البتة من أجل تمجيد ذاته، بل هو يحاول في كل استخداماته نقل تجربة ما إلى اللغة، طريقة ما لسكنى العالم أو الوجود في العالم». (س ف، ص. 38). و يضيف أن ما دفعه إلى الخروج من النص إلى الفعل شيء متأصل في نظرية النص نفسها، فالعلاقة البينية بين الذات المتجذرة في الخطاب تعيد التحليل إلى العالم العملي للقارئ، هذا العالم الذي يقوم النص بإعادة وصفه أو تصويره مجازياً. فضلاً عن ذلك فإن في النص تلك العلاقة المرجعية التي لا غنى عنها لأية ممارسة متكاملة للخطاب.

لقد شهدت مسيرة ريكور الفكرية الطويلة تحولين أساسيين في مشاغله، كما يذكر هو نفسه؛ الأول تحول من هرمنوطيقا الرمز إلى هرمنوطيقا النص، وهو التحول الذي اقترب فيه ريكور من مشاكل التأليف النصي ومن المنهج البنيوي، ثم جاء التحول الثاني من هرمنوطيقا النص إلى هرمنوطيقا الفعل البشري، وفيه اتضحت الشقة الواسعة التي تفصل بينه وبين البنيوية وسائر المداخل الشكلانية. لكن هذه التحولات لم ينقض بعضها البعض الآخر. ففي كتاب «الزمان والسرد» نجد العناصر الثلاثة كلها فاعلة ومتكاملة. فالمحاكاة تشير إلى التصور الذي يسبق العمل الأدبي أو السردية، ويعتمد على فهم مسبق للأفعال البشرية التي تمثل مادة فعالية المحاكاة. ينتمي الركن الأول من المحاكاة هذا إلى مصطلح «الفهم» لدى ريكور، أي إلى الوجود الإنساني المتوسط رمزياً الذي لا يمكن تخيله دون شبكة التوسطات الرمزية المتمثلة في التراث والتقاليد والقيم الثقافية العابرة للأجيال والمرويات التي تشكلت تحت تأثيرها تصوراتنا عن السرد. لا وجود لقارئ أو مبدع خارج هذه

الشبكة، فهي تصوّرات تسبق كل تصور فني أو فكري ابداعي، وبدونها يفقد التصور الإبداعي معناه وإنجازه. سنجد فيما بعد أن ريكور يعطي الأسبقية لـ «الفهم السردى» عندما يتناول التأليف في التاريخ وفي القصص الخيالي على حد سواء. والمحاكاة وثيقة الصلة بالفهم السردى، فهي تسبق السرد وتحيط به وتبقى بعد أن يصل خاتمته. إنها وثيقة الصلة بحالة التوسط الرمزي التي تمثل شرط وجود الإنسانية، والتي تجعل كل مفهوم للواقعي ذا طبيعة تأويلية.

تشير المحاكاة² إلى الفعلية المحاكاتية الناشطة في الأعمال الأدبية وأ عند صياغة الحكايات السردية، ويسمى ريكور التصور السردى. وبهذا فإن المحاكاة² تتصل بنظرية النص وتقع ضمن الميدان الواسع الذي يسميه ريكور «التفسير». والتفسير بحسب ريكور هو الفعلية التأملية التي تسعى إلى الارتفاع عن مستوى الفهم بوساطة المنهج والمنطق والعقلنة وإعمال الفكر. إنها محاولة لإخضاع غزارة الفهم وتشعبه وعدم امكانية اختزاله لفعلية التخيل الساعية إلى الخروج بصياغة متوافقة من تنافره. يترتب على ما سبق أن مفهوم التفسير لدى ريكور لا يتجسد في منهج فكري بعينه بل هو انفتاح على تعددية المناهج وهو ما نلمسه في تحاور ريكور مع الكثير منها، مثل الفرويدية والبنوية والماركسية وغيرها بوصفها محاولات تنطلق من الفهم نحو إنجاز توافق نصي معين يختزل جوانب ويؤكد جوانب أخرى.

يقع الجزء الثاني من «الزمان والسرد» ضمن هذا النمط الثاني من المحاكاة فيختص بمعالجة النتاج القصصي الخيالي بوصفه الركن الثاني في السرد بعد السرد التاريخي. بهذا يكون القسمان الثاني والثالث من الكتاب مكرسين للمحاكاة²، وهو ما سأعود إلى تفصيله لاحقاً.

المحاكاة³ هي ركن المحاكاة الذي يبدأ بعد أن يخرج القارئ من النص، وهي قرينة ما يسميه ريكور «إعادة التصور». فالقراءة فعالية تكوينية وتأسيسية لا تستغني عن التنظير لها أية محاولة تهدف إلى تقديم وصف

متكامل للعملية الإبداعية السردية أو الشعرية. وقد أشار ريكور في سيرته الفكرية إلى أنه انتبه بعد الانتهاء من كتابة «حكم الاستعارة» إلى وجود ثغرة فيه هي إغفال «التوسط الذي تقوم به القراءة بين استهداف الحقيقة الذي تنطوي عليه العبارة الاستعارية من جهة و إدراك هذا الاستهداف خارج النص من جهة أخرى. وعالم القارئ هو الذي يقوم بإعادة الوصف هذه». (س ف، ص. 47). لقد خرج ريكور بواسطة المحاكاة³ من القيود الشكلانية التي عانت منها الكتابات التي سجنّت نفسها داخل المحاكاة²، وأكد فكرته المركزية في أن الخطاب يتجه دائما إلى منطقة خارج ذاته وإلى هدف يتجاوز نرجسية الاقتتان بأدواته. القسم الرابع من الكتاب والذي يضمه الجزء الثالث مكرس بأكمله لهذا الركن من المحاكاة.

لكن انشغال ريكور بالوظيفة السردية بوصفها أمرا مختلفا عن الشكل أو البنية السردية قاده إلى بحث مشكلة الزمان. فالوظيفة السردية تعني «أن فعل السرد هو فعل كلامي يشير إلى ما يقع خارج ذاته من أجل إعادة خلق يمارسها الحقل العملي الخاص بالشخص الذي يتلقاه. وتحديدًا فإن البعد الزمني لهذا الحقل العملي هو الذي يقع عليه التأثير». (س ف، ص. 41) من هنا كانت الفكرة التي أوحى لريكور بالكتاب برمته، أي فكرة «وجود علاقة تكييف متبادل بين السردية والزمانية». (س ف، ص. 41).

هنالك إشكاليات عديدة عصية على الحل تجعل من الزمان معضلة تستهوي الفلاسفة. و أهمها، كما يرى ريكور، عجز الزمن النفسي والظاهراتي عن اختزال الزمن الفيزيقي والكوزمولوجي والإلمام به. فبرغم وضوح الزمنين منفصلين «إلا أن محاولة اشتقاق زمن (العالم) من زمن (النفس) أو العكس تبدو محاولة يائسة ومحكومة بالفشل». (س ف، ص. 41). ويعزو ريكور هذه المعضلة إلى بنية الحاضر المنقسمة إلى «رأس دبوس الآن المختزل إلى قطع بين ما قبل وما بعد لا يحده حد، والحاضر المعيش المحمل بماض قريب ومستقبل وشيك». (س ف، ص. 41).

لقد قاد بحث ريكور في هذه المعضلة إلى اكتشافه نقطة تقاطع تفعل هذه العلاقة الزمنية بالسرد تتمثل في التداخل بين مفهوم روح الانتشار المأخوذ عن الكتاب الحادي عشر من «اعتراقات» أوغسطين ونظرية الحبكة المأساوية المأخوذة من «فن الشعر» لأرسطو. فإزاء زمن روح الانتشار، زمن التجربة المعيشة بكل اضطرابها وانفتاحها واتساعها المتزايد (وهو ما يسميه ريكور التوافق المتنافر لتجربة الزمن)، تقوم الحبكة السردية بمسعاها إلى التحديد والانتظام والعقلنة (وهو ما يسميه ريكور التنافر المتوافق لحبكة السرد). ينجح ريكور إذاً في تعميق ثنائية الحياة - الفن التي طالما تأملها الفلاسفة ونقاد الأدب عبر إدراكه وجود علاقة دالة بين الوظيفة السردية والتجربة البشرية للزمن. و من هنا حيوية هذا الكتاب وأهميته بالنسبة للدراسات الأدبية والتاريخية على حد سواء.

يبدأ ريكور القسم الثالث من كتابه (الذي يضمه الجزء الثاني من الكتاب هذا) بفصل «تحولات الحبكة» الذي يناقش فيه أساساً ناقدين كبيرين هما نورثرب فراي وفرانك كرمود. و لهذه البداية أسبابها الهامة. فالجدال الذي سينطلق إليه ريكور في الفصول اللاحقة لإضاءة مشكلة الزمان داخل النص سيحيل القارئ باستمرار إلى الفهم السردى بوصفه حاضنة النص وعمقه وسياقه. و لقد قدم فراي مثالا متميزا وموسوعيا في «تشریح النقد»^(*) لتأسيس نموذج تبادلي يعرّف الأنماط المتوارثة للسردية الغربية لا يعتمد الترسيم الصارمة لعلم اللغة التي سجن البنيويون أنفسهم داخلها. وهو ما أضطرنى إلى التمييز بين استخدام فراي لمفهوم النسق paradigm واستخدام البنيويين الفرنسيين له بأن أترجمه بمصطلح «نموذج تبادلي». فالنسق أقرب إلى علم اللغة، بينما النموذج الذي يؤسس له فراي مفتوح على مختلف الاحتمالات في كل من محتواه وحدوده.

(*) هنالك ترجمة عربية لكتاب «تشریح النقد» قدمها الأستاذ محيى الدين صبحي (الدار العربية للكتاب، 1991).

أما فرانك كرمود فيقدم لريكور دعماً قوياً في طرح ثنائية الزمان - الحبكة عبر كتابه المتميز «الإحساس بالنهاية»^(*)، وفيه حاول كرمود إنجاز ربط بين القصص الخيالي و الزمان و أنماط الكشف الرؤيوي. لقد لاحظ كرمود أن أصحاب الكشف الرؤيوية يوفرون بتخيلهم نهاية للعالم شبيهاً دالاً لما يحدث في كتابة القصص وقراءتها. هنالك في الحالتين محاولة لفرض نموذج متناغم على فوضى الزمان. إذ يضطر الأدب الرؤيوي وهو يجد تطور الأحداث يدحض توقعاته عن النهاية باستمرار، إلى إعادة تكييفها لما يخدم استمرارية الحبكة الإسكاتولوجية التي يتمسك بها. و بالمثل تستفيد الروايات الجيدة دائماً من انقلاب الحظ وتلجأ من خلاله إلى إعادة تكييف التوقعات التي تسم التصورات الساذجة حول الزمان. ولا يخفى كم تقترب هذه الأطروحة مما يحاول ريكور إنجازه في هذا الكتاب.

ينتقل ريكور في الفصل الثاني «القيود السيميائية على السرد» للتصدي لمحاولات علم السرد البنيوي عقلنة السرد وإغلاق النص ضمن مقولات علم اللغة. نجد في هذا الفصل مناقشة معمقة لأفكار العديد من السيميائيين ينتهي ريكور في نهايتها كلها إلى تأكيد الحاجة إلى فتح النص على مرجعه الخارجي وعلى معضلات التجربة المعيشة من جهة، وإعادة تأسيس الصلة بين الفعالية السردية وسياقها المتمثل في الفهم السردى من جهة أخرى. تتابع قراءة ريكور لفلاديمير بروب^(**) وجود تناقض لم ينجح بروب في حله بين رغبته في تقديم تصنيف علمي صارم للسرد (بدافع من الرغبة في تقليد لينايوس) وإدراكه الطبيعة العضوية للسرد (وهو ما تكلم عنه غوته). وفي

(*) تتوفر ترجمة عربية لكتاب كرمود «الإحساس بالنهاية: دراسات في نظرية القصة» ت: د. عناد غزوان اسماعيل وجعفر صادق الخليلي (بغداد: دار الرشيد للنشر، 1979).

(**) هنالك ترجمة عربية لكتاب فلاديمير بروب بعنوان «مورفولوجيا الخرافة» ت: إبراهيم الخطيب (الدار البيضاء: الشركة المغربية للنشر المتحدين، 1986).

تصديه لجينية وغريماس وبريمون^(*) تحليل معمق لمحاولاتهم إخضاع الفعالية السردية لمقولات تصنيفية لسانية ومنطقية تنزع عنه كل ما يقاوم هذه المحاولات. و يدرك القارئ بُعد الشقة بين ريكور والفهم النبوي للسرد وهو يرى أن ركني كتاب «الزمان والسرد» الأساسيين؛ أي الزمان والحبكة، يغيان عن علم السرد النبوي تحت يافطة رفض التعاقب الزمني والتمسك بالتزامن من جهة، ورفض آليات تماسك الحبكة الأرسطية المتمثلة في بداية ووسط ونهاية والتمسك بدلا عنها بآليات انتظام مستعارة من علم اللغة من ناحية أخرى. بهذا تكون قراءة ريكور لنصوص البنيويين الفرنسيين محاولة لتعيين المناطق في نظرياتهم التي تستدعي العودة إلى مفهومي الزمانية والحبك، وهو ما يدعونا إلى التحفظ إزاء المبالغات التي تقترب بريكور كثيرا من البنيوية.

يظل موضوع علاقة ريكور بالبنيوية موضع نقاش واختلاف. والسبب في ذلك أن ريكور ورغم سجلاته الطويلة مع البنيويين الفرنسيين من معاصريه (وأخص منهم كلود ليفي - ستروس و جاك لاكان الذي بلغ الأمر معه حد المهاترة)، لم يرفض البنيوية ورأى فيها محاولة عقلانية تفسيرية تسعى إلى مقارنة الفعالية الإبداعية الحية. واعتبر أن في اعتمادها كشوفات علم اللغة أملا في التخفيف من الانطباعية والتخمين. من هنا يأتي اهتمامه بمفاهيم التلخيص والتقرير و الفضاء السردى والوظيفة و الفاعل وغيرها مما سيجد القارئ تفصيله في هذا الجزء من الكتاب. إلا أنه ورغم ذلك رفض قبول فكرة أن هذه الآليات البنيوية تستطيع الإحاطة بكل جوانب النص السردى، وعلى الأخص ما يسبق النص (الفهم السردى)، وما يعقبه (الوظيفة السردية). و لابد من ملاحظة أن ريكور وهو يفصل مباحثه في المحاكاة² لا يعتمد البنيوية وحدها، بل يعود أيضا إلى الفلسفة التحليلية الناطقة بالإنجليزية التي

(*) هنالك بالعربية لجيرار جينيت *مدخل لجامع النص* ت: عبد الرحمان أيوب (الدار البيضاء: دار توبقال، 1985)، و لم أجد شيئا من نصوص غريماس وأبريمون بالعربية!

سعت هي الأخرى إلى فرض العقلنة على السرد اعتمادا على المنطق الصوري بدلا من علم اللغة. و يؤكد ريكور أنه وجد في الفلسفة التحليلية سدا لنقص تعاني منه البنيوية الفرنسية بقدر تعلق الأمر بالسردية التاريخية. لقد حرص التحليليون الناطقون بالإنجليزية في دراستهم بنية السرد على أن يتم ذلك ضمن إطار البنية التاريخية، بينما لم تتجاوز جهود البنيويين النقد الأدبي. من هنا اهتمام التحليليين ببحث ادعاء الصدق في العبارات التاريخية، وهو مبحث لم يتطرق إليه البنيويون أمينين في ذلك لأصولهم السوسيرية الحريضة على عدم الخروج من نطاق علم اللغة و إهمالهم سؤال واقعية الأحداث الماضية. وهو ما دفعهم مرة أخرى إلى إهمال السرد التاريخي والتركيز على السرد القصصي حسب.

ينتقل ريكور في الفصل الثالث «ألعاب مع الزمن» إلى التركيز على مشكلة الزمان بعد أن سلحته مناقشة مشكلة السرد بأدوات فاعلة. وهو يستلهم هنا جهود العديد من المنظرين والنقاد يأتي في مقدمتهم غونتر مولر الذي طرح التفريق الأساس بين زمن فعل السرد (الذي يقاس بعدد الصفحات وزمن قراءتها وكتابتها) و زمن مادة السرد (الذي يقاس بالدقائق والساعات والأيام والسنين الخاصة بأحداث السرد). ويرى مولر أن الحياة صيرورة، وأن السرد نقل لهذه الصيرورة يتلاقح داخله زمن الحياة مع زمن مادة السرد وزمن فعل السرد. و ما لعبة الزمن إلا التحكم في إيقاع السرد من تسريع وإبطاء أو رزم واستبعاد.

يحتوي هذا الفصل على مناقشة طريفة وجديرة بالتأمل للعلاقة بين زمن السرد وزمن الأفعال النحوية التي يتحقق بها تليفيظ السرد^(*). ونتعرف هنا على آراء هارالد وينرتش الذي درس الزمن النحوي في السرد دراسة معمقة

(*) اعتمدت كثيرا في ترجمة المصطلحات اللسانية الواردة في الكتاب على "المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات" الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - مكتب التنسيق، تونس عام 1989. وقد ساهم في وضعه نخبة من علماء اللغة العرب.

واستلهم منه ريكور الصلات الوثيقة بين التصور السردى وترتيب الزمن نحوياً داخل السرد. ويعود ريكور هنا إلى مناقشة مفهوم جينيت للعبة الزمن في السرد ويقدم عرضاً نقدياً مركزاً لمفاهيمه في هذا الخصوص ليخلص إلى تسجيل تحفظه على الفكرة البنيوية القائلة إن اللعب مع الزمن لا رهان له إلا ذاته، فيؤكد أن رهان لعبة الزمن هو دائماً غاية تقع خارج النص، وهو ما سيتوسع فيه الجزء الثالث.

يختتم ريكور هذا الجزء بفصل مطوّل يتناول فيه ثلاث روايات كبيرة هي «السيدة دالوي» لفرجينيا وولف^(*)، و «الجبل السحري» لتوماس مان^(**)، و «البحث عن الزمن الضائع» لمارسيل بروست^(***). و تقدم لنا هذه المعالجات النقدية التطبيقية نموذجاً دالاً على الكيفية التي يقارب بها منهج ريكور التأويلي النصوص الإبداعية السردية. فبرغم أن قراءات ريكور تشغل من حيث الأساس بالسؤال الأكبر في «الزمان والسرد»؛ أي التكيف المتبادل بين السردية والزمانية، فإن مقارنته لهذه الأعمال الكبيرة تكشف لنا منهجاً خلافاً في القراءة لا يعاني من إشكالية التكرار والعقم التي ابتلي بها الكثير من المناهج عند التطبيق وهي تعاود اكتشاف انتظامات وتواترات

(*) تتوفر ترجمة عربية لهذه الرواية قام بها الأستاذ عطا عبد الوهاب وصدرت عن دار المأمون في بغداد، 1986.

(**) ذكر مترجماً كتاب "أبعاد الرواية الحديثة" لثيودور زبولكوفسكي د. احسان عباس وبكر صدقي (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994) في مقدمتهما للكتاب أن «الجبل السحري» قد ترجمت إلى العربية، لكنني لم أعر لهذه الترجمة على أثر، ويضم كتابهما هذا فصلاً ممتازاً عن «الجبل السحري» يستحق القراءة. وقد نشر في الصحافة العراقية مؤخراً أن ترجمة عربية للرواية ستصدر في بغداد قريباً.

(***) تقع «البحث عن الزمن الضائع» في سبعة أجزاء وأكثر من ثلاثة آلاف صفحة، وقد ترجمت منها إلى العربية حتى الآن ثلاثة أجزاء فقط قام بها الأستاذ الياس بديوي وصدرت عن وزارة الثقافة السورية في دمشق في الأعوام 1977، 1979، 1980 على التوالي. ويتوفر النص الكامل لهذه الرواية بالترجمة الإنجليزية المعروفة التي قام بها سكوت مونكريف، على الأنترنت في مكتبة غوتنبرغ Gutenberg الالكترونية المجانية.

معروفة سلفا في كل قراءة جديدة. في قراءة ريكور لهذه الأعمال حرص على المحافظة على توازن مبدع بين أدوات القراءة وفروضا من جهة ومقاومة النص لها لتأكيد مقولاته من جهة أخرى. وهي بذلك تقدم مثالا ملهما للنقد الأدبي.

لا بد في الختام من وقفة قصيرة لمراجعة ما يترتب على قراءة ريكور بالنسبة لنقدنا العربي المعاصر. لقد استغرقت خبرة العقول العربية في ربع القرن الأخير الرغبة في تحقيق إنجازين رئيسيين؛ الأول، بلورة منهج علمي عقلاني صارم يخلص النقد الأدبي من انطباعه وترهله، والثاني، تفكيك الأعمال الأدبية لإثبات عجزها عن تقديم دلالة إيجابية. وها قد وصلنا نهاية الطريق فلم نجد إلا حائطا أصم من العلمية العقيمة التي لا تعرف مهما فعلت إلا تكرار مقولاتها في حلقة مفرغة لا تعني القارئ في شيء، ومن العدمية التي باتت تتغنى برفع القداسة عن كل القيم والإعلان عن موت التاريخ والأيدولوجيا بما يوفر راحة للضمير وملاذا من أشواك التجربة المعيشة التي يتورط كل من يمد أصابعه إليها بالجراح والصدمة. لكن في كل هذا تناقض مستحكم يدمره من الداخل. ما قيمة العملية التخيلية المنتجة لمعنى جديد إذا كانت آليات القراءة قد اكتشفت مسبقا، مرة وإلى الأبد، كل أسرارها وحولتها إلى مكنة مقننة؟ وما قيمة الفكر إذا خرج علينا بعد مخاض الدرس وعناء البحث ليعلن كما فعل بارت أن نصوصنا تشبه بصلة لا تنطوي طبقاتها على شيء غير العدم، و أنها ليست جوزة ينتهي كسرهما إلى ثمرة طيبة؟ ولماذا الفكر إذا كان لا يسهم في تنوير معنى أو لمسة مواساة؟ لقد شيد فرانك كرمود مشروعه النقدي على فكرة أن القصص تمنحنا المعنى والمواساة في مواجهتنا اليومية لاضطراب الزمن وعشوائيته، وهي الرسالة التي أقرها بول ريكور وفضل فيها تفصيلا باهرا. أما الدعوات التي عاشت معنا عقودا طويلة إلى تدمير الدلالة ونفي المعنى وتفجير اللغة وهدم الحاضنة الثقافية فيكفي دليلا على نزقها ما وصل إليه المشهد النقدي العربي من عزلة

ورثاء للذات بعد أن تجاوزته الإبداع الأدبي واستغنى عنه القارئ. هنالك حاجة ماسة إلى إعادة المثقف العربي إلى التجربة المعيشة ليستنشق هواء محيطها الرمزي المشحون بميراث قرون طويلة من التفاعل بين المبدع والتجربة. لقد أشاد ريكور كتابه هذا على فكرة أن المحاكاة تصوّر، والزمن صيرورة وحركة، وبمعونة الحبك تخرج المخيلة السردية من هذه الصيرورة بنص سردي فاعل فيما يقع خارجه؛ كل هذا يصب في المشروع الدائم للفكر: مشروع البحث عن المعنى وعقلنة الصيرورة المنفلتة من كل عقل، من دون أن ينسينا الاختزال الثراء الذي يقف خلفه. إن ريكور بفهمه هذا للسرد والزمانية يحاول طرح مشروع أمل في مصير أكثر خصوبة للمعرفة الإنسانية.

يحتوي هذا الكتاب على الكثير من المصطلحات الجديدة التي كان لزاماً عليّ الاجتهاد في نقلها إلى العربية، لكنني حاولت بالرجوع إلى الترجمات العربية المتوفرة في هذا الحقل اعتماد ما أصبح متداولاً منها حتى عندما يكون لدي مقترح أراه أفضل. و الفكرة أن التأسيس للمصطلح ودعمه هو رهان قدرتنا على التواصل مع الثقافة العالمية. وأود أخيراً أن أشكر الأخ الأستاذ شريف هاشم الزميل الذي راجع الصياغة العربية للكتاب وأبدى ملاحظات مفيدة كما هو دأبه معي دائماً، وإلى الأستاذ سالم الزريقاني مدير دار الكتاب الجديد المتحدة الذي صبر عليّ وأنا أكابد مشقة نقل الكتاب إلى العربية صبراً جميلاً.

فلاح رحيم

تقديم

لا يحتاج الجزء الثاني من «الزمان والسرد» إلى مقدمة خاصة. يحتوي هذا المجلد على القسم الثالث الذي قُدم مخططه في الصفحات الافتتاحية من الجزء الاول. إضافة إلى ذلك فإن موضوعه القسم الثالث، تصور الزمن بوساطة السرد القصصي، تتوافق على نحو دقيق مع موضوعه القسم الثاني من الجزء الاول، تصور الزمن بوساطة السرد التاريخي. القسم الرابع، والذي سيكون الجزء الثالث والأخير، سيجمع معاً تحت عنوان الزمن المروي الشهادة الثلاثية التي تقدمها الظاهرية والتاريخ والقصص بصدد قوة السرد، مأخوذة في كليتها التي لا تقبل القسمة، لإعادة تصور الزمن.

تسمح لي هذه المقدمة القصيرة أن أضيف إلى آيات الشكر التي عبرت عنها في صدر الجزء الأول من «الزمان والسرد» تعبيراً عن امتناني إلى القائمين على مركز الإنسانيات القومي في نورث كارولينا. إن الظروف الاستثنائية المتاحة للزملاء هناك، سمحت لي إلى حد بعيد الاستمرار في البحث الذي قاد إلى هذا الجزء.

القسم الثالث

تصور الزمن في السرد القصصي

في القسم الثالث هذا من «الزمان والسرد» سأطبق النموذج السردى الذي أنظر فيه تحت عنوان المحاكاة² على منطقة جديدة من الحقل السردى أسميها، لتمييزها عن السرد التاريخي، السرد القصصى⁽¹⁾. وتضم هذه المجموعة الفرعية الواسعة من حقل السرد كل ما تضعه نظرية الأجناس الأدبية تحت مسميات الحكاية الشعبية والملحمة والمأساة والملهاة والرواية. ولا يقصد من هذه القائمة إلا تبيان نوع النصوص التي سينظر في بنيتها الزمنية. إن هذه القائمة من الأجناس ليست مغلقة، فضلا عن أن عناوينها المؤقتة لا تلزمني مقدما بأي تصنيف مطلوب للأجناس الأدبية. وهذا أمر هام لأن مشاغلي المحددة لا تستلزم مني اتخاذ موقف بشأن المشاكل المتصلة بتصنيف مثل هذه الأجناس وتاريخها⁽²⁾. لذلك سأعتمد نظام التسمية الأكثر قبولا بقدر ما تسمح مكانة المشكلة التي أناولها. بالمقابل، أجد نفسي مضطرا اعتبارا من هذه النقطة إلى إيضاح السبب الذي يدعو لتشخيص هذه

المجموعة الفرعية السردية على أنها «سرد قصصي». ولكي أبقي أميناً على الميثاق المعجمي الذي تبنيته في الجزء الأول، سأعطي مصطلح «قصص خيالي» نطاقاً أضيق من ذلك الذي تبنته كثرة من الكتاب ممن يرون أنه مرادف لـ «التصور السردى»⁽³⁾. هنالك بالطبع ما يبرر هذه المساواة بين التصور السردى والقصص الخيالي، ما دام ما يكون الفعل التصوري، كما أكدت أنا نفسي، هو عملية تنجزها المخيلة المنتجة، بالمعنى الكانطى للكلمة. ومع ذلك فانا أحصر مصطلح «قصص خيالي» بتلك الإبداعات الأدبية التي ليس لها طموح السرد التاريخي إلى إنشاء سرد حقيقي. إذا اعتبرنا كلاً من «التصور» و«القصص الخيالي» مترادفين فلن يتبقى لدينا مصطلح يوضح العلاقة المختلفة لكل من هذين النمطين السرديين بمسألة الحقيقة. يشترك كل من السرد التاريخي والسرد القصصي بأنهما ينبعان من العمليات التصورية نفسها التي أضعها تحت مسمى المحاكاة². من جهة أخرى، فإن ما يخلق الضدية بينهما لا يتعلق بالفعالية البنيوية المبثوثة في بنيتيهما السرديتين بوصفهما كذلك، بل هو يتعلق بـ «ادعاء الصحة» الذي يميز العلاقة المحاكاتية الثالثة.

من المفيد التوقف لحين عند مستوى هذه العلاقة المحاكاتية الثانية بين الفعل والسرد. يمكن لذلك أن يوفر الفرصة لتجسد نقاط التقاء وتباعد غير متوقعة تتصل بمصير التصور السردى في حقلي السرد التاريخي والسرد القصصي.

تشكل الفصول الأربعة التي يتألف منها القسم الثالث مراحل متتابعة في خطة سير واحدة: من خلال توسيع فكرة الحبك، الموروثة من التراث الأرسطى، وتجذيرها، واغنائها، وفتحها على الخارج سأحاول على نحو متلازم تعميق فكرة الزمنية، الموروثة من التراث الأوغسطيني، من دون أن أخرج من الإطار الذي توفره فكرة التصور السردى، وبالتالي من دون انتهاك حدود المحاكاة².

1. يعني توسيع فكرة الحبك، بادئ ذي بدء، التصديق على حقيقة أن للحبكة الأرسطية القدرة على التحول من دون أن يفقدها ذلك هويتها. وتقاس سعة الفهم السردى بتحويلة الحبك هذه. يحتوي هذا القول ضمنا على العديد من الأسئلة: (أ) هل يحافظ جنس أدبي سردي، له من الجدة ما للرواية الحديثة، على صلة مع الحبكة المأساوية، التي ترادف الحبك لدى الإغريق، بحيث يبقى بالإمكان وضعه ضمن مبدأ التوافق المتناظر الشكلي الذي عزفت به التصور السردى؟ (ب) هل يوفر الحبك، عبر كل هذه التحولات، استقرارية تسمح له بأن يجد مكانا بصيغة نماذج تبادلية تحافظ على أسلوب التقليد المميز للوظيفة السردية، على الأقل في المحيط الثقافي للعالم الغربي؟ (ج) ما هي العتبة النقدية التي تفرض علينا بعدها الانحرافات الأشد تطرفا عن الأسلوب التقليدي ليس انشقاقا عن التقليد السردى فقط ولكن موت الوظيفة السردية نفسها؟

لن تعامل مسألة الزمن في هذا المبحث الابتدائي إلا على نحو هامشي، وذلك من خلال تدخل مفاهيم مثل «الجدة»، «الاستقرار»، و«التدهور» والتي سأحاول بوساطتها تشخيص هوية الوظيفة السردية من دون أن استسلم لأي نوع من الماهوية.

1. سأعتمد، من أجل تعميق فكرة الحبك، إلى مواجهة الفهم السردى، الذي شكّله اعتيادنا على المرويات التي تتناقلها ثقافتنا، مع العقلانية التي يستخدمها علم السرد اليوم، وخصوصا السيميائية السردية للمدخل النبوي⁽⁴⁾. وتقدم الخصومة بصدد الأسبقية التي تخلق الانقسام بين الفهم السردى والعقلانية السيميائية - وهو خلاف سيتوجب علينا الفصل فيه - ما يوازي المناقشة التي أثيرت في القسم الثاني المتعلق بأبستمولوجيا كتابة التاريخ المعاصرة وفلسفة التاريخ. يمكننا، في الواقع، أن نضع في مستوى واحد من العقلانية كلا من التفسير المعيارى، الذي ادعى بعض منظري التاريخ إحلالة محل فن السرد الساذج، وإدراك البنى العميقة لسرد ما في السيمياء السردية،

والذي يعتبر قواعد الحبك مجرد بنى سطحية. هنا يثار السؤال: هل بوسعنا إعطاء الإجابة نفسها عن هذا الصراع حول الأسبقية التي أعطيناها في الجدل المماثل المتعلق بالتاريخ، تحديداً أن تفسر أكثر يعني أن تفهم أفضل.

بذلك تعاود مسألة الزمن الظهور من جديد، ولكن بهامشية أقل من ذي قبل. بقدر ما تنجح السيميائية السردية في إضفاء مكانة لازمنية على البنى العميقة لسرد ما، يثار السؤال إن كان التغيير الذي تجريه على المستوى الاستراتيجي يسمح لها أن تنصف الملامح الأكثر أصالة في الزمنية السردية، تلك التي شخصتها في القسم الثاني بوصفها التوافق المتنافر، من خلال جمع تحليلات أوغسطين للزمن بتحليل أرسطو للحبكة. سوف يساعدنا مصير التعااقية في علم السرد على الكشف عن الصعوبات الناتجة عن هذه الحلقة الثانية من الأسئلة.

2. يعد إغناء فكرة الحبك، إلى جانب فكرة الزمن المتصلة بها، استكشافاً لإمكانات التصور السردية الذي يبدو مختصاً بالسرد القصصي. ولن يظهر السبب الذي يدعونا إلى منح هذا الامتياز للسرد القصصي إلا فيما بعد، عندما نصل موقعا يسمح لنا باستكمال التقابل بين زمن التاريخ وزمن القصص على أساس ظاهراتية وعي بالزمن أوسع من تلك التي توفرت لأوغسطين.

3. استشرافاً لهذا الجدل ثلاثي المسارب بين التجربة المعيشة، والزمن التاريخي، والزمن القصصي، سأعتمد في ملاحظاتي على خاصية عالية القيمة لـ «التلفيط» utterance السردية هي قدرته على أن يقدم، داخل الخطاب نفسه، علامات خاصة تميزه عن «تقرير» الأشياء المروية. ويترتب على ذلك بالنسبة للزمن قابلية متوازية على الانقسام إلى زمن فعل السرد وزمن الأشياء المروية. والتنافرات بين هذين الجهتين modalities لا تنبع من خيارى المنطق اللازمى أو التطور الزمنى التعااقى chronological، وهما الفرعان اللذان كانت مناقشتنا المبكرة تواجه خطر أن تقيد نفسها بهما. تقدم هذه التنافرات في

الواقع جوانب يتعذر قياسها nonchronometric تدعونا إلى أن نستغفر فيها بعداً أصلياً - وحتى تأملياً - لانتشار الزمن الأوغسطيني، وهو بعد يناسب الكشف عن تفاصيله في السرد القصصي على أفضل وجه التقسيم إلى تليفيظ وتقرير.

4. يعني فتح فكرة الحبك - وفكرة الزمن التي تتفق معها - على الخارج متابعة حركة التعالي التي يقوم كل عمل قصصي بوساطتها، سواء كان لفظياً أو تشكيلياً، سردياً أو غنائياً، بإسقاط عالم خارج نفسه، وهو ما يمكن تسميته بـ «عالم العمل». بهذه الطريقة تقوم الملاحم والمسرحيات والروايات، داخل نمط القصص الخيالي، بإسقاط طرق في سكنى العالم تبقى بانتظار أن تتولاها القراءة، والتي تستطيع بدورها أن توفر فضاء تتم فيه المواجهة بين عالم النص وعالم القارئ. لا تبدأ مشاكل إعادة التصور، التي تنتمي إلى مستوى المحاكاة³، إلا داخل هذه المواجهة وعبرها. هذا هو السبب في أن فكرة عالم النص تبدو بالنسبة لي جزءاً من مشكلة التصور السردى، رغم إنها تمهد الطريق للانتقال من المحاكاة² إلى المحاكاة³.

تتفق مع فكرة عالم النص هذه علاقة جديدة بين الزمن والقصص الخيالي. وهي كما أرى الأكثر حسماً. ولن أتردد هنا في الكلام، بالرغم من المفارقة الواضحة في التعبير، عن «التجربة القصصية للزمن» من أجل التعبير عن تلك الجوانب الزمنية حصراً في عالم النص، وعن طرق سكنى العالم التي يسقطها النص خارج نفسه⁽⁵⁾. إلا أن مكانة تعبير «التجربة القصصية» تبقى مهتزة. من جهة، تبقى طرقنا في سكنى العالم فعلياً خيالية، ما دامت لا توجد إلا في النص ومن خلاله. من جهة أخرى، نجدها تكون نوعاً من التعالي داخل المحايثة، وهو على وجه الدقة ما يسمح بالمواجهة مع عالم القارئ⁽⁶⁾.

الفصل الأول

تحوّلات الحبكة

أسبقية فهمنا السرد في النظام الأbstمولوجي، كما سيتم الدفاع عنها في الفصل القادم في ضوء طموحات علم السرد الساعي إلى العقلنة، لا يمكن الإقرار بصحتها والإبقاء عليها إلا إذا أعطينا هذا الفهم السردى ابتداءً مجالا يبيح أخذه مأخذ الأصل الذي يحاول علم السرد تقليده. وهو ما يعني أن مهمتي ليست سهلة. لقد تشكلت النظرية الأرسطية في الحبكة خلال عصر لم يُعترف فيه إلا بالمأساة والملهاة والملحمة على أنها «أجناس» تستحق التأمل الفلسفي. لكن أنواعا جديدة ظهرت داخل المأساوي والملهائي والملحمي، وهي أنواع تدفعنا إلى الشك في فاعلية نظرية في الحبكة تناسب الممارسة الشعرية للكتاب القدماء في التصدي لأعمال جديدة مثل «دون كيخوت» أو «هاملت». فضلا عن ذلك فإن أجناسا جديدة ظهرت، خصوصاً الرواية، حوّلت الأدب إلى مختبر هائل لتجارب كان يُطرح فيها جانباً، إن عاجلاً أم آجلاً، كل تقليد جاهز. لذلك لنا أن نسأل إن كانت «الحبكة» لم تصبح مقولة ضيقة وإن صيغتها قد عفا عليه الزمن، كما هو شأن الرواية التي تهيمن عليها الحبكة. وأكثر من ذلك، فإن تطور الأدب لم يقتصر على إنتاج

أنواع جديدة ضمن أجناس قديمة، أو حتى أجناس جديدة داخل كوكبة الأشكال الأدبية. إذ يبدو أن مغامرته قد دفعت به إلى طمس الحدود بين الأجناس وإعلان ارتيابه من مبدأ النظام نفسه، والذي هو جذر فكرة الحكبة. إن محط التساؤل اليوم هو فكرة العلاقة نفسها بين عمل مفرد وكل نموذج تبادلي^(*) مكرس⁽¹⁾. هل صحيح أن الحكبة آخذة في الاختفاء من أفق الأدب في ضوء ما نشهد من هدم للتمييز الأكثر أساسية بين أنماط التأليف نفسها، أي التمييز المتعلق بالتأليف المحاكاتي؟

إن ما سبق يجعل اختبار قدرة الحكبة على التحول فيما وراء محيط تطبيقها الابتدائي في «فن الشعر» لأرسطو أمراً ملحاً. وتعريف العتبة التي يفقد هذا المفهوم بعدها كل قيمته التمييزية.

يجد استقصاء الحدود التي يبقى مفهوم الحكبة داخلها شرعياً ما يسترشد به في تحليل المحاكاة² الذي اقترحته في القسم الأول من هذا العمل⁽²⁾. يحتوي ذلك التحليل على قواعد تسعى إلى تعميم مفهوم الحكبة لا بد الآن من طرحها بوضوح⁽³⁾.

ما وراء الحكبة المأساوية

عُرِّفَت الحكبة في البداية، على أكثر المستويات شكلية، أنها دينامية دمجية تشكل قصة موحدة وتامة من أحداث متنوعة، بكلمات أخرى، أنها تحوّل هذا التنوع إلى قصة موحدة وتامة. يبقى هذا التعريف الشكلي قادراً على فتح حقل لتحولات تضبطها قواعد وتستحق أن تسمى حركات ما دما قادرين على تبين كليات زمنية تُحدث تركيبة من المتنوع من الظروف، والأهداف، والوسائل، والتفاعلات، والنتائج المقصودة وغير المقصودة.

* اخترت أن أترجم Paradigm بـ «نموذج تبادلي» لتمييزه عن المفهوم كما يظهر في السيميائية والبنوية، وسبب ذلك يشرحه ريكور في الهامش الأول الذي لا بد من قراءته لفهم حدود هذا المصطلح المحوري في الكتاب - المترجم.

ذلك هو السبب في قدرة مؤرخ مثل بول فين على أن ينسب إلى فهم بالغ الاتساع للحبكة وظيفة دمج مكونات تغير اجتماعي تساوي في تجريديتها مثيلاتها التي أخرجها إلى النور التاريخ الذي لا يركز على الحدث، وحتى التاريخ المتسلسل. ولا بد أن الأدب قادر على تقديم توسيعات لها الحجم نفسه. أما فضاء هذا التفاعل فتفتحه تراتبية النماذج التبادلية المشار إليها آنفا: أنواع، أجناس، أشكال. ويمكن صياغة فرضية تقول: إن قوام هذه التحولات للحبكة عينات جديدة من المبدأ الشكلي المتصل بالتصور الزمني فيما لم يعرف بعد من الأجناس، والأنواع، والأعمال المفردة.

يبدو أن صلاحية مفهوم الحبك قد صارت موضع رية شديدة في عالم الرواية الحديثة. والواقع أن الرواية الحديثة قدمت نفسها منذ خلقها على أنها الجنس المتقلب دون منازع. فهي إذ استُدعيت لكي تستجيب لحالة اجتماعية جديدة ومتغيرة على نحو متسارع، سرعان ما أفلتت من قيود سيطرة النقاد والرقباء الثقيلة⁽⁴⁾. ولقد مثلت طيلة قرون ثلاثة وحتى يومنا هذا مَشْغَلًا مذهبًا لشتى ضروب التجريب في ميادين التأليف والتعبير عن الزمن⁽⁵⁾.

العقبة الرئيسية التي كان على الرواية مواجهتها في البداية، ومن ثم تغلبت عليها تماماً، كانت مفهوماً خاطئاً على نحو مزدوج. أما خطؤه فلأنه نُقل ببساطة من اثنين من الأجناس المكرسة من قبل هما الملحمة والمسرحية، ثم لأن الفن الكلاسيكي، خصوصاً في فرنسا، قد فرض على هذين الجنسين نسخة مبتورة وجامدة من القواعد الواردة في «فن الشعر» لأرسطو. ويكفي هنا أن نستذكر، من جهة، التأويل المُقيد والحصري الذي أعطي للقاعدة الخاصة بوحدة الزمن، كما فهمت في الفصل السابع من «فن الشعر»، ومن جهة أخرى المطلب الصارم في ضرورة الابتداء من منتصف الحدث، كما فعل هوميروس في «الأوديسا»، ومن ثم التحرك إلى الوراء لإضائة جوانب الحالة الراهنة، وذلك لوضع حد فاصل بين السرد الأدبي والسرد التاريخي الذي اعتُقد أنه يتتبع مسار الزمن صعوداً ملاحقاً شخصياته

دون انقطاع من الولادة إلى الموت، حريصا على أن يملأ كل فواصل حقيقته الزمنية بالسرد.

لم يكن أمام الحبكة منظورا إليها عبر هذه القواعد، التي تجمّدت في نزعة تعليمية متعجرفة، إلا أن تُفهم على أنها شكل تسهل قراءته، مغلق على نفسه، مرتب على نحو تناظري بصيغ نهاية ما، ومستند على علاقة سببية سهلة التعريف بين التعقيد الابتدائي وحل عقده؛ باختصار، على أنها شكل يجمع التصور فيه، بشكل واضح، حلقات الأحداث معاً.

لقد ساهم أحد التوابع المهمة لهذا التصور العام شديد الضيق للحبكة مساهمة خاصة في إساءة فهم المبدأ الشكلي للحبك. بينما جعل أرسطو الشخصيات تابعة للحبكة، حيث أُعتبرت الحبكة المفهوم المحيط في علاقته مع الأحداث والشخصيات والأفكار، نجد أن فكرة الشخصية قد لحقت بفكرة الحبكة في الرواية الحديثة، ثم أصبحت منافسة لها، بل تركتها خلفها تماما.

لهذه الثورة في تاريخ الأجناس أسباب وجيهة. والواقع أن بوسعنا أن نرصد ضمن مسمى الشخصية ثلاثة توسعات مهمة داخل جنس الرواية.

أولا، إن الرواية قد وسعت، مستغلة الاختراق الذي أحدثته الحكاية التشردية، المحيط الاجتماعي الذي يتفتح فيه فعلها توسيعا كبيرا. لم تعد الفاعل العظيمة أو الآثام التي تقتربها شخصيات أسطورية أو معروفة هي ما يتعين سرده، بل مغامرات أناس عاديين من رجال ونساء.

تشهد رواية القرن التاسع عشر الإنجليزية على هذا الغزو الذي قام به الأناس العاديون للأدب. فضلا عن ذلك، يبدو أن القصة اتجهت نحو الشكل الحديث^(*) بفعل تأكيدها على التفاعل الناشئ عن نسيج اجتماعي أكثر تنوعا

* أخترت أن أترجم كلمة episode بـ «حدث» وأشتق منها الصفة «حديثي» والمصطلح بشير في النقد القصصي إلى حدث أو حالة تقع بوصفها جزءا من سلسلة طويلة من الأحداث. وهو يعني كصفة تطلق على عمل سردي، أن ذلك العمل يحتوي على سلسلة من الأحداث المستقلة عن بعضها البعض. وهذا الاستخدام للمصطلح أوسع مما ورد في «فن =

بكثير، وعلى الأخص بفعل التداخلات العديدة لموضوعها المهيمنة، وهي الحب، مع المال والسمعة والشفرات الاجتماعية والأخلاقية؛ باختصار، مع ممارسة متشعبة لا حدود لها⁽⁶⁾.

التوسع الثاني للشخصية على حساب الحكبة، أو هكذا يبدو، تُبينه رواية التعلم أو التطور الداخلي Bildungsroman، التي بلغت ذروتها مع شيلر وغوته واستمرت حتى الثلث الأول من القرن العشرين⁽⁷⁾. وكأن كل شيء يتوقف على البقطة في ذات الشخصية المركزية. أولا، يوفر فوزه بالنضج إطار السرد؛ ثم إن شكوكه واضطرابه وصعوبة اكتشافه لنفسه ولمكانه في العالم هي التي تحكم التطور في هذا النوع من القصة. ومع ذلك، فإن المطلوب من القصة المروية على امتداد تطورها هو من حيث الجوهر أن تتمكن من الخروج بنسيج موحد للتعقيد الاجتماعي والنفسي. ينطلق هذا التوسيع الجديد مباشرة من سابقه. ولقد استشرفت التقنية الروائية في العصر الذهبي للرواية في خلال القرن التاسع عشر، من بلزاك إلى تولستوي، هذا من خلال انتهاها موارد صيغة سردية قديمة قوامها أن تعميق الشخصية يكون بإعطاء المزيد من السرد والخروج بتعقيد حدثي أعظم من ثراء الشخصية. بهذا المعنى تؤثر الشخصية والحكمة في بعضهما البعض الآخر تأثيرا متبادلا⁽⁸⁾.

هنالك مصدر آخر للتعقيد ظهر في القرن العشرين، خصوصا مع رواية تيار الوعي، التي يقدمها أحد أعمال فرجينيا وولف تقديما رائعا، وهو رائعة أدبية في مضممار الإدراك الحسي للزمن، وسوف أنظر فيها بتفصيل أكبر لاحقا⁽⁹⁾. ما يستحوذ على الانتباه الآن هو عدم اكتمال الشخصية، تنوع

= الشعر لأرسطو حيث وردت episode في القسم الثاني عشر من «فن الشعر» الذي يتناول أجزاء الدراما بمعنى «الدخيلة» [كما اختار أن يترجمها د. عبد الرحمن بدوي] أي «ذلك القسم التام من المأساة الذي يقع بين نشيدين تامين من أناشيد الجوقة»، وقد أشتقت ترجمته من دخول الممثل ليعلن شيئا للجوقة (راجع ترجمة د. عبد الرحمن بدوي لفن الشعر لأرسطو، ص. 33 طبعة دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ).

مستويات الوعي وما تحت الوعي واللاوعي، نشاط الرغبات غير المتشكلة، وطبيعة المشاعر الناقصة الزائلة. تبدو فكرة الحبكة في هذا السياق في ورطة. أما زال بإمكاننا الكلام عن الحبكة بينما يبدو استكشاف مهاوي الوعي وكأنه يكشف عجز حتى اللغة عن أن تستجمع نفسها وتتخذ شكلا؟

ولكن لا شيء في هذه التوسيعات المتتالية للشخصية على حساب الحبكة يقلت من المبدأ الشكلي الخاص بالتصور، وبالتالي من مفهوم الحبكة. وأجرؤ على القول أن لا شيء فيها يأخذنا إلى ما وراء التعريف الأرسطي للحبكة بوصفها محاكاة لفعل ما. بينما تزداد الحبكة سعة، يزداد الفعل سعة هو الآخر. ولا بد أن نفهم من «الفعل» ما يزيد على سلوك الأبطال الذين ينتجون تغييرات ظاهرة في أحوالهم وفرصهم، أو ما يمكن أن يسمى مظهرهم الخارجي. يتضمن الفعل أو الحركة، بهذا المعنى الموسع، إلى جانب ذلك التحول الأخلاقي للشخصيات، نموهم وتربيتهم، ودخولهم في تعقيد الوجود الأخلاقي والعاطفي. كما يتضمن أيضا، بمعنى دقيق هو الآخر، تغييرات داخلية بحتة تؤثر في المسار المزاجي للأحاسيس والعواطف، متجهة في نهاية المطاف إلى ذلك المستوى الأقل تنظيما والأقل وعيا الذي يمكن استبطان المرء لذاته الوصول إليه.

يترتب على ما سبق أن بالامكان توسيع مفهوم محاكاة فعل ما ليتجاوز حدود «رواية الفعل الحركة»، بالمعنى الضيق للمصطلح، فيشمل روايات تنصب على شخصية أو فكرة، باسم الطبيعة الشمولية للحبكة بالمقارنة مع المقولات المقرفة على نحو أضيق المتعلقة بالحدث، أو الشخصية، أو الفكر. إن المجال الذي يؤشر حدوده مفهوم «محاكاة الفعل» *mimesis praxcos* يصل حيث تصل القدرة على السرد في «التعبير» عن موضوعها بوساطة استراتيجيات تؤدي إلى ظهور كليات فريدة قادرة على إنتاج «متعنها الخاصة» عبر تفاعل الاستدلالات، والتوقعات، والاستجابات العاطفية من جانب القاري. بهذا المعنى، تعلّمت الرواية الحديثة أن توسع فكرة فعل يُحاكى أو

يُمثل إلى النقطة التي نستطيع معها أن نقول إن مبدأ شكليا للتأليف يحكم سلسلة التغيرات التي تؤثر في كائنات شبيهة بنا؛ سواء كانت فردية أم جماعية، تحمل اسم علم كما في رواية القرن التاسع عشر أو يُشار إليها بالحرف الأول (ك) فقط كما هو الحال مع كافكا، أو حتى في الحالات المتطرفة غير قابلة للتسمية كما في بيكيت.

لذلك كله لا يدعونا تاريخ جنس «الرواية» إلى أن نهجر مصطلح «حكمة» بوصفها تعين ما يلزم الفهم السردى. ولكن يجب ألا نكتفي بهذه الاعتبارات التاريخية المتعلقة بتوسيع هذا الجنس إذا ما أردنا فهم الهزيمة الجليلة للحكمة. هنالك سبب أقل وضوحا يكمن وراء هذا الاختزال لمفهوم الحكبة إلى مجرد مسار القصة؛ أو مخطط أو خلاصة للأحداث. إذا أمكن للحكمة، وقد اختزلت إلى هذا الهيكل التخطيطي، أن تبدو قيذا خارجيا، بل وحتى قيذا مصطنعا وعشوائيا في نهاية المطاف، فذلك إنما لأن ما احتل الصدارة منذ ولادة الرواية خلال نهاية عصرها الذهبي في القرن التاسع عشر، كانت مشكلة أكثر إلحاحا من تلك المتعلقة بفن التأليف: تلك هي مشكلة احتمالية الصدق *verisimilitude*. ولقد سهلت استبدال مشكلة بأخرى حقيقة أن انتصار احتمالية الصدق وقع تحت راية الكفاح ضد «الأعراف السائدة»، وخصوصا ضد ما كان يفترض أنه الحكبة على أساس الملحمة، والمأساة، والملهات في أشكالها القديمة والأليزابيثية، و«الكلاسيكية» (بالمعنى الفرنسى لهذا المصطلح). لقد مثل الكفاح ضد هذه الأعراف والسعي إلى بلوغ احتمالية الصدق معركة واحدة. وكان إسهام هذا الاهتمام ببلوغ الصدق - بمعنى الإخلاص - تجاه الواقع، أو مساواة الفن بالحياة، إسهاما بارزا يتجاوز ما عداه في التغطية على مشاكل التأليف السردى.

مع ذلك ظلت هذه المشاكل ماثلة. بُدلت فقط. ولفهم ذلك يكفي تأمل الإجراءات الروائية المتنوعة التي استخدمت لإشباع هذه الحاجة إلى نقل الحياة في حقيقتها اليومية خلال بواكير الرواية الإنجليزية. لجأ ديفو،

مؤلف «روبنسون كروزو»، مثلاً إلى شكل أقرب إلى السيرة الذاتية، فقلّد اليوميّات والمذكرات والسير الذاتية الحقيقية العديدة التي نشرها خلال تلك الحقبة أناس شكّلتهم المنظومة الكالفينية الداعية إلى فحص الذات يومياً. وقد حذا ريتشاردسون حذوه في «بامبلا» و«كلاريسا» معتقداً أنه قادر على نقل التجربة الخاصة - من مثل الصراعات بين الحب الرومانسي ومؤسسة الزواج - بقدر أعظم من الصدق باستخدام وسيلة مصطنعة هي تبادل الرسائل، على الرغم من مساوئها الواضحة: ضالة القابلية على الاختيار، والتطفل في توافه الأمور أو الثثرة، والكثير من المراوحة والتكرار⁽¹⁰⁾. لكن كفة المزايا غلبت بالنسبة لريتشاردسون دون أي حاجة للنقاش. إذ استطاع، بأن جعل بطلته تكتب الأشياء مباشرة، أن ينقل الانطباع بوجود صلة وثيقة بين الكتابة والشعور. فضلاً عن ذلك، فإن استخدام الزمن النحوي الحاضر ساهم في خلق انطباع المباشرة هذا بفضل التنفيذ التلقائي تقريباً لما كان يعتري الشعور وظروفه المحيطة. في الوقت ذاته استؤصلت الصعوبات المزمّنة لشبه السيرة الذاتية، التي اعتمدت بحكم طبيعتها على قدرات ذاكرة تفوق العقل. وأخيراً فإن هذا المنهج سمح للقارئ بالمساهمة في الحالة النفسية التي يفترضها مسبقاً استخدام وسيلة الرسائل المتبادلة نفسها؛ ذلك الخليط الدقيق من التراجعات والتدفقات التي تشغل عقل أي شخص يقرر أن يأتمن الكتابة مشاعره/ مشاعرها الحميمة. في جانب القارئ، نجد استجابة لهذا خليطاً لا يقل دقة ناشئاً عن حماقة التلصص عبر ثقب الباب، إن صح القول، والحصانة التي ترافق القراءة المتوحدة.

لاشك في أن ما منع هؤلاء الروائيين من تأمل الصناعة المصطنعة الداخلة في خلق هذه الأعراف، والتي كانت الثمن المطلوب لإنجاز سعيهم إلى المحتمل، هو القناعة التي شاركوا بها فلاسفة اللغة التجريبيين من لوك إلى ريد بإمكان تطهير اللغة من كل عنصر مجازي أو زخرفي وإعادتها إلى وظيفتها الأصلية التي هي، حسب لوك، وظيفة «نقل المعرفة بالأشياء». إن

هذه الثقة في المرجعية التلقائية للغة، وقد رُذِّت إلى استخدامها الحرفي، لا تقل أهمية عن الرغبة في إعادة الفكر المفهومي إلى أصله المفترض في تجربة الخاص والجزئي. والحقيقة، إن هذه الرغبة لم يكن لها أن توجد لولا هذه الثقة. كيف تعبر اللغة عن تجربة الخاص إذا ما تعذر إعادتها إلى المرجعية الصافية المشدودة إلى حرفيتها المفترضة؟

نحن إنما نؤشر حقيقة عندما نقول إن هذه العودة إلى التجربة وإلى اللغة البسيطة والمباشرة قد أدت ما أن نُقلت إلى عالم الأدب إلى خلق جنس جديد يدل عليه سعيه إلى تأسيس أكبر قدر ممكن من التوافق بين العمل الأدبي والواقع الذي يحاكيه⁽¹¹⁾. وينطوي هذا المشروع ضمناً على اختزال المحاكاة إلى تقليد، بمعنى صنع نسخة مطابقة، وهو معنى بعيد كل البعد عن «فن الشعر» لأرسطو. لذلك ليس من المستغرب أن شبه السيرة الذاتية والصيغة الرسائية كليهما لم يشكلا في الواقع أية مشكلة لمستخدميهما. لم يساورهم شك في احتمال أن تكون الذاكرة مضللة، سواء جاءت رواية البطل لما حدث بعد وقوعه أو مباشرة من مشهد الحدث. كانت الذاكرة بالنسبة للوك وهيوم أنفسهما هي الدعامة السببية والهوية الشخصية. ومن هنا اعتُبر التعبير عن نسج الحياة اليومية على أوثق نحو أمر ممكن وليس بالمهمة الإشكالية في نهاية المطاف.

ليس من المفارقات اليسيرة أن يفقد تأمل الطبيعة التواضعية الغالبة في مثل هذا الخطاب الروائي أخيراً إلى تأمل الشروط الشكلية لوهم الاقتراب هذا نفسه، وبالتالي، أن يفقد إلى إدراك المكانة القصصية من حيث الأساس للرواية نفسها. فبرغم كل ما سبق لا يقل التسجيل الفوري والتلقائي والصریح للتجربة في الرواية الرسائية اعتماداً على المواضيع من استعادة الماضي بوساطة ذاكرة يفترض أنها معصومة من الخطأ في رواية سيرة ذاتية كاذبة. يفترض الجنس الرسائي مسبقاً أن بالإمكان، دون خسارة للقوة الإقناعية، أن ينقل عبر الكتابة زخم التمثيل الذي يلزم الصوت الحي والفعل المسرحي.

وقد أضيف إلى الاعتقاد الذي عبر عنه لوك بأنه القيمة المرجعية المباشرة للغة وقد جُردت من زينتها ومجازاتها، اعتقاد بسلطة الكلمة المطبوعة التي تعوض عن غياب الصوت الحي⁽¹²⁾. ربما كان أمراً لا مناص منه أن يحدث خلط في البداية بين الهدف المعلن في بلوغ الاحتمالية وهدف «تمثيل» واقع الحياة على نحو يجعل بالإمكان التخلص من مفهوم بالغ الضيق والتكلف للحبك، وبالتالي تتضح مشاكل التأليف عبر التأمل في الشروط الشكلية لتمثيل صادق. بكلمات أخرى، ربما كان ضروريا قلب الأعراف والاصطلاحات باسم المحتمل ليكتشف أن الثمن المدفوع مقابل ذلك هو زيادة صقل التأليف، وهو ما يعني ابتكار حيكات أكثر تعقيدا، وبذلك حيكات أبعد وأبعد عن الواقع والحياة⁽¹³⁾. ومهما ميل عن حيل العقل المزعومة في تاريخ جنس الرواية، تبقى المفارقة قائمة في أن صقل التقنية السردية، الذي استدعاه الحرص على الوفاء للواقع اليومي، هو الذي أثار الاهتمام بما أسماه أرسطو، بتوسع، «محاكاة فعل ما» بصيغ «تنظيم الأحداث» في حبكة. أي أعراف أو أي ضروب الصناعة لا تكون مطلوبة لكتابة الحياة، أي لتأليف شبيه بها مقنع؟

تلك مفارقة كبيرة لن تتكشف أبعادها تماما حتى ننظر في الرابطة بين التصور وإعادة التصور، وهي تتمثل في أن إمبراطورية الأعراف تنمو بمقدار نمو الطموح التمثيلي للرواية خلال أطول فتراتهما، أي فترة الشكل الواقعي. بهذا المعنى فإن الخطوات الثلاث المعرفة في خطوطها العريضة آنفا - رواية الفعل والحركة، الشخصية، الفكر - تؤشر تاريخا ثانيا: التاريخ المتعلق بفتح المبدأ الشكلي للتصور لمناطق جديدة، ولكن معه ذلك التاريخ المتعلق باكتشاف الطبيعة التواضعية على نحو متزايد لهذا المسعى. هذا التاريخ الثاني، الشبيه بنغم يصاحب آخر، هو تاريخ صحوة prise de conscience للرواية بوصفها فن القصص، إن استخدمنا عنوان هنري جيمس الشهير.

خلال الطور الأول ظل الاحتراس الشكلي تابعا للحافظ الواقعي الذي

ولده. بل كان القصد التمثيلي يغطي عليه. وظلت مطابقة الواقع ميدان الحقيقة؛ صورتها أو شبهها. أفضل مشابهة لها هي تلك التي تتفوق على غيرها في الاقتراب من المعتاد، والعادي، واليومي في تضاد مع الفعل المذهلة التي ترد في الملحمة أو الفعل السامية التي ترد في المسرحية الكلاسيكية. لذلك اعتمد مصير الحكبة على هذه المحاولة التي تكاد تكون يائسة لتقريب صيغة التأليف الروائي ما أمكن من واقع ينزلق مبتعدا في تناسب مع المطالب الشكلية للتأليف التي يقوم هو بمضاعفتها. لقد حدث كل شيء وكأن الاقتراب من الطبيعي والحقيقي لم يكن متاحا إلا بوساطة أعراف تزداد تعقيدا، وكأن التعقيد المتنامي لهذه الأعراف جعل هذا الواقع نفسه يتراجع إلى أفق لا سبيل إلى بلوغه أراد الفن أن يتساوى معه أو «يعبر» عنه. ذلك هو السبب في أن الدعوة إلى مطابقة الواقع لم تستطع أن تخفي طويلا حقيقة أن مطابقة الواقع ليست مجرد مشابهة مع الحقيقة بل هي مظهر خارجي يغطي عليها أيضا. هذا التمايز الدقيق تعمق ليصبح هاوية. الواقع، بمقدار ما حضيت الرواية بالاعتراف بوصفها فن القصة، دخل التأمل في الشروط الشكلية لإنتاج هذه القصة في تنافس مفتوح مع الدافع «الواقعي» الذي مكثت خلفه هذه الشروط خفية في البداية. يمكن تمييز العصر الذهبي للرواية في القرن التاسع عشر بوجود توازن حرج بين غاية الوفاء للواقع التي لم يكف أحد عن تأكيدها بقوة متزايدة والوعي الذي يزداد حدة على الدوام بالصناعة التي تقف وراء تأليف ناجح.

كان لا بد لهذا التوازن أن يتبدد ذات يوم. إذا لم تعد المشابهة مظهرا خارجيا يغطي الحقيقة، فما هي القصة إذاً على وفق قاعدة هذا المظهر إلا القدرة على خلق الاعتقاد أن هذه الصناعة تمثل شهادة أصيلة حول الواقع والحياة؟ وبالتالي يتضح أن فن القصة لا يعدو كونه فنا للوهم. انطلاقا من هذا ظل الوعي بالصناعة الداخلة في التأليف ينخر الدافع الواقعي من الداخل، حتى تكشفت ضديته ودمره.

يقال اليوم إن رواية دون حبكة أو شخصيات أو أي تنظيم زمني هي وحدها الأكثر قدرة على الوفاء للتجربة، وهي تجربة بحد ذاتها متشظية وغير متسقة، مما كانت تفعل رواية القرن التاسع عشر التقليدية. لكن هذه الذريعة لكتابة قصص متشظ وغير متسق تفتقر إلى المبرر، شأنها في ذلك شأن الذريعة الداعمة لأدب طبيعي. لم يحدث إلا استبدال الجدال المنافع عن مطابقة الواقع. كان التعقيد الاجتماعي في السابق يستدعي الابتعاد عن النموذج الكلاسيكي؛ واليوم صار عدم الاتساق المفترض للواقع هو الذي يستدعي الابتعاد عن كل نموذج. لكن الأدب عندها يختزل المحاكاة من خلال تكراره لفوضى الواقع عبر فوضى القصص إلى أضعف وظائفها؛ تلك المتمثلة في نقل ماهو واقعي عن طريق نسخه. لحسن الحظ تبقى المفارقة قائمة في أن القصص وهو يضاعف فنون صناعته يختم على وثيقة استسلامه.

ألا يحق لنا إذن السؤال إن لم تكن المفارقة الابتدائية قد قُلبت رأساً على عقب؟ في البدء، كان القصد التمثيلي يمثل الدافع إلى المواضعة. وانتهى الأمر بأن صار الوعي بالوهم يدمر المواضعة ويحث على محاولة للخروج من كل نموذج. تتبع الأسئلة المتعلقة بحدود الحبكة وربما استنزافها من هذا القلب.

الديمومة: أهي نظام نماذج تبادلية؟

انصبت المناقشة السابقة على قابلية مبدأ التصوير الشكلي على التوسع، بينما هو يؤدي وظيفته في الحبكة، إلى ما وراء الأمثلة التي ساقها أرسطو في «فن الشعر». وقد استلزمت هذه المناقشة استعانة بالتاريخ الأدبي مطبقاً على بدايات الرواية. هل يعني هذا أن بإمكان التاريخ الأدبي أن يحل محل النقد؟ لا أرى أن بوسع النقد أن يتماهى مع مثل هذا التاريخ ولا أن يهمله. وما يجعل النقد عاجزاً عن استئصال هذا التاريخ أن اعتياد الأعمال الأدبية، كما ظهرت في تتابع الثقافات التي نحن وارثوها، هو الذي يرشد الفهم السردى

قبل أن يبني علم السرد صورة لا زمنية تشبه به. بهذا المعنى يحتفظ الفهم السردى بتاريخه الخاص ويدمجه في ذاته ويبلور خلاصته. لكن النقد قد لا يحصر نفسه بإعداد قائمة تلاحق مظهر الأعمال الفردية في تصاديفتها المحض. إن وظيفته الدالة عليه هي أن يتبين نمطَ تطورٍ ما، نظاما متحركا يجعل تتابع التطورات هذا ميراثا دالا. يستحق هذا المسعى بذل المحاولة، على الأقل إذا صح أن الوظيفة السردية تحتوي بالفعل على معقوليتها الخاصة قبل أن تتولى السيميائية العقلانية مهمة إعادة كتابة قوانينها. لقد اقترحت في فصل الخطة الثالث من الجزء الأول مقارنة هذه المعقولة ما قبل العقلية مع معقولة التخطيطية التي تنطلق منها، حسب كانط، قواعد الفهم المقولاتي. لكن هذه التخطيطية بعيدة عن اللازمنية. إنها تنطلق نفسها من ترسيب ممارسة لها تاريخها الخاص. وهذا الترسيب هو الذي يمنح هذه التخطيطية الأسلوب التاريخي الفريد الذي أسميته «التقليدية».

ليست التقليدية تلك الظاهرة العصبية على الاختزال التي تسمح للنقد أن يقف في منتصف الطريق بين عَرَضِيَّة مجرد تاريخ للأجناس أو الأنماط أو الأعمال الفريدة الناجمة عن الوظيفة السردية، ومنطقي ختامي يفلت من التاريخ يتعلق بسرديات محتملة. ليس النظام القابل لأن يستخلص من بناء التقليد لنفسه تاريخيا ولا هو لا تاريخي، إنه بالأحرى «عبر تاريخي»، بمعنى أنه يسري عبر هذا التاريخ بطريقة تراكمية لا بالإضافة فحسب. وحتى لو تضمن هذا النظام انقطاعات أو تغيرات مفاجئة في النماذج التبادلية، فإن هذه الانقطاعات نفسها يتعذر نسيانها ببساطة. كما إنها لا تجعلنا ننسى ما سبقها وما تفصلنا عنه: إنها أيضا جزء من ظاهرة التقليد وأسلوبه التراكمي⁽¹⁴⁾. لو لم تحتو ظاهرة التقليد على هذه القوة الساعية إلى النظام لما أمكن تقييم ظواهر الانحراف التي سأناقشها في الفقرة التالية من هذا الفصل، ولما أمكن طرح سؤال موت الفن السردى عبر استنفاد ديناميته التوليدية. ظاهرتا الانحراف والموت هاتان ليستا إلا الوجه الآخر للمشكلة التي أنظر فيها

الآن، مشكلة نظام للنماذج التبادلية على مستوى تخطيطية الفهم السردى لا على مستوى العقلانية السيميائية.

لقد قادني تأمل هذه المشكلة إلى كتاب نورثرب فراي «تسريح النقد»⁽¹⁵⁾. إن نظرية الطرز التي نجدها في المقال الأول منه، بل وحتى نظرية النماذج البدئية في المقال الثالث، ذات صفة نظامية دون شك. لكن هذه الخاصية النظامية لا تعمل في ميدان واحد مشترك مع العقلانية التي تميز السيميائية السردية. إنها تتبع بدلا من ذلك من الفهم السردى في تقليديته. وهي تهدف إلى استخلاص نمذجة لهذه التخطيطية تبقى دائما قيد التشكل. وفي ذلك يكمن السبب في أنها لا تبرر نفسها بفضل اتساقها أو فضائلها الاستنباطية، ولكن بفضل قدرتها على توفير بيان، عبر عملية استقرائية مفتوحة، يتضمن أكبر عدد ممكن من الأعمال في ميراثنا الثقافي. سبق وأن حاولت في مكان آخر القيام بإعادة تشكيل لـ «تسريح النقد» يهدف إلى تبيان كيف أن نظام التصورات السردية الذي يقترحه فراي ينبع من التخطيطية عبر التاريخية للفهم السردى، لا من العقلانية اللاتاريخية للسيميائية السردية⁽¹⁶⁾. وسوف أعتمد هنا على العديد من أجزاء ذلك المقال لدعم برهاني.

لننظر أولا في نظرية الطرز، التي توافق على نحو وثيق جدا ما أسميته هنا التخطيطية السردية، وبين هذه الطرز ما يسميه فراي الطرز القصصية ليميزها عن الطرز الثيمية. تتعلق هذه الأنماط القصصية حصرا بالعلاقات البنوية العميقة للحكاية الخرافية بمعزل عن ثيمتها⁽¹⁷⁾. ويتحكم في توزيعها معيار أساسي واحد هو تحديدا قدرة البطل على الفعل، والتي كما رأينا في «فن الشعر» لأرسطو، يمكن أن تكون أعظم من قدرتنا، أو أقل منها، أو مساوية لها.

يطبق فراي هذا المعيار بصيغ جدولين للطرز، جدول يختص بالمأساوي، وآخر يختص بالمهاوي، وهي ليست في الواقع طرزا بل فئات داخل الطرز. يكون البطل في الطرز المأساوية معزولا عن المجتمع (وهي

العزلة التي تنسجم معها مسافة جمالية مماثلة على جانب المشاهد، كما يتبدى في عاطفتي «التطهير» الخوف والشفقة). في الطرز الملهامية يعود البطل للاندماج في المجتمع. وتحت هذين العنوانين المأساوي والملهامي يطبق فراي معياره الخاص بدرجات قدرة البطل على الفعل، فيميز تحت كل عنوان خمسة طرز مقسفة على خمسة أعمدة. في العمود الأول، المتعلق بالأسطورة، يكون البطل متفوقا علينا «في النوع». الأساطير إجمالاً قصص عن الآلهة. ونجد على الجانب المأساوي الأساطير الديونيسيزية، التي تحتفي بآلهة فانية؛ بينما نجد على الجانب الملهامي الأساطير الأبولونية التي يُستقبل فيها البطل المقدس في مجتمع الآلهة. في العمود الثاني، المتعلق بالرومانس، لا يكون تفوق البطل علينا في النوع ولكن في الدرجة قياساً بالبشر الآخرين وبيئتهم. وإلى هذه الفئة تنتمي الحكايات الشعبية والخرافات. نجد في الجانب المأساوي حكايات عجائبية ذات نبرة رثائية؛ موت بطل أو قديس شهيد مثلاً. ويتفق مع هذا على جانب المستمع خاصية معينة من الخوف والشفقة تناسب مثل هذه العجائبية. هنالك على الجانب الملهامي حكايات عجيبة ذات نبرة رعوية؛ من مثل الفن الريفي وأفلام الغرب الأمريكي. في العمود الثالث، المتعلق بالمحاكاة العليا، يتفوق البطل على الناس الآخرين لكن لا على بيئتهم، كما يمكن أن يلاحظ في الملحمة والمأساة. في الجانب المأساوي تحتفل القصيدة بسقوط البطل. هنا يكتسب التطهير سمته المميزة المتمثلة في الشفقة والخوف، من الخلل hamartia المأساوي. في الجانب الملهامي نجد ملاهي أرسطوفانيس القديمة، والتي نستجيب لسخريتها بمزيج من الضحك المتعاطف والقصاصي. في العمود الرابع، المتعلق بالمحاكاة الدنيا، لا يتفوق البطل على بيئته ولا على البشر من شاكلته. إنه نذ لهم. نجد هنا في الجانب المأساوي البطل المثير للشفقة، الذي ضربت عليه عزلة خارجية وداخلية، ويبدأ من المدعي الدجال أو alazon إلى «الفيلسوف» المستغرق بذاته على طريقة فاوست وهاملت. بينما

تقف على الجانب الملهاي ملهاة ميناندر الجديدة، الحبكة الشهوية التي تعتمد على اللقاءات العابرة ومشاهد التعرف؛ الملهاة المنزلية وحكاية العيارين التي تروي صعود وغد في المجتمع. لا مناص من وضع القصص الواقعي الذي وصفناه في الفقرة السابقة هنا. أخيراً، في العمود الخامس، المتعلق بالتهكم، نجد أن البطل أقل درجة منا في القوة والذكاء، ونحن ننظر من علو إليه. ينتمي إلى هذا الطراز البطل الذي يدّعي أنه أدنى مرتبة مما هو في الواقع، والذي يتعمد في أقواله الإيجاز ليزيد الدلالة. في الجانب المأساوي، لدينا مجموعة كاملة من النماذج التي تستجيب بطرق مختلفة لتقلبات الحياة بأمزجة خالية من العواطف المشبوبة، وهم يسلمون أنفسهم لدراسة العزلة المأساوية بوصفها كذلك. لدينا هنا نطاق واسع يمتد من كبش الفداء pharmakos إلى البطل الذي لا سبيل لتفادي هفوته (آدم في سفر التكوين، (ك) في رواية كافكا «القضية») إلى الضحية البرينة (المسيح في الأناجيل وعلى مقربة منه، بين تهكم المحتوم وتهكم المتنافر، هنالك بروميشيوس). لدينا في جانب الملهاة كبش الفداء المنبوذ (شايلوك، طرطوف)، ملهاة قصاصية تتفادى التحول إلى حفلة إعدام دون محاكمة بفضل عنصر اللعب، «ذلك الفاصل بين الفن والوحشية» (ص. 46)، وكل أنواع المحاكاة الهازلة في التهكم المأساوي، والتي تستغل إمكاناتها في قصص جرائم القتل الغامضة الرواية البوليسية والخيال العلمي.

هنالك أطروحتان أخريان تصححان مظهر الصرامة التصنيفية الذي يطالعنا به هذا النوع من التبويب. تذهب الأطروحة الأولى إلى أن القصص في الغرب ظل ينقل مركز ثقله دون توقف من أعلى إلى أسفل، أي من البطل الإلهي باتجاه بطل المأساة والملهاة التهكميتين، وبضمنهما المحاكاة الهازلة المأساوية. وما قانون النزول هذا بالضرورة قانون انحلال إذا ما أخذنا نظيره بالحسبان. فأولاً، بينما يتناقص الجانب المقدس في العمود الأول والجانب العجائبي في العمود الثاني نجد أن الميل إلى المحاكاة يتزايد،

بصيغة محاكاة عليا أولاً، ثم محاكاة دنيا، كما تزداد أهمية قيمتي المعقولة ومطابقة الواقع (انظر ص ص. 51 - 52). ونحن هنا بإزاء أحد الملامح المهمة التي أشرت إليها في تحليلي السابق للعلاقة بين المواضعة ومطابقة الواقع. فضلاً عن ذلك، فإن قيم التهكم تتحرر بفضل تناقص قوة البطل ويطلق لها العنان. بمعنى ما، يبدأ حضور هذا التهكم من حيث الإمكانية ما أن تظهر الحبكة بمعناها الواسع. ويعني ذلك أن كل حبكة تنطوي على «انسحاب تهكمي من الواقع» (ص. 82). وهو ما يميز الغموض البين لمصطلح «أسطورة». فهذا المصطلح يعين بمعنى الأسطورة المقدسة قصص أبطال يتفوقون علينا في كل شيء، ويغطي بالمعنى الأرسطي للحبكة كل عالم القصص. ما يشد هذين المعنيين أحدهما إلى الآخر هو التهكم. من هنا يبدو التهكم المتأصل في كل حبكة مرتبطاً بمجموعة الأنماط القصصية كلها. إن له حضوراً ضمناً في كل حبكة، لكنه لا يصبح «طرازاً مميزاً» إلا بتدهور الأسطورة المقدسة. بهذا الثمن حسب يصبح التهكم «طرازاً حدياً» على وفق قانون النزول المشار إليه آنفاً. تضيف هذه الأطروحة الملحقة الأولى وجهة معينة على التصنيف.

حسب الأطروحة الثانية، يتحرك التهكم بهذا الشكل أو ذاك إلى الخلف باتجاه الأسطورة (انظر ص ص. 42 - 43، 48 - 49). وفراي تواق إلى أن يلمح دليلاً ما، في أسفل مقياس الملهاة التهكمية، عبر تهكم نموذج كبش الفداء - سواء أكان تهكماً محتوماً أم تهكماً المتنافر - يدل على عودة نحو أسطورة تقف وراء العيّنات التي يسميها «الأسطورة التهكمية».

اتجاه التصنيف هذا، المعتمد على الأطروحة الأولى، إلى جانب دائريته، الناجمة عن الأطروحة الثانية، يعرف أسلوب التقليد الأوروبي أو الغربي بالنسبة لنورثرب فراي. والواقع، كان من المحتمل أن تبدو قاعدتا القراءة هاتان عشوائيتين تماماً لو لم تجد نظرية الطرز مفتاحها الهرمنطقي في نظرية الرموز التي تمثل قوام المقالات الثلاث الأخرى في «تشریح النقد».

الرمز الأدبي من حيث الجوهر «بنية لفظية افتراضية» (ص. 71) - بكلمات أخرى، إنه افتراض لا تقرير - وفيه التوجه «نحو الداخل» أهم من التوجه «نحو الخارج» الذي يتعلق بعلامات ذات وظيفة انبساطية وواقعية⁽¹⁸⁾.

إن فهم الرمز على هذا النحو يجعله يوفر مفتاحاً هرمنوطيقياً لتأويل خط الطرز القصصية. تجتاز الرموز حين توضع في سياقات أدبية مناسبة بالفعل سلسلة من «الأطوار»، يمكن مقارنتها بالمعاني الأربعة الواردة في التفسير الإنجيلية القروسطية، والتي أعاد صياغتها على نحو بديع هنري دي لوباك⁽¹⁹⁾.

الطور الأول، الذي تطلق عليه تسمية الحرفي، يتفق مع المعنى الأول في هذه التأويلية التوراتية. ويُعرف بتناول الطبيعة الافتراضية للبنية الشعرية تناولاً جاداً. إذ يعني فهم قصيدة حرفياً فهم كل شيء يدخل في تكوينها «كما هو الآن» (ص. 77). أي على الرغم من المفارقة الظاهرة، أن نقرأ القصيدة كقصيدة. في هذا المجال، تُعد الرواية الواقعية الشكل الذي يشبع على أفضل وجه معايير الطور الحرفي للرمز.

مع الطور الثاني، الذي يُدعى الشكلي ويستحضر المعنى الإمثولي للتأويل التوراتي، تحصل القصيدة على بنيتها من تقليدها الطبيعة من دون أن تفقد أي شيء من خاصيتها الافتراضية. يستمد الرمز من الطبيعة صوراً تقيم علاقة جانبية وغير مباشرة بين الأدب كله والطبيعة، لا يكون بفضلها قادراً على إمتاعنا فحسب ولكن على إرشادنا أيضاً⁽²⁰⁾.

الطور الثالث يتعلق بـ «الرمز بصفته نموذجاً بدئياً» (ص. 95). يجب ألا نتعجل في إدانة «الزرعة اليونانية» الكامنة في النقد النموذجي البدئي المختص بهذه المرحلة. ما يؤكد هذا المصطلح أولاً هو تواتر أشكال لفظية بعينها تنبع من الجانب القابل للتوصيل على نحو بارز في الفن الشعري، وقد شخّصها الآخرون بمصطلح «التناسق». إن هذا التواتر هو ما يسهم في توحيد تجربتنا الأدبية ولم أطرافها⁽²¹⁾. بهذا المعنى أرى في مفهوم فراي للنموذج البدئي

مكافئ لما أسميته التخطيطية الصادرة عن ترسيب التقليد. فضلا عن ذلك، يدمج النموذج البدني في هذا النظام التواضعي المستقر محاكاة الطبيعة الذي يميز المرحلة الثانية. ويجلب هذا التقليد معه تواتراته الخاصة: النهار والليل، الفصول الأربعة، الموت والحياة. إن النظر إلى نظام الطبيعة على أساس أن ثمة نظاما يوافقه من الكلمات يقوم بمحاكاته مشروع يتمتع بشرعية تامة، إذا عرفنا كيف نُقيّمه على أساس المفهوم المحاكاتي القائم هو نفسه على المفهوم الافتراضي للرمز⁽²²⁾.

الطور الأخير للرمز هو حين يكون «جوهرًا فردًا» monad. ويتفق هذا الطور مع المعنى الباطني للتأويل التوراتي. يقصد فراي بالجوهر الفرد قدرة التجربة الخيالية على بلوغ الكلية بصيغة مركز ما. ليس من شك في أن فراي يتمسك في مجمل مشروعه بأطروحة أن النظام النموذجي البدني يشير في النهاية إلى «مركز ساكن لنظام الكلمات» (ص. 117). وكل تجربتنا الأدبية تشير باتجاهه. لكننا نسيء فهم الغرض من النقد النموذجي البدني كله، وبقدر أكبر النقد ذي النزعة الباطنية، إذا ما رأينا فيه ضربا من إرادة السيادة، كما هو شأن محاولات إعادة البناء الساعية إلى العقلنة. على العكس، تشهد التخطيطية الناشئة عن هذين الطورين على نظام ليس بمقدورنا السيطرة على تركيبه الدوري. الواقع، إن مجموعة الصور التي نسعى إلى تبين نظامها السري - على سبيل المثال صور الفصول الأربعة - تخضع لهيمنة صور رؤيوية تتمحور بأشكال لا حصر لها حول فكرة التوافق في الوحدة ؛ وحدة إله واحد رغم إنه ثالوثي، وحدة الإنسانية، وحدة العالم الحيواني في رمز الحمل، والعالم النباتي في رمز شجرة الحياة، وعالم المعادن في رمز المدينة السماوية. وفضلا عن ذلك، فإن لهذه الرمزية جانبها الشيطاني المتمثل في صور الشيطان، والطاغية، والوحش، وشجرة التين العقيم، و«البحر البدائي» رمز «العماء». وأخيرا فإن هذه البنية القطبية نفسها توّجها قوة الرغبة التي تصوّر كلا من المرغوب فيه رغبة مطلقة والممقوت

مقتا مطلقا. تبدو كل الصور قاصرة، من منظور نموذجي بدئي وباطني، قياسا بصور الرؤيا المتعلقة بالتحقق، لكنها تبقى رغم ذلك في سعي دائب للعثور عليها⁽²³⁾. يمكن لرمز الرؤيا أن يستقطب ضروب المحاكاة الأدبية لدورة الفصول؛ إذ لا مناص، وقد قطعت الصلة بالنظام الطبيعي، من محاكاة هذا النظام، بحيث يصبح فيما بعد مخزنا هائلا للصور. بذلك يمكن إطلاق وصف شامل على الأدب إجمالا يشخصه على أساس أنه تقصص، هكذا حاله في الأنماط الرومانتيكية والأنماط المحاكاتية العليا والدنيا، وكذلك في النمط التهكمي الذي يمثله الهجاء⁽²⁴⁾. وترتبط تجربتنا الأدبية كلها بوصفها تقصيا بهذا «المركز الساكن للكلمات»⁽²⁵⁾.

بالنسبة لفراي، يمثل التقدم من الافتراضي باتجاه الباطني مقارنة للأدب بوصفه نسقا لن يكتب لها الاكتمال أبدا. بالمقابل تفتح هذه الغاية إمكانية نسق نموذجي بدئي يقدم تصورا للتخييلي وينظم الافتراضي ضمن نسق في نهاية المطاف. لقد كان هذا بمعنى ما حلم بليك، وعلى نحو أكبر حلم مالارمي الذي قال: «كل شيء في العالم يوجد من أجل التوصل إلى كتاب»⁽²⁶⁾. Tout au monde existe pour aboutir à un livre.

في نهاية هذا العرض لواحدة من أقوى المحاولات للخروج بخلاصة للتقليد الأدبي للغرب، لا يقع على الفيلسوف مناقشة تنفيذها، بل عليه، وهو يقبلها كأمر معقول، أن يتأمل شروط إمكانية مثل هذا العبور من التاريخ الأدبي إلى النقد وتشريح النقد.

هنالك ثلاث نقاط متصلة ببحثنا في الحبك والزمن يجدر التأكيد عليها. أولا، لأن الثقافات أنتجت حتى الآن أعمالا يمكن أن يُربط أحدها بالآخر بصيغ المتشابهات العائلية، وهي تعمل، في حالة الأنماط السردية، على مستوى الحبك نفسه، فإن البحث عن نظام معين أمر ممكن. ثم إن هذا النظام يمكن أن يُعزى إلى المخيلة المنتجة التي يمثل التخطيطية بالنسبة لها.

وأخيراً، فإنه يحتوي بصفته نظام الخيالي على بعد زمني لا يقبل الاختزال هو بعد التقليدية التراثية.

تسمح لنا كل واحدة من هذه النقاط الثلاث أن نرى أن الحيك المعادل لفهم سردي أصيل يسبق بقوة واقعيته وحقه معا كل إعادة بناء لفعل السرد بصيغ عقلانية الصف الثاني.

الأقول: اهو نهاية لفن السرد؟

بلغنا أقصى ما يمكن بفكرة أن التخطيطية المتحكممة بالفهم السردى تتكشف في تاريخ يحافظ على نمط واحد. نحتاج الآن إلى النظر في الفكرة المعاكسة: هل تسمح هذه التخطيطية بانحرافات تجعل هذا النمط اليوم مختلفاً عن ذاته إلى حد يتعذر معه التعرف على هويته. هل نحن ملزمون إذاً أن ندخل في الأسلوب التقليدي للسرد إمكانية انقراضه؟

أحد جوانب فكرة التقليدية نفسها - أي الركن الاستمولوجي لـ «صناعة تقليد ما» - أن الهوية والاختلاف يمتزجان معا على نحو لا يتيسر معه الفصل بينهما. ليست هوية النمط هوية بنية منطقية لا زمنية، بل هي تميّز تخطيطية الفهم السردى على نحو يجعله تكويناً تشكّل عبر تاريخ تراكمي مترسب. وهذا هو السبب في أن هذه الهوية عابرة للتاريخ أكثر منها لا زمنية. ويصبح ممكناً بهذا إدراك كيف أمكن للنماذج التبادلية التي أقامها تصور التقليد لذاته أن تولّد وما تزال، تنوعات تهدد هويتها الأسلوبية إلى حد إعلان موتها.

في هذا المجال، يمكن للمشاكل التي يطرحها فن وضع النهايات للأعمال السردية أن تخدم كوسيلة اختبار ممتازة. لأن النماذج التبادلية للتأليف في التقليد الغربي تمثل في الوقت ذاته نماذج تبادلية للنهايات، فإن لنا أن نستشرف أن استفاد هذه النماذج التبادلية في نهاية المطاف سيكشف نفسه في صعوبة وضع نهاية لسرد ما. ويزيد قوة مبرر ربط هاتين المشكلتين معا حقيقة أن الملمح الشكلي الفرد للفكرة الأرسطية عن الحبكة، الذي يجب المحافظة

عليه في ما هو أبعد من عينات الأجناس الأدبية المتتالية (من مثل المأساة والرواية) والأنماط (مثل المأساة الأليزابيثية أو رواية القرن التاسع عشر إلخ)، وهو معيار الوحدة والاكتمال. إن الحكبة، كما نذكر، «محاكاة فعل كامل وتام في ذاته» («فن الشعر»، 50 ب، 23 - 25)⁽²⁷⁾. ويكون الفعل كاملا وتاما إذا كانت له بداية ووسط ونهاية؛ أي إذا ما قدمت البداية الوسط، وإذا ما قاد الوسط بتقلباته ومشاهد التعرف فيه إلى النهاية، وإذا ختمت النهاية الوسط. عندها تكون الغلبة للتصور على الشكل الحدوثي، يهزم التوافق التنافر. من هنا يكون مشروعا النظر إلى العزوف عن معيار الاكتمال وبالتالي تعمّد إبقاء العمل من دون خاتمة بوصفه عَرَضاً دالا على نهاية تراث النماذج التبادلية للحبك.

من المهم ابتداءً توخي الوضوح بصدد طبيعة المشكلة وعدم الخلط بين السؤالين، فالأول ينبع من المحاكاة 2 (التصور)، والثاني من المحاكاة 3 (إعادة التصور). في هذا المجال، قد يكون العمل مغلقا في تصوّره ومفتوحا في الاختراق الذي يحدثه في عالم القارئ. والقراءة تحديدا، كما سأذهب إلى القول في القسم الرابع، هي ذلك الفعل الذي يُحدث النقلة بين أثر الانغلاق بالنسبة للمنظور الأول، وأثر الانفتاح بالنسبة للثاني. إذا كان كل عمل يفعل شيئا ما فإنما ذلك لأنه يضيف شيئا لم يكن موجودا من قبل. لكن الإسراف المحض الذي يمكن أن ننسبه إلى العمل بوصفه فعلا، أي قابليته على قطع التكرار، كما عبّر عنه رولان بارت في «مقدمة للتحليل البنيوي للسرد»، لا ينقض الحاجة إلى الإغلاق. قد تكون النهايات «الحاسمة» هي تلك التي تجمع على أفضل وجه هذين الأثرين⁽²⁸⁾. وعلى ذلك لا تناقض في القول إن قصة ذات خاتمة موفقة تفتح هوة في عالمنا، أي في إدراكنا الرمزي للعالم.

قبل أن نلتفت إلى العمل المهيب لفرانك كرمود «الإحساس بالنهاية»، من المفيد تسجيل بعض الكلمات عن الصعاب التي قد لا يكون ثمة سبيل

لتدليلها والتي لا محالة تواجه أي مسعى إلى معيار يحكم الختام الشعري.

بعض الكتاب - مثل ج. هيلس ميلر - يعتبر أن من المتعذر الحسم في مثل هذه المشكلة⁽²⁹⁾. آخرون، مثل باربرا هيرنشتين سميث، سعوا إلى تلقي العون من الحلول المقترحة لمشكلة الختام في المنطقة المجاورة للشعر الغنائي⁽³⁰⁾، لأن قواعد الاختتام هناك يسهل التعرف عليها ووصفها. وهو ما يصح بالنسبة للنهائيات في الشعر الحكمي والوعظي، وقصيدة الأبيغرام. يضاف إلى ما سبق أن تطور القصيدة الغنائية من سونيتة عصر النهضة إلى الشعر الحر والقصيدة البصرية في يومنا هذا عبر القصيدة الرومانتيكية، يتيح لنا متابعة دقيقة لمصير هذه القواعد. وأخيرا، يمكن للحلول التقنية التي يأتي بها الشعر الغنائي لمشكلة الاختتام أن تُربط بالتوقعات التي تخلقها القصيدة لدى القارئ، وهي توقعات يضيف عليها الختام «إحساسا بالحسم والاستقرار والاكتمال» («الختام الشعري» ص viii). لا يكون للنهائية هذا التأثير حين تكون تجربة التصور دينامية ومتواصلة فقط، ولكن عندما تكون قادرة أيضا على إنجاز إعادة الترتيب الاستعدادية التي تجعل الحل نفسه يبدو وكأنه الاستحسان الأخير الذي يضع الختم على شكل جيد.

ولكن مهما أضاء هذا التوازي بين الختام الشعري وقانون الشكل الجيد فإنه يقف عند حده بفعل حقيقة أن التصور يُعد في الختام الشعري عملا من أعمال اللغة، ومن حقيقة أن الإحساس بالاكتمال يمكن اكتسابه بمختلف الوسائل. من مؤديات ذلك أن الاكتمال نفسه يقبل أشكالا عديدة مختلفة، بضمنها المفاجأة؛ ويصعب تحديد متى تبرر نهاية غير متوقعة نفسها. قد تكون حتى النهاية المخيبة للآمال ملائمة لبنية العمل إذا ما قصد لها أن تترك للقارئ فضلا من التوقعات. كما أن الصعوبة نفسها تكتنف تحديد أي الحالات يكون الخداع فيها مطلوبا من قبل بنية العمل نفسها لا مجرد نهاية «ضعيفة».

يعلن النموذج الغنائي، إذ ينقل إلى المستوى السردى، عن الحاجة إلى دراسة متأنية للعلاقة بين طريقة إنهاء سرد ما ودرجة الاندماج الحاصل بين

الفعل الحداثي إلى هذا الحد أو ذاك، ووحدة الشخصيات، والبنية الجدالية، وما سادعوه لاحقا استراتيجية الإقناع التي تكوّن بلاغة القصص. كما أن للتطور الموصل إلى الختام الغنائي ما يوازيه في الختام السردى. من رواية المغامرة المحكمة الحبك إلى الرواية التي ينتظمها التشطّي، يكمل المبدأ البنيوي دورة تامة ترجع بنا بشكل ما، على نحو بالغ الدقة إلى الشكل الحداثي. ومن العسير جدا التعرف على ما تطالب به هذه التغيرات البنيوية من حلول وتصنيفه. تتبع إحدى الصعوبات من احتمال الخلط القائم دائما بين نهاية الفعل المُحاكى ونهاية القصة بوصفها كذلك. هنالك ميل في تقاليد الرواية الواقعية إلى خلط نهاية العمل بنهاية الفعل المُمثل؛ حيث تميل إلى التشبه بميل نسق التفاعلات الذي يشكل إطار القصة إلى الاستقرار. كان هذا هو نوع النهاية الذي سعى إليه معظم الروائيين في القرن التاسع عشر. لذلك يسهل نسبيا في هذه الحالات الفصل، عند مواجهة مشكلة التأليف وحلّها، فيما إذا كانت النهاية ناجحة أم لا. لكن الحال يتغير ما أن تلتفت الصناعة الأدبية، بفعل الانعكاسية التي تكلمت عنها آنفا، إلى الخلف نحو جانبها القصصى. نهاية العمل إذاً هي نهاية العملية القصصية نفسها. ويميز هذا الانقلاب في المنظور الأدب المعاصر، إذ فيه تكون الاحاطة بمعيّار الختام الجيد باللغة الصعوبة، خصوصا إذا كان عليه قبول نبرة الحيرة في العمل إجمالا.

أخيرا فإن إشباع الآمال التي تخلقها دينامية العمل يتخذ هنا أيضا أشكالا متنوعة، إن لم نقل متضادة. قد تخيّب نهاية غير متوقعة آمالنا المنمذجة على وفق أعراف أقدم عهدا، لكنها تكشف رغم ذلك عن مبدأ نظام أعمق. فإذا استجاب كل ختام للتوقعات فإنه لن يحققها بالضرورة. قد يبقى خلفه فضلة من التوقعات. والنهاية غير الحاسمة تليق بعمل يطرح عامدا مشكلة يرى المؤلف أنها عضية على الحل. لكنها برغم ذلك نهاية مقصودة ومدبّرة، وهي تظهر انعكاسيا بجلاء تفاصيل الخاصية اللامتناهية لموضوعة العمل ككل. يعلن افتقارها الحسم على نحو ما تعذر حل المشكلة

المطروحة⁽³¹⁾. لكنني أتفق برغم ذلك مع باربرا هيرنشتين سمث عندما تذهب إلى أن «الختم المضاد» يدوس عتبة نواجه بعدها خيارين: إما استبعاد العمل من عالم الفن أو أن نتخلى عن أهم الافتراضات المسبقة بصدد الشعر؛ أي أنه محاكاة للاستخدامات غير الأدبية للغة، والتي تتضمن الاستخدام العادي للسرد كوسيلة لترتيب ما يحدث في الحياة ترتيباً نظامياً⁽³²⁾. أرى أن علينا أن نجرؤ على اعتماد الخيار الأول. لا بد أن نستبقي مع كل شك يساورنا ثقة في مؤسسة اللغة الرائعة. وهو رهان يحمل مسوغه في ذاته.

هذا الخيار - إن توخينا الدقة ؛ هذا السؤال المتعلق بالثقة - هو ما يتصدى له فرانك كرمود في كتابه الممتاز «الإحساس بالنهاية»⁽³³⁾. إنه يتولى مرة أخرى، من دون أن يتعمد فعل ذلك، معالجة المشكلة من حيث تركها نورثرب فراي عندما ربط الرغبة في اكتمال الخطاب بالموضوعة الرؤيوية كما يُنظر إليها على مستوى التأويل الباطني. كما إن كرمود يتولى انطلاقاً من تجسيدات الموضوعة الرؤيوية أمر الإسهام في المناقشة المتعلقة بفن الختم، والتي وجد النقد الأدبي صعوبة بالغة في الإجماع على رأي فيها. مع ذلك فقد اختلف الإطار الآن فصار إطار نظرية القصة المختلف تماماً عن نظرية فراي في الرمز والنموذج البدني.

يقر كرمود بأن ما يحكم باعشنا على وضع نهاية محملة بالمعنى لعمل شعري ما هو توقعات القارئ الخاصة، إلا إنه يلتفت نحو أسطورة سفر الرؤيا الذي ظل له أوسع الإسهام ضمن التقاليد الغربية في هيكلة هذه التوقعات بواسطة توسيع مصطلح «القصص» ليشمل نطاقاً من المعاني يتجاوز ما هو متفق عليه في ميدان القصص الأدبي. ونجد أن هذا المصطلح لاهوتي إذا قاربناه عن طريق الاسكاتولوجي (المتعلق بالآخرة) اليهودي - المسيحي، وتاريخي - سياسي عن طريق الأيديولوجيا الإمبريالية القوية التي استمرت حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية/ الجرمانية المقدسة، وابستمولوجي عن طريق نظرية النماذج التبادلية، وأدبي عن طريق نظرية الحبكة. تبدو هذه

المجموعة من المقتربات المكررة متنافرة للوهلة الأولى. أليس سفر الرؤيا نموذجاً للعالم، بينما لا يقترح «فن الشعر» لأرسطو إلا نموذجاً لقياس عمل لفظي؟ لكن هنالك ما يسوغ العبور من مستوى إلى آخر، خصوصاً العبور من نظرية كونية إلى أخرى شعرية، ويتمثل في حقيقة أن فكرة نهاية العالم تأتينا بوساطة نص يختتم «الكتاب المقدس» في الكتاب المقدس الرسمي المعتمد في الغرب المسيحي على الأقل. لذلك يمكن لسفر الرؤيا أن يدل على نهاية العالم ونهاية الكتاب في آن واحد. التوافق بين العالم والكتاب يمتد حتى إلى ما هو أبعد. تتناول بداية الكتاب البداية، وتتناول نهاية الكتاب النهاية. بهذا المعنى يكون «الكتاب المقدس» الحبكة المفخّمة لتاريخ العالم، وكل حبكة أدبية نسخة مصغرة عن الحبكة الكبيرة التي تربط سفر الرؤيا بسفر التكوين. بهذه الطريقة ترتبط الأسطورة الاسكاتولوجية بالحبكة الأرسطية عبر طريقتيهما في شد بداية ما إلى نهاية ما، وطرح انتصار التوافق على التنافر على المخيلة. لا غرابة إذاً في وصل انقلاب الحظ الأرسطي بعذابات الأزمنة الأخيرة في سفر الرؤيا.

يمكن عند هذا التقاطع بين التنافر والتوافق على وجه الدقة أن تضيء تحولات الأسطورة الاسكاتولوجية مشكلتنا المتعلقة بالختم الشعري. لنلاحظ في المقام الأول، القوة الاستثنائية التي أظهرها الكشف الرؤيوي في البقاء برغم كل ضروب الإنكار التي تستند إلى ما آلت إليه الأحداث. يقدم سفر الرؤيا، في هذا المجال، النموذج لتوقع لا يكذبه أحد أبداً برغم تفرسه الدائم للدحض، وهو بذلك يقدم النموذج لنهاية مؤجلة هي نفسها على الدوام. فضلاً عن ذلك هنالك ما يشير ضمناً إلى أن دحض التوقع المتعلق بنهاية العالم قد أدى إلى ظهور تحول نوعي حقا في نموذج الكشف الرؤيوي. لقد صار محايثاً بعد أن كان وشيكاً. لذلك حوّل سفر الرؤيا صورته عن الأزمنة الأخيرة، أزمة الذعر، والانحلال، والتجديد ليصبح أسطورة الأزمة.

هنالك ما يقابل هذه النقلة الجذرية في نموذج الكشف الرؤيوي يظهر

في الأزمة التي تضرب بأثرها التأليف الأدبي. وهي أزمة تقع على مستويي ختام عمل معين، وتآكل النموذج التبادلي للتوافق.

يجد كرمود ما يدل على أن المأساة الأليزابيثية قد استشرفت هذا الاستبدال للأزمة، التي أصبحت الآن انقلاباً للحظ ممتداً إلى ما لانهاية، لتحل محل النهاية الوشيكة. ويرى أن لهذا الشكل من المأساة وشائج أعمق مع الكشف الرؤيوي المسيحي مما هي مع «فن الشعر» لأرسطو. إذ حتى لو أمكن أن شكسبير لا يزال «أعظم خالق للثقفة» (ص. 82)، فإن مآسيه تشهد على تلك اللحظة التي تتحول فيها الرؤيا من الوشيك إلى المحايث. المأساة «تفترض تصورات الكشف الرؤيوي، الموت والحساب، الفردوس والجحيم؛ لكن العالم يمضي قدماً وقد تولى أمره من نجا منهكاً». (المصدر السابق). إلا أن استعادة النظام تبدو في نهاية المطاف باهتة إذا ما قورنت بالرعب الذي يسبقها. إن زمن الأزمة بالأحرى هو الذي يحمل ملامح شبه الأزلي، التي لا نجدها في سفر الرؤيا إلا في النهاية، وذلك الزمن هو ما يصبح الزمن الدرامي الفعلي⁽³⁴⁾. في «الملك لير» على سبيل المثال، يتجه عذاب لير نحو خاتمة مؤجلة باستمرار. ثمة خلف الأسوأ البادي للعيان ما هو أسوأ منه، وما النهاية نفسها إلا صورة لرعب زمن الأزمة. بذلك تكون «الملك لير» مأساة السرمدية داخل نظام سوء الطالع. مع «مكبث» يصبح انقلاب الحظ محاكاة هازئة لغموض النبوءة، «مسرحية عن التنبؤ» (ص. 84). هنا يخرب الملتبس الزمن مرة أخرى، كما يظهر في تلك الأبيات الشهيرة التي يرى فيها البطل قراراته و«كانها تتجمع في وصلة زمنية واحدة»⁽³⁵⁾. بهذه الطريقة، تولد «مسرحية الأزمة» زمن أزمة مطبوع بدلائل السرمدية، حتى لو كانت هذه الأبدية «الواقعة بين إتيان فعل شنيع والحركة الأولى» لا تعدو كونها صورة للحاضر الأبدية واغتصاباً له. ولا حاجة بنا إلى استذكار كيف أن «هاملت» أيضاً يمكن أن تفهم على أنها «مسرحية أخرى عن أزمة متطاولة» (ص. 87).

تؤشر هذه النقلة من سفر الرؤيا إلى المأساة الأليزابيثية الطريق إلى أحد الأجزاء المكونة في الثقافة والأدب المعاصرين، ذلك الذي تحل فيه الأزمة محل النهاية، إذ تصير الأزمة نقلة لا نهاية لها⁽³⁶⁾. بهذا تصبح استحالة الخاتمة عَرَضاً دالاً على إبطال النموذج التبادلي ذاته. نحن نرى في الرواية المعاصرة على أفضل وجه الجمع بين هاتين الموضوعتين: ضمور النماذج التبادلية؛ وبالتالي نهاية القصص، واستحالة إنهاء قصيدة؛ وبالتالي دمار تخيل النهاية⁽³⁷⁾.

إن هذا الوصف للحالة المعاصرة، وهو معروف على نطاق واسع، أقل أهمية من الحكم الذي يمكن أن يخرج به علينا الناقد في ضوء مصير سفر الرؤيا. ولقد قلنا إن قصص النهاية ظلت تتعرض على الدوام للدحض، لكن ذلك لم يصب سمعتها بضرر. فهل يكون هذا مصير النماذج التبادلية الأدبية أيضاً؟ هل تؤشر الأزمة بالنسبة لنا بقدر متعادل فاجعة وانبعاثاً؟ هذه هي قناعة كرمود التي أشاركه فيها تماماً.

لا تعني الأزمة غياباً لكل نهاية، بل هي تحويل النهاية الوشيكة إلى نهاية محايدة⁽³⁸⁾. قد لا نصل، حسب كرمود، حد التماذي في استراتيجية الدحض وانقلاب الحظ إلى النقطة التي يفقد فيها سؤال الختام كل معناه. إلا أننا قد نسأل ما هي النهاية المحايدة عندما لا تكون النهاية انتهاء؟

يصل بنا هذا السؤال إلى نقطة مربكة في تحليل كرمود، وهي نقطة لن يُقَيِّضَ لنا العبور إلى ما هو أبعد منها إذا اكتفين بالنظر إلى شكل العمل وأهملنا توقعات القراء. هنا نجد النماذج التبادلية للتوافق ملاذها، إذ هو المكان الذي تعود إليه أصولها. إن ما يبدو عصياً على التجاوز في التحليل الأخير هو توقع القارئ أن تكون الغلبة في النهاية لضرب ما من ضروب التوافق. وينطوي هذا التوقع على قناعة بأن انقلاب الحظ لا يمكن أن يكون صفة كل شيء، لأنه لو كان كذلك لفقد كل معنى ولأصيب توقعنا النظام بإحباط تام. لا بد إذا ما أريد للعمل أن يستحوذ على اهتمامنا كقراء أن يفهم

انحلال الحبكة فيه على أنه إشارة لنا بالتعاون مع العمل، بتشكيل الحبكة بأنفسنا. لا بد أن يكون لدينا توقع أننا سنجد شكلاً ما من النظام إذا ما كنا سنقع فريسة الخداع عندما لا نجده، ولا يمكن لهذا الخداع أن يقودنا إلى نوع من الرضا إلا إذا قام القارئ، وهو يتولى زمام الأمر من المؤلف، بفهم العمل على النحو الذي يستجمع المؤلف كل براعته كي لا يسمح به. لا يمكن للإحباط أن يكون الكلمة الفصل. ولا يمكن جعل فعالية التأليف التي يمارسها القارئ أمراً مستحيلاً تماماً. لن يصبح هذا التفاعل بين توقع الخداع وفعالية إحداث النظام عملياً ما لم تدمج الشروط المطلوبة لإنجاحه في العقد الضمني أو الظاهر الذي يوقعه المؤلف مع القارئ. «سوف أهدم هذا العمل، فامنحه أنت شكلاً على أفضل ما تستطيع». ولكي لا يكون هذا العقد نفسه خداعاً، يترتب على المؤلف الابتعاد عن إبطال كل أعراف التأليف، وأن يقدم أعرافاً جديدة أكثر تعقيداً، ودقة، وخفاء، وفطنة من تلك التي تسم الرواية التقليدية؛ وباختصار، أعرافاً مستمدة من هذه الأشكال بواسطة التهكم، أو المحاكاة الهازئة، أو الاستخفاف. بهذه الطريقة لن تنماد أكثر الضربات تطاولاً على توقعاتنا التي تعتمد النماذج التبادلية إلى ما هو أبعد من تفاعل «التشويهاة المحكومة بقوانين» والتي يظل الابتكار بفضلها هو الإجابة الدائمة على الترسيب. إن قفزة خارج كل توقع يعتمد النماذج التبادلية إن هي إلا ضرب من المستحيل.

هذه الاستحالة ملفتة على نحو خاص فيما يخص معالجة الزمن. نبذ التعاقب الزمني شيء، ورفض أي مبدأ بديل يعتمد التصور شيء آخر. إن من غير المفهوم أن يتحرك السرد ليتجاوز كل تصور. يمكن أن ينفصل زمن الرواية عن الزمن الواقعي. والواقع أن هذا هو القانون الذي يحكم بداية أي قصص. لكن ليس أمامه إلا أن يتم تصوره على وفق قواعد جديدة للتنظيم الزمني يبقى القارئ يفهمها على أنها زمنية بواسطة توقعات جديدة بخصوص زمن القصص سأستكشفها في القسم الرابع. إن الاعتقاد بأننا نفصنا أيدينا من

زمن القصص لأننا قلبنا المحمولات الزمنية التي جعلتنا نألفها النماذج التبادلية التواضعية للرواية، فككناها، وصغرناها، أو أنكرناها، يعني الاعتقاد بأن الزمن الوحيد المتاح للإدراك هو زمن التعاقب الخطي. وهو ما يرقى إلى الشك في أن للقصص مواردها الخاصة التي تخلق بها ما يناسبها من مقاييس زمنية. إنه شك أيضا في أن هذه الموارد تلتقي مع توقعات لدى القارئ بصدد الزمن تفوق في دقتها إلى ما لا نهاية التابع على شكل خط مستقيم⁽³⁹⁾.

لذلك فأنا أتفق مع استنتاج كرمود في دراسته الأولى، والذي يتأكد أكثر في دراسته الخامسة: تبقى التوقعات المقاربة في أهميتها لتلك المتولدة عن سفر التكوين ماثلة دون انقطاع حتى وإن تغيرت، وحتى وإن تغير بذلك مدى اتفاقها مع الموضوع.

بضيء هذا الاستنتاج على نحو لافت أطروحتي بصدد أسلوب تقليدية نماذجنا التبادلية، كما إنه يوفر معيارا «للتمييز بين الحداثات» (ص. 114). بالنسبة لشكل الحداثة الأقدم - أي الذي يخص باوند، وبيترس، ووندهام لويس، وإلبوت، وحتى جويس (قارن صفحات كرمود الغنية [ص. 113 - 114] المكرسة لجويس) - يبقى الماضي مصدرا للنظام، حتى عندما تتعالى الشكوى ضده ويُنتقد. بالنسبة لشكل الحداثة الأقرب عهدا، الذي يسميه كرمود الشكل الانشراقي، فإن ما يُستنكر هو النظام نفسه. يوضح بيكييت «هذه النقلة باتجاه الانشقاق». إنه اللاهوتي الضال لعالم عانى من السقوط، وجرب تجسدا للمسيح غيّر كل العلاقات بين الماضي، والحاضر، والمستقبل، لكنه لن يحصل على الخلاص. (ص. 115). هو يحافظ هنا على رابطة تهكمية ومحاكاتية هازئة مع النماذج التبادلية المسيحية التي يظل نظامها يحافظ على معقوليته حتى حين يقلبه تهكم المؤلف، «و كل ما يحافظ على المعقولة مانع للانشقاق». (ص. 116). «لا معنى للانشقاق دون إحالة على حالة قبلية؛ ما الجديد جدة مطلقة إلا المفتقد للمعقولة ببساطة، حتى بوصفه بدعة». (المصدر السابق)، «لأن البدعة نفسها تنطوي على وجود ما هو غير

مبتدع، ماضٍ». (ص. 117). بهذا المعنى فإن «الجدة ظاهرة تؤثر في الماضي برمتها، لن يكون بمقدور شيء منفرد بذاته أن يكون جديداً». (ص. 120). ولقد عبّر غومبرتش عن هذا أفضل تعبير حين قال: «العين البريئة لا ترى شيئا»⁽⁴⁰⁾.

تصل بنا هذه الجُحُم القوية إلى عتبة ما سوف أسميه مسألة الثقة. (سنرى لاحقا أن ليس ثمة عبارة أفضل في التعبير عنه). لماذا لا يصح لنا التماذي حد الوصول إلى ما وراء نماذج النظام التبادلية بل ونُنهي عنه مهما بلغ مسعانا صقلا، وعمقا، وتعقيدا؟

لا يتسهل كرمود الإجابة على السؤال، طالما أن فهمه الخاص لعلاقة القصص الأدبي بالأسطورة الدينية في الفكر الرؤيوي يجازف بتقويض أسس ثقته في قدرة النماذج التبادلية التي تحكم توقع القارئ للمختام على البقاء. يرى كرمود أن العبور من النهاية الوشّيقة إلى النهاية المحايثة هو في الواقع من عمل «مثقفي الشكّية» المعارضين للاعتقاد الساذج بواقعية النهاية المتوقعة. ينتج عن ذلك أن منزلة النهاية المحايثة هي نفسها منزلة الأسطورة التي نُزعت عنها اسطوريتها، بالمعنى الذي قصده رودلف بولتمان، أو، كما أميل إلى القول متبعا بول تيليتش، بمعنى الأسطورة المحطمة. ترحيل مصير الأسطورة الاسكاتولوجية إلى الأدب يعني أن يتولى القصص، بما فيه القصص الأدبي، وظيفة أن يكون أسطورة محطمة. وهو يحتفظ بالتأكيد بقصد كوني، كما رأينا في عمل نورثرب فراي، لكن الاعتقاد الذي يقف وراءه يتأكل بفعل مثقفي الشكّية. هنا يكون الاختلاف بين فراي وكرمود كليا. بينما يرى فراي أن فضاء الخطاب يتجه بأكمله نحو مركز الكلمات الساكن، يميل كرمود إلى الظن، بطريقة نيتشوية، أن الحاجة إلى المأساة في وجه الموت تجعل من القصص بهذا الشكل أو ذاك شكلا من التحايل⁽⁴¹⁾. والموضوعة التي تنتظم كل عمل كرمود هي أن قصص النهاية تتناول بأشكالها المتنوعة - لاهوتية، وسياسية، وأدبية - الموت كنمط للمأساة. من هنا النبرة الغامضة والمثيرة للقلق - والتي

أميل إلى وصفها بالغرابة الخرافية *Unheimlichkeit* - التي تمنح «الإحساس بالنهاية» سحره⁽⁴²⁾. بهذا يتأسس فراق بين الصدق والمواساة. والنتيجة أن كتاب كرمود يتأرجح دون توقف بين شك لا مهرب منه في أن القصص تكذب وتخدع، بقدر ما هي تواسينا⁽⁴³⁾، وقناعة لا تقهر بالمثل في أن القصص ليست عشوائية ببساطة ما دامت تستجيب لحاجة لا حكم لنا عليها، تلك هي الحاجة إلى وسم فوضى الوجود بختم النظام، اللامعنى بختم المعنى، والتنافر بالتوافق⁽⁴⁴⁾.

يفسر هذا التآرجح استجابة كرمود لفرضية الانشقاق، وما هي في نهاية المطاف إلا أكثر نتائج شكية المثقفين تطرفا إذا قيست بكل قصص التوافق، بعبارة بسيطة هي «ومع ذلك...» (ص. 43). على سبيل المثال بعد أن يشير إلى ما أسماه أوسكار وايلد «تدهور الكذب» نراه يكتب، «ومع ذلك، فمن الواضح أن هنالك مبالغة في هذا التقرير للحالة. النماذج التبادلية تقاوم الانقراض بهذا الشكل أو ذاك. فإذا ما كان هنالك زمن، بكلمات ستيفنس، «يُعد فيه المشهد»، فإن علينا قبول أن ساعته لم تأزف على نحو نهائي وكلي بعد. بقاء النماذج التبادلية يشغلنا بقدر ما يشغلنا تأكلها». (المصدر السابق).

إذا كان كرمود قد انتهى إلى مثل هذا الطريق المسدود، ألا يكون السبب أنه طرح بتسرّع وحلّ قبل الأوان مشكلة العلاقات بين «القصص والواقع» (هنالك مقال كامل مكرس لهذا الموضوع)، بدلا من أن يبقيه معلقا، كما أحاول أن أفعل هنا، من خلال عزل مشاكل التصور بصيغ المحاكاة² عن مشاكل إعادة التصور بصيغ المحاكاة³. أعتقد أن نورثرب فراي أكثر منه حذرا بكثير في عرضه للمشكلة، لأنه لا يمنح اسطورة الكشف الرؤيوي أكثر من مكانة أدبية، ويمتنع عن الفصل في المغزى الديني الذي يمكن أن تحمله من المنظور الاسكاتولوجي لتاريخ الخلاص. يبدو فراي في البداية أشد دوغمائية من كرمود في تعريفه الاسطورة الاسكاتولوجية أنها «مركز ساكن». ولكن يتضح في النهاية أنه أكثر تحفظا من كرمود لأنه لا

يسمح بمزج الأدب بالدين أو الخلط بينهما. وقد رأينا أن الجمع بالمماثلة بينهما يقوم على النظام الافتراضي للرموز. بالنسبة لكرمود، يضيف تلويث الأسطورة المحطمة الدائم للقصص الأدبي على كتابه قوة وضعفاً في آن واحد؛ أما قوته فتكمن في النطاق الذي يمنحه لعالم القصص، وأما ضعفه فيعود إلى الصراع بين الثقة في النماذج التبادلية وشكينة المثقفين، وهو ما يترتب على الجمع بين القصص والأسطورة المحطمة في بوتقة واحدة. أما قلبي إن الحل الذي يقدمه سابق لأوانه فبمعنى أنه لا يسمح بمنظور آخر في السعي لمنح الحياة معنى سوى ذلك الذي نصح به نيتشه في «مولد المأساة»؛ تحديداً، ضرورة إلقاء برقع أبولوني على الافتتان الديونيسي بالفوضى إذا ما أردنا تجنب الموت نتيجة جرأنا على تأمل العدم المحض. أرى أن من الشرعي في هذه المرحلة من التأمل، الإبقاء على رصيد من علاقات ممكنة أخرى بين القصص وواقع الفعل والمعاناة البشريين عدا المواساة وقد اختزلت إلى كذبة ضرورية. إن للتجليي [تغيير الشكل] Transfiguration، وكذلك نزع الشكل؛ التحول، وكذلك الكشف الحق في أن تُستبقى أيضاً.

إذا قيدنا أنفسنا بالكلام عن الأسطورة الرؤيوية بصيغ القصص الأدبي حصراً، يكون من الضروري لنا العثور على جذور أخرى تمد الحاجة إلى تصور للسرد عدا رعب اللامتشكل. من ناحيتي، أعتقد أن البحث عن التوافق يمثل جزءاً من الافتراضات الحتمية للخطاب والاتصال⁽⁴⁵⁾. قال أريك فيل في كتابه «منطق الفلسفة»؛ إما الخطاب، وإما العنف⁽⁴⁶⁾. وتداوليات الخطاب تذهب في نهاية المطاف المذهب نفسه. تسبق المعقولية نفسها دائماً وتسوّغها.

مع أننا قلنا ما جاء آنفاً، يبقى بوسع المرء دائماً رفض إمكانية خطاب مترابط منطقياً. وهذا ما يرد في كتاب فيل أيضاً. يشير هذا الرفض، عندما يطبق على محيط السرد، إلى موت كل النماذج التبادلية السردية، إلى موت السرد.

وإمكانية هذا الموت هي ما يشير إليه فلتر بنيامين برهبة كبيرة في مقاله المعروف «الحكواتي»⁽⁴⁷⁾. وفيه يقول إننا قد نكون نحيا حقبة لم يعد فيها للسرد مكان، إذ لم يعد لدى البشر تجربة يشتركون بها. وهو يرى في هيمنة الإعلانات العلامة الدالة على تراجع السرد هذا، تراجع اللاعودة.

ربما كنا بالفعل شهود - وصناع - موت معين، هو موت فن سرد القصص، والذي ينطلق منه فن السرد في كل أشكاله. ربما كانت الرواية أيضاً تحتضر كشكل سردي. ولا شيء، في الواقع، يمنعنا من استبعاد إمكانية أن التجربة التراكمية، في الحيز الثقافي للغرب على الأقل، التي وفّرت أسلوباً قابلاً للتعريف تاريخياً تحتضر اليوم. ليست النماذج التبادلية التي ذُكرت حتى الآن إلا الثفل المترسب من تقليد ما. ليس ثمة إذن ما يمنع إمكانية أن يواجه تحوّل الحكبة في موضع ما حداً لا يصبح من الممكن بعده إدراك مبدأ التصور الزمني ذي الطابع الشكلي الذي يجعل القصة تامة متكاملة. ولكن ... ولكن. ربما كان من الضروري، بالرغم من كل شيء أن نثق بالنداء من أجل التوافق الذي ما زال يُهيكل توقعات القراء، وأن نؤمن أن أشكالاً سردية جديدة، لا نعرف بعد كيف نسميها، تمرّ في طور ولادة، وإنها ستشهد على حقيقة أن الوظيفة السردية لا تزال قابلة للتحويل، لكن تحولها لن يصل إلى حد الموت⁽⁴⁸⁾. لأننا لا نستطيع أن نتخيل ما سيؤول إليه حال الثقافة عندما لا يوجد من يعرف معنى أن تُروى الأشياء.

الفصل الثاني

القيود السيميائية على السردية

قدمت في ملاحظاتي الافتتاحية لهذا الجزء المواجهة بين الفهم السردى، التابع من ألفة متواصلة مع أنماط الحبكة طوال التاريخ، والعقلانية التي تدّعيها السيميائية السردية، وكنت أهدف من ذلك إلى «تعميق» المشكلة. وأقصد بالتعميق البحث عن بنى «عميقة» يدل عليها المظهر الذي تتخذه التصورات السردية الملموسة على سطح السرد.

من السهل رؤية السبب الداعي لمثل هذا المسعى. لقد وَضَعْتُ التحليلات السابقة أمامنا تلك المفارقات المتعلقة بنمط تقليدية الوظيفة السردية. وإذا ما ادعينا أية ديمومة لهذه النماذج التبادلية، فإن ادعاءنا لن يعني بأية حال اللازمية التي تُعزى للماهيات. إذ إن هذه الديمومة تبقى بدلا من ذلك رهينة تاريخ الأشكال، والأجناس، والأنماط. وتكشف إشارتي التي اختتمت بها الفصل السابق إلى موت فن السرد في نهاية المطاف عدم الاستقرار الذي يلزم ديمومة الوظيفة السردية هذه، التي تبقى برغم ذلك ماثلة في العديد من الثقافات الإثنية التي عرّفناها الانثروبولوجيا الثقافية.

ما يحفز البحث السيميائي، في مواجهة عدم استقرارية ما يدوم هذه،

هو من حيث الجوهر طموحه إلى دعم هذه الديمومة للوظيفة السردية بقواعد لا تعتمد التاريخ. وهو يرى في البحث السابق هيمنة للطابع التاريخاني. فإذا ما قُيِّض للوظيفة السردية، عبر نمط تقليديتها، أن تدّعي شيئا من الديمومة، لزم أن يستند ذلك إلى قيود لا تعتمد التعاقب الزمني. باختصار، هنالك ضرورة للعبور من التاريخ إلى البنية.

كيف؟ من خلال ثورة منهجية تشبه تلك التي شهدتها أبستمولوجيا التاريخ في محاولتها تطبيق ضرب من العقلانية المنطقية على المعقولة الكامنة فعلا في إنتاج المرويات. ويمكن التعرف على خواص هذه الثورة المنهجية في ثلاثة ملامح.

المسألة ابتداء هي محاولة الاقتراب قدر المستطاع من إجراء استنباطي بحت، على أساس نموذج متشكل على نحو بدهي. يجد هذا الخيار تبريره في حقيقة أن ما نحن بصده تنوع لا يكاد يحده حد من التعبيرات السردية (شفاهية، ومكتوبة، ومرسومة، ومُثَقَّلَة)، وأصناف من السرد (أساطير، وحكايات شعبية، وحكايات خرافية، وروايات، وملاحم، ومآسي، ومسرحيات، وأفلام، وسلاسل هزلية؛ هذا إذا أغفلنا التاريخ، والرسم، والحوار). تجعل هذه الحالة أي مدخل استقرائي أمرا غير عملي. لا يتبقى إلا الطريقة الاستنباطية؛ أي تكوين نموذج افتراضي للوصف لا بد أن يكون بالإمكان اشتقاق بعض الأصناف الفرعية منه على الأقل⁽¹⁾.

أين يمكن لمثال العقلانية هذا أن يجد أفضل ما يشبعه من الحقوق المتصلة بحقائق اللغة إن لم يكن في علم اللغة؟ وهكذا، تكون الخاصية الثانية للسميائية السردية أنها تبني نماذجها بأقرب ما هو مستطاع من ذلك الأساس الذي يستخدمه علم اللغة. تتيح لنا هذه الصياغة الواسعة، الإحاطة بجهود شديدة التباين يسعى أكثرها جذرية إلى اشتقاق القيم البنيوية الخاصة بوحدات أطول من الجملة، انطلاقا من بنى اللغة على مستوى أقل حتى من

الجملة. يمكن إجمال ما يقترحه علم اللغة هنا بالطريقة التالية. هنالك دائما في أية لغة معطاة إمكانية لعزل الشفرة عن الرسالة، أو إن تكلمنا مثل سوسور، عزل اللغة Langue عن الكلام parole. الشفرة، أو اللغة، هي النظامي. والقول إن اللغة Langue نظامية يعني أيضا الإقرار بأن مظهرها المترامن - أي المتواقت - يمكن أن يُعزل عن مظهرها التعاقبي أوالتتابعي، والتاريخي. أما بالنسبة لترتيبها النظامي، فيمكن السيطرة عليه هو الآخر إذا أمكن اختزاله إلى عدد متناه من الوحدات الاختلافية الأساسية، علامات النظام، وتأسيس القواعد التجميعية التي تنشئ علاقاته الداخلية كلها. يمكن على وفق هذه الشروط أن تُعرّف البنية بأنها مجموعة مغلقة من العلاقات الداخلية بين عدد متناه من الوحدات. وصفة المحايثة التي تسم هذه العلاقات - أي لامبالاة النظام بأي واقع خارج اللغة - هي من التوابع المهمة المترتبة على قانون الإغلاق هذا الذي يميّز البنية.

كما هو معروف جيدا، طُبّقت هذه المبادئ البنيوية لأول مرة بنجاح كبير في علم الصوت الوظيفي، ثم في علم الدلالة المعجمي وقواعد تركيب الجملة. ويمكن اعتبار التحليل البنيوي للسرد واحدا من محاولات متعددة لتوسيع هذا النموذج أو ترحيله إلى الكيانات اللغوية فوق مستوى الجملة، علما بأن الجملة هي آخر كيان تعامل معه علم اللغة. نجد بعد الجملة الخطاب بأضيق معاني الكلمة، أي تتابع من جمل تطرح قواعد تأليفها. (كان من مهام البلاغة الكلاسيكية لوقت طويل التعامل مع هذا الجانب المنظم للخطاب). كما قلنا للتو، يُعد السرد واحدا من أوسع أصناف الخطاب، أي من متواليات الجمل الموضوعة على وفق ترتيب معين.

و الآن، قد يدل هذا التوسيع الذي تقوم به المبادئ البنيوية لعلم اللغة على وجود ضروب متنوعة من الاشتقاقات تمتد من المماثلة الغامضة إلى التشاكل الدقيق. وهذه الإمكانية الأخيرة هي التي دافع عنها رولان بارت خلال الفترة التي كتب فيها مقاله «مقدمة إلى التحليل البنيوي للسرد». «السرد

جملة طويلة معلوماتية(*) تمثل على نحو ما خلاصة تقريبية لسرد قصير». (ص. 256). وقد تمادى في هذه الفكرة حتى أعلن، «إن قيمة التشاكل المقترح هنا لا تقتصر على الناحية الإرشادية المجردة: إنه ينطوي على مماهة بين اللغة والأدب». (ص. 257).

الخاصية العامة الثالثة، التي يترتب عليها الكثير بالنسبة للسرد، تمضي كما يلي. إن أهم الخواص البنيوية لنظام لغوي ما هي طبيعته العضوية. ويُفهم من هذا القول أسبقية الكل على الأجزاء، وترابعية المستويات الناجمة عن ذلك. ولا بد من ملاحظة أن البنيويين الفرنسيين في هذه النقطة قد أولوا أهمية أكبر لقابلية الأنظمة اللغوية على الدمج مما فعل دعاة النماذج التوزيعية المحض في البنيوية الأمريكية. «مهما كان عدد المستويات التي نقترحها، ومهما كانت التعريفات التي نطلقها عليها، يجب أن لا يقع شك في أن سردا ما هو ترابعية من حاصل المكونات»⁽²⁾.

الخاصية الثالثة هي الأهم حتى الآن. إنها تتفق تماما مع ما أسميته على مستوى الفهم السردى العملية التصورية. وهذا هو ما ستحاول السيميائية إعادة تكوينه بوساطة الإمكانات الترابعية والدمجية لنموذج منطقي. يمكن للمرء، متبعا لتودوروف، أن يميز مستوى القصة (والذي يتضمن هو نفسه مستويين للدمج، مستوى الأفعال بما له من منطق، ومستوى الشخصيات بما لها من تركيب نحوي) ومستوى الخطاب، الذي يتضمن الأزمنة النحوية، وكيفيات الحدث، وأنماط السرد⁽³⁾. أو يمكن للمرء أن يتبع بارت ويتكلم عن «وظائف» (أي أجزاء للفعل مصوغة شكلياً على طريقة بروب وبريمون)⁽⁴⁾، ثم عن أفعال وفاعلين (كما يفعل غريماس أيضا)، بل بوسع المرء، مع تودوروف مرة أخرى، حتى أن يعزل مستوى «السرد»، حيث يكون السرد

(*) معلوماتية constative صفة تشير إلى الملفوظات التي تنقل معلومات أو تخبر عن الأشياء. وقد استخدمها أوستن لتقابل الملفوظات الأدائية preformative في بواكير أعماله قبل أن تبلور نظريته في أفعال الكلام بتوسيع هذه الثنائية - المترجم.

هو موضع الاهتمام في تبادل بين مرسل ومتلقٍ للسرد. ويقال في كل هذه الحالات عن السرد إنه يمثل الجمع ذاته الذي تحققه اللغة بين عمليتي النطق والدمج الأساسيتين، الشكل والمعنى⁽⁵⁾. إن هذا الاقتران بين النطق والدمج هو ما سأحاول استكشافه أساسا في الصفحات التالية على أساس هذه الثورة المنهجية التي تخلص إلى استئصال التاريخ لصالح البنية. وسيستهدي هذا البحث بالتقدم الذي حققته السيميائية في مسعاها إلى إعادة تشكيل الطابع المنطوق والمدمج معا للحبك على مستوى من العقلانية تكون فيه العلاقة بين الشكل والمعنى مفصومة العرى عن أية إحالة على التقليد السردى. وسيكون إحلال القيود اللاتعايقية محل نمط تقليدية الوظيفة السردية هو المحك لإعادة التشكيل هذه. تتوافق السيميائية السردية مع خواصها الرئيسة الثلاث على نحو أفضل حين تنجح، بكلمات بارت، في «نزع التعاقبية الزمنية عن السرد ومساعدته على استعادة المنطق»⁽⁶⁾. كما إنها ستحاول القيام بذلك بوساطة إخضاع كل جانب تعاقبي (و بالتالي زمني) للسرد إلى ما يقابله من جانب تبادلي (و بالتالي لا تعاقبي)⁽⁷⁾.

لفهم فحوى الجدل الذي بدأ مع توسيع علم اللغة ليمتد إلى سيميائية سردية، علينا أن نأخذ بالحسبان الثورة التي يمثلها التغير الاستراتيجي الذي تحدثه في المستوى. ليس من شك في أهمية التحول الذي ينطوي عليه التحليل البنيوي بالنسبة لموضوع الدراسة، إذ ينتقل من علم الصوت الوظيفي أو علم الدلالة المعجمي إلى المرويات من مثل الأساطير، والحكايات، والقصص البطولية. إنه لا يتعامل عند تطبيقه على وحدات أصغر من الجملة - من الوحدات الصوتية (الفونيمات) إلى العناصر الدالة (المونيمات) والمفردات المتمكنة (اللكسيمات) - مع موضوعات تشتبك في إطاراتها لها تفاصيلها الرمزية. لذلك فإنه لا يدخل في منافسة مع أي شكل آخر من الممارسة التي تتخذ موضوعا ثقافيا محددا مادة لدراستها⁽⁸⁾. من جهة أخرى، فإن السرد القصصي قد صُيّر بوصفه سردا موضوعا لممارسة وشكل من الفهم

في آن واحد قبل ظهور السيميائية. إن لدينا هنا حالة لها مثيل في التاريخ حيث يكون البحث ذو الطبيعة والطموح العلميين مسبقا بشخصيات أسطورية وأخبار. وهذا هو السبب في أن بوسعنا مقارنة الدلالة التي يمكن أن تصاحب العقلانية السيميائية في علاقتها مع الفهم السردى، بالنتيجة التي نُسبت إلى نموذج القانون الشامل في كتابة التاريخ في القسم الثاني من الجزء الأول. إن بيت القصيد في مناقشات علم السرد يتمثل، في الحقيقة، وعلى نحو مشابه، في درجة الاستقلال التي يجب أن تُمنح لعملية إضفاء المنطق ونزع التعاقب الزمنى في علاقتها مع فهم الحكمة وزمن الحكمة.

أما بالنسبة لإضفاء المنطق فالسؤال الذي يُثار يتعلق بقدرة حل مماثل لذلك الذي أُقترح بالنسبة لكتابة التاريخ على التماسك عند تطبيقه على علم السرد. وتذكر أن أطروحتي في هذا الصدد كانت تذهب إلى عدم صحة القول بالتفسير المعياري بديلا عن الفهم السردى، ولا يمكن إيجاد مكان له إلا في ضوء القول بالمأثور: أن تفسر أكثر يعني أن تفهم أفضل. والسبب الذي يجعل من المتعذر استبدال التفسير المعياري بالفهم السردى أنه، كما قلت، يستعير من هذا الفهم الملامح التي تحافظ على طبيعة التاريخ التاريخية التي لا تقبل الاختزال. ألا يتحتم علينا القول إذن إن السيميائية، التي لا شك في حقها في الوجود، لا تصون جانبها السردى إلا بقدر ما تستعير من فهمنا المسبق للسرد، الذي اتضح مجاله في الفصل السابق؟

أما بالنسبة لنزع التعاقب الزمنى، الذي هو الوجه الآخر لإضفاء المنطق هذا، فإنه يثير الشكوك مرة أخرى حول العلاقة بين الزمن والقصص⁽⁹⁾. لم تعد المسألة تاريخية الوظيفة السردية فحسب (كما كانت في الفصل السابق)، أي ما أسميته نمط تقليديتها، لقد أصبحت تتعلق بالطبيعة التعااقبية للقصة المروية في علاقتها مع البعد التزامنى (أو بالأحرى اللاتعاقبى) للبنى العميقة للسردية. في هذا المجال، ليس التغير الحاصل في المعجم المتعلق بالزمن السردى بريثا. كلامنا عن التعاقب والتزامن يعني أننا وضعنا أنفسنا بالفعل

ضمن منطقة السيادة التابعة للعقلانية الجديدة المتحكمة بالفهم السردى⁽¹⁰⁾، التي تكتيف نفسها ببراعة تثير الإعجاب مع تشخيص كلي من أرسطو وأوغسطين للزمن على أنه توافق متنافر. يطرح إضفاء المنطق السؤال نفسه الذي يطرحه نزع التعاقب الزمني: هل تعاقبية السرد قابلة لأن يُعاد تأويلها باستخدام نحو البنى العميقة السيميائي فحسب؟ أم هل تعتمد هي الأخرى على البنية الزمنية للسرد، التي وُصفت في الجزء الأول بأنها استقلال معلن وتبعية مسكوت عنها، مثل تلك التي حاولت أن أوُسس لها بين التفسير والفهم على مستوى كتابة التاريخ؟

مورفولوجيا بروب للحكاية الشعبية

يدفعني سبيان إلى فتح النقاش حول إضفاء المنطق ونزع التعاقب الزمني عن البنى السردية مع كتاب بروب «مورفولوجيا الحكاية الشعبية»⁽¹¹⁾. أولاً، إن أستاذ الشكلائية الروسية قد أطلق مشروع إضفاء المنطق على أساس مورفولوجيا معينة، أي «وصف للحكاية حسب أقسامها المكونة، حسب العلاقات ما بين المكونات، وما بينها وبين الكل» (ص. 19). تربط هذه المورفولوجيا نفسها علناً بـلينايوس^(*) Linnaeus، وهو ما يعني القول بمفهوم تصنيفي للبنية، إلا أنها ترتبط أيضاً، وعلى نحو أقل وضوحاً، بغوته، وهو ما يعني القول بمفهوم عضوي للبنية⁽¹²⁾. لذلك يحق لنا اعتماداً على هذا الأساس فقط أن نسأل: ألا تشهد مقاومة وجهة النظر العضوية لوجهة النظر التصنيفية، داخل هذه المورفولوجيا، على مبدأ تصوّر لا يقبل الاختزال إلى شكلائية؟ ثانياً، إن المفهوم الخطي لتنظيم الحكاية الخرافية الذي يقترحه بروب لا يصل بمحاولته إزالة التعاقب الزمني الناجز عن البنية السردية إلا

(*) هو كارلس لينايوس Carlus Linnaeus، وهي الصيغة اللاتينية من اسمه كارل لين Carl Linné (1707 - 1778) عالم الحيوان والنبات السويدي الذي وضع نظام التسمية الثنائي في تصنيف النباتات والحيوانات ووصفها، وهو نظام يشير إلى الجنس والنوع. تصنيفاته الدقيقة مثال في الدقة العلمية - المترجم.

إلى منتصف الشوط. لذلك لنا أيضا أن نسأل إن كانت الأسباب التي منعت وجهة النظر العضوية من أن تستوعبها وجهة النظر التصنيفية، هي ما منع المورفولوجيا التي يقدمها من الاستجابة للمطلب الجذري بإضفاء المنطق.

تتميز مورفولوجيا بروب من حيث الجوهر بأنها تمنح الأولوية للوظائف على حساب الشخصيات. وهو يعني بـ «الوظائف» أجزاء الفعل، أو بكلمات أدق، أشكالا مجردة من الفعل مثل الامتناع، والتحريم، والخرق، والاستطلاع، والتسليم، والخداع، والتواطؤ؛ إن سمينا السبع الأولى منها. تحدث هذه الوظائف بعينها في كل الحكايات الخرافية، عبر مظاهر ملموسة لا تعد ولا تحصى، ويمكن تعريفها بمعزل عن الشخصيات التي تنفذ هذه الأفعال.

تعرف الأطروحة الأولى من الأربع المطروحة في بداية هذا العمل بوضوح تام أولية الوظيفة في مورفولوجيا بروب: «تعمل وظائف الشخصيات في حكاية ما بوصفها عناصر مستقرة وثابتة بمعزل عن كيفية تنفيذها أو من ينفذها. إنها تشكل المكونات الأساسية لحكاية ما». (ص. 21). يمكن لنا رؤية التنافس الذي أشرت إليه بين وجهتي النظر العضوية والتصنيفية ينطلق من عقالة في التعليق الذي يعقب هذا التعريف. «تُفهم [الوظيفة] على أنها فعل شخصية ما معرّف من حيث أهميته بالنسبة لمسار الفعل». (المصدر السابق). هذه الإشارة إلى الحبكة - «مسار الفعل» -، بوصفها كلا غائيا، تصحح منذ البداية المفهوم التجميعي للعلاقات بين الوظائف داخل الحكاية الخرافية.

ومع ذلك، فإن هذا المفهوم الأخير هو الذي يتنامى المسعى إلى تكريسه في الأطروحات التالية. وها هي ذي الثانية منها: «هنالك عدد محدود من الوظائف في الحكاية الخرافية». (المصدر السابق). لدينا هنا مسلمة يشترك بها كل الشكلايين. المظاهر لا عد لها، لكن المكونات الأساسية متناهية في عددها. وإذا ينحي جانبا مسألة الشخصيات، التي سنجد لاحقا أن

عددها محدود تماما (إذ يختزلها بروب إلى سبع)، فإنه يطبق مبدأ العدد المتناهي هذا على الوظائف. ولا يتاح له اختزال الوظائف إلى ما هو أكثر بقليل من دزيتين، إن شئنا الدقة؛ إلى إحدى وثلاثين وظيفة⁽¹³⁾، إلا بإمعان كبير في التجريد عند تعريف الوظائف. هنا يعود سؤالنا الابتدائي بالظهور بشكل جديد: ما هو مبدأ إغلاق السلسلة؟ أله علاقة بما سمي بالحبكة أم بعامل آخر للدمج ذي طبيعة متسلسلة؟

نحسم الأطروحة الثالثة الأمر بوضوح، إذ تميل الكفة لصالح التأويل الثاني: «تتابع الوظائف هو ذاته دائما» (ص. 32). وهوية التتابع هي التي تمنحنا هوية الحكاية الخرافية. صحيح أن هذه الأطروحة تدل على موضع التعاقب الزمني الذي لا يقبل الاختزال في نموذج بروب، كما أن هذا الجانب من النموذج هو الذي سيحدث الانقسام في صفوف ورثته. بعضهم، وهم الأقرب إليه، سيحافظون على عنصر التعاقب الزمني في نموذجهم، بينما سيسعى آخرون، متبنين مثال ليفي - ستراوس، إلى اختزال جوانب التعاقب الزمني في السرد إلى نظام تجميعي تحتي، متحرر إلى أقصى حد ممكن من جانب التعاقب الزمني. ولكن، إذا كان نموذج بروب بسبب هذه الأطروحة الثالثة، كما قلت، قد توقف في منتصف الشوط نحو إزالة التعاقب الزمني من السرد وإعادة إضفاء المنطق عليه، فإن علينا أن نسارع إلى التأكيد أن الزمنية المستبقاة على مستوى هذا النموذج تظل تعاقبا زمنيا على وجه الحصر، بمعنى تتابع مطرد. وروب لا يسأل إطلاقا في أي زمن تتبع وظائفه إحداها الأخرى. ما يشغله حصرا غياب العشوائية عن المتوالية. وذلك هو السبب في اعتباره بديهية التتابع مباشرة بديهية نظام. يكفي وجود تتابع متماثل لتقعيد هوية الحكاية الخرافية.

الأطروحة الرابعة تكمل الثالثة بتأكيد أنها أن كل الحكايات الخرافية الروسية إذ تقدم الوظائف ذاتها على وفق الترتيب ذاته، تشكل حكاية خرافية واحدة لا غير. «سوف تنظم كل الوظائف المعروفة للحكاية نفسها داخل

حكاية واحدة». (ص. 22، التأكيد منه). يترتب على ذلك أن «كل الحكايات الخرافية تنتمي إلى نمط واحد من حيث بنيتها». (ص. 23). بهذا المعنى لا تعدو أية حكاية خرافية روسية في المجموعة التي يعمل عليها بروب أن تكون تنوعاً لحكاية خرافية واحدة، هي كيان فريد مصنوع من تنابع الوظائف التي هي بحد ذاتها توليدية من حيث الجوهر. تستحق هذه السلسلة من الوظائف الإحدى والثلاثين أن تسمى النموذج البدني للحكاية الخرافية، وتكون كل هذه الحكايات الخرافية تنوعات عليه. هذه الأطروحة الأخيرة ستوفر التحويل لورثة بروب لإقامة تضاد بين البنية والشكل. فالشكل ينتمي إلى القصة الواحدة التي تكمن وراء كل التنوعات؛ بينما ستكون البنية نسقا تجميعيا أكثر استقلالا عن الحبكة في المقارنة مع التصور الثقافي الخاص بالحكاية الخرافية الروسية⁽¹⁴⁾.

تشير أطروحات بروب الأربع كل بطريقتها الخاصة سؤالا استمرارية حضور الفكر العضوي الموروث عن غوته في الخطاب التصنيفي المأخوذ عن لينايوس. ويبقى السؤال ذاته يتردد، سواء تعلق الأمر بالعلاقة الدائرية بين تعريف الوظائف وتكشف الحبكة التي تسهم في هذه الوظائف (كما في الأطروحة الأولى)، أو بمبدأ الإغلاق بالنسبة لإحصاء الوظائف (كما في الأطروحة الثانية)، أو بنوع الضرورة التي تحكم الترابط بينها (كما في الأطروحة الثالثة)، أو أخيرا بمكانة النموذج البدني، الذي هو فريد ونموذجي في آن واحد، وإليه يُردُّ التنابع الفريد للوظائف الإحدى والثلاثين (كما في الأطروحة الرابعة).

يضيء العرض المفصل الذي يعقب هذه الأطروحات بوضوح هذا الصراع الكامن بين مفهوم لترتيب الوظائف تغلب عليه الغائية وآخر تغلب عليه الميكانيكية للترابط بينها.

بادئ ذي بدء، من المدهش أن لا يُعد الابتداء من «وضع أولي من نوع ما» (ص. 25) وظيفة، مع أنه «برغم ذلك عنصر مورفولوجي هام».

(المصدر السابق). ما هو؟ إنه تحديداً ذلك الذي به يُفتح السرد. هذا الافتتاح الذي يتفق مع ما يدعوه أرسطو «البداية»، لا يمكن أن يُعرّف إلا تعريفاً غائياً، ضمن علاقته بالحبكة منظوراً إليها ككل. هذا هو السبب في أن بروب لا يدرجه ضمن إحصائه للوظائف المتولدة عن مبدأ صارم يتعلق بالتقطيع الخطي.

يمكن أن نلاحظ بعدها أن الوظائف السبع الأولى، كما وردت آنفاً، تُعرّف كلاً على انفراد بوصفها تشكل مجموعة فرعية، «القسم التمهيدي من الحكاية». (ص. 42، التأكيد منه). تقدم هذه الوظائف، عند النظر إليها كمجموعة، النذالة أو ما يكافئها، الفقدان. إن هذه الوظيفة الجديدة أكثر من مجرد وظيفة إضافية أخرى، «ما دامت الحركة الفعلية للحكاية تتخلق بوساطتها». (المصدر السابق). إنها تتفق على نحو دقيق مع ما أسماه أرسطو تعقيد الحبكة (desis) الباحث عن حل العقدة (lusis). «لذلك يمكن اعتبار الوظائف السبع الأولى القسم التمهيدي من الحكاية، بينما يبدأ تعقيد [الحبكة] بوساطة فعل النذالة». (ص. 31).

بذلك تكون النذالة (أو الفقدان)، في هذا المجال، النقطة المحورية في الحبكة منظوراً إليها ككل. ويوحي العدد الكبير من أصناف النذالة - يورد بروب تسعة عشر! - أن الدرجة العالية من التجريد هنا لا تعتمد كثيراً على الاتساع التوليدي، وهو هنا أرحب مما هو في الوظائف الأخرى، بقدر ما تعتمد على هذا الوضع الأساسي للوظيفة عند انعطاف الحبكة. وجدير بالملاحظة في هذا الباب أن بروب لا يقترح مصطلحاً توليدياً يستوعب النذالة أو الفقدان. ما يشتركان فيه أنهما يؤديان إلى ظهور تقصص. إن كلا من النذالة والفقدان يمتلكان الوظيفة ذاتها بالنسبة لهذا التقصي: «في الحالة الأولى يتخلق فقدان من الخارج؛ في الثانية يُدرك من الداخل ... ويمكن مقارنة هذا الفقدان بالصفّر، الذي يمثل في سلسلة الأرقام قيمة متناهية» (ص. 35). (يعني هذا أن علينا استبعاد التفكير في «الحالة الفارغة» التي أوردها كلود

ليفى - ستروس في مقاله المعروف «مدخل إلى عمل مارسيل موس» (Introduction à l'oeuvre de Marcel Mauss). تمثل النذالة (أو الفقدان) بطريقتها الخاصة بداية (ص. 34)، وهي تحديدا تتعلق بالتقصي. وليس هذا الطلب إن توخينا الدقة واحدا من سائر الوظائف، إنه يخلق بالأحرى ما وُصف آنفا بـ «الحركة الفعلية» للحكاية. ولا تغيب فكرة التقصي هذه فيما بعد أبدا. يتمادى بروب إلى الحد الذي يعزو فيه القوة على تعقيد الفعل، وهي المنسوبة فعلا إلى النذالة، إلى مجموعة الوظائف الفرعية من الثامنة حتى الحادية عشرة. ويسجل ملاحظة تفيد أن عناصر هذه المجموعة الفرعية «تمثل التعقيد. يتطور فيما بعد مسار الفعل». (المصدر السابق). وهكذا تشهد هذه الإفادة منه على الصلة بين التعقيد والتقصي في الشائج القائمة بين الوظائف. المجموعة الفرعية التالية (11 - 14) (من اختبار قدرات البطل إلى استحواده على موضوع سحري) تضيفي الحركية على امتلاكه وسيلة تساعد على إصلاح الخطأ الابتدائي. للوظيفة الأولى قيمة تمهيدية، وللأخيرة قيمة الإنجاز، وهنالك صلات عديدة تجمع بينهما، كما يوضح الرسم البياني الذي يقدمه بروب (ص. 47)، وهو يستبق الجهود التجميعية لنموذج غريماس الأول.

الوظائف اللاحقة، التي تتراوح بين انتقال في المكان وانتصار على المعتدي (15 - 18)، تشكل هي الأخرى مجموعة فرعية، لأنها تقود إلى تصفية سوء الطالع أو الفقدان الابتدائي (19). ويقول بروب عن هذه الوظيفة إنها «تشكل ثنائيا» مع سوء الطالع أو الفقدان. «وببلغ السرد ذروته في هذه الوظيفة». (ص. 53). هذا هو السبب في أنه لا يرمز إلى عودة البطل (20) بحرف، بل بسهم متجه إلى الأسفل (↓) يتوافق مع الانطلاق المرموز له بـ (↑). لا طريقة تفوق هذه في إبراز هيمنة مبدأ الوحدة الغائية على مبدأ التقطيع والتتابع البسيط للوظائف. وبالمثل، فإن الوظائف اللاحقة (20 - 26) لا تعمل إلا على تأخير حل العقدة عبر إدخالها لمخاطر جديدة، وكفاحات جديدة، وعون جديد يشير إليها تدخل بطل زائف وتنكب البطل الحقيقي

لمهمة صعبة. تكرر هذه الشخصيات نموذج سوء الطالع، التعقيد، حل العقدة. أما بالنسبة للوظائف الأخيرة - التعرف على البطل (27)، وفضح البطل الزائف ومعاقبته (30)، وعرس البطل (31) - فهي تشكل مجموعة فرعية أخيرة تلعب دور الخاتمة بالنسبة للحبكة إجمالاً وبالنسبة للتعقيد: «عند هذه النقطة تصل الحكاية إلى خاتمة». (ص. 64). لكن ما الذي يجعل الانتهاء بهذه الطريقة أمراً ضرورياً؟ من المهم ملاحظة أن بروب يتكلم هنا عن «الضرورة المنطقية والفنية» لتشخيص وشائج الربط في التابع. ومع ذلك، فإن «الخطأ» التي تتكون من تتابع خطي من إحدى وثلاثين وظيفة ستلعب بفضل هذه الضرورة المزدوجة دور «وحدة القياس لحكايات بعينها» (ص. 65)⁽¹⁵⁾. ولكن ما الذي يضيف مثل هذه الوحدة على التابع؟

يكمّن جزء من الإجابة في الدور الذي تلعبه الشخصيات في تركيب الفعل. يميز بروب سبع فئات منها: النذل، والواهب (أو المزوّد)، والمساعد، والشخص المطلوب، والمُرسل، والبطل، والبطل الزائف. ونحن نتذكر أنه بدأ بفصل الشخصيات عن الوظائف لكي يعرّف الحكاية الخرافية بصيغ تتابع هذه الوظائف فقط. ولكن، لا يمكن تعريف وظيفة ما لم تنسب إلى شخصية. والسبب في هذا أن المصطلحات الجوهرية التي تعرّف الوظيفة (المنع، سوء الطالع، وما إلى ذلك) تعيدنا إلى أفعال نحوية حركية تستلزم دائماً فاعلاً ما⁽¹⁶⁾. فضلاً عن ذلك، فإن الطريقة التي تُربط بها هذه الشخصيات بالوظائف تمضي في اتجاه مضاد للتقطيع الذي يحكم التمييز بين الوظائف. ترتبط الشخصيات بمجموعات من الوظائف التي تشكّل ميادين الفعل بالنسبة لمن يؤدي كل واحد منها. يضيف مفهوم ميادين الفعل هذا مبدأ تركيبياً جديداً على توزيع الوظائف: «تقترن العديد من الوظائف معاً في ميادين معينة. وهذه الميادين تتفق بدورها مع من يؤدي كل واحد منها. إنها ميادين فعل» (ص. 79). «يمكن أن يتوفر حل لمشكلة توزيع الوظائف على مستوى المشكلة المتعلق بتوزيع ميادين الفعل بين الشخصيات» (ص. 80).

هنالك ثلاثة احتمالات: إما أن يتفق مجال فعل ما اتفاقاً دقيقاً مع شخصية ما (الواهب يرسل البطل)، وإما أن تشغل شخصية واحدة ميادين فعل متعددة (ثلاثة للنذل، اثنان للواهب، خمسة للمساعد، ستة للشخص المطلوب، أربعة للبطل، ثلاثة للبطل الزائف)، وإما أن يقسم ميدان فعل مفرد بين عدة شخصيات (كأن يفعل الانطلاق في رحلة التقصي البطل والبطل الزائف).

من هنا فإن الشخصيات هي التي تتوسط في التقصي في الحالة التي يعاني فيها البطل من فعل النذل في أثناء تزايد كثافة الحبكة، أو التي يوافق فيها على تولي مهمة التصدي للنذالة أو سد فراغ الفقدان، أو التي يزود فيها الواهب البطل بالوسيلة لإصلاح الخطأ الذي وقع؛ في كل واحدة من هذه الحالات تهيمن الشخصيات على وحدة المجموعة الفرعية للوظائف، تلك الوحدة التي تسمح للفعل أن يزداد تعقيداً والتقصي أن يتطور أكثر. ولكن ألا يصح لنا أن نسأل في هذا الشأن إن لم يكن كل حبكة في الواقع ناشئة عن التوليد التبادلي لتطور الشخصية وتطور القصة⁽¹⁷⁾. وهذا هو ما يجعل من غير المدهش إقدام بروب على تسمية عناصر أخرى، عدا الوظائف والشخصيات، تجمع أطراف الحكاية معاً، مثل الدوافع وطريقة تقديم الشخصيات بصفاتهم وملحقاتهم. «لا تعرف هذه الفئات الخمس من العناصر تكوين حكاية ما فقط، ولكن الحكاية إجمالاً» (ص. 96). ولكن أليست وظيفة الحبكة المشتقة من تعريف أرسطو للحبكة، هي التي تجمع هذه العناصر المتنوعة معاً، كما هو شأن الأمثلة الأكثر تعقيداً التي زودتنا بها الكتابة التاريخية؟

يطبق بروب اعتباراته الأخيرة على «الحكاية إجمالاً» (ص. 92 - 117). وهو ما يؤكد التنافس الذي تابعتها حتى الآن طوال هذا العمل بين مفهومين للنظام وضعتهما تحت مظلة غوتة وليناوس على التوالي. الحكاية سلسلة (أو كما يسميها بروب أيضاً، خطة) وتتابع في آن واحد. سلسلة: «الحكاية الخرافية قصة مبنية على التناوب المنتظم للوظائف المذكورة آنفاً

بأشكال متنوعة، يغيب بعضها عن قصص بعينها ويتكرر في أخرى». (ص. 99). تتابع: «يمكن تعريف الحكاية مورفولوجياً بأنها أي تطور ينطلق من ندالة (أ) أو فقدان (أ)، ليؤدي عبر وظائف وسطية إلى الزواج (ز)، أو إلى وظائف أخرى تؤدي إلى حل العقدة ... ونطلق على هذا النوع من التطور مصطلح حركة (xod). كل فعل ندالة جديد، كل فقدان جديد يخلق حركة جديدة. ويمكن أن تكون لحكاية واحدة حركات متعددة، ولا بد للمرء عند تحليل نص ما أن يقرر أولاً عدد الحركات التي يتكون منها». (ص. 92)⁽¹⁸⁾. ما أراه أن وحدة الحكاية (الحركة) هذه، والتي تولد نظاماً تجميعياً جديداً، لا ينتجها التقطيع إلى وظائف، بل هي تسبقه⁽¹⁹⁾. إنها تشكل الدليل الغائي لتوزيع الوظائف على طول الخط التتابعي، وتهيمن على مجموعات فرعية من مثل المقطع التمهيدي، والتعقيد، وحل العقدة. وتكتسب المقاطع المنفصلة في التتابع، عندما تقرن بهذا الدافع المفرد، دوري الانقلاب والتعرف في الحبكة المأساوية. أي أنها، باختصار، تكون «وسط» الحبكة. وبهذا لا يكون الزمن السردى هو ذلك التعاقب البسيط للمقاطع المتخارجة، بل هو المدة الواقعة بين بداية ونهاية.

ما أقوله في هذا العرض النقدي لا يعني استنتاجي أن حكاية بروب النموذجية البدئية تتطابق مع ما دأبت على تسميته حبكة. ليس النموذج البدني الذي يعيد بروب تشكيله حكاية يرويها شخص لآخر. إنها نتاج نمط معين من العقلانية التحليلية. إن عمليات التجزئة إلى وظائف، والتعريف التوليدي لهذه الوظائف، ووضعها على طول محور واحد في تعاقب عمليات تحول موضوعاً ثقافياً ابتدائياً إلى موضوع علمي. ويزداد هذا التحول وضوحاً ما أن تفسح إعادة الكتابة الجبرية^(*) كل الوظائف، عبر تجنب أية بقية من أسماء معارة من اللغة العادية، تفسح المجال لتتابع محض من إحدى وثلاثين علامة

موضوعة جنباً إلى جنب. ويكف هذا التتابع حتى عن تمثيل حكاية نموذجية بدئية لأنه لم يعد حكاية. إنه تتابع، أي المسار الخطي لـ «حركة».

وختاماً لا يمكن للعقلانية التي تنتج هذا التتابع، على أساس تجزئة الموضوع الثقافي الابتدائي، أن تحل محل الفهم السرد المتأصل في إنتاج الحكاية واستقبالها، لأنها تستمر في الامتياح من هذا الفهم في تكوين نفسها. لن يقدّر لعملية تقطيع أو صف للوظائف في تتابع أن تمارس فعلها دون إحالة إلى الحكمة بوصفها وحدة دينامية، وإلى الحبك بوصفه عملية هيكلية. ويبدو لي أن مقاومة مفهوم عضوي وغائي للنظام، على وفق أسلوب غوته، لمفهوم تصنيفي وميكانيكي بين الوظائف، على وفق أسلوب لينايوس، كما بينت، ليس إلا علامة واحدة على هذه الإحالة غير المباشرة إلى الحكمة. لذلك نستطيع، بالرغم من القطيعة الأبستمولوجية التي قامت بها العقلانية السردية، أن نجد بينها وبين الفهم السرد قرابة غير مباشرة تشبه تلك التي أظهرتها في القسم الثاني من هذا الكتاب بين عقلانية الكتابة التاريخية والفهم السرد⁽²⁰⁾.

نحو منطق للسرد

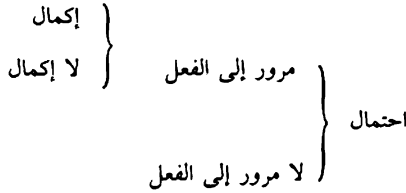
يمكن لنا أن نتقدم خطوة أخرى على الطريق المؤدي إلى إضفاء المنطق وإزالة التعاقب الزمني بأن نجعل الشخصيات نقطة البداية بدلاً من الأفعال، وبأن نقوم بصياغة شكلية مناسبة للأدوار التي تتولاها الشخصيات في أي سرد. عندها يصبح بالإمكان تصور منطق للسرد، وهو يبدأ بمجرد نظامي للأدوار السردية الرئيسة الممكنة، أي تلك القابلة لأن تتولاها شخصية ما في سرد أيا كان. وهذا هو ما حاول كلود بريمون أن يفعله في كتابه «منطق الحكاية»⁽²¹⁾. بالنسبة لنا سينصب اهتمامنا على السؤال عن المكانة المعطاة للحبكة وزمنيتها في منطق سرد يستند على خيار مضاد لخيار بروب.

في الواقع، يبدأ الطموح المنطقي للنموذج الذي يقترحه بريمون من تأمل نقدي في عمل بروب.

يعلن بريمون من حيث الأساس ترتيبه من الطريقة التي اتبعها بروب في ربط الوظائف في ما بينها في نموذج. ويرى أن الترابط المتحقق قد أنجز بطريقة صارمة وميكانيكية وقسرية ناجمة عن الإخفاق في إعطاء فسحة للبدائل والخيارات (ص ص. 18 - 19). يفسر هذا القيد السبب في أن مخطط بروب لا ينطبق إلا على الحكاية الخرافية الروسية، والتي لا تعدو ذلك التابع من إحدى وثلثين وظيفة متماهية. ينحصر نموذج بروب في المصادقة على الخيارات الثقافية التي شكّلت الحكاية الخرافية الروسية بوصفها أحد الأجناس في «سرد القصص». لكن إنجاز القصد الشكلي من النموذج يستوجب إعادة فتح البدائل التي أغلقها التابع أحادي المسار للحكاية الخرافية الروسية واستبدال خارطة تبين خطوطا محتملة عديدة بمساره الخطي.

ولكن كيف نتمكن من إعادة فتح الخيارات المغلقة؟ يقول بريمون إن ذلك يتحقق بإعادة النظر في الضرورة الغائية الراجعة من النهاية نحو البداية؛ فالحكاية لكي تعاقب الوجد تجعله يرتكب النذالة. لكن هذه الضرورة الارتدادية الخاصة بقانون زمنية غائبة يحجب عنا، لنقل، البدائل التي يمكن لقراءة تنطلق إلى أمام، بالاتجاه المعاكس، أن تواجهه؛ فالكفاح يقود إما إلى النصر وإما إلى الهزيمة، لكن النموذج الغائي لا يدرك إلا الكفاحات الظاهرة (ص ص. 31 - 32). «تضمن النصر الكفاح أمر منطقي، تضمن الكفاح النصر قولبة ثقافية». (ص. 25).

إذا شئنا التحرر من سجن سلسلة بروب التي تنتمي إلى نمط الحبكة، علينا تبني ما يسميه بريمون «التابع الأولي» بصفته وحدة أساسية. وهو أقصر من تابع بروب، لكنه أطول من الوظيفة. حين نروي أي شيء على الإطلاق، هنالك شرط ضروري وكاف أيضا هو أن يمضي الفعل المروي بثلاث مراحل: حالة تفتح إمكانية ما، ثم تحقق تلك الإمكانية، ونهاية هذا الفعل. تفتح كل واحدة من هذه اللحظات اختيارا لبدل (ص. 131):



تلائم هذه السلسلة من الخيارات الثنائية الطبيعة المزدوجة لضرورة تتجه نحو الخلف، وتصادفية تتجه نحو الأمام.

ما أن يتم اختيار التابع الأولي بوصفه الوحدة السردية حتى تصبح المشكلة العبور من هذه التتابعات الأولية إلى التتابعات المعقدة. هنا تنتهي الضرورة المنطقية وينشأ الإلزام «بأن تعاد حركيتها وتنوعها الأقصى إلى تراكيب ثابتة تمثل مادة الحكاية الخرافية الروسية». (ص. 30)⁽²²⁾.

يبقى مطلوباً أن نصوغ فكرة «الدور» قبل أن نتمكن من جمع الذخيرة الواسعة من الأدوار الممكنة، التي ستحل محل التخطيطية التتابعية المحدودة التي قدمها بروب، وهي نوع من الحبكة. تنطلق إعادة الصياغة هذه من تأمل في فكرة «الوظيفة» نفسها، التي مثلت المصطلح المحوري في تحليل بروب. ونحن نتذكر أطروحة بروب الابتدائية الأساسية القائلة إن الوظائف تُعرّف من دون أخذ شخصيات الفعل بالحسبان، وبالتالي مجردة عن فاعل محدد أو متأثر سلبي. ولكن، كما يقول بريمون، لا يمكن الفصل بين الفعل والشخص الذي يخضع لتأثيره أو يقوم بإنجازه. وهو يقدم حجتين دفاعاً عن هذا التأكيد. تعبير وظيفة ما عن مصلحة أو مبادرة تحرّك متأثراً بها أو فاعلاً لها. كما تقوم وشائج تربط بين عدة وظائف عندما يتعلق التابع بقصة شخصية واحدة. لذلك ثمة ضرورة إلى ضم فاعل/شخص إلى محمول/عملية عبر مصطلح مفرد هو الدور. بهذا يعرف بريمون الدور كما يلي: «هو أن يُعزى محمول/عملية متحول أو في طور الوقوع أو أنجز إلى فاعل/شخص». (ص. 134). وهكذا نرى أن التابع الابتدائي يندمج في الدور عبر

توسط من المحمول/ العملية. إن إعادة النظر التي يجريها بريمون على نموذج بروب تشمله برمته. فهو يضع مفهوم «تتابع الأفعال» محل «تنظيم الأدوار». (ص. 133).

هنا يبدأ منطق السرد بالمعنى الدقيق لكلمة منطق. إنه يتألف من «المسح النظامي للأدوار السردية الرئيسية» (ص. 134). وهو جرد نظامي بمعنيين. الأول، لأنه يساعد على نشوء أدوار تزداد تعقيدا، إما من خلال تحديدها أو تعييناتها المتعاقبة، التي يحتاج تمثيلها الألسني إلى اعتماد متزايد على الشكل المنطوق للخطاب. ثانيا، لأنه يساعد على نشوء مجاميع من الأدوار من خلال الربط بينها، وهو ما يتخذ في الغالب شكلا ثنائيا.

تضع الثنائية الأولى نمطين من الأدوار في علاقة ضدية: المتأثرين المتلقين الذين يقع عليهم تأثير عمليات تحوير في وضعهم أو الإبقاء عليه كما هو، ويلازمهم الفاعلون الذين يستهلون هذه العمليات (انظر ص. 145). ومن الجدير بالملاحظة أنه يبدأ بالتأثرين، على أساس أنهم الأبسط، فيعرفهم كما يلي: «سنعرف كل من يقدمه السرد على أنه يقع، بشكل أو بآخر، تحت تأثير مسار الأحداث المروية بأنه يؤدي دور المتلقي المتأثر». (ص. 139). ليست الأدوار التي تنتمي إلى فئة المتأثرين هي الأبسط فقط لكنها أيضا الأكثر عددا، لأن هنالك إمكانية لتحويل المسند إليه بطرق أخرى عدا المبادرة التي تصدر عن فاعل ما (انظر ص ص. 174 - 175)⁽²³⁾.

هنالك تفريع آخر يسمح لنا بالتمييز بين نوعين من أدوار المتأثرين المتلقين اعتمادا على الطريقة التي يتأثرون بها. لدينا من جهة، تلك التأثيرات التي تترك أثرها على الوعي الذاتي للمسند إليه بمصيره. وهي تتضمن «المعلومة» (التي تتحكم في سلسلة: إخفاء، تفتيد، تأكيد)، «المشاعر» (رضا أو سخط، وهي تتحكم، عبر إضافة المتغير الزمني، بالأمل والخوف). من جهة أخرى، ثمة أفعال تترك أثراً موضوعياً في مصير المتأثرين إما عن

طريق تحويله (تحسينه أو إفساده)، وإما عن طريق إبقائه كما هو (حمايته أو إحباطه).

بالنسبة للفاعلين، يكرر نظام التسمية الخاص بهم جزئياً ما وجدناه لدى المتلقين المتأثرين: تحويلاً أو إبقاء، تحسيناً أو إفساداً، حماية أو إحباطاً. لكن هنالك سلسلة من أنماط الفاعلين المحددين تربطها صلة وثيقة بفكرة التأثير على المتأثرين. ودراسة بريمون لهذه المجموعة تُعد بالتأكيد واحدة من المساهمات المهمة لـ «منطق الحكاية» (انظر ص ص. 242 - 281). في حالة المتأثر، هنالك تأثير يتجه نحو الفاعل النهائي ويتنزع منه رد فعل ما. الإقناع أو الإثناء، على سبيل المثال، يعملان على مستوى المعلومة المتصلة بما يتحتم فعله، أو الوسيلة المطلوب استخدامها، أو العقوبات الواجب تجاوزها، فضلاً عن المشاعر التي يستطيع المؤثر أن يستثيرها أو يكبحها. إذا أضفنا إلى ما سبق أن المعلومة أو الدافع يمكن أن تستند على أساس متين أو كذبة، عندها نتوصل إلى أدوار في غاية الأهمية تتركز حول فكرة الفخ التي تضيف على المؤثر صفة المضلل أو المخادع، المرائي أو الناصح غير الأمين.

تغني هذه الثنائية الثانية مفهوم «الدور» بطرق شتى. كما أنها تزج بهذا المفهوم، في المقام الأول، في حقل «التقييمات» بوساطة مفاهيم التحسين أو الإفساد، الحماية أو الإحباط. وبهذه الطريقة يجد الفاعل والمتأثر أنهما رُقياً إلى مرتبة الأشخاص. ما وراء هذا، تصل ذاتية قادرة على تفسير المعلومة والتأثر بها حقلاً جديداً، هو حقل «التأثيرات». وأخيراً، ينشأ دور فاعلٍ قادرٍ على المبادرة من حقلٍ جديدٍ هو حقل «الأفعال» بالمعنى القوي للمصطلح.

يُستكمل هذا الجرد بإضافة مفاهيم الاحترام والازدراء، جنباً إلى جنب، من جهة المتأثر، إلى الأدوار الجديدة للمنتفع من الاحترام وضحية الازدراء؛ ومن جهة الفاعل، إلى الأدوار المتعلقة بتوزيع المكافآت والعقوبات. لذلك ينفتح حقل جديد أمام ممارسة الأدوار، يضاف إلى حقل التقييمات والتأثيرات والأفعال؛ هو حقل «الثواب والعقاب».

هذه إجمالاً هي التخطيطية التي تقف خلف المسح الهادف إلى تعريف الأدوار السردية الرئيسة. وهو مسح يكافيء نظام تسمية أو تصنيف يجمع الأدوار. بهذا المعنى يفي مشروع بريمون بوعده. فهو لا يقدم جدولاً بالحبيكات، كما يفعل نورثرب فراي، بل جدولاً بالمراكز الممكنة التي تشغلها شخصيات محتملة في مرويّات محتملة. بهذا المعنى يكون هذا المسح بالفعل «منطقاً».

السؤال الذي يطرح نفسه في نهاية هذا العرض المختصر لـ «منطق الحكاية» هو إن كان لمنطق الأدوار حظ أوفر من حظ مورفولوجيا الوظائف في إنجاز صياغة شكلية لمفهوم السرد على مستوى عقلانية تعلو على الفهم السردى، دون أن يستعير من مفهوم الحكبة، على نحو ضمني إلى هذا الحد أو ذاك، الملامح التي تضمن صيانة الطبيعة السردية حصراً لمثل هذا المنطق.

يحقق منطق الأدوار عند مقارنته مع مورفولوجيا بروب للحكاية الخرافية دون شك درجة أعلى من الشكلائية المجردة. فبينما قيد بروب نفسه بتخطيطية نوع واحد من الحكبة، هو ذلك المختص بالحكاية الخرافية الروسية، فإن مما يُحتسب لبريمون حقيقة أن نظام التسمية الذي يطرحه يمكن أن يطبق على الأدوار في كل أنواع الرسالة السردية، بما فيها السرد التاريخي (قارن، ص. 7). لقد اتخذ حقلاً لبخه المرويّات الممكنة. فضلاً عن ذلك فإن جدولته الخاص بالأدوار السردية يباشر إزالة التعاقب الزمني عن السرد فيكتمل مسعاه بقدر مايساوي نظام تسمية الأدوار تعبئة الجدول التبادلي بالأدوار الرئيسة التي يمكن أن تناط بأية شخصية في السرد. يحق لمشروع بريمون ادعاء عنوانين: شكلنة أكمل، وإزالة أكمل للتعاقب الزمني.

ولكن، لنا أن نتساءل ألا يحرم غياب أي اعتبار توزيعي في مسح الأدوار الدور من صفته السردية بالمعنى الضيق للكلمة؟ في الواقع، يفتقر مفهوم الدور ونظام تسمية الأدوار بوصفهما كذلك إلى أية صفة سردية، ولن يتحقق لهما ذلك إلا بواسطة الإحالة الضمنية إلى مواقعهما في سرد ما، وهو

ما لا يظهر بوصفه موضوعاً مستقلاً. إن غياب مكان منطق الأدوار داخل الحكبة يقيه نتاجاً لعلم دلالة الفعل السابق لمنطق السرد.

لكي أجعل هذا الجدال أكثر دقة سأتابع ترتيب العرض المستخدم آنفاً. نتذكر أن مفهوم الدور قد سبقه مفهوم «تابع ابتدائي»، وهو يقابل المراحل الثلاث التي قد يجتازها أي فعل، من الاحتمال إلى الحدوث وإلى النجاح. وأنا أوافق على أن هذا التتابع يوفر فعلاً، عن طريق البدائل والخيارات التي يفتحها، أحد شروط السردية الذي يغيب عن نموذج بروب. لكن شرطاً للسردية لا يساوي مكوناً سردياً. إنه لا يكون كذلك إلا إذا اقتفت حبكة ما خط سير مكوناً من كل الخيارات بين الفروع البديلة المتعاقبة. وبريمون على حق حين يقول إن «العملية التي يتولاها التتابع الابتدائي ليست دون شكل. إن لها بالفعل بنيتها الخاصة، التي هي بنية المتجه vector». (ص. 33). ولكن أليست هذه «الاتجاهية» التي تفرض نفسها على راو «يتعلق بها لخلق المحتوى الابتدائي لسرده» (المصدر السابق) مستعارة من الحكبة التي تحوّل الشروط المنطقية لـ «خلق شيء ما» إلى منطق السرد المتحقق؟ ألا يوجد إسقاط لسلسلة الخيارات على منطق الفعل بواسطة من تنفيذ السرد؟

صحيح أن بريمون يكمل فكرة التتابع الابتدائي هذه بفكرة السلسلة المعقدة، ولكن تحت أية شروط تخلق هذه السلاسل سرداً؟ إن تخصيص تابع ما بواسطة تابع آخر، كما في حالة التطويق، لا يعني بعدُ خلق سرد، بل بالأحرى جدول لمنطق الفعل، كما في النظرية التحليلية للفعل⁽²⁴⁾. إن خلق سرد ما، أي قيادة حالة وشخصيات على نحو ملموس من بداية ما إلى نهاية ما، يقتضي تَوسُّط ما يُنظر إليه هنا على أنه نموذج بدئي ثقافي بسيط (بريمون، ص. 35)، وما ذاك إلا الحكبة. يعني خلق الحكبة استخلاص «شكل جيد» على مستوى التتابع وعلى مستوى التصور في آن واحد⁽²⁵⁾. والسرد كما أراه يضيف إلى فعل أي شيء قيوداً تكميلية تختلف عن تلك الخاصة بمنطق المرويات الممكنة. أو إن شئنا التعبير عن هذا بطريقة

أخرى، يبقى منطق الوحدات السردية الممكنة منطق فعل لا غير. إن عليه لكي يصبح منطق سرد أن يلتفت إلى التصورات الثقافية المعترف بها، إلى تلك التخطيطية الخاصة بالسرد التي تشكلها أنماط الحبكة المتوارثة عبر التقليد. ولن يصبح فعل شيء ما قابلاً للرواية إلا عبر هذه التخطيطية. إنها وظيفة الحبكة أن تنعطف بمنطق الأفعال الممكنة نحو منطق المرويات المحتملة.

تؤثر هذه الشكوك حول المكانة السردية حصراً للتتابع الابتدائي والسلسلة المعقدة في فكرة الدور السردية نفسها، التي يقارنها بريمون مع «التقرير السردية» الذي طرحه تودوروف⁽²⁶⁾. من المناسب هنا استذكار ما قاله آرثر دانتو عن الجمل السردية مرة أخرى. لكي نحصل على جملة سردية لا بد من وجود ذِكرٍ لحدثين، أحدهما يشار إليه والآخر يوفر الوصف الذي بصيغته يُنظر إلى الحدث الأول. من هنا فإن الدور لا يكون سردياً إلا ضمن حبكة ما. إن ربط فعل بفعل هو أكثر الوقائع عمومية في علم دلالة الفعل، لكنه لا يتصل بنظرية السرد إلا بقدر ما يكتف علم دلالة الفعل هذه النظرية بوضوح.

أما بالنسبة للمسح النظامي للأدوار الرئيسة، فإن علاقته بنظرية السرد لا تصح إلا بقدر ما تكون الأدوار، بكلمات بريمون نفسه، المسجلة في القائمة على هذا النحو، من النوع «الذي يظهر ليس في السرد فحسب، ولكن بوساطة السرد ومن أجل السرد، بمعنى أن ظهور دور أو كبحه في لحظة ما من السرد، أمر متروك دائماً إلى تدبّر الراوي، الذي يختار إما الصمت وإما الكلام. من أجل السرد؛ بمعنى أن تعريف الأدوار يعمل في السرد، كما أراد بروب، «من زاوية أهميته لمسار الفعل». (ص. 134، التأكيد منه). ليس من طريقة أفضل من هذه لتأكيد العلاقة الدائرية بين الدور والحبكة. ولكن لسوء الحظ، لا يلتفت المسح النظامي للأدوار الرئيسة إليها، كما إنه يعجز عن أن يحل محلها⁽²⁷⁾. ما هو مُفْتَقَدٌ «تركيب الأدوار في الحبكة» (ص. 322) وهو ما يكتفي بريمون بالإشارة إلى مكانه الفارغ. الواقع، إن هذه التركيبية لا

يوقرُها منطق السرد مفهوماً على أنه مجموعة مفردات المعجم والتركيب النحوي للأدوار، أي على أنه نحوٌ. لا تكمن تركيبة الأدوار التي تتضمنها الحبكة في نهاية نظام اقتارات للأدوار. الحبكة حركة. والأدوار أماكن، أو مواضع تُشغل في سياق الفعل. إن معرفة كل الأماكن القابلة لأن يتم توليها - أي معرفة كل الأدوار - لا يرقى إلى معرفة أية حبكة على الإطلاق. مهما تشعب نظام التسمية فإنه لن يخلق قصة. لابد من تفعيل التعاقب الزمني، والتصور، والحبكة، والفكرة أيضاً. إن هذه العملية كما لاحظ لويس منك، هي فعل إصدار حكم صادرٍ عن فعل «إدراك معاً». أو إن شئنا التعبير عنه بطريقة أخرى، تنبع الحبكة من ممارسة السرد، وبذلك فإنها تنشأ من تداولية الكلام، لا من نحو اللغة *Langue*. وهذه التداولية يفترضها مسبقاً إطار نحو الأدوار، إلا إن إنتاجها داخله أمر متعذر⁽²⁸⁾.

ينتج عن هذا الطمس للعلاقة بين الدور والحبكة أن «الضرورات المفهومية المحايثة في تطور الأدوار» (ص. 133) تنبع من علم دلالة الفعل ومنطقه أكثر منها من منطق حقيقي للسرد. وكما رأينا، فإن الإثراء المتزايد لجدول الأدوار، عبر تفاعل التخصيصات والارتباطات التي تغير تباعاً من حقل التقييمات إلى حقل التأثيرات، ثم إلى حقل المبادرات، لتنتهي إلى حقل الثواب والعقاب، يُقدم ببساطة تحت مظلة علم دلالة الفعل المستعار من اللغة العادية⁽²⁹⁾. لكن طمس العلاقة بين الدور والحبكة لا يذهب إلى حد إلغائها. أليس توافق الأدوار مع الحبكة الخاص بها هو ما يوجه سرّاً ترتيب نظام الأدوار على شكل حقول متلاحقة يمكن أن تدخل فيها؟ أليست الممارسة السردية الناشطة في الحبكة هي التي تجتد، إن صح القول، بواسطة علم دلالة الفعل، المحمولات القادرة على تعريف الأدوار السردية بسبب قدرتها على إدخال بني الفعل الإنساني في مملكة السرد؟

إذا صحت هذه الفرضية فإن معجم الأدوار السردية لا يشكل نظاماً سابقاً على كل حبكة أو يعلو عليه. ليست الحبكة نتاج خواص تجميعية

لنظام، وإنما هي المبدأ الانتخابي الذي يرسم الفرق بين نظريتي الفعل والسرد.

سيمياء غريماس السردية

سبق السيمياء السردية لـ أ. ج. غريماس، التي نجدها في كتابيه «في المعنى» Du sens و«موباسان» Maupassant، جهد ابتدائي لتشكيل النموذج في كتابه «علم الدلالة البيوي»، الذي نشر لأول مرة عام 1966⁽³⁰⁾. وفيه نستطيع أن نرى بالفعل طموحه إلى تكوين نموذج لاتعاقبي صارم، إلى جانب محاولته اشتقاق جوانب السرد التعاقبية العvisية على الاختزال، كما نرويها أو نلقاها، بوساطة تقديمه لقواعد تحويل مناسبة. وهذا الطموح هو الذي يحكم قراره الاستراتيجي الأول، أي خياره بأن يبدأ، لا كما فعل بروب من وظائف أو مقاطع أفعال مشكلنة، وهي التي تلتزم كما رأينا نظاما تتابعيا، ولكن بالقائمين بالفعل، الذين يسمّون «الفاعلين» تمييزا لهم عن الشخصيات التي تجسد أدوارهم. ولهذا الخيار ميزة مزدوجة. لقد رأينا في عمل بروب أن قائمة الفاعلين أقصر من قائمة الوظائف، لتتذكر أن تعريف الحكاية الخرافية الروسية يذهب إلى أنها سرد له سبع شخصيات. فضلا عن ذلك، فإن التفاعل بين الفاعلين يستجيب مباشرة إلى تمثيل تبادلي، لا توزيعي.

سأناقش فيما بعد كيف أن هذا النموذج الفاعلي قد تجذّر وازداد ثراء بفعل الصياغات السيميائية السردية اللاحقة. إلا أن هذا النموذج، حتى في مرحلته الابتدائية، يكشف لنا الصعوبات الرئيسة التي تواجه أي نموذج لا تعاقبي يهدف إلى تناول الزمن السردى.

أول ما يُقصد للنموذج الفاعلي القيام به تفعيد مسح الأدوار الفاعلية، التي قد تبدو قائمتها محكومة بالمصادفة، على أساس خواص كلية تميز الفعل البشري. إذا تعذر علينا الاستمرار في تقديم وصف جامع مانع للامكانات الاقترانية للفعل الإنساني على المستوى السطحي، فإن علينا أن

نجد مبدأ تكونها العميق في الخطاب نفسه. وهنا يتبع غريماس اقتراحا من اللغوي الفرنسي لوسيان تيزنيير Tesnières مفاده أن أبسط جملة هي بالفعل دراما مصغرة تنطوي على عملية وفاعلين وظروف. تؤدي هذه المكونات التركيبية الثلاثة إلى نشوء ثلاثة أصناف لغوية هي الأفعال النحوية، والأسماء (المشاركون في العملية)، والظروف النحوية. إن هذه البيئة الأساسية تجعل من الجملة «مشهداً يقدمه الإنسان المتكلم لنفسه». يتوفر نموذج تيزنيير على الكثير من المزايا. فهو أولا متجذر في بنية اللغة. ثم أنه يوفر استقرارا مرده إلى الديمومة التي يتمتع بها توزيع الأدوار على المكونات التركيبية. وأخيرا، فهو يقدم ذلك الضرب من رسم الحدود والإغلاق الذي يتفق مع البحث النظامي اتفاقا عاليا. لذلك فإن هنالك إغراء قويا بسحب التركيب النحوي الأولي للجملة هذا وتطبيقه على تركيب الخطاب، وهو ما يتحقق بفضل مسلمة التشاكل بين اللغة والأدب التي أشرنا إليها آنفا.

لكن ما يفضح عجز النموذج الفاعلي عن الإيفاء بالمستلزمات النظامية للبنوية إيفاء تاما هو حقيقة أن سحب التركيب النحوي للجملة على تركيب نحو الخطاب يتطلب عملية مسح للأدوار استمدها محللون سابقون من مجموعات متنوعة ومعداة تجريبيا؛ حكايات بروب الخرافية، والحالات متي الألف التي شخصها سوريو Souriau⁽³¹⁾. يتخلق النموذج الفاعلي إذن من تكييف متبادل بين مدخل استنباطي، يحكمه التركيب النحوي، ومدخل استقرائي نابع من عمليات مسح قائمة فعلا. من هنا تنشأ الطبيعة المركبة للنموذج الفاعلي بوصفه مزيجا من تكوين نظامي و«ترتيبات» [متنوعة] صادرة عن ترتيب عملي («علم الدلالة البنوي»، ص. 198).

يجد هذا التكييف المتبادل توازنه في نموذج ذي ستة أدوار تستند إلى ثلاثة أزواج من المقولات الفاعلية، تكون كل واحدة منها ثنائية ضدية. تضع المقولة الأولى الذات ضد الموضوع. ويكمن أساسها التركيبي في صيغة (أ) يرغب في (ب). كما إنها تلقى دعما من عمليات المسح التي تم الرجوع

إليها (ينطلق البطل باحثاً عن شخص ما، كما عند بروب). تستند المقولة الثانية على علاقة اتصال. وفيها يوضع المرسل على الضد من المستلم. لدينا هنا أيضاً أساس تركيبى نحوي. كل رسالة هي همزة وصل بين باعث ومستلم. بهذا نصادف من جديد مانح بروب (الملك الذي يكلف البطل بمهمة، وما أشبه) والمستلم المندمج مع البطل. المحور الثالث براغماتي. وهو يضع المساعد على الضد من الخصم. ويمتزج هذا المحور بعلاقة الرغبة أو علاقة الاتصال، إذ يمكن لكل واحدة منهما أن تدعم أو تُعاق. يقر غريماس أن الأساس التركيبى النحوي لهذه الحالة أقل وضوحاً، برغم أن ظروفنا نحوية معينة (و لكن على نحو إرادي) يمكن أن تحتل مكان هذا الأساس التركيبى، وكذلك يمكن أن تحتله الأدوات الظرفية أو كيفيات الفعل النحوي في بعض اللغات. في عالم الحكايات الخرافية يمثل هذا الثنائي القوى الخيرة والقوى الشريرة. باختصار، يقرن النموذج ثلاث علاقات - تصل بالرغبة، والاتصال، والفعل - يستند كل واحد منها على ثنائية ضدية.

مهما قبل عن عظم الجهود المطلوبة لوضع تفاصيل هذا النموذج، فإن تركيته تتأني من بساطته وأناقته. كما إنه، على خلاف نموذج بروب، يتميز بإمكانية تطبيقه على فضاءات صغيرة متنوعة بقدر ما هي متباينة. لكن ما يثير اهتمام المنظر ليس هذه اللحظات الثمينة للنموذج، وإنما أنظمة العلاقات بين المواقع المتنوعة التي يتناولها .

يتقرر مصير هذا النموذج عند العبور من الشخصيات إلى الأفعال، أو بصيغ أكثر تقنية من الفاعلين إلى الوظائف. ونتذكر أن بروب توقف عند مسح يحتوي على إحدى وثلاثين وظيفة عرّف بها مجالي الفعل والشخصيات، وكذلك الشخصيات نفسها. في النموذج الفاعلي، يستند المشروع الذي يصفه غريماس بأنه مشروع «اختزال» و«هيكلة» على القواعد التحولية للعلاقات الثلاث الخاصة بالرغبة، والاتصال، والفعل (انظر، ص. 223). وهو يقترح، استباقاً لنموذجه الثاني الذي سيقدمه في «المعنى»، وصف كل التحويلات

الناجمة عن أية مقولة «سيميائية» [أي متصلة بالمعنى - م] بأنها وصل وفصل. عند النظر في أي متن يُعامل السرد على المستوى التوزيعي بوصفه عملية تبدأ من تأسيس عقد، يصار إلى فسخه فيما بعد، ثم يُعاد العمل به. يمكن اختزال هذا المستوى التوزيعي إلى المستوى التبادلي عبر اعتبار إقامة العقد عملية وصل بين تفويض وقبول، وفسخ العقد عملية فصل بين منع وخرق، واستعادة العقد عملية وصل جديد (استقبال المساعد في الاختبار التأهيلي؛ والتخلص من النقص في الاختبار الرئيس، وإثبات المكانة في اختبار التعظيم). هنالك إمكانية لتقديم العديد من حالات الوصل والفصل داخل هذه الخطة العامة اعتماداً على العلاقات الأساسية الثلاث: الرغبة، الانصال، الفعل. لكن يمكن القول إجمالاً أن ليس ثمة بين النقص والتخلص منه إلا «هويات يُوصل بينها وضديات يُفصل بينها» (ص. 226). وهكذا تنتهي الاستراتيجية برمتها إلى محاولة واسعة للتخلص من التعاقب الزمني.

مع ذلك، لا تبلغ هذه الاستراتيجية هدفها داخل نموذج فاعلي محض. في الواقع إنها تسهم بدلاً من ذلك في زيادة إبراز الدور العصي على الاختزال للتطور الزمني في السرد بقدر ما هي تكشف تفاصيل مفهوم الاختبار⁽³²⁾. تمثل هذه الفكرة اللحظة النقدية للسرد، المشخصة على مستوى التعاقب الزمني بوصفها تقصياً. والاختبار يجمع فعليا المواجهة والنجاح. لكن العبور من الأولى إلى الثاني أمر غير محسوب إطلاقاً. هذا هو السبب في أن علاقة النتائج لا يمكن أن تُختزل إلى علاقة تضمين بالضرورة⁽³³⁾. ولابد من قول الشيء نفسه عن الثنائي تفويض/قبول، الذي يطبق التقصي نفسه منظوراً إليه على أساس وحدته.

يكسب التقصي، من جهته، خاصيته غير المحسوبة من الجانب القيمي العالي الذي تأتي به آلية مفاهيم العقد، والنقص، والاستعادة نفسها. يكون النقص، بوصفه نقياً للقبول، نقياً قيمياً بقدر ما هو فصل منطقي. وغريماش نفسه يرى ملمحاً إيجابياً واحداً في هذا التعليق للعقد: «تأكيد حرية الفرد».

(ص. 423)⁽³⁴⁾. لذلك فإن التوسط الذي يتسبب فيه السرد بصفته تقصّياً لا يمكن أن يكون ببساطة منطقياً. إن التحول في العناصر وفي العلاقات بينها أمر تاريخي في حقيقته. وهو ما يجعل من المتعذر اختزال دور الاختبار، والتقصي، والكفاح إلى مجرد تعبير مجازي عن تحول منطقي⁽³⁵⁾. والأخير، بدلا من ذلك، هو الإسقاط المثالي لعملية ترمين أساسا. بكلمات أخرى، فإن التوسط الذي يحققه السرد عملي من حيث الجوهر، إما لأنه، كما يقترح غريماس، يهدف إلى استعادة نظام سابق يتعرض للتهديد، وإما لأنه يهدف إلى إسقاط نظام جديد يمكن أن يمثل وعدا بالخلاص. وسواء فسرت القصة النظام الموجود أم قُدمت نظاما آخر، فإنها تُقَدِّم بصفاتها قصة كل إعادة صياغة منطقية صرف لبنيتها السردية. بهذا المعنى يكون فهمنا السرد، وفهمنا للحبكة، سابقين على أية إعادة تكوين للسرد على أساس تركيبة منطقية.

يلقى تأملنا في الزمن السردى اغناء ثميناً هنا. فمنذ اللحظة التي يعترض فيها عنصر التعاقب الزمني على التعامل معه بوصفه فضلة في التحليل، يصبح متاحا لنا التساؤل: ما هي الخاصية الزمنية التي تختبئ تحت كلمة «تعاقب زمني»، وهي التي أكدت من قبل اعتمادها على فكرتي التزامن واللازم؟ أرى أن الحركة من العقد إلى الكفاح، ومن الاغتراب إلى إعادة تأسيس النظام، والحركة التي تكوّن التقصي، لا تنطوي على زمن تنابعي وحسب، أي تعاقب زمني يغري على الدوام بنزع الصفة التعاقبية عنه أو إضفاء المنطق عليه، كما قلنا آنفا. إن المقاومة التي يبديها عنصر التعاقب الزمني ضمن نموذج يسعى في مهمة لا تعاقبية من حيث الجوهر، تعبّر عن مقاومة أساسية هي مقاومة الزمنية السردية للتعاقب الزمني البسيط⁽³⁶⁾. إذا كان بالإمكان اختزال التعاقب الزمني إلى أثر سطحي، فإنما ذلك لأن السطح المزعوم قد جُرد بالفعل من الجدل الخاص به؛ تحديدا، التنافس بين البعدين التنابعي والتصورى في السرد، وهو تنافس يجعل السرد كُلا تنابعيا أو تابعا كليا. وما هو أهم وأعظم أن الصدع بين العقد والكفاح الذي يكمن خلف هذا الجدل، يكشف عن ذلك الجانب من

الزمن الذي أسماه أوغسطين، متبعا أفلوطين، انتشارا للعقل لا (الروح). علينا لذلك ألا نتكلم عن الزمن، ولكن عن التزمين. إن هذا الانتشار عملية زمنية في حقيقته، تجد تعبيرا عنها في التأخيرات، والمنعطفات، والتشويق، وكل استراتيجية تأجيل في التقصي. بل ويُعتبر عن هذا الانتشار الزمني أكثر بوساطة البدائل، والتفريعات، والارتباطات العرضية، وأخيرا النتيجة غير المتوقعة للتقصي نجاحا أو فشلا. الواقع، إن التقصي مبدأ ناشط في القصة لأنه يعزل ويعيد ضم النقص والتغلب على النقص في آن واحد، وهو ما يشبه تماما الاختبار الذي هو لب العملية الذي لا يمكن لشيء أن يحدث بدونه. بهذه الطريقة يعيدنا التركيب النحوي الفاعلي إلى الحكمة في «فن الشعر» لأرسطو، ومن خلاله إلى اعترافات أوغسطين.

لا تشكل سيميائية «في المعنى» و«موباسان» نموذجا جديدا في الواقع بقدر ما هما تجذير واغناء في الوقت ذاته للنموذج الفاعلي الذي انتهينا من مناقشته للتو. وهما تجذير بمعنى أن غريماس يحاول أن يتعقب القيود على السردية راجعا إلى مصدرها الأول، القيود المتصلة بأشد حالات اشتغال أي نظام سيميائي أولية. وهو ما سيجعل تبرير السردية يستند على أساس أنها ممارسة نزعت عنها الصدفة، وهما اغناء بمعنى أن حركة الاختزال إلى أكثر المستويات أولية ستعوض عنها حركة انفتاح تقصد الأشكال المعقدة. لذلك فإن طموحه هو العودة عبر الدرب الارتدادي إلى ذلك المستوى السيميائي الأساس أكثر منه إلى المستوى الاستطادي نفسه، حيث يجد السردية مستقرة في مكانها ومنظمة قبل ظهورها. تكمن في الاتجاه المعاكس، طوال الدرب المتجه إلى أمام، أهمية النحو السردية الذي يقدمه غريماس في محاولته الجمع، خطوة خطوة، لاشتراطات السردية انطلاقا من نموذج منطقي هو أبسط ما في الإمكان ولا يحتوي ابتداء على أي جانب تعاقبي.

لكن السؤال هو هل بالعودة إلى بنية المرويات التي تنتجها فعلاً التقاليد الشفاهية أو المكتوبة ستكتسب الإضافات المتعاقبة التي يغني بها غريماس

نموذجه الابتدائي أهليتها السردية من النموذج الابتدائي أم من اقتراحات متخارجه معها؟ رهانه أنه يمكن، برغم هذه الاضافات، الحفاظ من البداية إلى النهاية على تكافؤ بين النموذج الابتدائي وال قالب الأخير. علينا إذن النظر في هذا الرهان تحديدا من الناحية النظرية والعملية معا.

لنتتبع الترتيب المتبع في «تفاعل القيود السيميائية»: هنالك أولا البنى العميقة التي تعرّف شروط معقولة المواضيع السيميائية؛ ثم البنى المتوسطة، الموصوفة بالسطحية مقارنة مع سابقتها، حيث يجد تفعيل السرد التعبير القولي المتحقق عنه، وهنالك أخيرا بنى الظهور الخاصة بهذه اللغة أو تلك، وهذه المادة التعبيرية أو تلك.

المرحلة الأولى، المتعلقة بـ «البنى العميقة»، هي مرحلة «النموذج المكوّن»⁽³⁷⁾. والمشكلة التي يسعى غريماس إلى حلها هنا هي الحصول على نموذج يمثل على نحو مباشر خاصية معقدة، ولكن دون أن تجسد في مادة أو واسطة لغوية أو غير لغوية. لكنها بالرغم من ذلك لا بد وأن تكون قد قيلت إذا ما أريد لها أن تُروى. ويمكن القول إن بارقة النبوغ لديه تمثلت في سعيه للحصول على هذه الخاصية ذات الطابع القولي بالفعل في أبسط بنية منطقية ممكنة؛ «البنية الابتدائية للمعنى» (المصدر السابق). تحليل هذه البنية على شروط إدراك المعنى، أي معنى مهما كان. إذا كان كل شيء - ولا يهم ما هو - «يعني شيئا ما» [signifie]، فما ذلك لأن لدينا حدسا بمعناه، ولكن لأن بإمكاننا تقديم نظام ابتدائي من العلاقات كما يلي: «الأبيض» يعني شيئا لأننا نستطيع أن نعبر عنه قولاً بالمقارنة مع ثلاث علاقات، إحداها علاقة تناقض^(*) (أبيض

(*) «التناقض contradiction»: وهي علاقة تقابل بين الإيجاب والسلب في حدين أو قضيتين تحتويان على عنصرين لا يجتمعان ولا يرتفعان ولا وسط بينهما» («المعجم الفلسفي»، مجمع اللغة العربية في القاهرة، بإشراف د. إبراهيم مذكور، القاهرة، 1983. وسأشير إليه فيما يلي بعبارة «المعجم الفلسفي» فقط). - المترجم.

(**) «ضد contrariety»: مصطلح منطقي قديم يدل على تقابل صفتين مختلفتين كل الاختلاف تتعاقبان على موضوع واحد ولا تجتمعان كالسواد والبياض ويكون بين =

مقابل لا أبيض)، وأخرى علاقة ضد^(*) (أبيض مقابل أسود)، وأخرى علاقة افتراض مسبق^(*) (لا أبيض مقابل أسود). بهذا نحصل على «المربع السيميائي» المعروف لغريماس، والذي يقال عن قوته المنطقية إنها تتحكم في كل اغناء للنموذج⁽³⁸⁾.

كيف سيتاح إضفاء الصفة السردية على هذا النموذج التكويني، على الأقل بالمعنى التقريبي؟ بوساطة طرح تمثيل دينامي للنموذج التصنيفي؛ أي لنظام العلاقات غير الموجهة التي تكون المربع السيميائي؛ أو باختصار، بوساطة معالجة تعتبر هذه العلاقات عمليات. وهنا نعيد اكتشاف مفهوم التحول المهم نفسه الذي سبق وأن أدخله النموذج الفاعلي على شكل وصل وفصل. تبدو العلاقات الثلاث الخاصة بالتناقض والضد والافتراض المسبق، عندما تُعاد صياغتها بصيغة عمليات، تحولات يتم بوساطتها نفي محتوى ما وتأكيد آخر. وما الشرط الأول للسردية إلا إطلاق الحركة في هذا النموذج التصنيفي بوساطة مثل هذه العمليات الموجهة. تشهد هذه الإشارة الأولى إلى السردية بالفعل على الجذب الذي يمارسه الهدف المبتغى على التحليل. وهو هدف يوضح الطبيعة القلقة للعملية السردية على مستوى الظهور. وهذا هو ما يجعل من المهم بث الحركة في البنية. لكن لنا أن نسأل أليست القدرة المكتسبة من رفقة طويلة مع المرويات التقليدية هي ما يسمح لنا، عبر الاستباق، أن نسمي «إضفاء صفة السرد» إعادة صياغة بسيطة للتصنيف بصيغة عمليات، وهو ما يضع على عاتقنا أيضا الانطلاق من علاقات مستقرة إلى عمليات قلقة؟

المرحلة الثانية - المتعلقة بالبنى «السطحية» التي لم تصبح بعد «مجازية»

= المعاني الكلية والقضايا. وورد في تعريفات الجرجاني «الضدان لا يجتمعان وقد يرتفعان في حين أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان» (المعجم الفلسفي) - المترجم
(*) افتراض مسبق presupposition: ما يؤخذ على أنه مسلم به في بداية بحث أو برهنة أو مناقشة، (المعجم الفلسفي) - المترجم.

- تحدث عبر تجسيد النموذج التكويني على شكل «فعل شيء ما». أما الكلام عن مستوى مجازي فيقتضي منا النظر في فاعلين من لحم وعظم يسعون إلى إنجاز مهمات، ويخضعون لاختبارات، ويبلغون أهدافا. لكن بوسعنا، ضمن المستوى الذي نحن بصده الآن، أن نحصر أنفسنا في النحو الخاص بفعل شيء ما إجمالاً. وهذا هو ما يطرح المرحلة التكوينية الثانية. أما العبارة الأساسية التي تمثلها فهي العبارة السردية البسيطة من نوع «شخص ما يفعل شيئاً ما». لكي نقلب هذه العبارة إلى «عبارة برنامجية»، علينا أن نضيف إليها جهات^(*) توفر لها إمكانات مختلفة: الرغبة في فعل شيء ما، الرغبة في امتلاك (شيء ما)، الرغبة في أن يكون المرء (قيمة ما)، الرغبة في أن يعرف المرء (شيئاً ما)، الرغبة في أن يكون قادراً (على فعل شيء ما)⁽³⁹⁾.

نحصل بوساطة طرح لاحق لعلاقة سجالية بين برنامجين، وبالتالي بين ذات وذات - مضادة على المستوى السردى. عندها يكون كافياً تطبيق قواعد التحويل القادمة من النموذج التكويني على سلسلة من العبارات السردية للحصول على المواجهة (عبر الفصل)، الرغبة في الهيمنة والهيمنة (عبر الإدراج الجهوي)، وأخيراً نسبة موضوع/ قيمة إلى ذات الهيمنة (عبر الوصل). السلسلة التوزيعية المطروحة على شكل مواجهة، هيمنة، نسبة (والتي نستطيع أن نطبق عليها كل جهات القيام بشيء ما، والرغبة في فعل شيء ما، ومعرفة كيفية فعل شيء ما، والقدرة على فعل شيء ما) تسمى «أداء». ويكتب غريماس في معرض حديثه عن الأداء بوصفه مثل هذه السلسلة التوزيعية الموحدة «إنه ربما كان أكثر الوحدات تميزاً في التركيب السردى». («في المعنى»، ص. 173). من هنا انطباق مبدأ التكافؤ بين النحو العميق والنحو السطحي على هذا التكوين المعقد للأداء وهو تكافؤ يستند كلياً على علاقة التضمن بين المواجهة، والهيمنة، والنسبة⁽⁴⁰⁾.

(*) الجهة : modality وهي نسبة الموضوع إلى المحمول من حيث الضرورة أو الإمكان أو الامتناع (المعجم الفلسفي)، ومنها سأشتق صفة جهوي modal فيما يلي - المترجم.

ينتهي تكوين النموذج السردى بأن يُضاف إلى المقولة السجالية مقولة النقل المستعارة من بنية التبادل. إن العبارة الأخيرة من الثلاث التي تكون الأداء، تدل وقد أعيد تقديمها عبر صيغ التبادل، أي نسبة موضوع/ قيمة، إن ذاتا واحدة تحصل على شيء ما تُحرم منه ذات أخرى. لذلك يمكن أن تتحلل النسبة إلى عمليتين: حرمان، يمثل الفصل، ونسبة بالمعنى الضيق تكافئ الوصل. وهما يكوّنان معا النقل المعبر عنه بعبارتين «نقليتين».

يقودنا هذا التحويل إلى مفهوم «السلسلة الأدائية». ويُفترض أننا سنرى في مثل هذه السلسلة الهيكل الشكلي لكل سرد.

فائدة إعادة الصياغة هذه أنها تسمح لنا بتقديم كل العمليات السابقة على أساس أنها تغيرات في «الأماكن»، الأماكن الابتدائية والنهائية للانتقالات؛ بكلمات أخرى، استكمال الشروط من أجل تركيب موقعي للعبارات النقلة. بهذه الطريقة، تصبح الزوايا الأربع في المربع السيميائي النقاط التي تبدأ منها الانتقالات وتنتهي إليها. كما إن خصوبة التركيب الموقعي هذا يمكن صياغتها بتفصيل أكبر بقدر ما تتوفر إمكانية نشر التحليل الموقعي ليشمل مستويي «فعل شيء ما» و«الرغبة في فعل شيء ما».

إذا اكتفينا أولا بالنظر في القيمة/ الموضوعات، المكتسبة أو المنقولة بواسطة فعل شيء ما، فإن بإمكان التركيب الموقعي تمثيل سلسلة العمليات المرتبة على المربع السيميائي على وفق خطوط التناقض والضدية والافتراض المسبق بوصفها بثا دائريا للمقيم. بل نستطيع أن نقول دون تردد إن هذا التركيب الموقعي الخاص بالانتقالات هو المبدأ الفاعل للسرد «بقدر ما هو عملية تخلق قيما». (ص. 178).

إذا نظرنا بعد ذلك ليس في العمليات حسب، ولكن في العاملين⁽⁴¹⁾، وهم ضمن خطة التبادل مصدر الانتقالات ومستلمها، فإن التركيب الموقعي يحكم التحولات المؤثرة في القدرة على فعل شيء ما، ومن هنا إحداث انتقالات القيمة المنظور فيها آنفا. بكلمات أخرى، هو يحكم تأسيس العاملين

التركييبين بواسطة خلق ذوات تتمتع بالقابلية الافتراضية على فعل شيء ما. لذلك يتفق هذا الانقسام للتركيب الموقعي مع انقسام الفعل والرغبة (أن يكون المرء قادرا على، أن يعرف المرء كيف)، أي انقسام العبارات السردية إلى عبارات وصفية وعبارات جهوية، ومن هنا الانقسام أيضا إلى سلسلتين من الأداءات. على سبيل المثال، الاكتساب هو النقل الذي يؤثر إما على قيمة الأشياء، وإما على القيم الجهوية (اكتساب القابلية، المعرفة، رغبة المرء في فعل شيء ما).

السلسلة الثانية من الأداءات هي الأكثر أهمية من وجهة نظر إطلاق العنان للمسار التركيبي للفعل. إذ يتوجب أن يتأسس الفاعلون بصفاتهم قادرين على فعل شيء ما وعارفين كيف يفعلونه، إذا ما أريد لانتقالات الأشياء ذات القيمة أن تُربط بعضها ببعض الآخر هي الأخرى. ولكن إذا سألنا من أين يأتي الفاعل الأول فإن من الضروري الإشارة إلى العقد الذي يؤسس ذات الرغبة عندما ينسب إليه جهة الرغبة. والوحدة السردية الخاصة التي تقوم فيها ذات «عارفة» أو «قادرة» على طرح هذه الرغبة تكون الأداء الابتدائي للسرد.

يقرن «السرد المكتمل» (ص. 180) سلسلة انتقالات القيم الموضوعية مع سلسلة الانتقالات التي تؤسس ذاتا عارفة أو قادرة.

لذا تؤكد اهتمامات غريماس الموضوعية أكثر المحاولات تطرفا في إدخال التوسيع النموذجي التبادلي إلى أبعد حد ممكن في قلب التوزيعي. لن يشعر في أي مكان آخر أنه أقرب إلى إدراك الحلم القديم في جعل علم اللغة جبرا للغة منه هنا⁽⁴²⁾.

الواقع أن السيميائية، في نهاية عبورها الخاص من مستوى المحايثة إلى المستوى السطحي، تجعل السرد نفسه لا يعدو هذا العبور [parcours]. لكنها تنظر إلى هذا العبور بوصفه التشاكل الصارم للعمليات التي تنطوي عليها البنية الأولية للمعنى مع مستوى النحو الأساسي. إنه «الظهور اللغوي للمعنى المروي» («في المعنى»، ص. 183).

إن العبور خلال المستويات السيميائية لا ينتهي في الواقع بقدر ما يتعرض للمقاطعة. وسلاحظ القاري أن لا شيء يقال هنا عن المستوى الثالث، أي مستوى الظهور، حيث الأماكن المُعرّفة شكليا على مستوى النحو السطحي تمتليء بطريقة مجازية ما. لقد ظل المستوى المجازي حتى الآن ابن العم الفقير للتحليل السيميائي. ويبدو أن السبب في ذلك عدم النظر إلى المجاز (سواء أكان قيميا، أم ثيميا، أم فاعليا) على أساس أنه نتاج عملية تصورية مستقلة. من هنا إطلاق تسمية «ظهور» على هذا المستوى - كما لو أن شيئا ذا أهمية لم يحدث هنا عدا عرض البنى الأساسية. بهذا المعنى يقدم لنا النموذج مجازات دون تصور. وتجد دينامية الحبك برمتها أنها تُحال على العمليات المنطقية - الدلالية وعلى نشر توزيعي للعبارات السردية في برامج، وأداءات، وسلسلة أداء. ليس من المصادفة أن لا يظهر مصطلح «حبكة» في المعجم التقني للسيميائية السردية. الحقيقة أنها لن تجد لها مكانا هناك ما دامت تنبع من الفهم السردى الذي تحاول العقلانية السيميائية توفير المكافئ له، أو بالأحرى النموذج المشبه به. لذا علينا انتظار أن تطور السيميائية السردية اهتماما محددا بالخاصية «المجازية» قبل أن نطلق حكما على المصير الذي ينتظر «تفاعل القيود السيميائية» على المستوى المجازي.

قبل أن أقترح تأملات نقدية بصدد هذا النموذج السيميائي، أود أن أشدد على الزخم الذي يبث الحياة في عمل غريماس ومدرسته. لقد لاحظنا للتو كيف أن النموذج السيميائي يجذر النموذج الفاعلي الابتدائي ويغنيه. علينا لذلك أن نعتبر «عن المعنى» خطوة واحدة في بحث ما زال متواصلا.

كتاب «موباسان» يضيف إليه ويجري بعض التحولات في الاتجاه. وأود أن أشير إلى ثلاث منها.

على مستوى البنى العميقة، بدأ غريماس يحول الخاصية اللاتعاقبية للعمليات التحويلية المطبقة على المربع السيميائي عبر إضافة بنى تتعلق بالكيفية إليها: «الاستمرارية» التي تنتج عن ترمين حالة ما وتُسَمَّى كل عملية

متصلة، ثم الجانبان النقطيان اللذان يحددان تخوم العملية: صيغتنا «الشروع» و«الختام» (كما في كلمتي «يحتضر» و«يولد» في قصة موباسان القصيرة «الصديقان»⁽⁴³⁾ Deux Amis)؛ وصيغة «التكرار» التي يمكن أن نربطها مع صيغة «الاستمرارية»، وأخيراً صيغة «التوتر»، علاقة التوتر المتأسسة بين وحدة معنى seme استمرارية وأخرى نقطية، والتي تعبر عنها عبارات مثل «وشيك الحدوث»، «كثيراً»، و«بعيد جداً».

ليس من السهل تحديد مكان هذه البنى الكيفية مقارنة من جانب بالبنى العميقة، ومن جانب آخر بالبنى الاستدلالية الاستطرادية التي تشغل الحيز نفسه الذي يشغله فعل شيء ما. فمن جهة، يُصار إلى مشاكلة هذه البنى الكيفية مع عمليات منطقية في الواقع. على سبيل المثال تحكم العلاقة التقابلية دوام/ حدوث التقابل استمرار/ نقطية. وبالمثل تعتبر المواقع الزمنية قبل/ خلال/ بعد «صياغات مزمنة» («موباسان»، ص. 71) للعلاقات المنطقية قبلي/ ملازم/ بعدي. أما بالنسبة للملفوظ دوام/ حدوث فهو لا يزيد عن كونه «تكييفاً للزمن» بالنسبة للثنائي متصل ضد منفصل. لكننا بهذه التعبيرات لا نفعل إلا زيادة العلاقة بالزمن بعداً. من جهة أخرى، لنا أن نسأل إن كان بالإمكان تقديم هذه الاعتبارات الكيفية على أي ترابط توزيعي، أي امتداد استدلالي. هذا هو السبب في أنها تُقدّم في التحليلات المفصلة لتتابعات قصة موباسان القصيرة بمناسبة توظيفاتها الاستدلالية. ولا يكاد المرء يرى كيف أمكن تزمين العلاقات المنطقية إذا لم تكن عملية ما قد تكتُشف وتتطلب بنية توزيعية للخطاب تستند على خطية زمنية ما. لذلك فإن إدخال البنى الكيفية على النموذج لا يحدث دون صعوبة معينة.

هنالك إضافة ثانية مهمة - تحدث أيضاً عند نقطة الانعطاف بين المستوى المنطقي - الدلالي وتوظيفه الاستدلالي - وهي تُسهّم في إضفاء المزيد من الحيوية على النموذج دون أن تضعف أساسه التبادلي. إنها تلك المتصلة بالخاصية القيمة العالية للمحتويات التي توضع على قمة المربع

السيمبائي. لذا فإن مجمل القصة في «الصديقان» تتكشف بصيغة «نظير متماكن» (*) مهيمن، حيث تؤسس الحياة والموت محور الاضداد مع ما يتقاطع معها من تناقضات: لا - حياة، ولا - موت. لكن هذه لا تعد فاعلين - وإلا لترتب علينا أن نتكلم عنها مستخدمين المقولات الخاصة بفعل شيء ما -، وإنما هي معان إيحائية «منشطة» أو «محبطة» يمكن أن تشكل الأساس لأي سرد. يتألف معظم ما تبقى من المعالجة السيميائية من تنسيب الشخصيات وكذلك الكيانات المؤنسنة بعض الشيء (الشمس، السماء، الماء، جبل فيرلين) إلى هذه المواقع. يشير كل شيء إلى أن هذه الاعتبارات القيمة تمثل أكثر من مجرد صور نمطية ثقافية أو أيديولوجيات. يسلم كل كائن بشري بالقيم الخاصة بكل من الحياة والموت. وما تختص به أية ثقافة، أية مدرسة فكرية، أي راو للقصص هو تجسيد هذه القيم الأساسية عبر مجازات محددة، تماماً كما تضع «الصديقان» السماء في جانب اللاحياة، والماء في جانب اللاموت. إن أهمية وضع هذه القيم المنشطة أو المحبطة في أعماق مستوى ممكن ليست فقط لأنها وهي تتكشف تضمن استقرار السرد، ولكن لأنها تنحاز بربطها القيمي بالمنطقي إلى سردنة النموذج الأساسي. ألم نتعلم من أرسطو أن التغيرات التي يتناولها المسرح أكثر من غيرها هي تلك التي تقلب الحظ الصالح إلى طالح أو بالعكس؟ ولكن، مرة أخرى، يصعب تأسيس مكان هذه التخصيصات القيمة ضمن الخطة العامة. فأولاً، يصعب الامتناع عن إحالة هذه التأثيرات المتصلة بالمعنى الإيحائي إلى الأدوار الثيمية، أي إلى الذوات الاستدلالية التي يكشف عنها معبر سردي ما. ثم إن الخاصية السجالية يشار إليها بالفعل بوساطة التقابل بين القيم. مع ذلك، يفترض أن هذه التقابلات تسبق الأدوار والذوات في علاقتها السجالية.

(*) نظير متماكن isotopy: عنصر ذو رقم ذري مماثل ووزن ذري مخالف في الفيزياء - المترجم.

يبقى تمييز الإضافة الثالثة إلى النموذج الابتدائي عن توظيفاتها الاستدلالية أكثر صعوبة. بالرغم من ذلك، فإن أسبقيتها المنطقية في علاقتها مع فعل شيء ما والفاعلين، وخاصيتها التبادلية الصريحة، تضمن لها مكانا قريبا ما أمكن القرب من البنى العميقة. إنها تتعلق بـ «المرسلين»، الذين يمثلهم الفاعلون والأدوار الثيمية، وتتعلق أيضا بالتجسيدات والمجازات اعتمادا على المستوى التراتبي المتنوع لهؤلاء المرسلين أو ممثلهم السرديين. لذلك نعتبر، إن شئنا إيراد مثال من قصة «الصديقان»، أن الحياة والموت ونقيضيهما مرسلون، ولكن هذا هو حال باريس وبروسيا أيضا. يرتبط بمفهوم المرسل هذا مفهوم الرسالة، ومن هنا الإرسال، وإلى جانبه مفهوم إطلاق الحركة، أي التحريك. بل إن غريماس، وهو يذكر هذا المفهوم لأول مرة في نصه، يركز على هذه الوظيفة: «تحويل مجموعة قيم معطاة بوصفها نظام قيم، إلى توزيعية فاعلة» (ص. 62). صحيح أن سيميائية السرد لا تقدم هذا المفهوم إلا في اللحظة التي تستطيع بها أن تجعله يتفق مع توزيع فاعلي، لكن الأهم، بالنسبة للنظرية، أن هذا التوزيع يغطي مجمل السرد. هذا هو السبب في أن غريماس يستطيع أن يتكلم عن «المكانة الأصلية الفاعلية للمرسل» (ص. 63)⁽⁴⁴⁾. بهذه الطريقة، فإن المحمولات القيمية والمرسلين تتركب على مربع المصطلحات المنطقية السيميائي قبل أن ينقش عليه أي «فاعلين مجازيين».

ما هو أهم حتى مما سبق التوسيعات التي يضيفها كتاب «موباسان» على النحو المتعلق بفعل شيء ما، وبالتالي على المستوى الاستدلالي البين. تستلزم القصة الحديثة النظر في العمليات التي تنكشف على المستوى الإدراكي، سواء أكان مسألة ملاحظة، أم معلومات، أم إقناع أم تأويل، أم خداع، وهم، أكاذيب، أسرار. يتولى غريماس هذا الاستحقاق (الذي يعود بأصله إلى الوظيفة الدرامية المتعلقة بـ «التعرّف» لدى أرسطو، وكذلك إلى التحليلات المعروفة عن شخصية المخادع في الانثروبولوجيا) عبر سلسلة من

القرارات المنهجية المتهورة. في المقام الأول، هو يشطر على نحو صريح تماما «فعل شيء ما» إلى «فعل شيء ما ذرائعيا» و«فعل شيء ما إدراكيا» حيث يقيم الفرع الأخير الذات الفاعلة بوصفها ذاتا عارفة noological متميزة عن الذات الجسدية. بعدها يقسم فعل إدراك شيء ما إلى قطبين: القطب الإقناعي (وهو ما يمارسه مرسل الفعالية الإدراكية بالنسبة للمستلم) والقطب التأويلي (وهو الاستجابة المقابلة من المستلم). والميزة الجوهرية في التعامل مع البعد الإدراكي بصيغ فعل شيء ما على هذا النحو هو أنه يسمح له بإخضاع عمليات معرفة أي شيء على الإطلاق للقواعد التحويلية نفسها التي تحكم الفعل (تذكر أن أرسطو ضمن بالفعل «أفكار» شخصياته في تعريفه للحبكة بصيغة مقولة الفكرة dianoa). بهذه الطريقة، تكون الاستدلالات من المظهر إلى الواقع، التي يتألف منها التأويل، هي أشكال لفعل شيء ما يمكن أن تنقش على مسار سردي، كما هو حال الأشكال الأخرى لفعل شيء ما تماما. وعلى نحو مماثل، ربما يكون لزاما على العلاقة السجالية التعامل مع شكلين إقناعيين لفعل شيء ما، فضلا عن شكلين تدويليين، كما هو الحال مثلا في مناقشة، أو حتى مع شكلين تأويليين، كما هو الحال في توجيه الاتهام أو إنكار الذنب. يترتب على ذلك، أن علينا بعد الآن، عندما نتكلم عن علاقة سجالية، أن نبقى في أذهاننا كل الأطياف المتصلة بـ «فعل شيء ما»⁽⁴⁵⁾.

مع ذلك، فإن ما حدث من قطيعة داخل نظرية فعل شيء ما، التي ظلت منسجمة نسبيا حتى هذه النقطة، لا يستهان به. إن علينا لكي نصف الإقناع والتأويل الاستعانة بمقولات جديدة بالنسبة للسميائية، قديمة بالنسبة للفلسفة؛ مقولات الكينونة والظهور. أن تُقنع هو أن تجعل شخصا يؤمن أن ما يظهر كما لو كان كذا هو كذا بالفعل، وأن تؤول يعني أن تستدل على الواقع من المظاهر. ولكن غريماس يصر برغم ذلك على أن علينا حصر هذه المصطلحات بـ «معنى الوجود السيميائي» (ص. 107). وهو يسمي العبور من

مستوى لآخر علاقة «ثقوية» تؤسس لقيم مثل اليقين، والإقناع، والشك، والفرضية، ويفعل ذلك برغم أنه يدّعي عدم امتلاك التصنيفية التي تجد ضمانتها في مثل هذه القيم الثقوية (قارن ص.108). كما إنه يعتقد أن بإمكانه بهذه الطريقة الحفاظ على طبيعة منطقية للتحويلات السردية التي تهدف فيها ذات ما، على سبيل المثال، بالتنويه على نفسها، إلى أن تجعل ذاتا أخرى تؤوّل عدم الظهور هذا على أنه شكل من اللاوجود. وتوضع هذه العملية تحت فئة السر، حيث تصل الذات الأولى الوجود بعدم الظهور. هذه الحالة، إذ توضع ضمن البعد الإدراكي لسرد فعل ما، محافظة بذلك على كل من نقشها السردى وملاحمها المنطقية بوساطة تقديم مربع سيميائي جديد هو «مربع التحقق من الصدق»، أسست لبداية هي مقابلة الوجود بالظهور، وأكملتها بالأضداد: لا وجود ولا ظهور على التوالي. وهكذا تشير الحقيقة إلى الوصل بين الوجود والظهور، والزيف إلى الوصل بين اللا ظهور واللاوجود، والكذب إلى الوصل بين الظهور واللاوجود، والسر إلى الوصل بين الوجود واللاظهور. الخداع هو الشكل الإقناعي لفعل شيء ما، وهو يتألف من تحويل الكذبة إلى حقيقة - الحث على قبول شيء على أساس أنه شيء آخر؛ أي تقديم ما يظهر على حال لكنه في الواقع ليس حاله، كما لو أنه ما يظهر إنه حاله وهو كذلك - والحصول على قبول له بوصفه كذلك. الوهم هو الشكل التأويلي لفعل شيء ما، وهو يتفق مع الكذبة عند قبولها كنوع من العقد مع المرسل المضلل. والمضلل، بوصفه دورا فاعليا، هو الشخص الذي يحصل على قبول الآخرين له بأن ينتحل صفة شخص أو شيء آخر، وهو يمكن بهذه الطريقة أن يُعرّف بدقة على مستوى التحقق من الصدق.

يشكل هذا الإدخال لفعل شيء ما إدراكيا، إلى جانب التمييز بين فعل إدراكي وتأويلي لشيء ما، وإدخال بنية التحقق من الصحة أهم إضافة من كتاب «موباسان» إلى تصنيفه «فعل شيء ما»، خصوصا إذا أخذنا بالاعتبار

الأشكال الجبهوية المتعلقة بحالة « أن تكون قادرا على فعل شيء ما » المطعّمة فيها. وهي تتضمن أهم ما في قصة «الصدّيقان»، الرفض، أي امتلاك القدرة على عدم فعل شيء ما. يتمكن غريماس بهذه الطريقة من وصف حالة درامية معقدة في قصة موباسان تتعلق بـ « نقص وهمي » تحوّل إلى « انتصار سري »⁽⁴⁶⁾.

هذه هي أهم الاغناءات التي يضيفها كتاب «موباسان» على النموذج السيميائي. وأميل إلى القول إنها تُوّسع النموذج دون أن تفرّقه، برغم أن سؤال التحقق من الصحة ربما كان أكبر ما يهدد بمثل هذه الفرقة. يتم ذلك، إذن، دون أن يطرح أية إعادة كتابة للنموذج الموصوف قبل عشرة أعوام في «في المعنى»، أو يقطع الطريق على النقد الذي يمكن أن نصوّبه ضد النموذج السيميائي الأساسي بمستوياته الثلاثة: البنى العميقة، والسطحية، والمجازية.

ومع ذلك، فإن السؤال الأساسي الذي يثيره نموذج النحو السردى هو: أليس ما يسمى المستوى «السطحي» أثيرى في إمكانيته السردية من النحو العميق، وكذلك ألا ينطلق الاغناء المتزايد للنموذج، بينما هو يتبع المسار السيميائي، من قدرتنا على متابعة قصة، ومن تلك الإلفة المكتسبة بيننا وبين التقليد السردى.

الإجابة عن هذا السؤال مفترضة مسبقا منذ تعيين النحو العميق على أنه مستوى المحايثة، والنحو السطحي على أنه مستوى الظهور.

بكلمات أخرى، يثير هذا السؤال مرة أخرى، برغم أن الأمر هنا يتعلق بنموذج أكثر صقلا بكثير، المشكلة التي شغلتنا منذ بداية هذا الفصل، مشكلة العلاقة بين عقلانية علم السرد والفهم السردى، التي تبلورها ممارسة الحبك. لهذا السبب لا مناص من أن نلّم أطراف النقاش.

الشك الأول الذي يساورني، والذي سيمثل النقاش اللاحق اختبارا له، أن تحليل غريماس ظل منذ مرحلته الأولى - أي منذ تكوين المربع السيميائي

- يسترشد غائبا بتوقع مسبق للمرحلة الأخيرة، تحديدا المرحلة التي يكون فيها السرد عملية خلقٍ للقيم («في المعنى»، ص. 178). يكافئ هذا على مستوى العقلانية السيميائية، كما أرى، ما تدعونا ننشئنا السردية إلى فهمه على أنه حبكة. ولكن واضحين بصدده ما أقوله. لا يجرد هذا الشك مشروع غريماس من أهليته. إنه يثير التساؤل حسب بصدده الاستقلال المزعوم لمثل هذه المساعي السيميائية، تماما كما أثار النقاش حول النماذج المعيارية في التاريخ التساؤل بصدده استقلال العقلانية الخاصة بكتابة التاريخ في علاقتها مع قدرتنا السردية. يجب أن يبقى هذا القسم الأول من محاججتي رهين مستوى النحو العميق.

سأطرح هنا جانبا مسألة الاتساق المنطقي للنموذج الأساسي وأحصر مناقشتي في نقطتين⁽⁴⁷⁾. الأولى تتعلق بالشروط التي يجب أن يستكملها النموذج إذا ما أريد له الحفاظ على فعاليته على طول المسار السيميائي. فهو يبقى نموذجا قويا ما دام يتأسس على مستوى البنية الأولية للدلالة. ولكن، كما يحدث غالبا عند تأويل ميدان معين معطى بوساطة نموذج متكون قبلها، فإن بعض مستلزماته لا بد وأن تضعف إذا ما دُفع به لأداء وظيفته في ذلك الميدان، وقد مررنا من قبل بمثال على هذا في ميدان الكتابة التاريخية، حيث كان لزاما إضعاف نموذج القانون الشامل لكي تؤخذ في الاعتبار المنهجية الفعلية التي تنطوي عليها حرفة المؤرخ. لن يحتفظ النموذج التصنيفي الابتدائي بدلالة منطقية إلا إذا ما بقي نموذجا قويا. ومع ذلك فإن قوته الكاملة لا تبدى إلا على مستوى التحليل «المعنوي» semic، الذي وإن لم يكتمل فإنه على الأقل يصل بنا إلى النقطة التي يسمح بها بتقديم «مسح محدود للمقولات المعنوية» (ص. 161). تحت هذا الشرط، تتخذ الضدية شكلا قويا، أي ثنائية ضدية بين وحدات المعنى الخاصة بالمقولة نفسها، كما في المقولة السيمية الثنائية أبيض مقابل أسود. كما إن التناقض هنا يتخذ شكلا قويا أيضا: أبيض مقابل لا - أبيض، أسود مقابل لا - أسود.

والافتراض المسبق القائل لا - س1 من س2 مسبق حقا بالعلاقين الخاصتين بالتناقض والضدية، بالمعنى الصارم الذي تكلمنا عنه. ولكن لنا الحق في أن نشك أن هذه المتطلبات الثلاثة قد استكملت بكل صرامتها في ميدان السرد. إذ لو أن ذلك قد تحقق لكنت كل العمليات اللاحقة «قابلة للتنبؤ بها وحسابها» (ص. 166) كما يقول غريماس. ولكن لن يحدث شيء عندها، لن يكون بالإمكان وجود حدث أو مفاجأة. لن يبقى ما يُروى. لنا أن نفترض لذلك أن النحو السطحي يخص في الغالب أشباه - أضداد، وأشباه - تناقضات، وأشباه - افتراضات مسبقة.

النقطة الثانية التي أود أن أتأملها، وهي أيضا على مستوى النحو العميق، تتعلق بعملية إضفاء السردية على التصنيف التي يضمنها العبور من العلاقات غير الموجهة في النموذج التصنيفي إلى العمليات الموجهة التي تعطي النموذج تأويلا تركيبيا نحويا.

في الواقع أن العبور من فكرة علاقة سكونية إلى فكرة عملية دينامية ينطوي على إضافة فعلية إلى النموذج التصنيفي، لأنه يضيف عليه التعاقب الزمني بحق، على الأقل بمعنى أن التحول يستغرق وقتا. يشار إلى هذه الإضافة في نص «عناصر...» بفكرة «إنتاج الذات للمعنى» (ص. 164). من هنا فإن لدينا ما هو أكثر من إعادة الصياغة هنا. لدينا إدخال على قدم المساواة للعامل التوزيعي إلى جانب العامل التبادلي. إذن تفقد فكرة التكافؤ معناها المتمثل في كونها علاقة متبادلة في العبور من المورفولوجيا إلى التركيب النحوي. إذ كيف يصح في نهاية المطاف أن تتكافأ علاقة مستقرة وتحولها إذا كان التوجيه فيها هو الأكثر توافقا مع التحول؟ يحق لنا السؤال ألا يسترشد إنشاء النموذج بفكرة التحولات الموجهة التي ظهرت في الأجزاء عديمة الفعالية؟

لا ضير في طرح هذا السؤال على كل مستويات النموذج. تبدو غائية العملية المفردة كامنة في العملية التالية لها، وأخيرا في فكرة السردية

الختامية. والواقع، إن هذا هو ما نلاحظه في العبور من النحو العميق إلى النحو السطحي.

يتحقق اغناء النموذج الابتدائي بفضل الدعم الكبير الذي توفره التحديدات المتنوعة المتعلقة بـ «فعل شيء ما». مع ذلك، ليس بين هذه التحديدات الجديدة ما ينبع مباشرة من النموذج التصنيفي وإنما من علم دلالة الفعل⁽⁴⁸⁾. نحن نعرف، بفضل شكل محايث لـ «فعل شيء ما» من المعرفة، أن فعل شيء ما هو موضوع عبارات تختلف بنيتها اختلافا جوهريا عن بنية عبارات حملية من نوع «ف هو ح»، وكذلك عن بنية عبارات تتعلق بعلاقة من نوع «يوجد س بين ص وي». لقد ظلت بنية الجمل هذه، التي تصف الفعل، حتى الآن موضوعا لكثير من العمل التفصيلي في الفلسفة التحليلية، وهو ما راجعته في مقالتي «خطاب الفعل» Le Discourse de l'action⁽⁴⁹⁾. إحدى خواص هذه الجمل التي تستحق الذكر أنها تتضمن بنية مفتوحة النهايات تمتد من «يقول سقراط...» إلى «قتل بروتوس القيصر في عيدس (الخامس عشر من آذار) في مجلس الشيوخ الروماني بسكين...». إن علم دلالة الفعل هذا هو في الواقع ما تفترضه مسبقا نظرية الجمل السردية. «أن تفعل» شيئا يمكن أن يستبدل به أي من الأفعال النحوية الدالة على الفعل. لا تتبدى هذه المساعدة من علم دلالة الفعل بجلاء كما هي في العبور، عبر التحريك، من عبارات حول «فعل شيء ما» إلى عبارات حول «أن تكون قادرا على فعل شيء ما». كيف يتأتى لنا بخلاف ذلك معرفة أن «الرغبة في فعل شيء ما» تجعل «فعل شيء ما محتملا»؟ لا يحتوي المربع السيميائي على ما يسمح لنا أن نشك في ذلك. ومع هذا، فإن نمذجة الرغبة في فعل شيء ما، والرغبة في أن يكون المرء شيئا ما، والرغبة في امتلاك شيء ما، وأن تكون قادرا على الرغبة في شيء ما تبقى جيدة. ولكنها متأصلة في وجهة نظر لغوية، في نحو خاص عبرت عنه بأعلى درجات التفصيل الفلسفة التحليلية بصيغ ما تسميه المنطق القصدي. إن صح وجود حاجة إلى هذا النحو الأصلي لكي

تمنح العلاقة بين العبارات الجهوية بصدد «الرغبة في...» والعبارات الوصفية بصدد فعل شيء ما شكلا منطقيا، فإن الظاهراتية الضمنية للفعل المشترك هي التي تمنح المعنى لعبارة غريماس القائلة، «إن العبارات الجهوية التي تتخذ «الرغبة في» وظيفة لها تقيم الذات على أنها افتراضية فعل شيء ما، بينما تقرر عبارتان أخريان، تتصفان بجهات «المعرفة بـ» و«القدرة على»، هذا الفعل المحتمل لشيء ما بطريقتين مختلفتين؛ إما بوصفه عملا ناتجا عن المعرفة، وإما بوصفه يستند بفراة على القوة». («في المعنى»، ص. 175). وبرغم أن الحال هكذا، فإن هذه الظاهراتية الكامنة تخرج إلى النور ما أن نؤول العبارة الجهوية على أنها «الرغبة في إدراك» برنامج يكون حاضرا بشكل عبارة وصفية، وفي الوقت نفسه يؤدي مهمة الموضوع لعبارة جهوية. (قارن، ص. 169).

نصل مما سبق إلى أن العلاقة بين المستوى السيميائي ومستوى الممارسة الفعلية علاقة يتمتع فيها كل منهما بالأسبقية على الثاني. يأتي المربع السيميائي معه بشبكته ذات المصطلحات التي يعرف بعضها البعض الآخر والنظام المتعلق بالتناقض والضدية والافتراض المسبق. ويأتي علم دلالة الفعل بدلالاته الرئيسة المتعلقة بـ «فعل شيء ما» والبنية المحددة لتلك العبارات التي تشير إلى فعل ما. بهذا المعنى يكون النحو السطحي نحوا خليطا، نحو سيمياء - ممارسة⁽⁵⁰⁾. في هذا النحو الخليط، يبدو وكأن من الصعب تماما الكلام عن تكافؤ بين البنى التي يطرحها علم دلالة الفعل والعمليات التي ينطوي عليها المربع السيميائي.

يمكن أن نمضي بهذا الافتراض خطوة أخرى بملاحظة أن العبارة السردية البسيطة هي تجريد داخل النحو السطحي ما دمنا لم ندخل علاقة سجالية بين برامج وذوات متضادة. وكما رأينا للتو، لا تحتوي جملة مغزولة دالة على فعل على ما هو سردي حصرا. إن تتابعا من العبارات وحده هو الذي يكون توزيعا سرديا ويسمح لنا، على نحو ارتدادي، بالكلام عن جمل

الفعل التي تُؤلف من هذه المتواليات سردا. في هذا المجال، تشكل العلاقة السجالية العتبة الأولى الأصلية التي تقود إلى السردية في النحو السطحي، أما العتبة الثانية من هذا النوع فتتشكل من مفهوم الأداء، ويشار إلى الثالثة عبر التابع التوزيعي للأداءات ونقل القيم الذي يرافقه. لتأمل كل واحدة من هذه العتبات على التوالي، مبتدئين بالأولى؛ التمثيل السجالي للعلاقات المنطقية.

لاحظ أولا أن التمثيل السجالي يأتي معه بملامح جديدة، وأن له قبل أن يمتلك الدلالة المنطقية المتعلقة بالتناقض والضدية دلالة مستقلة ذات صلة بالممارسة. المواجهة والكفاح صورتان لتوجه الفعل نحو الآخرين، كما عولج ذلك في علم اجتماع تأويلي من مثل ذلك الذي وضعه ماكس فيبر. يضع علم اجتماع فيبر الكفاح (Kampf) في مكان معرف جيدا ضمن التكوين التقدمي للمقولات الأساسية في راعته «الاقتصاد والمجتمع»⁽⁵¹⁾. لذلك فإن إدخال مقولة الكفاح يؤكد الطبيعة الخليطة لكل نحوٍ سردي، طبيعة نصف - منطقية ونصف - ممارسة.

لاحظ أيضا أن التكافؤ على المستوى المنطقي بين المواجهة والتناقض قابل للطعن إلى حد بعيد. ويبدو لي أن مفهوم التحدي، يُفعل نوعا من السلبية كان كانط في مؤلفه الثانوي Versuch, den Begriff der negativen Grossen in die Weltweisheit einzuführen أول من أظهر أنها لانتقيل الاختزال إلى تناقض⁽⁵²⁾. إن التضاد بين ذات ما وذات ضد ليس هو التضاد بين شكلين متضادين لفعل شيء ما. ولنا أن نشك في كونها حتى علاقة ضدية.

تطرح إضافة مقولات النقل إلى المقولات السجالية مشكلة مماثلة. هنالك في هذه المرحلة الجديدة، مرة أخرى، استعانة ضمنية فاضحة بالظاهراتية. إذا كان النقل هو حرمان شخص ما من شيء ما وإعطاؤه إلى شخص آخر، فإن هنالك ما هو أكثر من الحرمان والإعطاء، من الفصل والوصل. إن الحرمان من قيمة/شيء، الذي تمر به ذات ما، هو تحوير يؤثر

في هذه الذات بوصفها ضحية. لذلك فإن ما تضيفه المرحلة الأخيرة من تكوين النموذج هو ظاهراتية معاناة وقيام بفعل، تحصل فيها مفاهيم مثل حرمان ومنح على معناها. إن مجمل اللغة الطوبولوجية (الموقعية) لهذا الطور الأخير هي خليط من حالات الفصل والوصل، وكذلك التحوير، وهي لا تأتي من عالم الممارسة فقط، ولكن من عالم المعاناة أيضاً⁽⁵³⁾. ليس ثمة ما يثير الدهشة في هذا الاستنتاج إذا صح أن التركيب النحوي الطوبولوجي للنقلات، الذي يكرر مسار العمليات المنطقية للمربع السيميائي، «ينظم السرد بقدر ما هو عملية خالقة للقيم» («في المعنى»، ص. 178). كيف تنتقل هذه المضاعفة من العمليات التركيبية النحوية التي كانت، داخل الإطار التصنيفي، «قابلة للتنبؤ بها وحسابها» (ص. 166)، إلى «عملية خالقة للقيم»؟ إن ثمة مكاناً ما لابد أن المنطق لا يكفي فيه لتحقيق إبداع مناسب للسرد. تفتح هذه الفجوة مستوى النقل، بقدر ما يُستبعد الترابط والافتراض المسبق عن النموذج المنطقي القوي لكي تعبر عن لا تناظر الحرمان والنسبة، والجدة التي تنتمي إلى النسبة. يزداد جانب الجدة المرتبط بالنسبة جلاء ما أن تكون قوة، معرفة، رغبة في فعل شيء ما - أي افتراضية فعل شيء ما نفسها - مما يصيب الذات.

الفجوة التي نحن بصدها بين التخطيطية الابتدائية، حيث هنالك توازن بين كل العلاقات، والتخطيطية النهائية، حيث تدخل قيم جديدة، تكون خافية في حالة حكايات بروب الخرافية الروسية التي تنتهي فيها دورة القيم مع استعادة الحالة الابتدائية. ابنة الملك، التي سحرها وغد وأخذها بعيداً وخباها، يجدها البطل وتعاد إلى والديها! غريماس نفسه في «علم الدلالة البنيوي» يعترف بأن الوظيفة الأعم للسرد ظلت حتى الآن استعادة نظام مهدد من القيم. لكننا نعرف، بفضل تخطيطية الحكايات التي أنتجت الثقافات التي نحن وارثوها، أن هذه الاستعادة لا تميز إلا فئة واحدة من السرد، بل حتى نوعاً واحداً من الحكايات الشعبية دون شك. تلفظ الحكاية «الآزمات»

و«حلول العقد» بطرق مختلفة كثيرة! والبطل (أوالبطل المضاد) يتغير في مسار حبكة ما بطرق مختلفة كثيرة. هل هو أمر مؤكد أن بالإمكان إسقاط كل سرد على قالب غريماس الموقعي المكوّن من برنامجين، علاقة سجالية ونقل للقيم؟ إن دراستنا لتحولات الحبكة تميل بي إلى الشك في ذلك.

ختاماً، يبدو لي أن نموذج غريماس ينوء تحت قيد مضاعف؛ منطقي من جهة، وممارسي منفعل pathetic (أي يتعلق بالقيام بفعل والمعاناة) من جهة أخرى. لكنه يستكمل شروط الأول منهما فقط، وذلك عبر دعمه المتواصل نقش مكونات السردية الداخلة عند كل مستوى جديد على المربع السيميائي، بشرط أن يساعد فهمنا للسرد وللحبكة على ظهور إضافات مناسبة من نمط توزيعي يتّين؛ بدونها يبقى النموذج التصنيفي عقيماً وجامداً⁽⁵⁴⁾.

إن إدراك هذه الطبيعة الخليطة لنموذج غريماس لا يعني دحضه. على العكس، إنه إيضاح لشروط معقوليته، وهو عين ما فعلناه في القسم الثاني من الجزء الأول بالنسبة للنماذج المعيارية المستخدمة في التاريخ.

الفصل الثالث

العباب مع الزمن

إن غنى مفهوم الحبكة، ومعه على نحو متلازم مفهوم الزمن السردى - الذي أكرس له هذا الفصل - هو بالتأكيد امتياز ينتمي إلى السرد القصصى لا إلى السرد التاريخى، وذلك بسبب استئصال قيود معينة يختص بها السرد التاريخى. (هذه القيود ستكون موضوعاً لدراسة مفصلة في القسم الرابع من الجزء القادم). ويرجع هذا الامتياز إلى خاصية السرد اللافئة للنظر في أنه ينشطر إلى تلفيظ [énonciation] وتقرير [énoncé]. ويكفى للتعرف على هذا التمايز أن نتذكر أن الفعل التصوري الذي يحكم الحبكة هو فعل قضائي يتضمن «إدراكاً معاً». وإن شئنا مزيداً من الدقة، فإنه ينتمي إلى فصيلة الأحكام التأملية⁽¹⁾. وقد قادنا ذلك إلى القول إنك إذ تسرد قصة فأنت إنما «تأمل» فعلياً الحدث الذي ترويّه. لهذا السبب، يحمل «الإدراك معاً» السردى القدرة على النأي بنفسه عن إنتاجه، فيقسم بهذه الطريقة نفسه إلى اثنين.

تعود هذه القدرة التي يتمتع بها الحكم الغائي على تقسيم نفسه إلى اثنين للظهور اليوم في مصطلحات لغوية محض بصيغة «تلفيظ» و«تقرير»، وهما المصطلحان اللذان حصلا بفضل تأثير غونتر مولر وجيرارد جينيت

والسيمبائيين من مدرسة جينيت على الحق في أن يستخدموا في الشعرية السردية. إن مثل هذه النقلة في الاهتمام من التقرير السردى إلى تلفيظه جعلت الملامح القصصية حصراً للزمن السردى تتخذ خطوطاً عريضة مميزة. إذ يطلقها حرة بمعنى ما ذلك التفاعل بين المستويات الزمنية المتنوعة النابعة من تأملية الفعل التصوري نفسه. وسننظر في صيغ مختلفة من هذا التفاعل، الذي يبدأ فعلاً بين التقرير والأشياء المروية، لكنه يصبح ممكناً بوساطة الانشطار بين التلفيظ والتقرير.

التلفيظ وأزمنة الفعل النحوي

أود من باب التقديم أن أنظر في الامكانيات التي يمنحها نظام أزمنة الفعل النحوي للتلفيظ. وقد بدا لي أن هذا البحث لا بد أن يتصدر دراساتي المكرسة للألعاب مع الزمن الناجمة عن الانشطار إلى تلفيظ وتقرير، ما دام الكتاب الثلاثة الذين اخترت دراستهم يعمدون إلى ربط نظريتهم في أزمنة الفعل النحوي بشكل مكشوف مع وظيفة التلفيظ في الخطاب، لا مع بنية التقريرات الناجمة، والتي تبقى إما معزولة عن المتكلم وإما عن الحالة الكلامية. بالإضافة إلى ذلك، فإن الحل الذي يوفره هؤلاء المؤلفون لمشكلة تنظيم أزمنة الفعل النحوي في اللغات الطبيعية يتسبب في ظهور مفارقة تتعلق مباشرة بمكانة الزمن في القصص الخيالي، وبالتالي بالزمن على مستوى المحاكاة 2.

تتمثل المساهمة الرئيسة لهذا البحث، من جهة، في إظهاره أن نظام الأزمنة النحوية الذي يتنوع من لغة إلى أخرى، لا يمكن اشتقاقه من التجربة الظاهرية للزمن ومن تمييزها الحدسي بين الحاضر، والماضي، والمستقبل. ويسهم استقلال أنظمة الأزمنة النحوية هذا في تعزيز استقلال التأليف السردى على مستويين. يوفر نظام الأزمنة النحوية، على مستوى تبادلي حصراً (لنقل على مستوى أزمنة الفعل النحوي في لغة معطاة)، خزيناً من التمييزات،

والعلاقات، والاقترانات التي تستمد منها القصص امكانات استقلالها الذاتي عن التجربة المعيشة. على وفق هذا الاعتبار، تحتوي اللغة، بنظام أزمنتها النحوية، وسيلة جاهزة تعدّل بها زمنيا كل الأفعال النحوية الخاصة بالفعل على طول السلسلة السردية. فضلا عن ذلك، نرى على مستوى يمكن أن يُسمى توزيعيا، أن هذه الأزمنة النحوية لا تسهم في إضفاء السردية عبر التفاعل بين اختلافاتها داخل النموذج التبادلي النحوي العريض فحسب، ولكن أيضا عبر ترتيبها ترتيبا متتاليا على طول سلسلة سرد ما. حقيقة أن النحو الفرنسي يحتوي داخل نظام واحد على زمن غير تام وزمن ماض مطلق preterite تمثل بالفعل موردا عظيما. لكن حقيقة أن التابع الذي يعقب فيه زمن ماض مطلق زمنا غير تام يثمر ناتجا من المعنى جديدا، لهي مورد أكثر إثارة للإعجاب. بكلمات أخرى، إن إضفاء الطابع التوزيعي على الأزمنة النحوية أمر جوهري كما هو حال تكوينها التبادلي. ومع ذلك، فإن النقطة الأولى، شأنها شأن النقطة الثانية تماما، تعبّر عن الاستقلال الذاتي لنظام الأزمنة النحوية عما نسميه، في علم دلالة أولي يتناول الحياة اليومية، الزمن.

من جهة أخرى، يبقى السؤال مفتوحا، إلى أي حد يمكن لنظام الأزمنة أن يتحرر من أية إحالة على التجربة الظاهرية للزمن؟ في هذا الشأن، يحمل التردد الذي تعاني منه المفاهيم الثلاثة التي سنناقشها دلالة كبيرة. فهو يكشف تعقيد العلاقة الذي أقرّ به أنا نفسي، بين زمن القصص وزمن التجربة الظاهرية، سواء أخذنا ذلك على مستوى التصور السبقي (المحاكاة 1) أم على مستوى إعادة التصور (المحاكاة 3). إن ضرورة فصل نظام الأزمنة عن تجربتنا المعيشة للزمن واستحالة عزله تماما عنها تبدو لي وكأنها تبين بشكل رائع مكانة التصورات السردية بوصفها في آن واحد مستقلة ذاتياً عن التجربة اليومية وتتوسط بين ما يسبق سرداً وما يعقبه.

هنالك سببان يدفعاني إلى الابتداء بالتمييز الذي يطرحه أميل بنفنتس بين التاريخ والخطاب، ثم الانتقال إلى مساهمات كيت هامبرجر، وهارالد

وينرتش في إشكالية أزمنة الفعل النحوي⁽²⁾.

من جانب، يمكن لنا متابعة التقدم من دراسة تقع داخل إطار تبادلي بحث إلى مفهوم يضيف إلى دراسة التنظيم السكوني للأزمنة النحوية دراسة توزيعها المتتالي داخل وحدات كبيرة. من جانب آخر، نستطيع أن نلاحظ عن الانتقال من مفهوم إلى آخر يأتي بعده تقدماً في فك عرى العلاقة بين هذه الأزمنة النحوية والتجربة المعيشة للزمن؛ وهو ما سيمكننا من قياس العقبات التي تمنعنا من الاستمرار في هذه المحاولة إلى نهايتها. وهنا تحديداً سأبحث عن الاسهامة الرئيسة لهذه المفاهيم الثلاثة في بحثي الخاص المتعلق بدرجة استقلال التصورات السردية عن التجربة المتصورة مسبقاً أو المعد تصورها للزمن.

لنسترجع باختصار أساس التمييز الذي يقدمه بنفنست بين الخطاب والتاريخ. المتكلم في التلفيز التاريخي غير موجود ضمناً: «لا أحد يتكلم هنا؛ تبدو الأحداث وكأنها تسرد نفسها» (ص 208). لكن الخطاب يعين أن كل تلفيز يفترض متكلاً وسامعاً، وفي المتكلم القصد إلى التأثير في الآخر بطريقة ما» (ص 209) إن لكل نمط من التلفيزات نظام أزمنته النحوية الخاص: أزمنة نحوية مقبولة، وأخرى مستبعدة. وهكذا يحتوي التلفيز التاريخي على ثلاثة أزمنة نحوية: الماضي المطلق *preterite* أو الماضي المبهم *aorist*، وغير التام، والماضي المركب الثاني الأكمل *plus-que-parfait* (الذي يمكن أن يضاف إليه المستقبل الاحتمالي *prospective* مثل «كان يفترض أن يغادر» أو «كان ينوي المغادرة»). لكن التلفيز التاريخي، يستبعد على نحو خاص، الحاضر ومعه المستقبل، الذي هو حاضر سيأتي، والماضي المركب الأول *perfect*، الذي هو حاضر في الماضي. وعلى العكس من ذلك، لا يستبعد الخطاب إلا زمناً نحوياً واحداً هو الماضي المطلق، بينما يستبقي ثلاثة أزمنة نحوية أساسية: هي الحاضر، والمستقبل، والماضي المركب الأول. الحاضر هو زمن الخطاب الأساسي لأنه يؤثر تعاصر ما يُقرّر

مع «لحظة الخطاب». وهو لذلك مرتبط بخاصية لحظة الخطاب في الإحالة إلى ذاتها. وهذا هو السبب في تشخيص خواص مستويي التلفيظ بواسطة سلسلة معايير ثابتة هي مقولات الأشخاص. لا يستطيع التلفيظ التاريخي أن يستبعد الحاضر دون استبعاد العلاقة بين الأشخاص «أنا» و«أنت». والماضي المطلق هو زمن الأحداث التي تتعدى شخص الراوي.

ماذا عن العلاقة بين نظام الأزمنة النحوية والتجربة الزمنية المعيشة؟

لسبب واحد، إن توزيع أشكال ضمائر الأزمنة النحوية الفرنسية في نظامين متمايزين لا بد وأن يجعله مستقلاً عن فكرة الزمن ومقولاته الثلاث الحاضر، والماضي، والمستقبل. هنالك شيء واحد يدعونا إلى قول هذا هو ازدواجية نظامي الأزمنة النحوية نفسها، فهي تشهد عليه. لا فكرة الزمن ولا مقولات الحاضر، والماضي، والمستقبل يمكن أن توفر «المعيار الذي يقرر موقع شكل ما أو احتماليته داخل نظام الفعل النحوي» (ص. 205). تنسجم هذه العبارة تماماً مع النقلة التي أحدثها النظام الرمزي إجمالاً على مستوى المحاكاة² في علاقته مع المستوى التجريبي والممارسي paxic للمحاكاة¹.

من جهة أخرى، لا ينزل التمييز بين نظامي التلفيظات تماماً عن الزمن. وهو سؤال يثيره أساساً أخذ السرد بنظر الاعتبار. ربما لم يوجه اهتمام كاف إلى ملاحظة أن السرد الذي يضعه بنفسه على الضد من الخطاب يُسمى على نحو ثابت «السرد التاريخي» أو «التلفيظ التاريخي». التلفيظ التاريخي «يميز سرد الأحداث الماضية» (ص. 206). يتمتع مصطلح «ماضية»، في هذا التعريف، بالأهمية ذاتها التي يتمتع بها مصطلح «سرد» و«أحداث». تعين هذه المصطلحات «أحداثاً وقعت في لحظة معينة من الزمن... دون أي تدخل من جانب المتكلم» (المصدر السابق) إذا لم يكن ثمة تناقض شكلي بين هذا التعريف ومحاولة فصم عرى العلاقة بين نظام الأزمنة والتمييز الحدسي بين الماضي، والحاضر، والمستقبل فإنما يكون الحال كذلك ما دامت الإحالة تكون إما إلى الماضي الفعلي، كما في حالة المؤرخ أو إلى الماضي

القصصي، كما في حالة الروائي (و هو ما يسمح لبفنست أن يستمد أحد أمثله من مقطع لبلازك). ومع ذلك، فإذا تميّز السرد عن الخطاب بأنه سلسلة من الأحداث تبدو وكأنها تسرد نفسها دون تدخل متكلم، فإن ذلك يصح بقدر ما تبقى فكرة ماضٍ ما، سواء أكان واقعياً أم قصصياً، حسب بنفنست، لا تطوي على إحالة المتكلم على ذاته في تلفيظه، كما يحدث في الخطاب. ما لا يتم تطويره هنا هو العلاقة بين الماضي القصصي والماضي الواقعي. هل يفترض الماضي القصصي الماضي الواقعي، وبالتالي الذاكرة والتاريخ، أم إن البنية الخاصة بالتعبير الزمني التاريخي نفسها هي ما ينتج تشخيصه على أنه ماضٍ؟ إلا أن القبول بذلك سيجعل من غير المفهوم لماذا يُفهم الماضي القصصي على أنه شبه - ماضٍ⁽³⁾.

أما بالنسبة لحاضر لحظة الخطاب، فإن من الصعب القول إنه لا يرتبط بأية علاقة مع الزمن المعيش، إذا ما أضفنا أن الزمن الماضي المركب الأول هو الحاضر في الماضي، والمستقبل هو الحاضر الذي سيأتي. إن المعيار النحوي للحاضر، أي صفة الإحالة الذاتية للحظة الخطاب، شيء، ومعنى هذه الإحالة الذاتية نفسها، أي تعاصر ما يُروى مع لحظة الخطاب، شيء آخر أيضاً. والعلاقة المحاكاتية للمقولات النحوية مع التجربة المعيشة مندرجة كلياً داخل هذه العلاقة، علاقة كل من الفصل والوصل، بين الحاضر النحوي للحظة الخطاب والحاضر المعيش⁽⁴⁾.

هذه العلاقة المحاكاتية بين أزمنة الفعل النحوي والزمن المعيش لا يمكن أن تُحصر بالخطاب إذا كنا، كما هو شأن ورثة بنفنست، أكثر اهتماماً بدور الخطاب في السرد منا بالتضاد بين الخطاب والسرد. هل يمكن لأحداث الماضي، سواء أكانت واقعية أم متخيلة، أن تُقدّم دون أي تدخل من المتكلم في السرد؟ هل يمكن للأحداث أن تظهر ببساطة هكذا في أفق القصة دون أن يوجد أي شخص يتكلم بأية طريقة؟ ألا ينتج غياب راو عن السرد التاريخي عن استراتيجيات بوساطتها يغيب الراوي نفسه عن السرد؟ لا يستطيع هذا

التمييز الذي سنختبره في أدناه لذاته إلا أن يكون مؤثراً حتى في هذه المرحلة المبكرة في السؤال الذي أثيره هنا والمتعلق بالعلاقة بين أزمنة الفعل النحوي والزمن المعيش. إذا كان علينا إجراء التمييز بين التلفيظ (الخطاب بمصطلح بنفست) والتقرير (السرد في معجمه) داخل السرد نفسه، فإن ذلك سيضاعف المشكلة. لأنها ستتضمن، أولاً، العلاقة بين زمن التلفيظ وزمن التقرير، وثانياً، العلاقة بين هذين الزمنين وزمن الحياة أو الفعل⁽⁵⁾.

قبل الدخول في هذا الجدل، دعونا نوسع أكثر، أولاً مع كيت هامبرجر، الانقسام بين قصص أساسي - أي الماضي المطلق - وآخر يتعلق بالتقارير الجازمة المطروحة حول الواقع، أي زمن الحديث العادي، ثم مع هارالد وينرتش، عزل مجمل نظام الأزمنة في اللغات الطبيعية عن مقولات الزمن المعيش: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

نحن مدينون لكيت هامبرجر لتمييزها الواضح بين الشكل النحوي لأزمنة الفعل، خصوصاً الأزمنة الماضية، ودلالاتها الزمنية في عالم القصص. لم يؤكد أحد كما فعلت القطيعة التي يحدثها القصص الأدبي في أداء الخطاب لوظيفته⁽⁶⁾. هنالك حاجز لا سبيل إلى عبوره يفصل الخطاب التقريري (Aussage) الذي يشير إلى الواقع عن السرد القصصي. وينتج عن هذه القطيعة منطق مختلف، سوف أتناول لاحقاً مضامينه بالنسبة للزمن. لكن علينا قبل أن نتفحص ما يترتب عليه فهم سبب هذا الفارق. إنه ينتج كلياً من حقيقة أن القصص تستبدل بأنا - الاصل I-Origine الخاصة بالخطاب التقريري، أصل هو نفسه واقعي، أنا - أصول I-Origine تختص بشخصيات القصص. يستند الثقل الكامل على ابتكار الشخصيات، شخصيات تفكر، وتشعر، وتفعل، والتي هي أنا - الأصول القصصية التي ترتبط بها الأفكار والمشاعر والأفعال التي تعود للقصة. هذه الشخصيات القصصية Fiktive Ichpersonen هي محور منطق القصة. لا أقرب من هذا إلى أرسطو، الذي يرى في القصة محاكاة لشخصيات فاعلة. لذا يتأسس معيار القصة من استخدام أفعال نحوية تعين

عمليات داخلية، أي عمليات نفسية أو عقلية. وتقرر هامبرجر «إن القصص الملحمي هو اللحظة الابستمولوجية الوحيدة التي يمكن فيها لأنا - أصل (أو ذاتية) الضمير الغائب بوصفه ضميراً غائباً أن تُصَوَّر [dargestellt]» (ص 83)⁽⁷⁾.

يفسد نظام الأزمنة النحوية في عالم القصص ظهور أفعال نحوية تعين عمليات داخلية تعود إلى الذات القصصية في الخطاب. يعين الماضي المطلق في «النظام التقريري» للغة، الماضي الواقعي لذات واقعية تقرر نقطة صفر النظام الزمني؛ والأصل هنا يفهم بالمعنى الذي يشير به اختصاصيو علم الهندسة إلى الأصل في نظام إحداثيات ما. لا ماضٍ إلا لأنا - الأصل الواقعية Reale Ich-Origin؛ إذ تساهم الأنا Ich في محيط الواقع الخاص بهذه الأنا - الأصل I-Origo. في عالم القصص، يفقد الماضي المطلق الخاص بالملحمة وظيفته النحوية الخاصة في تعيين الماضي. لا يحدث الفعل السردى، إن شئنا الدقة. بهذا المعنى يحق لنا الكلام عن غياب الزمنية من القصص (قارن مناقشة «وجهة النظر والصوت السردى» في نهاية هذا الفصل). لن نتمكن حتى من الكلام عن الاستحضار (Vergegenwartigung) بالمعنى الذي قصده شيلر، لأن هذا قد يشير إلى علاقة مع ذات التقرير الواقعية ويحذف الطبيعة القصصية البحث لأنا - الأصول الخاصة بالشخصيات. إنه أقرب إلى زمن حاضر، بمعنى زمن يقع في آن واحد مع الفعل المسرود، لكنه حاضر لا يرتبط هو نفسه مع الحاضر الواقعي للتقرير.

إذا كان إدخال أفعال نحوية تشير إلى حالات عقلية يكون المعيار لإحلال أنا - الأصول الخاصة بالشخصيات القصصية محل أنا - الأصل I-Origo الخاصة بذات التقرير الواقعية، فإن فقدان معنى «الماضي» في الماضي المطلق الخاص بالملحمة يُعد علامة دالة على ذلك. وهناك في أعقابها علامات دالة أخرى، مثل اقترانات متنافرة بين الكلمات الدالة على ظرف الزمان تكون مستحيلة في التقارير عن الواقع. وهكذا نقرأ في أحد الأعمال القصصية «Morgan War Weihnachten» («غداً كان عيد الميلاد»). أو:

«بالطبع، كان قادماً إلى حفلتها الليلة». إن إضافة ظرف يعبر عن المستقبل إلى غير التام يثبت أن غير التام قد فقد وظيفته النحوية.

إن القول إن وضع القصص الملحمي على الضد من تقرير الواقع يشكل تعريفاً جيداً له، وإن ظهور الشخصيات القصصية يمكن اعتباره العلامة الرئيسية الدالة على الدخول في السرد، يُعد هذا القول طريقة قوية لرسم مميزات القصص لا سبيل إلى الطعن فيها. ما يبقى مثار خلاف هو أن فقدان معنى «الماضي» يكفي لتمييز نظام أزمنة الفعل النحوي في القصة. لماذا يُستبقى الشكل النحوي بينما تُزال دلالاته في الإشارة إلى الماضي؟ ألسنا ملزمين بالبحث عن سبب ايجابي لاستبقاء الشكل النحوي، سبب يساوي في القوة سبب فقدان دلالاته المعتادة في الزمن الواقعي؟ يبدو أن لامناص من البحث عن مفتاح الإجابة في التمييز بين المؤلف الواقعي والراوي، الذي هو قصصي⁽⁸⁾. يجتمع في القصص خطابان، خطاب الراوي وخطاب الشخصيات. وكيت هامبرجر، الحريصة على قطع كل الصلات مع نظام التقرير، ترغب أن تأخذ بالاعتبار مركزاً واحداً للوعي فقط، هو صيغة الغائب القصصي في مرويّات صيغة الغائب⁽⁹⁾.

إن ما سبق يدعونا إلى تفعيل جدلية الشخصية والراوي، حيث يُعد الراوي تكويناً قصصياً شأنه تماماً شأن الشخصيات في السرد⁽¹⁰⁾.

تبدأ محاولة هارالد فاينريش Weinrich لعزل تنظيم الأزمنة النحوية عن الاهتمام بالزمن المعيش وعن المقولات (ماض، وحاضر، ومستقبل) التي يفترض أن النحو قد استعارها من الأخير [أي الزمن المعيش - م] من انشغال مختلف.

يتزامن العزل الأول الذي يجري بين أزمنة الفعل النحوي ومقولات الزمن المعيش مع المحاولة الأولى تماماً الرامية إلى تليظ التجربة. (بهذا المعنى، يقع التضاد بين فعل السرد وفعل التقرير داخل نحو أكثر شمولاً للأزمنة النحوية).

يحرر هذا الادعاء القوي مشروعه مباشرة من الافتراض القائل بوجود زمن معطى ما في كل لغة، ويدعونا إلى منح كل الأزمنة النحوية المكونة لنظام التسمية في لغة معينة القدر نفسه من الاهتمام. إن إطار بحثه هذا على وجه الخصوص مفيد لتأملنا في العلاقة بين تنظيم الأزمنة النحوية ومعنى الزمن في القصص، بقدر ما يكون البعد الذي يُعد الأنسب هو النص، وليس الجملة. بوساطة قطيعة كهذه مع الامتياز الحصري الذي تتمتع به الجملة، ينوي فاينريش أن يطبق المنظور البنيوي على «لسانيات النص»⁽¹¹⁾. وهو يمنح نفسه بهذه الطريقة مجالاً كافياً لإنصاف القيمة الموضوعية لزمن نحوي ما في نظام التسمية، وتوزيع الأزمنة على طول النص على حد سواء. إن هذا العبور من وجهة النظر التبادلية إلى التوزيعية هو الأكثر غنى في دروس تهدف إلى دراسة الزمن في القصص، ما دامت القصص أيضاً تتخذ النص، وليس الجملة، وحدة للقياس.

إذا لم يكن مبدأ تنظيم الزمن في لغة معطاة مستنداً على تجربة الزمن المعيش، فلا بد من السعي إليه في مكان آخر. على عكس بنفنتست يستعير فاينريش مبدأه لتصنيف الأزمنة وتوزيعها من نظرية الاتصال. وهذا الخيار ينطوي على أن التركيب النحوي الذي تشير إليه دراسة الأزمنة يتألف من شبكة من الإشارات يوجهها متكلم إلى سامع أو قارئ، وهي تسمح له أن يستلم شفرة الرسالة اللفظية ويحلّها بطريقة معينة. كما أنها تدعونا إلى أداء توزيع ابتدائي للمواضيع الممكنة للاتصال في علاقتها مع محاور معينة للاتصال: «تقديم انعكاس لهذه التجربة التخطيطية للعالم هو تحديداً دور المقولات التركيبية النحوية». (ص 27) لندع جانباً حتى مناقشة لاحقة الملمح المحاكاتي الذي تشير إليه بوضوح تام هذه الإحالة إلى عالم أضفى عليه التركيب النحوي توزيعاً ابتدائياً يقع ما قبل علم الدلالة، أو لنقل ما قبل مفردات اللغة.

يوزع فاينريش أزمنة اللغات الطبيعية التي يختبرها بين ثلاثة محاور، كلها محاور اتصال.

1. الحالة الكلامية (Sprechsituation)، وهي تحكم التمييز الأول بين القيام بالسرَد (erzählen) والتعليق أو المناقشة (besprechen)⁽¹²⁾. وهو حتى الآن أهم تمييز بالنسبة لغاياتنا، كما انه يوفر العنوان الفرعي للنص الأصلي: *Besprochene und erzählte Welt*. يتفق هذا التمييز مع موقفين مختلفين للكلام، يتصف التعليق بالشد والمشاركة (*gespannte Haltung*) بينما يتصف القيام بالسرَد بالاسترخاء وتخفيف الشد، أو التجرد (*entspannte Haltung*).

ما يمثل عالم التعليق الحوارات الدرامية، والمذكرات السياسية، والافتتاحيات، والشهادات، والتقارير العلمية، والمقالات الأكاديمية، والاطروحات القانونية، وكل أشكال الخطاب الطقسي أو المشفّر أو الأدائي. وترتبط هذه المجموعة بموقف توتر ينطلق من كون المتحاورين مهتمون بالخطاب أو مشاركون فيه. وهم منهمكون في التعامل مع المحتوى المسجّل: «كل تعليق هو شذرة من الفعل»، (ص 33) بهذا المعنى، الكلام اللاسردي وحده هو الخطر *tua res agitur*.

ما يمثل العالم المروي هو الحكايات الشعبية، والأساطير، والقصص القصيرة، والروايات، والمرويات التاريخية⁽¹³⁾. لا وجود هنا للمتحاورين ضمناً. الأمر لا يخصهم؛ وهم لا يظهرون على المسرح⁽¹⁴⁾. وهذا هو السبب في أن بالإمكان القول في إشارة إلى «فن الشعر» لأرسطو انه حتى الأحداث المثيرة للشفقة أو الخوف تنتمي، عندما تُستقبل بتجرد، إلى العالم المروي.

يمثل تقسيم الأزمنة إلى مجموعتين تتفقان مع كل موقف العلامة التي توجه الحالة الاتصالية نحو التوتر أو الارتخاء. «إن «عناد» الوحدات الدالة (المورفيمات) الزمنية في تأشير التعليق أو السرَد يمكن المتكلم من أن يؤثر في المستمع لتشكيل الاستقبال الذي يريد المتكلم أن يراه مدخراً لنصه» (ص 30). ومع ذلك، فإن من المتاح نمذجة حالات الاتصال الخاصة بالتجربة المشتركة من حيث المبدأ، على أساس التوتر أو الارتخاء، ويؤشرها على المستوى اللغوي توزيع العلامات التركيبية النحوية التي هي الأزمنة. هنالك

مجموعتان متميزتان من الأزمنة تتفقان مع حالتين كلاميتين. إذ يوجد في اللغة الفرنسية بالنسبة للعالم المُعلّق عليه الحاضر، والماضي المركب، والمستقبل؛ وهنالك بالنسبة للعالم المروي الماضي المطلق وغير التام، والماضي المركب الثاني والشرطي. (سنرى كيف أن هذه المجاميع تُقسّم بدورها فرعياً ضمن علاقتها مع معيارين لاحقين يصفلان التمييز الأساسي بين العالم المُعلّق عليه والعالم المروي.) من هنا فإن ثمة علاقة اعتماد متبادل بين موقف الكلام وتوزيع الأزمنة. من جانب، توفر هذه المواقف حافزاً على توزيع الأزمنة إلى مجموعتين، بقدر ما يستخدم المتكلم الأزمنة المعلق عليها من أجل «جعل المشاركين يشعرون بالشد في موقف الاتصال» (ص. 32) من جانب آخر، تبث الأزمنة نفسها علامة من المتكلم إلى المستمع تشير إلى «أن هذا تعليق، هذا سرد». وبهذا المعنى تأتي معها بتوزيع ابتدائي بين مواضيع الاتصال الممكنة، تقسيم ابتدائي تخطيطي للعالم إلى عالم مُعلّق عليه وعالم مروي. ولهذا التوزيع معايير الخاصة، ما دام يعتمد على جدولة نظامية تستند على عيّات من عدد من النصوص. إن رجحان كفة مجموعة من الأزمنة في نوع من النصوص، ومجموعة أخرى من الأزمنة في نوع آخر من النصوص يصبح بذلك قابلاً للقياس.

ليس هذا التوزيع الابتدائي للأزمنة معزولاً عن التمييز بين الخطاب والسرد لدى بنفنست، عدا أنه لم يعد يتضمن علاقة المتكلم مع التلفيز، ولكن علاقة حوار ومن خلالها إرشاد لاستقبال الرسالة من أجل إتاحة توزيع ابتدائي لموضوعات الاتصال الممكنة. لذلك يتأثر العالم المشترك بين المتحاورين أيضاً بتمييز تركيبى محض. وهذا هو السبب في أن المسألة بالنسبة لفابريش مسألة عالم مروي وعالم مُعلّق عليه. وكما هو الحال مع بنفنست فإن هذا التمييز ينفع في تحرير توزيع الأزمنة من مقولات الزمن المعيش. لهذه «الحادية» بخصوص الزمن (Zeit) (ص 44) أهمية قصوى في تعريف الأزمنة الخاصة بالعالم المروي. ما يسميه النحو الماضي وغير التام

(وهما ما سأضعهما على الضد من بعضيهما البعض عندما أناقش فكرة «إبراز المعالم») هما زمانان سرديان، ليس لأن السرد يعبر أساساً عن أحداث الماضي، واقعية أم قصصية، ولكن لأن هذه الأزمنة تتجه نحو موقف ارتخاء وعدم تورط. الجوهرى هو أن العالم المروي غريب على الموجودات المباشرة التي تحيط بالمتكلم والمستمع وتشغلها عن نحو مباشر. والنموذج المعتمد هنا يبقى الحكاية الخرافية. «إنها تأخذنا أكثر من أي شيء آخر خارج الحياة اليومية وتبعدنا عنها». (ص. 45) إن تعبيرات: "once upon a time" و"il etait une fois"، و"vor Zeiten"، و"Erase que se cra" - وتعني حرفياً «كانت ما كانت عليه» (ص 47) (*) - تخدم في تأشير الدخول في السرد. بكلمات أخرى، فإن الزمن الماضي لا يعبر عن الماضي بوصفه كذلك ولكنه يعبر عن موقف الارتخاء وعدم التورط.

تترتب على التفريع الرئيس الابتدائي الذي يستند على درجة يقظة المتحاور نتائج مربكة بالنسبة لمفهوم السردية منذ البداية تماماً: ما أن تقع الدراما الحوارية على جانب التعليق، بينما الملحمة والرواية والتاريخ على جانب العالم المروي حتى ينشطر فعل التصور فعلياً إلى اثنين. وعلى نحو غير متوقع نُعاد إلى التمييز الأرسطي بين نمط المحاكاة diegesis والدراما، عدا أن المعيار الذي يستخدمه أرسطو كان يستند على العلاقة المباشرة أو غير المباشرة بين الشاعر والفعل المسجل. هوميروس نفسه يقرر الحقائق، برغم أنه يبعد نفسه عن الإيضاح الذي يقدمه بقدر ما يسمح له جنس نمط المحاكاة، بينما يعمد سوفوكليس إلى جعل الفعل ناتجاً عن الشخصيات نفسها. والمفارقة الناجمة عن ذلك بالنسبة لنا هي نفسها، على أية حال، ما دامت فكرة الحكمة قد استُعيرت من الدراما، والتي سيبعدها وينرتش أيضاً من العالم المروي. لا اعتقد أن لهذه الصعوبة أن تعوقنا طويلاً مادام فضاء

(*) يقابل هذه التعبيرات في العربية عبارة «كان يا ما كان». - المترجم.

الخطاب الذي أضعه تحت عنوان «التصور السردى» متصلاً بتأليف التقارير تاركاً دون مساس الاختلاف الذي يؤثر في التلفيظات. فضلاً عن ذلك، فإن التمييز بين التوتر والارتخاء ليس واضح المعالم كما قد يبدو للوهلة الأولى. وينرتش نفسه يذكر مثال روايات الإثارة (spanned)، ويلاحظ أن «الراوي إذا ما أعطى شداً معيناً لسرده، فإنما يكون ذلك عن طريق التعويض». إنه، بواسطة تقنية مناسبة، «يوازن جزئياً الارتخاء الذي ينتمي إلى الموقف الابتدائي... إنه يسرد وكأنما هو يعلّق». (ص 35) لا تفصل «كأنما» هذه في ذهن فاينريش عن الظاهرة الأساسية الخاصة بالانسحاب من عالم الانشغال. بدلاً من ذلك هي تجعله أكثر تعقيداً، تستكملة وتشتبك معه إلى حد إخفائه. وبالمثل، فإن عدم امتزاج المجموعتين من الأزمنة يؤكد على استمرار موقف الارتخاء الذي يقف خلف موقف التوتر الذي يعوّض عنه. لكن التحجب مشدود عضوياً إلى موقف الانسحاب في كل المرويات، من مثل الرواية، التي ترتبط بمرويات مثيرة، إلى حد يوجب تركيب الارتخاء والشد بعضيهما على البعض الآخر بدلاً من عزلهما، ولا بد من فسخ مكان للجنس المركب الذي يتولد عن هذا النوع من المشاركة - في - الانسحاب.

بهذه الملاحظات نعاود الالتحاق بالمواقع التي اتخذها ورثة بنفنست، والذين ظلوا وهم ينطلقون من قسم يختلف عن فاينريش، أكثر اهتماماً بتضمين الخطاب في السرد مما هم بقطع صلة الواحد بالآخر. إحدى طرق حل هذه المشكلة هي إضفاء تراتبية على التقرير والتلفيظ. وكل أطراف مواقف الكلام الممتدة من الانسحاب حتى المشاركة، ستنبع من التلفيظ.

2. مع «المنظور الكلامي» ينشط محور تركيبى ثان، لا يقل ارتباطاً مع عملية الاتصال عن محور الحالة الكلامية. والأمر هنا يتصل بعلاقة التوقع أو التزامن أو الاستذكار التي تربط زمن الفعل مع زمن النص. وإمكانية فترة فاصلة بين زمن الفعل وزمن النص تنتج عن الطبيعة الخطية للسلسلة

الكلامية، وبالتالي عن تكشف النص نفسه. من جانب، هنالك لكل علامة لغوية ما قبلها وما بعدها في السلسلة الكلامية. ونتيجة لذلك تسهم المعلومات المعطاة فعلاً، وتلك المتوقعة، في تقرير كل علامة في زمن النص Textzeit. من جانب آخر، يعد توجّه المتكلم في علاقته بزمن النص Textzeit نفسه فعلاً له زمنه الخاص، هو زمن الفعل Aktzeit. ويمكن لزمن الفعل هذا أن يتطابق مع زمن النص، أو أن يقع قبله، أو يتوقّعه.

لغة علاماتها التي تنبها إلى التزامن بين زمن الفعل Aktzeit وزمن النص Textzeit أو إلى الفجوة بينهما. ضمن أزمنة التعليق، يشير الماضي المركّب إلى الاستدكار، والمستقبل إلى النظر إلى أمام، أما الحاضر نفسه فليس ثمة ما يدل عليه. ضمن أزمنة السرد، يشير الماضي المركّب الثاني والماضي السابق anterior إلى الاستدكار، والشّرطي إلى النظر إلى إمام، والماضي المطلق وغير التام إلى درجة الصفر في العالم المروي. ويكون الراوي مرتبطاً بالأحداث سواء أكان مشاركاً فيها (كما في سرد ضمير المتكلم) أم مجرد شاهد عليها (كما في سرد ضمير الغائب). بهذه الطريقة يعد الشّرطي بالنسبة للسرد بمثابة المستقبل بالنسبة للتعليق؛ كلاهما يؤشر معلومات متوقعة. وبهذا تُقصى فكرة الزمن المستقبل. «لا تعني [المعلومات المتوقعة] أكثر من أن المعلومات معطاة قبل أوانها بالارتباط مع لحظة إدراكها». (ص. 74). كما إن الأزمنة الاستدكارية لا تحكمها فكرة الماضي هي الأخرى. ما يهمّني الآن، في معرض التعليق، هو المعلومات الاستدكارية. لذلك فإن الأزمنة الاستدكارية تفتح الماضي أمام فهمنا، بينما يدفعه السرد بعيداً عن متناولنا. إن الجدل بصدد الماضي يمدّه إلى الحاضر. وحالة التاريخ العلمي جديدة بالذكر في هذا المجال. فالمؤرخون يسردون ويعلقون في آن واحد في واقع الأمر. إنهم يُعلّقون كلما فسروا. وهذا هو السبب في أن الأزمنة التحوية للتمثيل التاريخي مختلطة. «في التاريخ، تشكل البنية الأساسية للتمثيل من وضع السرد داخل التعليق» (ص 79) وفن التاريخ

يُمكن في التمكن من مثل هذه الأزمنة النحوية المتعاقبة. ويمكن ملاحظة طريقة وضع السرد داخل إطار التعليق ذاتها في العملية القضائية، وفي تدخلات معينة للراوي في قصته على شكل تعليق. هذا الفصل لوظيفة التأشير التركيبية التابعة للأزمنة النحوية، في علاقتها بالتعبير عن الزمن نفسه، يكون في أبرز درجاته في حالة الزمنين غير التام والماضي المطلق اللذين لا يؤشران إلى مسافة راجعة إلى الخلف في الزمن، ولكن درجة صفر الفجوة بين زمن الفعل وزمن النص. «يشير الماضي المطلق (المجموعة II) إلى السرد. وليست وظيفته تأشير الماضي» (ص 100) بهذه الطريقة يتعذر تركيب الماضي والسرد بعضهما على البعض الآخر. أحد الأسباب في ذلك أن الماضي يمكن أن يُحيد بطرق أخرى عدا سرده سرداً بسيطاً؛ مثلاً بواسطة التعليق عليه. عندها سأضعه في الحاضر بدلاً من تحرير نفسي منه أو تجاوزه (aufheben) عبر لغة السرد. وهناك سبب آخر، يمكن لنا أن نسرد أشياء أخرى عدا الماضي: «الفضاء الذي يتكشف فيه السرد القصصي تدريجياً ليس هو الماضي». (ص 101) لكي نضع سرداً في الماضي يجب أن نضيف إلى الزمن الخاص بالعالم المروي ملامح أخرى يمكن أن تميز الحقيقة عن الخيال القصصي، مثل إنتاج الوثائق ونقدها. لم تعد أزمنة الفعل النحوي تنفع مفتاحاً لهذه العملية⁽¹⁵⁾.

3. «إبراز المعالم»، ويمثل المحور الثالث لتحليل الأزمنة النحوية. وهو ما زال يُعد محور اتصال، دون أية إحالة على خواص الزمن. وإبراز المعالم هذا يتألف من إسقاط خطوط فاصلة معينة إلى الصدارة، ودفع أخرى إلى الخلفية. يحاول وينرثس في هذا التحليل أن ينأى بنفسه عن المقولات النحوية التي تميز كيفية حدوث الفعل النحوي أو نمطه، وهي في رأيه وثيقة الصلة بأولوية الجملة، وشديدة الاعتماد على الإحالة على الزمن (سواء تكلمنا عن حالة، أم عملية، أم حدث). مرة أخرى نجد أن وظيفة التركيب النحوي هي توجيه انتباه القارئ وتوقعاته. وهذا هو ما يحدث تحديداً في

اللغة الفرنسية ضمن الزمن الملائم على نحو خاص لإبراز المعالم في ميدان السرد، أي الماضي المطلق؛ بينما يؤثر غير التام التراجع إلى خلفية المحتويات المروية، كما يُلاحظ غالباً في بداية الحكايات الشعبية والأساطير وختامها. لكن بالامكان توسيع هذه الملاحظة نفسها لتشمل الأجزاء السردية في نص ما، كما هو «خطاب في المنهج». يستخدم ديكرت «غير التام عندما يوقف حركة فكره، والماضي عندما يتقدم على نحو منهجي» (ص. 222). مرة أخرى، لا يقدم وينرتش هنا أية تنازلات: «إبراز المعالم هو الوظيفة الوحيدة حصراً للتضاد بين غير التام والماضي المطلق في العالم المروي». (ص 117، التأكيد منه).

هل يمكن الاعتراض بالقول إن فكرة شدة الإيقاع إسراعاً وبطئاً تُعين خاصية للزمن نفسه؟ لا. ما يفسر الانطباع بالسرعة تركّز القيم في الصدارة، كما في التعبير الشهير "Veni, vidi, vici" «جئت، رأيت، انتصرت»^(*) أو في أسلوب فولتير المتدفق في حكاياته ورواياته "Contes et romans". على العكس، ما يفسر بطء الوصف في الرواية الواقعية، الذي يبرزه الإكثار من غير التام، هو الرضا الذاتي الذي يسم تزيث المؤلف عند الخلفية السوسولوجية للأحداث التي يسجلها⁽¹⁶⁾.

بدأنا نتبين الآن معمار الكل الذي يحكم كما يرى فاينريش النطق التركيبي للأزمة النحوية. إن العناصر الثلاثة المناسبة التي يسترشد بها التحليل لا تُعطف على بعضها البعض، وإنما توضع في علاقة حملية أحدها للآخر لتكوّن شبكة من تعشيق يزداد دقة وتفصيلاً. لدينا أولاً التقسيم العريض إلى سرد وتعليق، مع ما يناسبه من مجموعتين من الأزمنة النحوية. ثم هنالك داخل كل مجموعة، التقسيم الثلاثي للمنظور: الاستدكار ودرجة الصفر والتوقع. وأخيراً، هنالك داخل كل منظور، هذا التفرع بين المستوى الأول

(*) هي البرقة المقتضبة التي زف بها يوليوس قيصر خبر انتصاره على الفرناسيين إلى مجلس الشيوخ - المترجم.

والثاني. إذا صح أن المنطوقات التركيبية تكون في علاقتها مع الوحدات المتمكنة (اللكسيمات lexemes) التصنيف الأول لموضوعات الاتصال الممكنة («إن دور المقولات التركيبية تحديداً هو عكس هذا التقسيم التخطيطي للعالم». [ص. 27])، عندها لا يوجد بين مستوى التراكيب ومستوى الدلالة، من منظور تصنيف موضوعات الاتصال، أكثر من اختلاف في الدرجة في دقة التقسيم التخطيطي⁽¹⁷⁾.

لا يتحدد كتاب هارالد فاينريش، مع ذلك، بهذه الدراسة التي تزداد تفصيلاً للتقسيم التبادلي للأزمنة النحوية. يلقي هذا النمط من التقسيم تكملة لا غنى عنها في توزيع الأزمنة النحوية نفسها على امتداد نص ما، سواء في التعليق أم في السرد. في هذا المجال، تشكل التحليلات المكروية للانتقالات الزمنية، أي لـ «العبور من علامة إلى أخرى في مسار الكشف الخطي للنص» (ص 199)، توسطاً أساسياً بين الامكانيات التي يوفرها مستوى التركيب، والتلفيز الخاص بتصور سردي ما. يجب أن لا تُهمل هذه التكملة التوزيعية للتقسيم التبادلي للأزمنة النحوية في لغة طبيعية إذا ما تذكرنا أن النص يتألف من علامات مرتبة في سلسلة خطية، تُرسل من متكلم إلى مستمع في تنابع زمني تعاقبي» (ص 198).

قد تكون هذه الانتقالات منسجمة فيما بينها، إذا ما حدثت داخل المجموعة ذاتها، أو قد تكون متنوعة إذا ما وقعت بين مجموعة وأخرى. وقد تبين أن الأولى هي الأكثر تواتراً. إنها تضمن، فعلياً، اتساق النص، نصيته. لكن الأخيرة مسؤولة عن غنى المعلومات. من هنا نجد أن السرد يقطعه خطاب مباشر (حوار)، ويستعان بخطاب غير مباشر بأشكال شديدة التنوع والدقة، كما هو الحال مثلاً مع الخطاب الحر غير المباشر، (والذي سأعود إليه لاحقاً بصيغة الصوت السردية).

تقدم الانتقالات الزمنية الأخرى، التي تختفي تحت التسمية القديمة الخاصة بالتوافق بين الأزمنة، الكثير من الإشارات تستهدي بها قراءة النصوص⁽¹⁸⁾.

من بين كل الأسئلة التي يثيرها عمل فاينريش المتشعب سأسبقي سؤالاً واحداً: ما علاقة العودة إلى تركيب الأزمنة النحوية ببحث يتناول الزمن في عالم القصص؟

لنستأنف النقاش من حيث تركه بنفست. سيساعدنا عمل فاينريش على إضفاء مزيد من الدقة على الأطروحتين اللتين توصلت إليهما هناك. كنت قد أكدت، من جهة، أن استقلالية أنظمة الزمن النحوي في اللغات الطبيعية تبدو وكأنها تنسجم تماماً مع القطعية التي يقوم بها القصص الخيالي على مستوى المحاكاة². كما أكدت، من جهة أخرى، أن هذه الاستقلالية لنظام الزمن النحوي لا تصل حد الاستقلال التام عن الزمن المعيش، ما دام ذلك النظام ينطق زمن القصص، الذي يحافظ على آصرة مع الزمن المعيش، على جانبي القصص. هل تناقض تحليلات فاينريش هذه الأطروحة؟

لا يثير الجزء الأول من الأطروحة أية مشكلة. الترتيب الذي يتبناه وينترش على وجه الخصوص، مفيد تماماً في إظهار كيف يرتبط ابتكار الحيكات بتركيب الأزمنة النحوية.

أولاً، يشغل فاينريش، باتخاذ النص لا الجملة حقلاً لنشاطه، على وحدات تساوي في حجمها الوحدات الخاصة بالشعرية السردية. ثم إن علم اللغة النصي بفرضه تمييزات تزداد دقة باستمرار على نظام تسمية الأزمنة النحوية، ويربطه نظام التسمية هذا مع النظام الخاص بعلامات زمنية أخرى، مثل الظروف والعبارات الظرفية، من دون نسيان ضمير الفعل، يُظهر ثراء طيف الاختلافات المتاحة أمام فن التأليف. العامل التمييزي الأخير، ذلك المتعلق بـ «إبراز المعالم»، يمتلك على وفق هذا الاعتبار أوثق الصلات مع الحيك. تقودنا فكرة إبراز المعالم دون جهد نحو تمييز ما يكون الحدث حصراً في قصة مروية. ألا يقتبس فاينريش بحماس عبارة غوته التي يعين بها، تحديداً، «الحدث الخارق للعادة»، الذي يعادله انقلاب الحظ لدى أرسطو؟⁽¹⁹⁾ بل يزداد وضوحاً أن الدلائل على شدة الإيقاع في سرد ما

الناجمة عن تركيب الأزمنة النحوية والظروف، والتي لمحننا نسيجها الغني آفأ، تكتسب تفاصيلها البارزة تحديداً بينما هي تساهم في تقدّم الحكبة. لا يكاد يمكن تعريف التغيرات في شدة الإيقاع خارج استخدامهما في التأليف السردى. أخيراً، فإن علم اللغة النصي، إذ يضيف جدولاً للانتقالات الزمنية إلى مجموعات الأزمنة النحوية على وفق نماذجها التبادلية، يُظهر التتابعات المحمّلة بالمعنى للأزمنة النحوية المتاحة للتأليف السردى لتمكنه من إنتاج تأثيرات المعنى الخاصة به. تشكل هذه التكملة التوزيعية أنسب انتقالاً بين علم اللغة النصي والشعرية السردية. إن الانتقالاً من زمن نحوي إلى آخر تفعل فعلها بوصفها دليلاً يشير إلى التحولات من حالة ابتدائية إلى حالة ختامية، وهذا هو ما يكون كل حكمة. فكرة أن الانتقالات المنسجمة فيما بينها تضمن اتساق النص، بينما الانتقالات المتغايرة تضمن ثراء محتواه المعلوماتي، تجد ما يوازئها مباشرة في نظرية الحبك. الحكبة أيضاً تقدم ملامح منسجمة فيما بينها ولامح متغايرة، استقراراً وتقدماً، تكرارات واختلافات. نستطيع بهذا المعنى القول أن التركيب النحوي إذا ما كان يمنح الراوي ما لديه من نماذج تبادلية وانتقالات، فإن امكاناته هذه لا تُدرك فعلياً إلا في فعل التأليف.

هذه هي الآصرة العميقة التي يمكن تبينها بين نظرية الأزمنة النحوية ونظرية التأليف السردى.

من جهة أخرى، لست مستعداً لإتباع فاينريش في محاولته عزل أزمنة الفعل النحوي (Tempus) عن الزمن (Zeit) في كل المستويات. بقدر ما يمكن اعتبار نظام الأزمنة النحوية جهازاً لغوياً يسمح بهيكلة الزمن المناسب لفعالية التصور السردى، فإننا نستطيع في آن واحد أن ننصف تحليلات الزمن النحوي (Tempus) ونطمح في التأكيد القائل إن الأزمنة النحوية ليس لها ما يربطها مع الزمن (Zeit). لقد قلت من قبل إن القصص تنجز على نحو مستمر تلك الانتقالاً بين التجربة التي تسبق النص والتجربة التي تعقبه. وأرى

أن نظام الأزمنة النحوية بصرف النظر عن استقلاله عن الزمن وتعييناته الراهنة، لا يقوم أبداً بقطيعة واضحة على كافة المستويات مع تجربة الزمن. يخرج نظام الأزمنة النحوية من الزمن ويعود إليه، ويتعذر محو علامات هذا الأصل وهذا المصير من توزيع الأزمنة النحوية، سواء على المستوى الخطي أم التبادلي.

بادئ ذي بدء، ليس اعتباطاً أن نلاحظ في الكثير من اللغات الحديثة أن الكلمة نفسها تعين الزمن [le temps] وتعين أزمة الفعل النحوي [les temps verbaux]، أو أن التعيينات التي تنسب إلى الصنفين تحافظ على قرابة دلالية يسهل على المتكلمين إدراكها. (هذه هي الحال في الإنجليزية بين tense و time، وفي الألمانية يسهل التناوب بين الجذرين الألماني واللاتيني Zeit و Tempus إعادة تأسيس هذه القرابة) (*).

بعدها، فإن فاينريش نفسه قد احتفظ بملمح محاكاتي في تصنيفه للأزمنة النحوية، لأن وظيفة التأشير والإرشاد التي تعزى للتمييزات التركيبية النحوية تؤدي إلى «تجزئة تخطيطية ابتدائية للعالم». وذلك هو مدار الاهتمام في التمييز الذي يقيمه بين الأزمنة النحوية بصيغة حالة الكلام في عالم مروي وعالم مُعلّق عليه. أدرك تماماً أن كلمة «عالم» ستعني هنا مجموع موضوعات الاتصال الممكنة دون أي مضمون انطولوجي ظاهر، إذا لم نمحّ التمييز الابتدائي بين الزمن النحوي والزمن. ولكن يبقى العالم المروي والعالم المُعلّق عليه عالمين برغم ذلك، وما علاقتهما بعالم الممارسة إلا معلقة فقط على وفق قانون المحاكاة².

تعود الصعوبة مع كل واحد من محاور الاتصال الثلاثة التي تحكم توزيع الأزمنة النحوية. يؤكد فاينريش محقاً أن الماضي المطلق الخاص

(*) وكذلك في العربية حيث تستخدم كلمة زمن للإشارة إلى الزمن عموماً والزمن النحوي تحديداً، وهو ما يضطرني إلى إضافة صفة نحوي إلى كلمتي زمن وفعل لتمييزهما عن المعنى العام - المترجم.

بالحكايات الشعبية والأساطير والرواية والقصة القصيرة، لا يؤشر إلا الدخول في السرد. وهو يجد ما يؤكد هذه القطيعة في التعبير عن الزمن الماضي في استخدام الماضي المطلق في السرد البيوتوبي، وقصص الخيال العلمي، وفي الروايات التي تتعامل مع المستقبل. ولكن هل نستنتج من هذا أن ليس ثمة ما يربط إشارة الدخول في السرد البتة مع التعبير عن الماضي بوصفه كذلك؟ لا ينكر وينرتش في الواقع أن هذه الأزمنة النحوية تعتبر عن الماضي في حالة اتصال مختلفة. هل هاتان الحقيقتان اللغويتان معزولتان عن بعضهما البعض تماماً؟ ألا نستطيع بالرغم من الانقطاع هذا إدراك قرابة معينة يمكن أن تكون تلك المتعلقة بـ «كأنما»؟ ألا تقوم العلاقة التي تؤشر الدخول في القصص بإحالة جانبية على الماضي عبر عملية التحييد، أو التعليق؟ يناقش هوسرل بتوسّع علاقة القرابة هذه التي يحققها التحييد⁽²⁰⁾. ويعرّف يوجين فنك التكوين Bild مترسماً خطاه، على أنه تحييد الإحضار مجرداً (Vergegenwartigen)⁽²¹⁾. بوساطة هذا التحييد لقصد الذاكرة «الواقعي» يصبح كل غياب شبه - ماضٍ بالمماثلة، يتكلم كل سرد - حتى ذلك المتعلق بالمستقبل - عن اللاواعي كأنما هو ماضٍ. كيف يتسنى لنا تفسير أن الأزمنة النحوية السردية هي أيضاً أزمنة للذاكرة إن لم يكن يوجد بين السرد والذاكرة علاقة استعارية ما ينتجها التحييد؟⁽²²⁾.

أتعهد إعادة تأويل معيار الارتخاء الذي يقترحه فاينريش بصيغة تحييد استحضار الماضي لكي أُميّز العالم المَرُوي عن العالم المُعلّق عليه. إن موقف الارتخاء الذي تؤشره الأزمنة السردية لا ينحصر، كما أرى، بتعليق مشاركة القارئ في محيطه الواقعي. الأهم أنه يُعلّق الاعتقاد بأن الماضي يتصل بال اللحظة الراهنة من أجل نقله إلى مستوى القصص الخيالي، كما تدعونا العبارات الافتتاحية للقصص الخرافية المشار إليها آنفاً أن نفعل. لذلك تُستَبقى علاقة غير مباشرة مع الزمن المعيش من خلال توسط التحييد⁽²³⁾.

إن الحفاظ على القصد الزمني للأزمنة النحوية، برغم القطيعة التي

تتأسس عندما ندخل عالم القصص، يمكن أن يلاحظ أيضا على امتداد المحورين الآخرين اللذين يكملان الانقسام بين السرد والتعليق. كما رأينا، وجد فايبريش نفسه ملزما، لكي يقدم المنظورات الثلاثة - الاستدكار، والتوقع، ودرجة الصفر - إلى التمييز بين زمن الفعل Aktzeit وزمن النص Textzeit. وعودة مصطلح Zeit (زمن) ليس مصادفة. يوصف التكتشف التدريجي النصي، سواء أكان شفاهيا أم مكتوباً، بأنه «تكتشف تدريجي للزمن دون شك». ("Le Temps"، ص. 67). وهذا القيد ينجم عن الطبيعة الخطية لسلسلة الكلام. يترتب على ذلك خضوع الاستدكار والتوقع لشروط الخطية الزمنية ذاتها. وحتى لو حاول المرء أن يضع بدل هذين المصطلحين آخرين سواهما يتعلقان بالمعلومات غير المحكية أو المتوقعة، فانا لا أرى كيف يمكن إزالة فكريتي المستقبل والماضي إزالة تامة من تعريفهما. إن الاستدكار والتطلع إلى أمام يعبران عن تلك البنى الأكثر بدائية المتعلقة باستبقاء الحاضر الحي ومذه. لن نتمكن دون هذه الإحالة الجانبية على بنية الزمن من فهم ما يعنيه الاستدكار والتوقع.

يمكن طرح الملاحظات نفسها بصدد محور الاتصال الثالث، ذلك المتعلق بإبراز المعالم. إذا صح حقاً أن التمييز بين الزمن غير التام والماضي على مستوى القصص لم يعد يدين بأي شيء لتعيينات الزمن النحوي المعتادة، فإن المعنى الأولي للتمييز يبدو وثيق الصلة فعلاً بالقابلية على تبين جانب ديمومة، وجانب حدوث عرضي في الزمن النحوي نفسه⁽²⁴⁾. ويبدو من غير المحتمل أن لا يغير جانب من هذا التشخيص للزمن نفسه إلى الأزمنة النحوية التي تشارك في إبراز المعالم. لو لم تكن هذه هي الحالة، لما تأتى لفايبريش أن يكتب: «في صدارة السرد، كل ذلك يحدث، يتحرك، يتغير». (ص 176) لا يمكن للزمن السردى أن يفصم عراه تماماً مع الزمن المعيش، زمن الذاكرة والفعل⁽²⁵⁾.

أنا نفسي أجد في هذه العلاقة الثنائية من التقارب والانفصال الناشطة

بين الأزمنة النحوية للماضي المعيش والأزمنة النحوية للسرد إيضاحاً نموذجياً للعلاقات بين المحاكاة 1 والمحاكاة 2. تعبّر الأزمنة النحوية الماضية أولاً عن الماضي؛ بعدها، ومن خلال انتقال استعارية تحافظ على ما تستبدله، فإنها تعلن عن الدخول في القصص دون إحالة مباشرة على الماضي بوصفه كذلك، لكنها قد تكون إحالة جانبية.

هنالك سبب إضافي، هو كما اعتقد السبب الحاسم، يدعو إلى عدم إحراق كل الجسور بين أزمنة الفعل النحوي والزمن. وهو يتصل بالعلاقة مع ما وصفته بالجانب الثاني للنص، أي العلاقة التي تعرّف مرحلة المحاكاة 3. لا تستبقي القصص اثر عالم الممارسة الذي تبرز معالمها على خلفيته فقط، لكنها تعيد توجيه تحديدنا في ملامح للتجربة «تبتكرها» هي أيضاً؛ وهو ما يعني القول إنها تكتشف وتخلق في آن واحد⁽²⁶⁾. في هذا المجال تقطع الأزمنة النحوية صلتها مع تعيينات الزمن المعيش، الزمن الذي يحذفه علم اللغة النصي، وذلك لكي يتسنى لها إعادة اكتشاف هذا الزمن بإمكانات نحوية لا حد لتنوعها.

إن هذه العلاقة المتصلة بالمستقبل لتجربة الزمن، كما هي مرسومة في الأدب، هي التي تفسر حرص السابقين الكبار، الذين يستدعي فاينريش رعايتهم، على شد أواصر أزمنة الفعل النحوي مع الزمن باستمرار. عندما يشير غوته وشيلر في مراسلتهم إلى حرية الراوي كلي الحضور وحركيته، وهو الذي يقدم مسحاً لفعل ملحمي جامد من الناحية العملية، عندما يحتفي أوغست ولهلم شليغل بـ «ما يتصف به الراوي من صفاء تأملي»، فإنهم يتوقعون ظهور خاصية جديدة للزمن نفسه من التجربة الجمالية. وعلى الأخص، عندما يسمي توماس مان «المجبل السحري» Der Zauberberg رواية زمنية Zeitroman فإنه لا يشك أبداً بأن «موضوعها نفسه هو الزمن Zeit في حالته الصافية». (ص. 55)⁽²⁷⁾. إن الاختلاف النوعي بين زمن «الأراضي المنبسطة» والزمن الرغيد، الخالي من المشاغل لأولئك المكرسين في الأعلى

للتلوج الأزلية (ص. 56) هو بالتأكيد من آثار المعنى التي ينتجها العالم المروي. بهذا المعنى فإنها قصصية بقدر ما هو حال بقية فضاء الرواية. لكنها بالرغم من ذلك تتألف فعلياً من وعي جديد بالزمن، ضمن نمط الـ «كأنما». وأزمة الفعل النحوي تخدم في إنتاج هذا المعنى.

سأتوقف عن متابعة هذا البحث هنا، فهو سيكون موضوع الفصل القادم. إن هذا البحث يتضمن في الواقع فكرة جديدة تتصل بالتجربة القصصية للزمن كما تعيشها الشخصيات، والتي هي نفسها قصصية، في السرد. وتتصل هذه التجربة القصصية ببعد آخر من العمل الأدبي عدا هذا الذي ننظر فيه هنا، هو تحديداً قدرته على إسقاط عالم ما. وفي هذا العالم المُسقط تعيش الشخصيات التي لها تجربة زمن، هي تجربة قصصية بقدر ما هي هذه الشخصيات، لكنها تجربة تمتلك برغم ذلك عالماً هو بمثابة الأفق لها. ألا يصادق وينترش على هذا الاستبصار المختلس إلى فكرة عالم معين للعمل عندما يتكلم هو نفسه عن عالم مروي وعالم مُعلق عليه؟ ألا يمنح هو هذا الاستبصار شرعية أكثر تحديداً من خلال اعتباره التركيب النحوي تجربة ابتدائية لعالم موضوعات الاتصال الممكنة؟ ما هي هذه الموضوعات الممكنة إن لم تكن قصصاً قادراً على أن يُوجهنا فيما بعد إلى حل شفرة وضعنا وزمنيتها؟

تسمح لنا هذه الاقتراحات، التي لا تعدو هنا كونها أسئلة، أن نلمح على الأقل بعض الأسباب التي تجعل دراسة الأزمنة النحوية عاجزة عن أن تقطع وشائجها مع تجربة الزمن وتعييناتها المعتادة ولا تترك أمام القصص من خيار إلا أن تلقي مراسيها في عالم الممارسة، الذي منه تنطلق وإليه تعود.

زمن فعل السرد وزمن مادة السرد

مع التمييز الذي طرحه غونتر مولر، واعتمده جيرار جينيت مرة أخرى، ندخل إشكالية لا تسعى، مقابل الإشكالية السابقة، إلى أن تجد في التلفيظ

نفسه مبدأ تغاير داخلي يتجلى في توزيع الأزمنة النحوية، بل هي تبحث بدلا عن ذلك عن مفتاح جديد لتأويل الزمن في القصص في التمييز بين التلفيظ والتقرير.

إن لمن الهام جداً أن نقرر، دون مزيد من الإبطاء، أن مولر بخلاف المؤلفين الثلاثة الذين نوقشوا آنفاً، يُدخل تمييزاً لا يتحدد بما هو داخل الخطاب. إنه يفتح على زمن الحياة، وهو ما لا يختلف عن الإحالة على العالم المروي لدى فاينريش. هذا الملمح لا يتواصل في علم السرد النبوي لجينيت، ولا يمكن متابعته إلا في توسط ينتمي إلى هرمنوطيقا (تأويلية) تخص عالم النص، كتلك التي سأرسم خطوطها في الفصل الأخير من هذا الجزء. بالنسبة لجينيت، يُستبقى التمييز بين زمن التلفيظ وزمن التقرير داخل حدود النص، دون أي نوع من المضمون المحاكاتي.

ما أهدف إليه هو إظهار أن جينيت أكثر صراحة من مولر في تمييزه بين زمنين سرديين، لكن مولر يحتفظ، ربما على حساب الاتساق الشكلي، بفتحة يبقى متروكا لنا أمر الاستفادة منها. ما نحتاج إليه خطة ثلاثية المستويات: تليفيظ - تقرير - عالم النص، ومعها يتفق زمن فعل السرد، وزمن مادة السرد، وتجربة قصصية للزمن يُسقطها الوصل/ الفصل بين الزمن الذي يستغرقه فعل السرد والزمن المروي. لا أحد من هذين المؤلفين يستجيب بدقة لهذه الحاجة. لا يميز مولر تمييزاً واضحاً المستوى الثاني عن الثالث، ويستأصل جينيت المستوى الثالث باسم الثاني.

سأحاول إعادة ترتيب هذه المستويات الثلاثة عبر اختبار نقدي لهذين التحليلين، وإليهما أنا مدين لأسباب متناقضة أحياناً.

يختلف السياق الفلسفي الذي يطرح ضمنه مولر التمييز بين زمن فعل السرد Erzählzeit وزمن مادة السرد erzählte Zeit اختلافاً كبيراً عن سياق النبوية الفرنسية. إن إطاره هو «الشعرية المورفولوجية»⁽²⁸⁾، التي استلهمت تأملات غوته حول مورفولوجيا النباتات والحيوانات على نحو مباشر⁽²⁹⁾. إن

إحالة الفن على الحياة التي تعتمد عليها هذه الشعرية المورفولوجية لا يمكن فهمها إلا ضمن هذا السياق⁽³⁰⁾. نتيجة لذلك فإن التمييز الذي يقدمه مولر محكوم عليه أن يتذبذب بين تضاد إجمالي للسرد مع الحياة وتعين يقع داخل السرد ذاته. وتعريفه للفن يسمح بكلا التأويلين: «السرد هو استحضار [Vergegenwartigen] أحداث لا تدركها حواس السامع». (ص 247). وفي فعل الاستحضار هذا تحديداً يقع التمييز بين حقيقة «فعل السرد» والمادة «التي تُسرد». وهو يُعد بذلك تمييزاً ظاهرياً يكون على وفقه كل سرد هو سرد لشيء ما (erzählen von)، ومع ذلك فإنه شيء ليس هو نفسه بسرد. في أعقاب هذا التمييز الأساسي تأتي إمكانية التمييز بين زمنين: الزمن الذي يستغرقه فعل السرد وزمن مادة السرد. ولكن ما هو متلازم الاستحضار الذي يتوافق معه زمن فعل السرد؟ هنا نجد إجابتين. من جانب، لا تُقدّم مادة السرد التي هي ليست سرداً بدمها ولحمها في السرد، بل ببساطة «يُعبّر عنها أو تُستعاد» (wiedergabe). من جانب آخر، فإن مادة السرد هي من حيث الجوهر «زمنية الحياة» (ص. 251). ومع ذلك «فان الحياة لا تُسرد نفسها، إنها تُعاش» (ص. 254). وكلا هذين التأويلين تفترضهما العبارة التالية: «كل فعل سرد هو فعل سرد لشيء ما لا يكون عملية سرد بل عملية حياة». (ص 261). كل سرد منذ «الإلياذة» هو سرد لهذا التدفق (Fliesen): Je mehr Zeitlichkeit des Leben, desto reinere Epik كلما زاد غنى الحياة في الزمنية، زاد صفاء الملحمة». (ص. 250).

لنؤجل إلى مناقشة لاحقة هذا الغموض البين المتعلق بمكانة زمن مادة السرد، ولنلتفت إلى أوجه التقسيم إلى زمن فعل السرد وزمن مادة السرد الناجم عن شعرية مورفولوجية.

منبع كل شيء ملاحظة مفادها أن السرد، إذا استخدمنا تعبيراً مستعاراً من توماس مان، هو «العزل جانباً» (aussparen)، أي الانتقاء والاستبعاد في آن واحد⁽³¹⁾. لذلك علينا أن نخضع للبحث العلمي الأنماط المختلفة من

«الرزْم» (Raffung) الذي يُعزَل به زمن فعل السرد عن زمن مادة السرد. وتوخياً لمزيد من الدقة، نقول أن مقارنة الزمنين يصبح موضوع علم للأدب بحق ما أن يُسلم الأدب نفسه للقياس. من هنا تأتي فكرة ضبط قياس الزمنين موضع البحث. يبدو أن فكرة مقارنة ذات قياس دقيق قد نشأت من تأمل في التقنية السردية لفيلدنغ في «توم جونز». إن فيلدنغ، أب الرواية التي تروي نمو الشخصية وتطوّرها، هو من طرح طرحاً ملموساً السؤال التقني المتعلق بزمن فعل السرد. وبوصفه أستاذاً يعي أصول لعبة الزمن، فانه يكرس كل واحد من كتبه الثمانية عشر لشرائح زمنية ذات أطوال متفاوتة - من عدة أعوام إلى عدة ساعات - مبطناً أو مسرّعا حسب مقتضيات الحالة، حاذفاً لشيء ما ومؤكداً على آخر. وإذا كان توماس مان قد أثار مشكلة العزل جانباً Ausparung، فقد سبقه فيلدنغ من خلال تنويعه الواعي لرزْم الزمن Zeitraffung، التوزيع غير المتكافئ لزمن فعل السرد في زمن مادة السرد.

ولكن إذا كنا نقيس شيئاً ما، فما هو ذلك الذي نقيسه؟ وهل كل شيء قابل للقياس هنا؟

ما نقيسه، تحت اسم زمن فعل السرد، كما هو متعارف عليه هو زمن متعاقب يساوي عدد الصفحات والسطور في العمل المنشور بسبب التساوي القبلي المطروح بين الزمن المنقضي والحيز المقطوع على سطح ساعة ما. لذلك فالأمر لا يتعلق البتة بالزمن الذي استغرقه تأليف العمل. ما الزمن الذي يساويه عدد الصفحات والسطور؟ انه يساوي زمناً تقليدياً للقراءة يكون من الصعب تمييزه عن الزمن المتغير للقراءة الفعلية. والأخير تأويل للزمن المُستغرق لرواية القصة يمكن مقارنته مع التأويل الذي يقوم به قائد فرقة موسيقية معيّن للزمن النظري الذي يستغرقه أداء قطعة موسيقية⁽³²⁾. ما أن يتم القبول بهذه الأعراف حتى يصبح بوسعنا القول إن السرد يتطلب «مروراً ثابتاً للزمن الفيزيقي» تقيسه الساعة. ما يُقارن إذن هو «أطوال» زمن في الواقع، قياساً بكل من زمن فعل السرد القابل للقياس وكذلك الزمن

المروي، الذي يُقاس بصيغة أعوام، وأيام، وساعات أيضا.

هل يمكن أن يُقاس كل شيء الآن بوساطة هذه «الانضغاطات الزمنية»؟ إذا كانت مقارنة الأزمنة ستقتصر على القياس المقارن لتعاقبين زمنيين، فإن البحث سيكون مختبئا للآمال إلى أقصى حد؛ برغم أنه حتى لو اختزل إلى هذه الأبعاد يمكن أن يقود إلى نتائج مدهشة وغالبا ما تكون غير ملحوظة (بلغ عظم الاهتمام بالثيمات حد أن الملامح الدقيقة لإستراتيجية التعاقب الزمني الثنائية هذه قد أغفلت إلى حد كبير). لا تتألف هذه الانضغاطات من مختصرات على مقياس مدرج حسب. لكنها تتألف أيضا من الوثب على الزمن الميت في تسريع تقدم السرد بوساطة إيقاع متقطع في التعبير (Veni, vidi, vici) «جئت، رأيت، انتصرت»، ومن تكثيف ملامح تكرارية أو استمرارية في حدث نموذجي واحد («كل يوم»، «دون توقف»، «الأسابيع»، «في الخريف»، وما أشبه). من هنا فإن التسارع والإيقاع يغنيان، في مسار العمل نفسه، تنويعات الأطوال النسبية لزمن السرد وللزمن المروي. تسهم كل هذه التدوينات إذا أخذت معاً في رسم الخطوط العريضة لجشطلت (شكل) السرد. وفكرة الجشطلت هذه تفتح الطريق أمام بحوث في جوانب بنوية تبتعد أكثر فأكثر عن الخطية، والتتابع، والتعاقب الزمني، حتى عندما يبقى الأساس العلاقة بين الفترات الزمنية المنصرمة القابلة للقياس.

بناء على الاعتبار المذكور، تخضع الأمثلة الثلاثة التي استخدمها مقال مولر «زمن فعل السرد وزمن مادة السرد» Erzählzeit und erzählte Zeit، أي «سنوات تعلم ولهلم ميستر» لغوته، «السيدة دالوي» لفرجينيا وولف، و«ساغا فورسايت» لجالزورثي لاختبار فائق الدقة يجعل من تحليلاته نماذج تستحق التقليد.

بحكم اختيار المنهج، يستند هذا البحث في كل مثال على أكثر الجوانب خطية في السرد، لكنه لا يتقيد بها. الخطة السردية الابتدائية هي التتابع، ويتألف فن السرد من استعادة تعاقب الأحداث (die Wiedergabe des

(Nacheinders (ص 270)⁽³³⁾. لذلك تزداد الملاحظات التي تحطم هذه الخطية أهمية. تزايد إيقاع السرعة، على وجه الخصوص، يتأثر بالطريقة التي يتسع بها السرد في وصفه للمشاهد وكأنها لوحات حية، أو يتسارع عبر سلسلة من الضربات القوية الخاطفة. وكما هو شأن بروديل المؤرخ، علينا أن لا نتناول الزمن بصفته طويلاً أو قصيراً ببساطة، ولكن بصفته سريعاً أو بطيئاً. إن التمييز بين «المشاهد»، «الانتقالات»، أو «مجموعات الأحداث التوسطية» ليس أمراً كيمياً على وجه الحصر أيضاً. يقع تأثير البطء أو التسارع، القصر أو الطول والامتداد على الخط الفاصل بين ما هو كمي وما هو نوعي. المشاهد التي تُسرد باستفاضة وتُعزل بينها انتقالات قصيرة أو مختصرات تكرارية - ويسمّيها مولر «المشاهد المعالم» - تدفع العملية السردية إلى أمام، على الضد من تلك المرويات التي تشكل فيها «الأحداث الخارقة للعادة» الهيكل السردية. بهذه الطريقة، تضيف العلاقات البنيوية غير القابلة للتكميم، تعقيداً إلى «التفاعل» Zusammenspiel الناشط بين أمدنين زمنيين. إن ترتيب المشاهد، ومجموعات الأحداث التوسطية، والأحداث المهمة، والانتقالات لا يتوقف عن تعديل الكميات والاتساعات. تضاف إلى هذه الملامح الاستشرافات، والاسترجاعات، والروابط البينية التي تمكن ذكرى آحاد شاسعة من الزمن من أن تُضمّن في تتابعات سردية موجزة، لتخلق بذلك اثر العمق المنظوري، بينما هي تكسر التعاقب الزمني. ونبتعد أكثر من ذي قبل عن مقارنة محصورة بين أطوال الزمن عندما نضيف إلى الاسترجاعات، زمن التذكر، وزمن الحلم، وزمن الحوار المستجل، كما عند فرجينيا وولف. من هنا تضاف التوترات النوعية إلى القياسات الكمية⁽³⁴⁾.

ما الذي تستلهمه إذن بهذه الطريقة الانتقالة من تحليل قياس الحقب الزمنية إلى تقييم ظاهرة إدماج ذات طابع نوعي أساساً؟ إنها علاقة زمن السرد بزمن الحياة عبر الزمن المروي. هنا يتقدم تأمل غوته إلى الصدارة: لا تمثل الحياة بحد ذاتها كلاً. تستطيع الطبيعة أن تنتج أشياء حية، لكنها لا مبالية (gleichgültig). يستطيع الفن أن ينتج أشياء ميتة فقط، لكنها محمّلة بالمعنى.

نعم، هذا هو أفق التفكير: أن يُستمد الزمن المروي من اللامبالاة بوساطة السرد. يتمكن الراوي من خلال الاذخار والإبقاء والانضغاط أن يجلب ما هو غريب عن المعنى (sinnfremd) إلى محيط المعنى. وحتى عندما يقصد السرد التعبير عما هو فاقد المعنى (sinnlos)، فإنه يقدمه ضمن علاقة مع محيط صنع المعنى (Sinndeutung)⁽³⁵⁾.

لذلك فإن استئصال هذه الإحالة على الحياة، سيجعلنا نخفق في فهم أن التوتر بين هذين الزمنين ينبع من مورفولوجيا تشبه فعل التشكل/ التحول (Bildung - Umbildung) الناشط في الأجسام الحية، وتختلف عنه في آن واحد من خلال رفعها الحياة الخالية من المعنى إلى عمل محتمل بالمعنى بنعمة الفن. بهذا المعنى تؤسس المقارنة بين الطبيعة العضوية والعمل الشعري لمكوّن من مكونات المورفولوجيا الشعرية لا يقبل الاختزال.

إذا ما وافقنا جينيت على تسمية العلاقة بين الزمن الذي يستغرقه السرد والزمن المروي في السرد نفسه «لعبا مع الزمن»، فإن لهذا اللعب جائزة رهان هي التجربة المعيشة الزمنية (Zeiterlebnis) التي يقصدها السرد. ومهمة المورفولوجيا الشعرية أن تُظهر الطريقة التي تتفق بها العلاقات الكمية للزمن مع كيفيات الزمن التي تعود إلى الحياة ذاتها. وعلى العكس، تظهر هذه الكيفيات الزمنية للعيان بوساطة لعب الاشتقاقات والمعتراضات، من دون أن يستلزم ذلك تطعيمها في أي تأمل، كما عند لورنس شتيرن، وجوزيف كونراد، وتوماس مان، أو مارسيل بروست. هنالك زمن أساس موجود ضمناً دون أن يُعد هو نفسه الثيمة. ومع ذلك، فإن زمن الحياة هذا «يتقرر بالمشاركة» بوساطة العلاقة والتوتر بين زمني السرد، وبوساطة «قوانين الشكل» الناتجة عنهما⁽³⁶⁾. في هذا المضمار، يمكن لنا القول إن هنالك من «التجارب المعيشة» الزمنية ما يساوي عدد الشعراء، وحتى القصائد. هذا هو واقع الحال، وهذا هو السبب في أن هذه «التجربة» لا تُقصد إلا بشكل موارب من خلال هيكله الزمن، بصفته ما يناسب هذا المعيش وما يناسبه.

من الواضح أن بنية متقطعة تناسب زمن مخاطر ومغامرات، وإن بنية أكثر تواملاً وخطية تناسب رواية التعلم حيث تغطي ثيمات التطور والتحول، بينما التعاقب الزمني المثلم، الذي تقطعه قفزات واستشرافات واسترجاعات، أي باختصار، يقطعه تصور متعدد الأبعاد على نحو مقصود، تناسب على نحو أفضل نظرة إلى الزمن تفتقر الشمول وأي تماسك داخلي. وتهدف التجريبات المعاصرة في منطقة التقنيات السردية إلى تدمير تجربة الزمن ذاتها. صحيح أن اللعب نفسه يمكن أن يصبح في هذه التجريبات موضع الرهان نفسه⁽³⁷⁾. ولكن يبدو أن لا سبيل إلى الفكاك من قطبية التجربة المعيشة الزمنية (Zeiterlebnis) وهيكله الزمن (Zeitgerüst).

في كل حالة يتكشف خلق زمني فعلي، «زمن شعري» (ص. 311) على أفق كل «تأليف محمل بالمعنى» (ص. 308). هذا الخلق الزمني هو مدار الأمر في هيكله الزمن الناشطة بين زمن فعل السرد والزمن المروي.

التلفيز، والتقريب، والموضوع في خطاب جينيت السردية

انتهى بنا كتاب غونتر المعنون «الشعرية المورفولوجية» Morphologische Poetik إلى أزمنة ثلاثة: زمن فعل السرد، والزمن المروي، وأخيراً زمن الحياة. أول هذه الأزمنة يتسم بالتعاقب: إنه زمن قراءة أكثر منه زمن كتابة، وليس في مقدورنا إلا قياس معادله الذي يُحسب بعدد الصفحات والسطور، بينما يحسب الزمن المروي بالأعوام، والشهور، والأيام ويمكن حتى أن نجد تحديداً لتاريخه في العمل نفسه. أما نتيجة «ضغط» compression زمن «مستبقى» أو «مطروح جانباً» فإنها الحياة، وليس السرد. نظام التسمية الذي يقترحه جيرار جينيت ثلاثي هو الآخر⁽³⁸⁾. لكن يتعذر، برغم كل ذلك، تركيبه على ما يطرحه مولر. إذ هو يتولد عن محاولة علم السرد البنيوي اشتقاق كل مقولاته من ملامح يحتويها النص نفسه، وهو ما لا ينطبق على مولر إذا أخذنا بالاعتبار زمن الحياة.

تتقرر مستويات جينيت الثلاثة ابتداءً من المستوى الوسطي، أي التقرير السردى. وهو ما تصح عليه صفة السردى بمعناها الضيق. ويتكون من رواية أحداث واقعية أو خيالية. ويتماها هذا السرد فى الثقافة المكتوبة مع النص السردى. يتوفر التقرير السردى بدوره على علاقة ثنائية. أولاً، يرتبط التقرير بموضوع السرد، تحديداً، الأحداث المروية سواء أكانت خيالية أم واقعية. وهذا هو ما يسمى عادة القصة «المنقولة». (ويمكن بمعنى مشابه أن يطلق على الفضاء الذى تقع فيه القصة مصطلح فضاء السرد (الأحداث) *diegetic*)⁽³⁹⁾. ثانياً، يرتبط التقرير مع فعل السرد بذاته أي مع «التلفيط» *utterance* السردى. (بالنسبة ليوليسيس، روايته لمغامراته هي فعل بقدر ما هي فعلٌ مذبحة الخطاب). لذلك يمكن لنا القول إن السرد ينقل قصة، وهو بخلاف ذلك لا يكون سرداً. كما إنها قصة يطرحها شخص ما، وبخلاف ذلك لا تكون خطاباً. «إن السرد بوصفه سرداً يحيا بعلاقته بالقصة التي يرويها، ويحيا بوصفه خطاباً بعلاقته مع فعل السرد الذى يتلفظ به». («الخطاب السردى» ص 29)⁽⁴⁰⁾.

كيف نقارن هذه المقولات مع تلك التى طرحها بنفنست وغونتر مولر (غافلين هارالد فاينريش، غير المعنى هنا)؟ يبدو واضحاً من عنوان هذا العمل ذاته أن التقسيم إلى خطاب وسرد، القادم من بنفنست، لا يُستبقى إلاً لكي يتعرض للتحدي. كل سرد يحتوي خطاباً مادام أي سرد هو شيء ملفوظ لا يقل فى صفته هذه عن قصيدة غنائية، أو اعتراف، أو سيرة ذاتية. فإذا ما غاب الراوي عن النص، يبقى غيابه أحد حقائق التلفيط⁽⁴¹⁾. بهذا المعنى يكون التلفيط مشتقاً من لحظة الخطاب، بالمعنى الواسع الذى ينسبه بنفنست للخطاب فى مكان آخر لكي يضعه على الضد من النظام الافتراضي للغة (*langue*) لا الخطاب بالمعنى الأضيق، الذى يوضع فيه على الضد من السرد. لكن علينا الإقرار بأن تمييزه بين الخطاب والسرد جعلنا واعين بثنائية كنا مضطرين إلى وضعها بالنتيجة داخل السرد، بالمعنى الواسع للمصطلح.

بهذا المعنى تكون الثنائية الشاملة، إن صح القول، المتعلقة بالتلفيز والتقرير وريشة التخيير الجامع المانع بين الخطاب والسرد، على وفق بنفست⁽⁴²⁾.

تبقى العلاقة بغوتنر مولر أكثر تعقيداً من هذا. يستبقي جينيت التمييز بين زمن فعل السرد Erzählzeit وزمن مادة السرد erzalte Zeit، لكنه يعيد إخراجها على نحو شامل. وتنجم إعادة الإخراج من الفارق في مكانة المستويات التي تعزى إليها الملامح الزمنية. لا يشخص الفضاء السردى والتلفيز حسب مصطلحات جينيت أي شيء خارج النص. هنالك استيعاب للعلاقة بين التقرير وبين ما يُروى داخل العلاقة بين الدال والمدلول في علم اللغة السوسيري. وهكذا فإن ما يدعوه مولر الحياة يبقى خارج الحدود. يأتي التلفيز، بدوره، من الطبيعة ذاتية الإحالة للخطاب، ويحيل على الشخص الذي يقوم بفعل الرواية. مع ذلك، يسعى علم السرد إلى الاكتفاء بتسجيل علامات السرد الماثلة في النص.

ينتج عن إعادة تنظيم مستويات التحليل هذه إعادة توزيع تامة للملامح الزمنية. أولاً، توضع التجربة المعيشة الزمنية Zeiterlebnis خارج الحدود. وكل ما يتبقى هو العلاقات الداخلية بالنسبة للنص بين التلفيز، والتقرير، والقصة (أو الفضاء السردى) وسوف تُكرس تحليلات نص نموذج، هو «البحث عن الزمن الضائع» لهذه العلاقات.

ينصب اهتمام التحليل الأساس على العلاقة بين زمن السرد وزمن الفضاء السردى، وسيكون ذلك على حساب زمن التلفيز إلى حد ما، لأسباب سأوردها فيما بعد. ما زمن السرد إن لم يكن زمن التلفيز ولا زمن الفضاء السردى؟ يرى جينيت، شأنه شأن مولر، أنه يساوي زمن القراءة ويقوم بديلاً عنه، أي الزمن المطلوب لتغطية فضاء النص أو اجتيازه: «ليس للنص السردى، كما هو شأن كل نص آخر، أية زمنية أخرى عدا ما يستعيره، على نحو كئاثي، من قراءته». («الخطاب السردى»، ص34). لذلك، علينا أن نعامل «كأمر مفروغ منه ونقبل حرفياً شبه - قصة زمن فعل

السرد، هذا الزمن الزائف الذي يقدم نفسه على أنه زمن حقيقي، ويفترض أن يُعامل - بذلك الخليط من التحفظ والقبول الذي تنطوي عليه هذه المعاملة - على إنه شبه - زمن⁽⁴³⁾. (ص 78، التأكد منه)⁽⁴³⁾.

لن أتناول بالتفصيل تحليل جينيت للمحددات الجوهرية الثلاثة - الترتيب، والمدة، والتردد - التي يمكن بواسطتها دراسة العلاقات في زمن القصة وشبه - زمن السرد. في مستويات التعبير الثلاثة هذه، ما له معنى هو التنافرات بين الملامح الزمنية للأحداث في الفضاء السردى وما يقابلها من ملامح في السرد.

بالنسبة للترتيب، يمكن إدراج التنافرات هنا تحت مسمى عام هو التخالف الزمني⁽⁴⁴⁾ anachrony. ويبرز هنا السرد الملحمي، منذ «الإلياذة»، لاعتماده طريقة الابتداء من منتصف الفعل in media res ثم التحرك إلى الخلف من أجل شرح الأحداث. ويستخدم هذا الإجراء لدى بروسست لوضع المستقبل، الذي يصبح حاضراً، على الضد من الفكرة التي كان يحملها المرء عنه في الماضي. وفن السرد، بالنسبة لبروسست، هو جزئياً هذا اللعب مع الاستباق prolepsis (فعل السرد الذي يتقدم على الأحداث) والاستعادة analepsis (فعل السرد بالعودة في الزمن إلى وراء) وجعل الاستباقات تعترض الاستعدادات. ينشأ عن هذه اللعبة الابتدائية مع الزمن نمذجة مفضلة، لن أقدمها هنا. لكنني سأكتفي، من أجل المناقشة التالية، بذكر ما يتعلق بالغاية [finalité] القصوى من هذه التنويعات الخاصة بالتخالف الزمني. إذ تبقى الاستعادة البروسستية أبعد ما تكون عن اللعبة المجانية؛ سواء أكانت مسألة استكمال لسرد حدث ما من خلال إضاءته بحدث سابق، أم سد ثغرة مبكرة، أم استثارة ذاكرة لا إرادية بواسطة استعادة متكررة لأحداث مماثلة، أم تصحيح تأويل مبكر بواسطة سلسلة من معاودة التأويل. إنها تظل دائماً محكومة بمعنى العمل إجمالاً⁽⁴⁵⁾. هذه الاستعانة بالضدية بين المحتمل بالمعنى والخالى من المعنى تفتح منظوراً على الزمن السردى يتجاوز تقنية

التخالف الزمني في الأدب عموماً⁽⁴⁶⁾.

أجد أن استخدام الاستباقات داخل سرد استذكاري عموماً يوضح على نحو أفضل من الاستعدادات هذه العلاقة مع المعنى الكلي التي يفتحها الفهم السردى. بعض الاستباقات تطوّر خطأً معيناً من الفعل إلى خاتمته المنطقية، حتى تصل به نقطة الالتقاء مع حاضر الراوي. بينما تُستخدم استباقات أخرى للتثبت من صحة سرد الماضي عبر دالة حضوره في الذاكرة الراهنة («اليوم، ما زلت قادراً على رؤية...»). ونحن نحتاج لكي نفكّر هذه اللعبة مع الزمن، إلى أن نستعير من أوبرباخ فكرة «الحضور الكلي للزمنية الرمزية» omnitemporality الخاص بـ «الوعي التذكري»⁽⁴⁷⁾. لكننا سنجد عندها أن الإطار النظري المُختار للتحليل غير كاف؛ يقول جينيت «مثال كامل على الانصهار، انصهار شبه معجز، بين الحدث المروي ولحظة فعل السرد، يتسم بأنه ختامي وذو حضور زمني كلي» (ص 70)⁽⁴⁸⁾.

وإذ يلقي جينيت نظرة شاملة على التخالفات anachronies الزمنية في رواية «البحث عن الزمن الضائع» لبروست، فإنه يعلن «أن أهمية السرد «التخالفي زمنياً»، في رواية «البحث عن الزمن الضائع» يرتبط بوضوح بالطبيعة المركبة استذكاريًا للسرد البروستي، الحاضرة كلياً في عقل السارد في كل لحظة. منذ اليوم الذي أدرك فيه الراوي في لحظة حاملة الدلالة التي توحد أركان قصته، لم يتوقف قط عن الإمساك بكل أماكنها وكل لحظاتها، سعياً إلى تأسيس كثرة من العلاقات المجهرية بينها» (ص. 78). ولكن ألا يلزم عندها القول إن ما يعتبره علم السرد شبه - زمن السرد يتألف من مجموعة من الإستراتيجيات الزمنية الموضوعية في خدمة مفهوم للزمن يستطيع، وقد وجد أول تعبير عنه في القصص، أن يكون أيضاً نموذجاً تبادلياً يمكن انطلاقاً منه إعادة وصف الزمن المعيش والمفقود؟

تقودني دراسة جينيت لتشويهات المدة الزمنية إلى التأملات ذاتها. لن أراجع عن قناعتي باستحالة قياس مدة السرد، إذا ما قصدنا بذلك زمن

القراءة (ص.86) . ولنتفق مع جينيت في أننا لا نستطيع إلا مقارنة سرعتين هما السرعة الخاصة بالسرد وتلك الخاصة بالقصة على التوالي، آخذين بالحسبان أن السرعة تُعرف دائماً بوساطة علاقة بين قياس زمني وقياس مكاني. بهذه الطريقة، نجد أنفسنا وقد انتهينا في سعينا إلى تشخيص تسارع أو تباطؤ السرد في علاقته بالأحداث المروية إلى مقارنة مدة النص، مقيسة بالصفحات والأسطر، بمدة القصة مقيسة بزمن الساعة، وهو عين ما فعله مولر. وكما هو الحال لدى مولر، فإن التنويعات - التي تسمى هنا «تباينات زمنية» - لابد وأن تتعلق بمنطوقات سردية كبيرة وما تحتويه من تعاقب زمني، سواء أكان معطى على نحو مباشر أم يستدل عليه استدلالاً. يمكن لنا عندها أن نضع توازناً لتشويهاات السرعة يتراوح بين التباطؤ المتطرف الخاص بـ «التوقيفات» والتسارع الدرامي الخاص بالحذف المضمّر من خلال وضع فكرة «المشهد» أو «الوصف» الكلاسيكية في جانب التوقف، وفكرة «الخلاصة» في جانب الحذف المضمّر⁽⁴⁹⁾.

يترتب على ما سبق إمكانية وضع مخطط لنمذجة شديدة التفصيل للأبعاد المقارنة لطول النص ومدة الأحداث المروية. ومع ذلك، فالمهم بالنسبة لي رؤية أن تمكّن علم السرد من إستراتيجيات التسارع والتباطؤ يخدم في تعزيز فهمنا لإجراءات الحبكة التي حصلنا عليها بوساطة ألفتنا إجراءات الحبكة ووظيفة مثل هذه الإجراءات الحكيمة. فمثلاً، يلاحظ جينيت أن الامتلاء لدى بروست (أي التنامي البطيء للسرد، والذي يؤسس نوعاً من التوافق بين طول النص والزمن الذي يحتاجه البطل لكي يستغرقه مشهد ما) يرتبط ارتباطاً وثيقاً بـ «التوقيفات التأملية» (ص102) في تجربة البطل⁽⁵⁰⁾. وبالمثل فإن غياب سرد تلخيصي، وغياب توقفات وصفية، وميل السرد إلى تأسيس نفسه بصفته مشهداً بالمعنى السردى للمصطلح، والطبيعية الاستهلاكية للمشاهد الرئيسة الخمسة - صباحاً، عصرًا، مساءً - والتي تستغرق بذاتها حوالى ستمائة صفحة، والتكرار الذي يحولها إلى مشاهد دالة على المعتاد؛

كل هذه الملامح البنيوية لـ «البحث عن الزمن الضائع» - وهي ملامح لا تترك أي حركة في السرد التقليدي دون أن تغيرها (ص. 112)، ويستطيع علم سردي دقيق أن يتيبنها ويحللها ويصنفها - تستمد معناها من ذلك النمط من اللاحكية الزمنية التي يخلقها السرد على مستوى القصص.

لكن التحوير الذي يمنح الزمنية السردية لـ «البحث عن الزمن الضائع» إيقاعاً جديداً تماماً، غير مسبوق تماماً» (المصدر السابق) هو بالتأكيد الطبيعة التكرارية للسرد، والتي يدرجها علم السرد تحت الفئة الزمنية الثالثة المتمثلة في التواتر (الخاصة بحدث وقع مرةً أو (ع) من المرات يُروى مرةً أو (ع) من المرات) وهو ما يضعه على الضد من سرد المرة الواحدة⁽⁵¹⁾.

كيف يؤول هذا «الانتشاء بالتكرار» (ص. 153)؟ يرى جينيت أن نزوع اللحظات القوي لدى بروست للاندماج بعضها ببعض الآخر حتى يصبح متعذراً التمييز بينها هو «الشرط لتجربة الذاكرة اللاإرادية ذاته». (ص. 124)⁽⁵²⁾. ومع ذلك، نجد في هذا التمرين في علم السرد أن المسألة لا تصبح مرة واحدة مسألة تجربة. لماذا؟

إذا كان بالامكان اختزال تجربة ذاكرة البطل - الراوي بهذه السهولة إلى مجرد عامل (يجدر بي القول وسيلة) يعمل على تحرير السرد من الناحية الزمنية (ص. 156)، فإن السبب في ذلك يعود جزئياً إلى أن البحث المتعلق بالزمن ظل حتى هذه النقطة مندرجاً على نحو مصطنع داخل حدود العلاقة بين السرد المقرر والفضاء السردي، على حساب الجوانب الزمنية للعلاقة بين التقرير والتلفيز، التي تصفها الفئة النحوية الخاصة بالصوت⁽⁵³⁾.

لا يخلو تأجيل كل مناقشة لزمن السرد من عيوب. على سبيل المثال، لا يمكننا فهم معنى القلب الذي بوساطته، عند نقطة الانعطاف في عمل بروست، تتولى القصة، بتعاقبها الزمني المنتظم وهيمنة سرد المرة الواحدة عليها، حكم السرد بتخالفاته الزمنية وتكراراته، إذا لم ننسب تشويهاً المدة التي تكون لها الهيمنة عندها إلى الراوي نفسه، «الذي يكون بسبب نفاذ

صبره وتزايد همه راغباً في تحميل مشاهد... والقفزة إلى لحظة التنوير... التي تمنحه في النهاية وجوداً وتزكي خطابه». (ص157، التأكيد منه). من هنا لا بد أن ندمج داخل زمن السرد «زمنية أخرى، لم تعد زمنية السرد، لكنها تحكمه في نهاية المطاف: إنها زمنية فعل السرد نفسه». (المصدر السابق)⁽⁵⁴⁾.

ما الذي يمكن أن يقال، إذن، عن العلاقة بين التلفيظ والتقرير؟ هل هي تخلو تماماً من أية خاصية زمنية؟ آخر ظاهرة يمكن الإبقاء على مكانتها النصية هنا هي تلك المتعلقة بالصوت، وهي فكرة مستعارة من النحويين⁽⁵⁵⁾ تميز وجود فعل السرد ضمناً في السرد، أي وجود لحظة السرد (بالمعنى الذي يقصده بنفنتست عندما يتكلم عن لحظة الخطاب) ببطلها: الراوي والمتلقي الواقعي أو الافتراضي. فإذا ما أثير سؤال بصدد الزمن عند هذا المستوى من العلاقة، فإن إمكانيته مرهونة باستمرار اللحظة السردية، التي يمثلها في النص الصوت، في تقديم ملامح زمنية هي نفسها.

إذا كان «الخطاب السردى» يختبر زمن التلفيظ بكل هذا الاقتضاب والتأخير، فإن السبب في ذلك صعوبات تتعلق بتأسيس الترتيب المناسب للعلاقات بين التلفيظ والتقرير والقصة⁽⁵⁶⁾، لكن الأهم هو الصعوبة التي ترتبط في «البحث عن الزمن الضائع» بالعلاقة بين المؤلف الواقعي والراوي القصصي الذي يتصادف هنا أنه البطل نفسه، إذ يطرح زمن السرد الخاصية القصصية نفسها التي يطرحها دور الـ«أنا» العائد إلى الراوي - البطل، وهو ما يستلزم على وجه الدقة تحليلاً للصوت. والواقع، إن فعل السرد إذا لم يكن يحمل داخله أية علاقة دالة على المدة فإن التنويعات على المسافة التي تفصله عن الأحداث المروية تكتسب أهمية بالنسبة لـ«مغزى السرد» (ص216). وعلى وجه الخصوص، فإن التغييرات المشار إليها في أعلاه المتعلقة بالبعد الزمني للسرد تجد بعض التبرير في هذه التنويعات. فهي تجعلنا نشعر بالتقليص التدريجي لنسيج الخطاب السردى نفسه، كما لو أن «زمن القصة

يميل إلى التوسع وإظهار نفسه للعيان بينما هو يقترب من نهايته، التي هي أيضا أصله». (ص.226، التأكيد منه)، كما يقول جينيت. حقيقة أن زمن قصة البطل يقترب من أصله الخاص، الذي هو حاضر الراوي، دون أن يتمكن من اللحاق به، هو جزء من معنى السرد، تحديدا: كونه ينتهي، أو على الأقل يتوقف، عندما يصبح البطل كاتباً⁽⁵⁷⁾.

تسمح الاستعانة بفكرة الصوت لعلم السرد أن يفسح مجالا للذاتية، دون الخلط بينها وبين ذاتية المؤلف الواقعي. إذا تعذر قراءة «البحث عن الزمن الضائع» على أنها سيرة ذاتية متنكرة، فإنما ذلك لأن الـ «أنا» التي يتلفظ بها الراوي - البطل هي نفسها قصصية. ومع ذلك، فإن هذه الاستعانة بفكرة الصوت، في غياب فكرة من قبيل تلك الخاصة بعالم النص (وهي فكرة ساجد مبررا لها في الفصل القادم)، لا تكفي لإنصاف التجربة القصصية للزمن التي يتوفر عليها الراوي - البطل بأبعادها السيكلوجية والميتافيزيقية.

دون هذه التجربة، التي تعادل تماما في قصصيتها الـ «أنا» التي تستكشفها وتنقلها، والتي تبقى رغم ذلك جديرة بأن تُسمى «تجربة» بفضل علاقتها بالعالم الذي يقوم العمل بإسقاطه، يصعب منح المعنى لفكرتي الزمن الضائع والزمن المستعاد اللذين يكونان مركز الاهتمام في «البحث عن الزمن الضائع»⁽⁵⁸⁾.

إن هذا الرفض الضمني للتجربة القصصية هو ما يجعلني متوجسا وأنا أقرأ وأعاد قراءة الصفحات الموسومة «اللعبة مع الزمن» (ص. 155 - 160)، والتي تمنحنا، إن لم نقل المفتاح إلى العمل، فنبتره على الأقل. (تعد هذه الصفحات مبتسرة، إذا ما تذكرنا أن دراسة زمن السرد مؤجلة). تعاد تجربة الراوي - البطل القصصية للزمن، وقد تعذر ربطها بمعنى السرد، إلى المسوغ الخارجي للعمل الذي يقدمه المؤلف، بروست، لتقنيته القصصية، باقحاماتها وتشويحاتها، وقبل هذا وذاك تكثيفاتها التكرارية. أما المسوغ فيجري استيعابه في «الحافز الواقعي» الذي يشترك به بروست مع بقية الكتاب

المنتمين إلى التقليد نفسه. ولا يريد جيران جينيت بالنسبة لهذا التقليد إلا تأكيد «تناقضاته» و«امثالاته» (ص158): التناقض بين الاهتمام بتذكر الأشياء كما سبق وأن عشت في حينها، والاهتمام بنقلها كما هي تسترجع فيما بعد. من هنا التناقض في نسبة التداخلات التي تنعكس في التخالقات الزمنية للسرد أحيانا إلى الحياة وأحيانا إلى الذاكرة. إنه التناقض المتأصل، قبل كل شيء، في بحث يلتزم في آن واحد بـ «خارج الزمني *extra temporal*» وبـ «الزمن في حالته الصافية». ولكن ألا تقع هذه التناقضات في القلب من التجربة القصصية للراوي - البطل؟ أما بالنسبة للامثالات فأنها تعزى إلى «تلك العقلات الاستذكارية التي لا يبخل بها الفنانون الكبار أبدا، وذلك في تناسب مباشر مع عبقرتهم، بكلمات أخرى، مع الغلبة التي تكون لممارستهم على أية نظرية، بما فيها نظريتهم أنفسهم». (المصدر السابق، التأكيد منه). ولكن ليست الممارسة السردية وحدها ما يبقى متقدما على النظرية الجمالية. التجربة القصصية التي تمنح هذه الممارسة معنى هي الأخرى تندرج في سعي دائم للعثور على نظرية تبقى متأخرة عنها دائما، كما تشهد على ذلك التعليقات التي يثقل بها الراوي سرده. إن اختزال تجربة الزمن في «البحث عن الزمن الضائع» إلى «الغاية المتناقضة» لـ «لغز انطولوجي» (ص160)، يقع تحديدا من أجل الحصول على رؤية نظرية غريبة عن الشعرية الفاعلة في السرد نفسه.

ربما كان من وظائف علم السرد قلب العلاقات بين التذكر وتقنية السرد، ليتجلى التحفيز المشار إليه بصفته مجرد وسيط جمالي، باختصار لاختزال الرؤية إلى أسلوب. هكذا تصبح رواية الزمن المفقود والمستعاد بالنسبة لعلم السرد «رواية زمن مقهور، مستمكن، مسحور، مخرب خلصة، أو الأفضل مُفسد». (المصدر السابق، ص182، التأكيد منه).

ولكن ليس من الضروري قلب هذا القلب نفسه في نهاية المطاف؟ ألا يلزم اعتبار الدراسة الشكلية للتقنيات السردية هي المسؤولة عن جعل

الزمن يبدو مفسداً من أجل الحصول، عبر انعطافة طويلة، على استيعاب أمضى لتجربة الزمن المفقود والمستعاد؟ أن هذه التجربة في «البحث عن الزمن الضائع» هي التي تعطي التقنيات السردية معنى وقصداً. لو لم يكن الحال كذلك، كيف سيتسنى لنا القول عن الرواية ككل، كما يقول راويها عن الأحلام، إنها «اللعبة التي تخلقها مع الزمن» (المصدر السابق)؟ هل يمكن للعبة أن تكون «مهولة»، أي مخيفة أيضاً، إن لم تكن تنطوي على رهان ما؟

يحتوي مجمل نقاش جينيت المتعلق بتأويل «البحث عن الزمن الضائع» ويحوم فوقه السؤال المتعلق بوجود ضرورة، من أجل الحفاظ على معنى العمل، إلى إسناد التقنية السردية إلى القصد الذي يخرج بالنص إلى ما وراء ذاته، باتجاه تجربة، مختلفة دون شك، لكنها رغم ذلك غير قابلة لأن تختزل إلى لعبة بسيطة مع الزمن. يرقى طرح هذا السؤال إلى التساؤل إن لم يكن من الواجب إنصاف البعد الذي أسماه مولر، مستعيداً غوته، التجربة الزمنية المعيشة Zeiterlebnis، وأن يبقى علم السرد بتفويض رسمي ونتيجة لمنهجيته الصارمة خارج الحدود. وهكذا تكون الصعوبة الرئيسية هي الحفاظ على الخاصية القصصية لهذه التجربة الزمنية المعيشة Zeiterlebnis بينما نحن نقاوم اختزالها إلى تقنية سردية حسب. وسوف أكرس دراستي لرواية بروس «البحث عن الزمن الضائع» في الفصل القادم للتصدي لهذه الصعوبة.

وجهة النظر والصوت السردى

يستدعي بحثنا في «اللعبة مع الزمن» تكملة ختامية تأخذ بالاعتبار فكرتي وجهة النظر والصوت السردى، وهما الفكرتان اللتان واجهناهما في أعلاه دون أن نرى كيف ترتبطان بالبنى الرئيسية للسرد⁽⁵⁹⁾. لا غنى لفكرة تجربة قصصية للزمن، تسعى للقائها كل تحليلاتنا لتصور الزمن عبر السرد القصصى، عن مفهومي وجه النظر والصوت السردى (وهما مقولتان اعتبرهما

مؤقتا متماهيتين)، بقدر ما تكون وجهة النظر متجهة نحو محيط التجربة الذي تنتمي إليه الشخصية، والصوت السردى هو الذي يقدم للقراء من خلال التوجه إليهم العالم المروي (إن استخدمنا عبارة فاينريش).

كيف نستطيع دمج فكرتي وجهة النظر والصوت السردى في مشكلة التأليف السردى؟⁽⁶⁰⁾ يمكن ذلك جوهريا بوساطة ربطهما إلى مقولتي «الراوي» و«الشخصية». العالم المروي هو عالم الشخصيات، والراوي هو الذي يقوم بسرده. أما فكرة الشخصية فهي راسية بثبات في نظرية السرد بقدر ما يتعذر على سرد ما أن يكون محاكاة لفعل دون أن يكون في الوقت نفسه محاكاة لكائنات فاعلة. والكائنات الفاعلة هي، بالمعنى الواسع الذي يضيفه علم دلالة الفعل على فكرة فاعل ما، كائنات تفكر وتشعر، أو بالأحرى كائنات قادرة على الكلام عن أفكارها ومشاعرها وأفعالها. لذا فإن بالإمكان نقل فكرة المحاكاة من الفعل إلى الشخصية، ومن الشخصية إلى خطاب الشخصية⁽⁶¹⁾. وثمة ما هو أكثر. عندما يُدمج الخطاب الذي تنطق به إحدى الشخصيات بخصوص تجربتها في الفضاء السردى يصبح بالإمكان إعادة صياغة الثنائي تليظ/تقرير (الذي أنشئ حوله هذا الفصل) في معجم يضيف على المصطلحين خاصية تتصل بالشخص. يصبح التليظ خطاب الراوي، بينما يصبح التقرير خطاب الشخصية. عندها يصبح السؤال متعلقا بحسم ماهية الوسائل السردية الخاصة التي بها يتشكل السرد بوصفه خطاب راوٍ ينقل خطاب الشخصيات. وهنا تشير فكرتنا وجهة النظر والصوت السردى إلى اثنتين من هذه الوسائل.

من المهم أولا التوفر على مقياس للنقلة من محاكاة الفعل إلى محاكاة الشخصية، وهي نقلة تدشن سلسلة الأفكار التي تقود إلى وجهة النظر والصوت السردى. لقد قاد أرسطو ابتداؤه بالدراما مادة للنظر إلى منحه الشخصية وأفكارها موقعا بارزا، برغم أنه نسبها دائما إلى مقولة الحكبة الجامعة في نظريته الخاصة بالمحاكاة. تنتمي «الشخصية» حقيقة إلى «ماذا»

المحاكاة. وبما أن التمييز بين الدراما ونمط المحاكاة ((الأحداث) diegsis يعتمد حصرا على «كيف» - أي على طريقة الشاعر في عرض الشخصيات - فإن مقولة الشخصية تمتلك المكانة نفسها في كل من نمط المحاكاة والدراما. لكن الأمر بالنسبة لنا في العالم الحديث يكون على الضد، فنحن ندخل عبر نمط المحاكاة diegesis، بوصفه يمثل الضد للدراما، دخولا مباشرا اشد المباشرة إلى إشكالية الشخصيات، بما تحمل من أفكار ومشاعر وخطاب. والواقع أننا لا نجد فنا محاكاتيا قطع شوطا بعيدا في تمثيل الأفكار والمشاعر والخطاب كما فعلت الرواية. ويبدو أن التنوع الهائل للرواية ومرونة وسائلها اللامحدودة هو ما جعل منها أداة مميزة للبحث في النفس الإنسانية، إلى الحد الذي مكن كيت هامبرغر من اتخاذ ابتكار مراكز الوعي القصصي، المختلف عن تقارير الذات الواقعية حول الواقع، على أنه المعيار في حسم القطيعة بين القصص والتقارير⁽⁶²⁾. وعلى الضد من التحيز القائل إن القدرة على وصف ذوات الفعل والفكر والشعور من الداخل مستمدة مما تقدمه الذات من اعترافات ذاتية وفحص للوعي، نراها تذهب بعيدا حد اقتراح أن رواية الغائب، أي الرواية التي تنقل أفكار ومشاعر وكلمات آخر قصصي، هي التي كان لها السبق الأكبر في سبرغور ما يعتمل في النفوس والعقول⁽⁶³⁾.

لا تتردد دوريت كوهن، ملتزمة الاتجاه الذي أشارت إليه هامبرغر، مثنية عليها، في أن تضع دراسة سرد الغائب على رأس دراسة كبيرة تتناول «الأنماط السردية لتقديم الوعي في القصص» (وهو العنوان الثانوي لكتابها الذي أتناوله هنا)⁽⁶⁴⁾. وفيها تقول إن أول «محاكاة للوعي» هي «محاكاة العقول الأخرى» (ص.7). ثم تضع في المرتبة الثانية دراسة الوعي في «نصوص المتكلم»، أي القصص التي تشبه الاعتراف أو السيرة الذاتية⁽⁶⁵⁾، وتتناولها على وفق المبادئ المطبقة على دراسة سرد الغائب. وهي إستراتيجية لافتة للنظر إذا ما أخذنا بالحسبان أن الكثير من نصوص المتكلم يكون فيها المتكلم نتاج خيال قصصي، كما هو الحال في سرديات الغائب التي تستخدم

«هو» و«هي»، ويصح ذلك إلى حد أن هذا المتكلم القصصي الخيالي يمكن دون ضرر ملحوظ أن يُبدّل إلى غائب لا يقل عنه قصصية خيالية، كما جرتب ذلك كافكا وبروست⁽⁶⁶⁾.

يمكن الحصول على محك ممتاز تقاس به التقنيات السردية المتاحة للقصص من أجل التعبير عن هذه «الشفافية الداخلية»، بتحليل طرق توصيل كلمات وأفكار الذوات القصصية في سردي الغائب والمتكلم. وهذا هو السبيل الذي اتبعته دوريت كوهن. وهو يتمتع بميزة احترام التوازي بين سرد الغائب وسرد المتكلم، ويسمح في الوقت نفسه بالمرونة والابتكار الخارقين اللذين يسمان الرواية الحديثة في هذا المضمار.

التقنية الرئيسة المستخدمة على جانبي الخط الفاصل بين الصنفين الكبيرين للقصص السردية هي السرد المباشر للأفكار والمشاعر، سواء أنسبها الراوي إلى آخر قصصي أم إليه هو نفسه. إذا كان «سرد الذات» في رواية المتكلم يعد خطأ سردا واضحا بذاته بحجة أنه يشبه ذاكرة، ليست في الحقيقة إلا قصصية خيالية، فإن الشيء نفسه لا يمكن أن يقال عن «السرد النفسي»، أي السرد مطبقا على نفوس غريبة. يمنحنا هذا وسيلة مميزة لمقاربة المشكلة المعروفة على نطاق واسع والمتعلقة بالراوي كلي المعرفة، والذي سنعود إليه لاحقا في ثنايا مناقشتي لوجهة النظر والصوت. لن ينطوي امتياز الوصول هذا على فضيحة إذا وافقنا جان بويون Jean Pouillon الإقرار بأننا نفهم كل النفوس الغريبة الأخرى بوساطة المخيلة⁽⁶⁷⁾. والروائي يفعل ذلك، إن لم يكن بشكل عفوي، فعلى الأقل دون شكوك، لأن من صلب فن الكاتب أن يوفر تعبيرات تناسب الأفكار التي يقدر هو على قراءتها قراءة مباشرة، فالروائي يبتكرها أكثر مما هو يفك شفرة هذه الأفكار اعتمادا على المتوفر من تعبير عنها، كما نفعل في حياتنا اليومية. يكمن كل سحر رواية الغائب في هذا الذي يشبه دائرة التقصير الكهربائية⁽⁶⁸⁾.

هنالك بالإضافة إلى السرد المباشر للأفكار والمشاعر تقنيتان أخريان في

متناول الروائي. تتكون الأولى من اقتباس المونولوج الداخلي لآخر قصصي خيالي («مونولوج مقتبس»)، أو جعل الشخصية تقتبس نفسها في سياق مونولوج ما («مونولوج يقتبس ذاته»)⁽⁶⁹⁾. ليست غايتي تقديم شرح مطوّل لما في هذه التقنية من مباحث وأعراف ومستبعدات، وهي كلها تفترض مسبقاً، على نحو لا يقل عن التقنية السابقة، شفافية الروح مادام الراوي هو الشخص الذي يكيف الكلمات غير المحكية مع الأفكار المدركة إدراكاً مباشراً، دون أن يضطر إلى العودة من الكلمات إلى الأفكار كما في الحياة اليومية. يضيف هذا الأجراء إلى «السحر» النابع من القراءة السابقة للأفكار الصعوبة الرئيسة المتمثلة في تمكين الذات المتوحدة من استخدام كلام يهدف إلى الاتصال في الحياة العملية؛ ما معنى أن يكلم المرء نفسه؟ إن النأي بالبعد الحوارية للكلام عن مساره المعتاد لصالح مناجاة للذات يطرح مشاكل تقنية ونظرية لا تقع ضمن نطاق اهتمامي هنا، لكنها تتعلق بدراسة مصير الذاتية في الأدب. إلا أنني سأعود إلى العلاقة بين خطاب الراوي والخطاب المقتبس للشخصية في معرض مناقشتي اللاحقة لوجهة النظر والصوت.

التقنية الثالثة، التي استهلها فلوبير وجين أوستن، هي الأسلوب الحر غير المباشر *style indirect libre*، أو المونولوج المروي، أو *erlebte Rede* الذي قالت به الأسلوبية الألمانية، وقوامها ليس اقتباس المونولوج ولكن الإبلاغ عنه. لذا علينا أن نتكلم هنا على «مونولوج مروي» لا «مقتبس». تعود الكلمات من حيث المحتوى إلى الشخصيات، لكن الراوي هو من يسجلها في الزمن الماضي وعبر ضمير الشخص الغائب. الصعوبات الرئيسة المتعلقة بالمونولوج المقتبس أو المونولوج الذي يقتبس ذاته لا تُحل هنا بقدر ما يُصار إلى التغطية عليها. ولكي نظهرها لا نحتاج إلى أكثر من ترجمة المونولوج المروي إلى مونولوج مقتبس بإضافة ما يناسبه من أشخاص وأزمنة. كما إن هنالك صعوبات أخرى، يعرفها جيداً قراء جويس، تظهر في النصوص التي تزول فيها الحدود الفاصلة بين خطاب الراوي وخطاب الشخصيات. عموماً

يشكل هذا الاقتران المدهش بين السرد النفسي والمونولوج المروي أكمل إدماج لأفكار الآخرين وكلماتهم داخل النسيج السردى. يهيمن خطاب الراوي على خطاب الشخصية من خلال إعارته خطابها صوته، بينما هو يتكيف لنغمة ما قالته الشخصية أو تقوله. هكذا تضع «معجزة» المونولوج المروي *erlebte Rede* ذائع الصيت اللمسة الأخيرة على «سحر» الشفافية الداخلية.

بأية كيفية تستدعي الملاحظات السالفة عن تمثيل الأفكار والمشاعر والكلمات في القصص فكرتي وجهة النظر والصوت؟⁽⁷⁰⁾ تتأسس الرابطة الوسيطة بفعل البحث عن تصنيفات نمطية قادرة على إضاءة الانقسامين العظيمين اللذين استخدمتهما على نحو تلقائي قبل توضيح معالهما بذاتهما. يطرح الأول نوعين من القصص. من جهة، هنالك القصص التي تنقل حياة الشخصيات منظورا إليها على أنها طرف ثالث (مفهوم «محاكاة عقول الآخرين» الذي طرحته دوريت كوهن). والمقصود هنا سرد الغائب. من جهة أخرى، نجد أيضا سرديات قصصية تنسب شخص الراوي النحوي إلى شخصياتها. وتسمى هذه سرديات المتكلم. ومع ذلك، هنالك انقسام آخر يتخلل هذا الأول، ويعتمد على تحديد هل يهيمن خطاب الراوي على خطاب الشخصية؟ والتعرف على هذا الانقسام أسهل في سرديات الغائب بقدر ما يستبقى التمييز بين الخطاب السارد والخطاب المروي بوساطة التمييزات النحوية المتعلقة بالأشخاص وأزمنة الأفعال النحوية. وهو أكثر احتجابا في قصص المتكلم بقدر ما لا يؤثر التمييز بين الضمائر النحوية الفارق بين الراوي والشخصية. ويترتب على ذلك أن تُسند مهمة التمييز بين الراوي والشخصية عبر هوية الضمير النحوي «أنا» إلى علامات أخرى. يمكن للمسافة الفاصلة بين أحدهما والآخرى أن تتنوع، كما هو شأن درجة هيمنة خطاب الراوي على خطاب الشخصية. إن هذا النظام المضاعف من التنويعات هو الذي ساعد على تأسيس التصنيفات النمطية الساعية إلى تغطية كل الحالات السردية الممكنة.

إحدى هذه المحاولات الطموحة هي نظرية الحالات السردية النموذجية التي وضعها فرانز ك. ستانزل⁽⁷¹⁾. لا يستخدم ستانزل مقولتي المنظور والصوت. بل هو يفضل بديلاً عنهما التمييز بين أنماط الحالات السردية (Erzählungssituationen) وتختصر إلى (ES) عبر الملمح الذي يبدو له سمة دالة على القصص الروائي، أي كونه يبت (يتوسط) أفكاراً ومشاعر وكلمات⁽⁷²⁾. فإما أن يمنح التوسط/النقل الامتياز للراوي، الذي يفرض منظوره من الأعلى (auktoriale ES)⁽⁷³⁾، وإما أن يؤدي التوسط، بخلاف ذلك، شخص عاكس (وهو مصطلح مستعار من هنري جيمس)، أي بوساطة شخصية تفكر وتشعر وتدرك لكنها برغم ذلك لا تتكلم بوصفها راوياً، بل واحداً من الشخصيات. لذا يرى القارئ بقية الشخصيات عبر عيون هذه الشخصية (Personale or figurale ES)، وإما أن يعرّف الراوي نفسه على أنه واحد من الشخصيات، يتكلم بضمير المتكلم ويشارك بقية الشخصيات العيش في عالم واحد (Ich ES).

الواقع أن تصنيفات ستانزل النمطية، برغم قدراتها الرائعة على الإيضاح، تشارك بقية النمطيات النقص المضاعف المتمثل في أنها تتعادي كثيراً في التجريد إلى حد يمنعها من المساعدة في التمييز، كما أن صياغتها فقيرة إلى حد يمنعها من تغطية كل الحالات السردية. يحاول عمل آخر لستانزل أن يصلح النقص الأول من خلال النظر إلى كل واحدة من الحالات النمطية بوصفها مصطلحاً يُوْشِرُ ثنائياً ضدياً يقع على أقطاب ثلاثة محاور متغايرة. وهكذا يصبح المنظور العلوي auktoriale ES القطب المميز على محور «المنظور»، اعتماداً على امتلاك الراوي لنظرة خارجية، وبالتالي عريضة، إلى الشخصيات أو نظرة داخلية إليها، وبالتالي محدودة. بهذا تحصل فكرة المنظور على مكان محدد لها في التصنيف. أما منظور الشخصية personale أو figurale ES فإنه القطب المميز على محور «النمط» اعتماداً على كون الشخصية تُعرَفُ أو لا تُعرَفُ رؤيا الرواية باسم الراوي، الذي يصبح عندها

قطب الضد غير المميز. أما منظور المتكلم Ich ES فإنه يصبح، اعتماداً على انتماء الراوي إلى المضمار الانطريقي^(*) ontic نفسه، القطب المميز لمحور «الشخص» الذي تنتمي إليه بقية الشخصيات. ويتفادى ستانزل بهذه الطريقة الإحالة على المعيار النحوي البحث المتعلق باستخدام الضمائر النحوية.

يخفف ستانزل من النقص الثاني عبر إدراجه لعدد من الحالات الوسيطة بين كل واحدة من حالاته النموذجية الثلاث التي أصبحت تعد أقطاباً محورية، ويقدمها على شكل دائرة (Typenkreis). يتيح هذا الإجراء تفسير عدد كبير ومتنوع من الحالات اعتماداً على قربها أو بعدها عن كل واحد من هذه الأقطاب. وهكذا تصبح مشكلة المنظور والصوت موضوع اهتمام تفصيلي متزايد. لا يمكن طمس منظور الراوي - المؤلف دون أن تدنو الحالة السردية أكثر من منظور الشخصية personale ES، حيث يأتي شخص العاكس لاحتل المكان الذي أبواه الراوي خالياً. وابتاع الحركة الدائرية نجد أننا نبتعد عن منظور الشخصية ونقترب أكثر من منظور المتكلم Ich ES. نرى هنا الشخصية، التي تبقى في المونولوج المروي (erlebte Rede) تتكلم عبر صوت الراوي بينما هي تفرض صوتها الخاص، تشارك بقية الشخصيات منطقة الوجود ذاتها. وهذه الشخصية هي التي تقول «أنا» الآن. وما على الراوي نتيجة لذلك إلا أن يستعير هذا الصوت.

برغم محاولة ستانزل بث دينامية أكبر في نمطيته فإنه لم يجب إجابة وافية على الاعتراضين اللذين أثيرا آنفاً. لن نستطيع أن نقدم إجابة وافية على علة التجريد إلا إذا توقفنا عن محاولة اعتماد ما بعد - لغات تمثل اتساقاً منطقياً معيناً نقطة انطلاق لتحليلنا، وعن استخدام نماذج مثل هذه لوصف النصوص، واتجهنا إلى البحث عن نظريات تفسر قدرتنا الأدبية، أي قابلية القراء على إدراك الحبيكات واختصارها، وعلى جمع الحبيكات المتشابهة

(*) يتصل الأنطريقي بالكيان المتعين، بينما يتصل الأنطولوجي بوجوده - المترجم.

معاً⁽⁷⁴⁾. فإذا ما اعتمدنا بهذا الشكل قاعدة المتابعة الوثيقة لتجربة القارئ في عملية تنظيم عناصر القصة المروية خطوة خطوة سعياً إلى لَمّ أطراف حبكة ما، فإننا لن نواجه فكرتي المنظور والصوت على أنهما مقولتان يعرّفهما مكانهما في تصنيف ما بقدر ما هما ملمح مميز مأخوذ من كوكبة لا محدودة من الملامح الأخرى يعرّفها دورها في تأليف العمل الأدبي⁽⁷⁵⁾.

أما بالنسبة لاعتراض عدم الاكتمال فإنه يبقى دون إجابة شافية وافية في نظام يتحكم في أشكال الانتقال دون أن يخرج أبداً من الدائرة التي تهيمن عليها باستبداد نماذج الحالات السردية الثلاثة. فمثلاً لا يبدو أن اهتماماً كافياً قد كُرس للملمح الرئيس للقصص السردية المتمثل في قدرته على تقديم شخص الغائب بوصفه كذلك في نظام تبقى فيه نماذج الحالات السردية الثلاثة تنويعات على خطاب الراوي نفسه اعتماداً على كونه صورة من سلطة المؤلف الواقعي، أو من حدة ذهن العاكس أو من انعكاسية ذات تحمل ذاكرة خرافية. من هنا فإن ما يتعرف فيه القارئ على وجهة النظر أو الصوت لا بد وأن يتصل بطريقة التعامل مع العلاقة ثنائية القطب بين الراوي والشخصية عندما تستخدم التقنيات السردية المناسبة.

توحي هاتان السلسلتان من الملاحظات النقدية بصدد نمذجة الحالات السردية أن فكرتي المنظور والصوت يمكن مقاربتهما دون انشغال تصنيفي مفرط بوصفهما ملامح مستقلة تسم تأليف القصص السردية من جهة، ومقاربتهما في علاقة مباشرة مع خاصية رئيسة في القصص السردية، هي حقيقة أنه ينتج خطاب راوٍ ينقل خطاب شخصيات قصصية، من جهة أخرى⁽⁷⁶⁾.

وأقول أنا إن وجهة النظر تعين في سرد الغائب أو المتكلم اتجاه موقف الراوي إزاء الشخصيات، ومواقف الشخصيات إزاء بعضها البعض الآخر. ويؤثر هذا في تأليف العمل ويكون موضوع «شعرية التأليف»، ما أن تساعد إمكانية اعتماد وجهات نظر متنوعة - وهي خاصية متأصلة في فكرة وجهة

النظر نفسها - على منح الفنان الفرصة التي تُستغل بانتظام لتنويع وجهات النظر داخل العمل الواحد ومضاعفتها، ودمج هذه التوافقات في تصور العمل.

تناول النمطية التي يطرحها بوريس أوسبنسكي حصراً هذه الموارد الخاصة بالتأليف التي توفرها وجهة النظر⁽⁷⁷⁾. بهذه الطريقة يمكن أن تدمج دراسة فكرة وجهة النظر مع فكرة التصور السردى. تقبل وجهة نظر النمطية بقدر ما يكون متاحاً ولازماً قراءة العمل الفني على مستويات متعددة كما أكد لوتمان أيضاً⁽⁷⁸⁾. وتنجلي في هذه الحقيقة التعددية الجوهرية للعمل الفني. يشكل كل واحد من هذه المستويات مكاناً محتملاً لعرض وجهة نظر معينة، فضاء يسمح باحتمالات التأليف بين وجهات النظر.

تشكل فكرة وجهة النظر قبل أي شيء آخر على صعيد الأيديولوجيا، أي التقييمات، بقدر ما تكون الأيديولوجيا هي النظام الذي يحكم الرؤيا المفهومية للعالم في كل العمل أو جزء منه. وقد تكون تلك رؤيا المؤلف أو الشخصيات. إن ما اصطلاح على تسميته «وجهة نظر المؤلف» ليس المفهوم الذي يحمله المؤلف الواقعي عن العالم، بل المفهوم الذي يتولى تنظيم سرد عمل معين. على هذا المستوى، تكون وجهة النظر والصوت مترادفين. قد يُسمعنا العمل اصواتاً غير صوت المؤلف، وقد يؤثر نقلات نظامية عديدة في وجهة النظر يمكن لدراسة شكلية مقاربتها (مثلاً، دراسة استخدام نعوت ثابتة في الفولكلور).

تقع دراسة علامات أولوية خطاب الراوي (كلام المؤلف)، أو خطاب شخصية معينة (كلام شخصي) في قصص الغائب أو المتكلم على مستوى الصياغة اللفظية، أي على مستوى خواص الخطاب. وتنتمي هذه الدراسة إلى شعرية التأليف بقدر ما تصبح النقلات في وجهات النظر حوامل للهيكل (كما يظهر في تنويعات أسماء الشخصيات، وهي التنويعات التي تسم الرواية الروسية). على هذا المستوى تحديداً تتكشف كل تعقيدات التأليف الناجمة عن

الربط بين خطاب المؤلف وخطاب الشخصية (نعود هنا إلى ملاحظتي التي أوردتها سابقاً حول الطرق الكثيرة التي يمكن من خلالها نقل خطاب شخصية ما، وكذلك إلى نظام التصنيف الشبيه بذلك الذي استعرتة من دوريت كوهن)⁽⁷⁹⁾.

إن مما له الصدارة بالنسبة لنا المستويات المكانية والزمانية للتعبير عن وجهة النظر. المنظور المكاني، بالمعنى الحرفي للكلمة، هو الذي يخدم قبل سواه بوصفه استعارة دالة على كل التعبيرات الأخرى عن وجهة النظر. ينطوي تطور سرد ما دائماً على منظورات إدراكية حسية تتضمن الموقع وزاوية النظر وعمق الحقل (كما هو الحال بالنسبة للفيلم). ويصح الشيء نفسه على الموقع الزمني، أي موقع الراوي في علاقته بالشخصيات، وكذلك علاقة الشخصيات بعضها مع البعض الآخر. المهم مرة أخرى هو درجة التعقيد الناتجة عن التأليف المتضمن لمنظورات زمنية متعددة. قد يمشي الراوي مع الشخصيات، جاعلاً حاضر السرد منطبقاً على حاضره هو، وبذلك يقبل القيود وانعدام المعرفة للذين يفرضهما عليه منظوره. أو على العكس، يمكن أن يتحرك الراوي إلى أمام أو إلى خلف، متطلعاً إلى الحاضر من وجهة نظر توقع ماضٍ مستعاد أو بصفته ذكرى ماضية لمستقبل متوقع، الخ⁽⁸⁰⁾.

تشكل أزمنة الأفعال النحوية وكيفياتها مستوى متميزاً، بقدر ما يتركز النظر على موارد نحوية بحتة وليس دلالات زمنية بالمعنى الضيق للكلمة. وكما عند فاينريش، المهم بالنسبة لشعرية التأليف هو التنويعات في النبر الواقعة في مجمل النص. ويبدى أوسبنسكي اهتماماً خاصاً بالتعاقب بين الزمن النحوي الحاضر، حين يُطبق على مشاهد تؤثر توقعاً في السرد، وهي مشاهد يصهر الراوي فيها حاضره مع حاضر السرد المتوقع، والزمن النحوي الماضي، عندما يعبر عن القفزات في السرد كما لو كانت كميات منفصلة⁽⁸¹⁾.

لا يريد أوسبنسكي أن يخلط بين المستوى السيكلولوجي والمستويات المشار إليها تواً. إذ هو يستبقي لهذا المستوى التضاد بين وجهتي النظر

الموضوعية والذاتية، اعتماداً على التعامل مع الحالات الموصوفة على أنها حقائق مُسلم بصحتها تفرض نفسها على موقف، أو تعبيرات في تجربة فرد معين. على هذا المستوى تحديداً يمكن أن توضع وجهة نظر خارجية (سلوك مراقب ما) على الضد من وجهة نظر داخلية (أي داخلية للشخصية الموصوفة)، دون أن يتحدد موقع المتكلم زمانياً ومكانياً بالضرورة. لا يعدو ما يسمى بتسرع المراقب كلي الحضور شخصاً يعبر عن الظواهر النفسية والفيزيائية بالنسبة له بوصفها ملاحظات غير مرتبطة بذاتية مؤولة: «فكّر»، «شعر»... وما إلى ذلك. ويكفي هنا عدد قليل من العلامات الشكلية «كما يبدو»، «من الواضح»، «بدا أن»، «كما لو»... الخ. هذه العلامات الدالة على وجهة نظر «أجنبية» تُقرن عموماً بوجود راوٍ يوضع في علاقة تزامنية مع مشهد الفعل. لذا لا بد من تفادي الخلط بين معنيين لكلمة «داخلي». المعنى الأول يميز ظواهر في الوعي يمكن أن تكون لضمير غائب، بينما الثانية - وهي وحدها المقصودة بالبحث هنا - تميز موقع الراوي (أو الشخصية التي تتكلم) في علاقتها مع المنظور الموصوف. يمكن للراوي أن يوضع في الداخل أو في الخارج بواسطة عملية يقال عنها إنها داخلية، أي ذهنية.

تتأسس بهذا إذن ترابطات من التمييزات السابقة دون أن تصل حد تطابق الأجزاء بعضها مع البعض الآخر؛ مثلاً، بين وجهة النظر الاستذكارية على مستوى الزمن، ووجهة النظر الموضوعية على المستوى النفسي، وبين وجهة النظر التزامنية ووجهة النظر الذاتية. ولكن يبقى مهماً عدم الخلط بين هذه المستويات لأن أسلوب التأليف المهيمن في عمل ما ينجم تحديداً عن الوشائج بين وجهات النظر هذه، التي هي ليست بالضرورة متطابقة. بشخص ضروب النمذجة المعروفة (سرديات المتكلم أو الغائب، حالات السرد لدى ستانزل .. الخ) هذه الأساليب المهيمنة، بينما هي تعطي الحظوة ضمناً لأحد المستويات على حساب غيره.

لا يسع المرء إلا الإعجاب بالتوازن المتحقق هنا بين روح التحليل

وروح إنشاء التركيبية. لكن ما يستحق أعلى ثناء هو الفن الذي به تدمج فكرة وجهة النظر في شعرية تأليف، وتوضع بذلك داخل حقل الجاذبية الخاص بالتصور السردى. بهذا المعنى تؤثر فكرة وجهة النظر نقطة الذروة في دراسة تتركز على العلاقة بين التلخيص والتقرير.

إذا كانت مكانة وجهة النظر متميزة ضمن إشكالية التأليف كما وصفناها، ما الذي نقوله إذن عن الصوت السردى؟⁽⁸²⁾ لا يمكن لمقولة وجهة النظر أن تستأصل المقولة الأدبية الخاصة بالصوت ما استعصى فصل الأخيرة عن مقولة الراوي غير القابلة للحذف بوصفها الإسقاط القصصى للمؤلف الواقعي في النص نفسه. إذا أمكن تعريف وجهة النظر دون استخدام استعارة تحيل إلى شخص، باعتبارها مكان الأصل، أو توجهها، أو منفذاً لمصدر ضوئى بضئ في الوقت نفسه موضوعه ويقتنص ملامحه⁽⁸³⁾، فإن الراوي - متكلم الصوت السردى - لا يمكن أن يُحرر بالقدر نفسه من كل استعارة تحيل على الشخص ما بقي الراوي المؤلف القصصى للخطاب⁽⁸⁴⁾.

استحالة استئصال فكرة الصوت السردى تؤكد بها بقوة تلك الفئة من الروايات المشيدة من بوليفونية (تعددية) أصوات، حيث يحتفظ كل صوت فيها بتميزه، إلا إن كل صوت فيها يُطرح عبر علاقته مع كل صوت آخر. حسب ميخائيل باختين فإن دوستوفسكي هو مبدع هذا النوع من الرواية، التي يسميها هذا الناقد الملهم «الرواية البوليفونية»⁽⁸⁵⁾. ولابد من فهم صحيح لأهمية هذه الرواية. فإذا كان هذا النوع من الرواية يميز نقطة الأوج في بحثي للتصور في السرد القصصى، فإنه يعين أيضاً حداً مفروضاً على التأليف بصيغ المستويات، حداً يتعذر بعده التعرف على نقطة انطلاقي المتمثلة في فكرة الحكبة. لذلك فإن المرحلة الأخيرة في بحثنا ستكون نقطة خروجنا من حقل التحليل البنيوي أيضاً.

يعني باختين بالرواية البوليفونية بنية روائية تُحدث قطيعة مع ما يسميه المبدأ المونولوجي (أو الأحادي الصوت) الذي يسم الرواية الأوروبية، بما فيها

روايات تولستوي. يؤسس صوت المؤلف - الراوي نفسه في الرواية المونولوجية بوصفه صوتاً مفرداً يعلو هرم الأصوات، حتى وإن كانت منسجمة فيما بينها بالطريقة المعقدة والدقيقة التي تحدثنا عنها في أعلاه، عبر تعامله مع وجهة النظر على إنها مبدأ التأليف. ويمكن لهذه الرواية نفسها أن تكون ثرية ليس فقط بالمونولوجات من كل صنف، ولكن أيضاً بالحوارات التي تعلق بها الرواية إلى مستوى الدراما. لكنها برغم ذلك تشكل، بوصفها كلاً مرتباً، المونولوج الكبير الذي يعود للراوي. يبدو للوهلة الأولى أن من الصعب تخيل الأشياء على حالة خلاف هذه إذا ما افترضنا أن الراوي يتكلم بصوت واحد، كما ستؤكد بلاغة القصص بالمعنى الذي قصده وين بوث. لذلك فإنها لشورة في فهم الراوي، وصوت الراوي، وبالقدر نفسه صوت الشخصية، تؤسس الأصالة الغربية للرواية البوليفونية. لدينا فعلياً تطوير للعلاقة الحوارية بين الشخصيات يصل حد جعلها تشمل العلاقة بين الراوي وشخصياته. يخفي «وعي المؤلف الفريد المتميز» («شعرية دوستوفسكي»، ص.6)، ويظهر مكانه راو «يحاوّر» شخصياته ويتحول إلى تعددية من مراكز الوعي لا تقبل الاختزال إلى قاسم مشترك أعظم. إن ما يشكل الفرق بين الرواية المونولوجية والرواية الحوارية هو إضفاء الحوارية هذه على صوت الراوي الخاص. الأمر المهم هو الحوارية في نهاية المطاف، أي الطبيعة الحوارية للعمل برمته (ص.14). لذلك فإن التدمير الكلي يطال العلاقة ذاتها بين خطاب الراوي وخطاب الشخصية.

أول رد فعل لدي هو الاحتفاء برؤية البنية الحوارية للخطاب، للتفكير، للوعي الذاتي تُرفع إلى مستوى مبدأ بنيوي للرواية⁽⁸⁶⁾. رد فعلي الثاني هو التساؤل إن لم يكن المبدأ الحوارية الذي يبدو وكأنه يتوج هرم مبادئ التأليف التي تحكم القصص السردية، ينسف في الوقت ذاته أساس الصرح، وأقصد به الدور التنظيمي للحبك، حتى وهو يُوسّع ليتضمن كل أشكال تركيبة المتنوع التي بها يبقى القصص السردية محاكاة للفعل. بانتقالنا

من محاكاة الفعل إلى محاكاة الشخصيات، ومن ثم إلى أفكارها ومشاعرها ولغتها، ويعبرونا للعبية الأخيرة، العبور من المونولوج إلى الحوار، على مستوى خطاب الراوي وبالقدر نفسه الشخصيات، ألا نكون قد استبدلنا من دون تعليق بالحبك مبدأ تركيبياً مختلفاً اختلافاً جذرياً هو الحوار نفسه؟

تكثر مثل هذه الملاحظات في «شعرية دوستوفسكي». يشهد تراجع الحبكة بوجه مبدأ التجاور والتفاعل على ظهور شكل درامي يميل فيه المكان إلى أن يحتل موقع الزمان⁽⁸⁷⁾. وتفرض صورة أخرى نفسها، هي «الطباق» counterpoint (فن مزج الألحان - م)، الذي يجعل كل الأصوات تتزامن. فكرة «البوليفونية» ذاتها، التي تتماهى مع فكرة التنظيم الحواري، تشير إلى ذلك بالفعل. إذ يبدو أن تجاور الأصوات قد حل محل التصور الزمني للفعل، وهو ما اتخذته نقطة البدء لكل تحليلاتي. يضاف إلى ذلك أن الحوار يأتي معه بعامل عدم الاكتمال، البقاء دون انتهاء، وهو ما يؤثر ليس في الشخصيات ونظرتها إلى العالم فقط، ولكن في التأليف نفسه الذي يصدر عليه حكماً، كما يبدو، بأن يبقى «ذا نهاية مفتوحة»، إن لم نقل «من دون نهاية». هل يفضي بنا هذا إلى استنتاج أن الرواية المونولوجية وحدها تواصل التكيف مع مبدأ التأليف الذي يستند إلى الحبك؟

لا أعتقد أن ثمة ما يستدعي الوصول إلى هذا الاستنتاج. في الفصل الموسوم «خواص الجنس وتأليف الحبكة في أعمال دوستوفسكي» (ص ص. 83 - 149) ينشد باختين في ديمومة وتواتر أشكال التأليف الموروثة من رواية المغامرات والاعترافات وسير القديسين، وبالأخص من أشكال الملهاة الجادة، التي تجمع هي نفسها الحوار السقراطي بالهجاء المنيبي Menippean، الموارد من أجل جنس يؤسس، دون أن يكون هو نفسه نمطاً من الحبكة، منبثقاً للحبكات. وهذا الجنس، الذي يسميه باختين «الكرنفالي»، قابل للتعريف تماماً برغم تنوع تجسيدات⁽⁸⁸⁾. يصبح الجنس «الكرنفالي» بذلك المبدأ المرن بلا حدود لتأليف لا يمكن وصفه أبداً بأفتقاد الشكل.

إذا ما أمكننا استنتاج خلاصة من هذه المقارنة بين الرواية البوليفونية والجنس الكرنفالي فهي ما يلي: لا خلاف على أن الرواية البوليفونية تصل بقدرة محاكاة الفعل على الامتداد إلى أقصى حدودها الممكنة. ومع الوصول إلى الحد الأقصى لا تعود رواية صافية لأصوات متعددة - مثل «الامواج» لفرجينيا وولف - رواية على الإطلاق، وإنما نوع من الموشح الديني^(*) (أوراتوريو) مطروح للقراءة. أما أن الرواية البوليفونية لا تجتاز هذه العتبة، فإنما يُعزى ذلك إلى المبدأ المُنظم المستمد من التقليد الطويل الذي يميز حدوده الجنس الكرنفالي. باختصار، تدعونا الرواية البوليفونية إلى عزل مبدأ الحُبك عن المبدأ المونولوجي، وإلى مَذه إلى النقطة التي يتحول عندها القصص السردى إلى جنس جديد. ولكن، من قال إن القصص السردى هو الكلمة الفصل في تمثيل ضروب الوعي وعالمها؟ إن امتيازها يبدأ وينتهي عند النقطة التي يمكن فيها تعريف السرد بأنه «حكاية زمن»، أو الأفضل «حكاية عن الزمن».

إن ما يمنح فكرة الصوت أهمية خاصة بالنسبة لي هو تحديدا ما يصاحبها من معان زمنية مهمة. يقرر الراوي في الواقع، بوصفه مؤلف خطاب معين، حاضراً ما - هو حاضر السرد - وهو قصصي خيالي تماماً كما هو حال لحظة الخطاب التي تشكل التليظ السردى. يمكن اعتبار حاضر السرد هذا لا زمنياً إذا كنا لا نسمح، كما هو شأن كيت هامبرغر، إلا بنوع واحد من الزمن، هو الزمن «الواقعي» للذوات «الواقعية» التي تحمل تقريراتها المتصلة بـ «الواقع». ولكن لا يوجد ما يدعو إلى استبعاد فكرة الحاضر القصصي إذا أقررنا أن الشخصيات نفسها هي الذوات القصصية التي تحمل الأفكار والمشاعر والخطاب. تكشف هذه الشخصيات على نحو تدريجي

(*) oratorio: هو تأليف موسيقى نؤديه الأصوات والاوركسترا، يحكي قصة دينية دون أزياء أو ديكور أو فعل درامي (المترجم)

زمنها الخاص في القصص، وهو زمن يتضمن ماضيا وحاضرا ومستقبلا - وحتى ضرورياً من شبه الحاضر - بينما هي تنقل محورها الزمني في سياق القصص. إن هذا الحاضر القصصي هو ما ننسبه إلى مؤلف الخطاب القصصي، إلى الراوي.

تفرض هذه المقولة نفسها لسببين. أولاً، إن دراسة أزمنة الأفعال النحوية في القصص السردية، وخصوصاً تلك المتعلقة بالمونولوج الذي يقدمه المونولوج المروي *erlebte Rede*، قد وضعتنا لمرات عديدة وسط تفاعل التداخلات بين زمن الراوي وأزمنة الشخصيات. وهي «لعبة مع الزمن» تضاف إلى تلك التي حللتها آنفاً، لأن الانقسام بين تلفيز وتقرير قد أمتد الآن إلى الانقسام بين خطاب المتكلم (الراوي، المؤلف القصصي) وخطاب الشخصية .

فضلا عن ذلك، تسمح لنا نسبة حاضر خاص بالسرد إلى الصوت السردية بحل مشكلة تركتها معلقة حتى الآن، والمقصود بها موقع الفعل الماضي المطلق *preterite* بوصفه الزمن الأساس للسرد. إن كنت قد اتفقت مع كيت هامبرغر وهارالد وينرتش على فصل الماضي المطلق *preterite* للسرد عن إحالته على زمن معيش، وبذلك على ماض «واقعي» لذات «واقعية» تتذكر أو تعيد بناء ماض تاريخي «واقعي»، فإن من الصعب علي في نهاية المطاف القول مع هامبرغر، أن الزمن الماضي المطلق يحتفظ بشكله النحوي بينما هو يطرح عنه دلالاته على الماضي، أو القول مع فاينريش أن الزمن الماضي المطلق لا يعدو كونه إشارة دخول إلى السرد. إذ يحق لنا التساؤل لماذا يحتفظ الماضي المطلق بشكله النحوي إذا كان قد فقد كل دلالة زمنية؟ ولماذا يكون إشارة مميزة على الدخول إلى السرد؟ إجابة واحدة ترد على ذهن. ألا نستطيع القول إن الماضي المطلق يحتفظ بشكله النحوي وامتيازاته لأن القارئ يفهم حاضر السرد على أنه لاحق على القصة المروية، وبالتالي أن القصة المحكية هي ماضي الصوت السردية؟ ألا تقع كل قصة محكية في

ماضي الصوت الذي يحكيها؟ من هنا خرجت الحيل التي استخدمها كتاب عصور أخرى بادعائهم العثور على مفكرة بطلهم في خزانة أو في العلية، أو أنهم سمعوا القصة من عابر سبيل. كانت الغاية من مثل هذه الحيلة تقليد دلالة الماضي بالنسبة للذاكرة في الحالة الأخيرة، ودلالته بالنسبة للكتابة التاريخية في الحالة الأولى. عندما يطرح الروائي هذه الحيل جانباً يبقى ماثلاً ماضي الصوت السردي، الذي هو ليس صوت الذاكرة ولا صوت كتابة التاريخ وإنما الصوت الناجم عن تغذية الصوت السردي على القصة التي يرويها⁽⁸⁹⁾.

إجمالاً، يصعب عزل فكرتي وجهة النظر والصوت عن بعضهما البعض إلى حد يجعل التمييز بينهما متعذراً. لا تعوز لوتمان وباختين وأوسبنسكي التحليلات التي تُعبر دون نقاط انتقال ملحوظة من واحدة إلى أخرى. إنها بالأحرى مسألة وظيفة واحدة تتم مقاربتها من منظور سؤالين مختلفين. تجيب وجهة النظر عن السؤال «من أي موقع ندرك ما تعرضه علينا حقيقة السرد؟» وبالتالي من أين يتكلم المرء؟ يجيب الصوت عن سؤال «من المتكلم هنا؟» إذا شئنا تفادي أن تصللنا استعارة الرؤية ونحن نأخذ بالحسبان سرداً يُنقل فيه كل شيء، ويتمثل فيه جعل شيء ما مرئياً عبر عيون شخصية ما، الذي هو حسب تحليل أرسطو لل Ixus (الخطابة، جودة الأداء)، «وضع الأشياء أمام أعيننا»، أي توسيع الفهم إلى شبه حدس، إذن لابد من اعتبار الرؤية إضفاء العينية على الفهم، وتكون بالتالي على نحو متناقض تابعة للسمع⁽⁹⁰⁾.

لا يبقى في ظل هذه المعطيات، إلا فارق واحد بين وجهة النظر والصوت ؛ تظل وجهة النظر متصلة بمشكلة التأليف (كما رأينا لدى أوسبنسكي)، وبهذا تبقى ضمن اختصاص حقل البحث في التصور السردي . لكن الصوت يظل مشتبكاً مع مشاكل الاتصال ما بقي متجهاً بنفسه إلى قارئ ما. لذلك فإن موقعه نقطة الانتقال بين التصور وإعادة التصور، بقدر ما تميز

القراءة نقطة الانتقال بين عالم النص وعالم القارئ. هاتانوظيفتان، على وجه الدقة، هما القابلتان للتبادل. كل وجهة نظر دعوة موجهة إلى القراء ليتجه تحديقهم نحو الاتجاه نفسه الذي يقصده المؤلف أو الشخصيات. أما الصوت السردى فهو الكلام الصامت الذي يقدم عالم النص إلى القارئ. وهو في هذا يشبه الصوت الذي تكلم إلى أوغسطين في ساعة هدايته قائلاً «خذ! واقرأ!» Tolle! Lege!⁽⁹¹⁾.

الفصل الرابع

التجربة القصصية للزمن

أتاح التمييز بين التليظ والتقرير داخل السرد إطاراً مناسباً في الفصل السابق لدراسة الألعاب مع الزمن الناجمة عن الانقسام إلى الزمن الذي يستغرقه السرد وزمن الأشياء المروية، الذي يوازي هو نفسه هذا التمييز. ولقد أظهر تحليلنا لهذه البنية الزمنية الانعكاسية ضرورة أن تنسب إلى هذه الألعاب مع الزمن غاية (finalité) النطق بتجربة ما للزمن تكون هي الرهان في هذه الألعاب. ونحن إذ نفعل ذلك إنما نفتح المجال أمام بحث تتأخم فيه مشاكل التصور السردى المشاكل الخاصة بإعادة تصور السرد للزمن. إلا أن هذا البحث لن يعبر الآن العتبة التي تؤدي من الإشكالية الأولى إلى الثانية، طالما أن تجربة الزمن المطروحة للبحث هنا هي تجربة قصصية أفقها عالم تخيلي يبقى هو عالم النص. لن يجعل إشكالية التصور السردى تعلو لتدخل في إشكالية إعادة تصور السرد للزمن إلا المواجهة بين عالم النص والعالم المعيش الخاص بالقارئ.

على الرغم من هذا التقييد، المطروح بوصفه مسألة مبدأ، تستلزم فكرة عالم النص منا أن «نفتح» - إن عدنا إلى التعبير المستخدم من قبل⁽¹⁾ -

العمل الأدبي على «خارج» يسقطه أمامه ويذله لامتلاك نقدي يمارسه القارئ. ولا تتناقض فكرة الانفتاح هذه مع الإغلاق الذي ينطوي عليه مبدأ التصور الشكلي. إذ يمكن لعمل ما أن ينغلق على نفسه بقدر تعلق الأمر ببنيته ويفتح على عالم ما في آن واحد، كمثّل «نافذة» تستقطع منظوراً عابراً لمنظر خلوي خارجها⁽²⁾. ويتألف هذا الانفتاح في اقتراح عالم قابل للسكنى. في هذا الصدد لن يكون عالم غير مضياف، كما هو شأن العالم الذي تسقطه العديد من الأعمال الحديثة، كذلك إلا داخل إشكالية الفضاء غير القابل للسكنى نفسها. وما أسميه هنا التجربة السردية للزمن هو الجانب الزمني من هذه التجربة الافتراضية للوجود - في - العالم التي يقترحها النص. على هذا الوجه تحديداً يمارس العمل الأدبي، بينما هو يفتل من انغلاقه «الانتساب إلى...» و«التوجه نحو...» باختصار «إنه حول...». إن عالم العمل في غياب تلقّيه من قبل القارئ والتقاطع بين هذه التجربة القصصية وتجربة القارئ الفعلية، يؤلف ما سأسميه متعالية محايثة في النص⁽³⁾.

لا وظيفة إذن لما يبدو للوهلة الأولى تعبيراً متناقضاً، واعني به «التجربة القصصية الخيالية»، سوى تعيين إسقاط للعمل، قادرٍ على التقاطع مع التجربة العادية للفعل؛ وهي تجربة بالتأكيد، ولكنها تجربة قصصية خيالية مادام العمل وحده يسقطها.

لقد اخترت لتوضيح ما أقوله ثلاثة أعمال هي «السيدة دالوي» لفرجينيا وولف، و«الجبل السحري» لتوماس مان، و«بحثاً عن الزمن الضائع» لمارسيل بروست. لِمَ هذا الاختيار؟ أولاً، لأن هذه الأعمال الثلاثة تضيء التمييز الذي أقترحه منديلو Mendilow بين «حكايات الزمن» و«حكايات حول الزمن»⁽⁴⁾. «إن كانت رواية حكاية زمن، كما يقول توماس مان في مقدمة الجبل السحري، هو أمر عسير، إلا أن الحقيقة كذلك هي أن الرغبة في رواية حكاية عن الزمن ليست مستحيلة إلى هذا الحد. إننا نعتز طوعاً أننا وضعنا نصب أعيننا شيئاً من هذا القبيل في المصنف الحالي». إن الأعمال

التي سندرسها هي «حكايات حول الزمن»، بمقدار ما بقيت فيها تجربة الزمن نفسها هي الرهان في هذه التحولات النبوية.

فضلاً عما سبق، فإن كل واحد من هذه الأعمال يستكشف بطريقته الخاصة أنماطاً مجهولة من التوافق المتنافر، الذي لم يعد يؤثر في التأليف السردى حسب، ولكن في التجربة المعيشة للشخصيات في السرد أيضاً. وسأتكلم على «تنوعات تخيلية» لأعين هذه الصور المتنوعة من التوافق المتنافر، التي تتجاوز كثيراً الجوانب الزمنية للتجربة اليومية، سواء في محيط الممارسة Praxis أم التعاطف والمعاناة pathos، كما وصفتها في الجزء الأول تحت عنوان المحاكاة¹. إنها تنوعات للتجربة الزمنية لا يستطيع استكشافها إلا القصص الخيالي، والقصد من طرحها للقراءة إعادة تشكيل تصور الزمنية الاعتيادية^(*). أخيراً تشترك هذه الأعمال الثلاثة باستكشافها، ضمن حدود التجربة الرئيسة للتوافق المتنافر، علاقة الزمن بالأبدية التي طالعنا لدى أوغسطين بجوانب كبيرة التنوع. ينطلق الأدب هنا أيضاً اعتماداً على تنوعات تخيلية. يستطيع كل واحد من الأعمال الثلاثة المدروسة، إذ هو يحرق نفسه على هذا النحو من أكثر كفيات الزمن خطية، أن يستكشف بالمقابل المستويات التراتبية التي تشكل عمق التجربة الزمنية. يكشف السرد القصصي بذلك زمنية ذات امتداد إلى هذا الحد أو ذاك، مقدماً لنا صورة مختلفة للتذكر، للأبدية داخل الزمن وخارجه، وأضيف: للعلاقة السرية بين الأبدية والموت^(*).

هلموا بنا الآن نتعلم عن الزمن من هذه الحكايات الثلاث.

بين الزمن الأخلاقي والزمن التذكاري: «السيدة دالوي»

قبل أن ابدأ تأويلي لابد أن أؤكد مرة أخرى على الفرق بين مستويين

(*) الأبد «استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل، كما أن الأزل استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي، والسرمدي ما لا أول له ولا آخر». تعريفات الجرجاني - المترجم.

للقراءة النقدية لعمل واحد. يتركز اهتمامنا في المستوى الأول على التصور الذي يطرحه العمل ذاته. وينصب اهتمامنا في المستوى الثاني على رؤية العالم والتجربة الزمنية اللتين يسقطهما هذا التصور خارج نفسه. في حالة رواية «السيدة دالوي» يعاني النوع الأول من القراءة، بينما هو حافل لا ينقصه الخصب، من نقص بين⁽⁶⁾. فإذا كان السرد يتم تصوره بالطريقة الدقيقة التي سأصفها، فإنما ذلك لكي يتيح للراوي - ولا أقول المؤلف، بل الصوت السردى الذي يجعل العمل يتكلم ويقصد بخطابه القارئ - أن يقدم للقارئ حصيلة سخية من التجارب الزمنية يشارك فيها. من جهة أخرى، لا أتردد عن الإقرار بأن التصور السردى في «السيدة دالوي» - وهو تصور فريد تماماً، برغم أن من السهل وضعه ضمن عائلة روايات «تيار الوعي» - هو الذي يخدمنا بوصفه الأساس لتجربة شخصياتها للزمن، والتي يسعى الصوت السردى في الرواية إلى إيصالها للقارئ.

يحصّر الراوي القصصى كل حوادث القصة المروية بالفترة الزمنية المحصورة بين صباح يوم حزيرانى رائق عام 1923 ومساءه، أي عدة سنوات بعد نهاية ما سُمّي الحرب العظمى. ترافق دقة التقنية السردية بساطة في خط القصة. تدعو كلاريسا دالوي، وهي امرأة في حوالى الخمسين تنتمي إلى مجتمع الطبقة العليا اللندنى، إلى حفلة استقبال تلك الأمسية، وسوف تطبع أحداثها ذروة السرد وخاتمته. يعمل الحبك على تشكيل قطع ناقص^(*) نقطته البؤرية الثانية الشاب سبتموس وارن سمث، وهو جندي عريق من جنود الحرب العظمى، يقوده جنونه إلى الانتحار قبل ساعات قليلة من بدء حفلة كلاريسا. تتكون العقدة التي تجمع عناصر هذه الحبكة معاً من إعلان خبر موت سبتموس من قبل الدكتور برادشو، وهو من مشاهير الأطباء، ينتمي إلى حلقة معارف كلاريسا. تبدأ القصة مع كلاريسا وهي تستعد صباحاً للخروج

(*) يتخذ القطع الناقص شكلاً بيضوياً وله مركزان متساويا الأهمية - المترجم.

لشراء زهور لحفلفتها، وسوف تتركها في أخرج لحظات الأمسية. كادت كلاريسا، قبل ثلاثين عاماً، أن تتزوج بيتر ولش، وهو من أصدقاء الطفولة وتتوقع عودته الوشيكة من الهند حيث تخبطت حياته في مهن ثانوية ومشاريع حب فاشلة. أما ريتشارد، الذي فضّله كلاريسا على بيتر في تلك الأيام، والذي أصبح منذ ذلك الحين زوجها، فإنه رجل مهم في اللجان البرلمانية دون أن يكون سياسياً لامعاً. تتحرك بقية الشخصيات المترددة على عالم لندن الاجتماعي بفعل جاذبية تصدر عن هذه الحلقة الضيقة من أصدقاء الطفولة. ومما له أهمية أن سبتموس لا ينتمي إلى هذه الحلقة، وإن العلاقة بين مصيري سبتموس وكلاريسا تتحقق (بوساطة تفتيات سرديّة سأتكلم عنها لاحقاً) في مستوى أعمق من مجرد حدث مفاجئ يقلب الأحوال (coup de théâtre) - وصول خبر انتحار سبتموس في منتصف الحفل - من ذلك النوع الذي يدفع الحبكة إلى ذروتها.

تمتاز التقنية المستخدمة في «السيدة دالوي» بدقة متناهية. أول إجراء يمكن أن اذكره، وهو اقرب الإجراءات إلى الكشف، يتمثل في تأشير مرور اليوم وهو يتقدم بعدد كبير من الأحداث الصغيرة. عدا انتحار سبتموس بالطبع، تدفع هذه الأحداث الصغيرة السرد أحياناً نحو نهايته المتوقعة؛ الحفلة التي تدعو إليها السيدة دالوي. إن قائمة الغدو والرواح الدائبة، والوقائع واللقاءات طويلة حقاً: في الصباح يعبر طريقها أمير ويلز أو شخصية أخرى من العائلة المالكة، وتكتب طائرة إعلانها على السماء راسمة الخطوط العريضة لأحرف كبيرة يقوم الجمع بتهجيتها؛ تذهب كلاريسا إلى بيتها لتجهز الثوب الذي سترتديه في الحفلة؛ ويفاجئها بيتر ولش العائد توا من الهند بينما هي منهمكة بالخياطة، وبعد تقليب رماد الماضي تقبله كلاريسا. ويغادر بيتر باكيا فيمّر عبر الأماكن نفسها التي كانت كلاريسا قد مرت بها، ويلتقي صدفة بالزوجين سبتموس ورزيا (وهي صانعة قبعات من ميلانو تزوجت من سبتموس)؛ رزيا تأخذ زوجها إلى المعالج النفسي الأول، الدكتور هولمز،

يقلّب ريتشارد في رأسه فكرة شراء عقد من اللؤلؤ لزوجته، لكنه يختار وروداً بدلاً عنه (هذه ورود التي تدور بين أطراف مختلفة للقصة؛ والتي تتوقف للحظة على ورق الحائط في غرفة سبتموس، بعد أن حكمت عليه مهنة الطب أن يلزم الراحة)؛ ريتشارد، لفرط خجله، يعجز عن النطق برسالة الحب التي تدل عليها هذه الورود، الأنسة كيلمان، المعلمة الودعة والقيحة الشكل لإليزابيث ابنة آل دالوي، تخرج للتبضع مع إليزابيث التي تترك معلمتها في منتصف تناولها الحلوى بالشوكولا؛ سبتموس، وقد أخبره الدكتور أن يترك زوجته إلى مصحة في الريف، يرمي نفسه من النافذة؛ يترقر الذهاب إلى حفلة استقبال كلاريسا، ثم يأتي المشهد الكبير الخاص بحفلة السيدة دالوي والذي فيه يعلن الدكتور برادشو خبر انتحار سبتموس؛ تتلقى السيدة دالوي خبر انتحار هذا الشاب الذي لا تعرفه بطريقة تحسم الطابع الذي ستضيفه هي نفسها على انتهاء المساء، الذي هو موت اليوم أيضاً. تتخلل هذه الأحداث، كبرت أم صغرت، دقات ساعة بخ بن القوية وأجراس أخرى في لندن. وسأظهر لاحقاً أننا لن نجد أهم معاني هذا التذكير بالساعة في مستوى تصور السرد، فكأن الراوي مقيد بمساعدة القراء على العثور على أنفسهم في الزمن المروي. إن لدقات بخ بن مكانها الحقيقي في تجربة الشخصيات المختلفة للزمن. إنها تنتمي إلى إعادة التصور القصصي الخيالي للزمن الذي يتناوله هذا العمل بإفاضة.

إلى هذا الإجراء الأول المتمثل بالتراكم المتصاعد ينضم مستوى آخر معروف على نطاق أوسع. فبينما يُدفع السرد إلى أمام بفعل كل ما يحدث - مهما صَغُر - في الزمن المروي، فإنه في الوقت ذاته يُسحب إلى الخلف، أو لنقل يُؤخَّر، عبر وفرة من الرحلات القصيرة إلى الماضي، تشكل الكثير من الأحداث في الفكر، وتقحم في متواليات طويلة، بين التدفقات القصيرة للفعل. هذه الأفكار المنقولة - «فكر»، «فكرت» - في مجملها تعد، بالنسبة إلى أفراد حلقة آل دالوي، عودة إلى طفولتهم في بورتون، وبالأخص إلى

كل ما يمكن أن يتصل بحب ضائع، وبرفض الزواج بين كلاريسا وبيتر. بالنسبة لستيموس ورزيا تمثل غطسات معائلة في الماضي اجتارا يائسا لسلسلة الأحداث التي أدت إلى زواج مشؤوم وسوء طالع مطلق. هذه المتواليات الطويلة من الأفكار الصامتة - أو فلنقل بالمعنى عينه، الخطابات الداخلية - لا تشكل فقط استرجاعات تدفع الزمن المروي قدما، وهنا المفارقة، من خلال تأخير حركته، بل هي تحفر من الداخل لحظة الحدث الفكري، وتضخم من الداخل لحظات الزمن المروي، بحيث يبدو فاصل السرد برمته برغم قصره النسبي، غنيا باتساع ضمني⁽⁷⁾. بموازاة مسار هذا اليوم الذي تتخلل تقدمه دقائق بغي بن، نجد أن نوبات التذكر والحسابات التي تحاول كل شخصية بوساطتها أن تحدد التخمينات التي تراود الآخرين بشأن مظهرها، وأفكارها، وأسرارها، تشكل هذه كلها سلسلة من العقد تمنح انتشارها النوعي لامتداد الزمن المروي⁽⁸⁾. لذلك يتألف فن القصص هنا من جمع عالم الفعل وعالم الاستبطان في نسيج واحد، ومن مزج الإحساس باليومية بالإحساس بالذات الداخلية.

ليس من شك في أن نقدا أدبيا أكثر اهتماما بتصوير الشخصية منه باستكشاف الزمن المروي، والوصول عبره إلى الزمن الذي تعيشه الشخصيات في السرد، سيجد أن هذا الغوص في الماضي إلى جانب تقلب الرأي المتواصل في النفوس الذي تمارسه الشخصيات بعضها على البعض الآخر يسهم مع الأفعال الموصوفة من الخارج في إعادة بناء الشخصيات في حالتها الراهنة من الداخل. إن اشتباك الحاضر المروي مع الماضي المستعاد يضيف، من خلال منحه السرد عمقا زمنيا، عمقا سيكولوجيا على الشخصيات دون أن يعطيها برغم ذلك هوية مستقرة؛ إلى هذا الحد من التنافر هي اللحظات التي تحملها الشخصيات عن بعضها البعض الآخر وعن نفسها. ويترك القارئ ممسكا بأجزاء متناثرة من لعبة كبيرة هي لعبة التعرف على الشخصيات، لكن حلها يفلت منه بقدر ما يفلت من الشخصيات في السرد. ومؤكد أن هذه المحاولة لتعريف الشخصيات تستجيب لإرادة من

الراوي القصصي، عندما يترك هذا الصوت الشخصيات لبحثها المطول⁽⁹⁾.

هنالك إجراء آخر يستحق الاهتمام من إجراءات التقنية السردية المستخدمة في «السيدة دالوي»، هو إجراء لا يتجلى بوضوح كما هو حال الإجراء السابق تماماً. يُزوّد الراوي - الذي يمنحه القارئ دون تردد امتيازاً مبالغاً فيه في معرفة أفكار كل الشخصيات من الداخل - بالقدرة على الانتقال من تيار وعي إلى آخر عن طريق جعل الشخصيات تلتقي في الأماكن ذاتها (شوارع لندن، حديقة عامة)، والتعرف على الأصوات ذاتها، والحضور في الأحداث عينها (مرور سيارة أمير ويلز، تحليق الطائرة فوق الحشد.. الخ). بهذه الطريقة تدمج قصة سبتموس، البعيدة كل البعد عن حلقة دالوي، في الحقل السردى لأول مرة. لقد سمع سبتموس، شأنه شأن كلاريسا، الإشاعات التي انبثقت عن الحادث الملكي (وسنرى فيما بعد الأهمية التي سيكتسبها ذلك في النظرة التي يحملها الأبطال المختلفون إلى الزمن نفسه). يقفز الراوي بفضل اللجوء إلى هذه العملية نفسها من اجترار بيتر لحب الأمس الضائع إلى تبادل الآراء المهلك بين رزيا وسبتموس، في مراجعة لكارثة الرباط بينهما. إن وحدة المكان، المناقشة وجها لوجه على مقعد في الحديقة ذاتها، تساوي وحدة آن واحد يطعمه الراوي بامتداد حقبة من الذاكرة⁽¹⁰⁾. إن ما جعل هذا الإجراء شهيراً الأثر الترجيمي الذي يعوض عن اثر القطع الذي خلقتة القفزة من تيار وعي إلى آخر: فأما حب الأمس الذي كابده بيتر فقد انتهى دون عودة وانقطع دابره، وكذلك حال زواج رزيا وسبتموس، انتهى ولا أمل له في مستقبل ممكن. نتحرك فيما بعد من بيتر إلى رزيا عبر انتقالة مشابهة، عن طريق عزف العجوز المقعدة على القيثارة تغني حالات عشق آفلة. هنالك جسر يقام بين النفوس من خلال استمرارية المكان، وترجييع خطاب داخلي لدى شخص آخر. في مناسبة أخرى، يتيح وصف غيوم جميلة في سماء حزيران للقصة أن تتجاوز الهوة التي تفصل مسار أفكار الشابة إليزابيث، وهي تعود من مغامرتها بعد أن أفلتت من الآنسة

كيلمان، وتيار الوعي الخاص بسبتموس وهو يلزم فراشه بطلب من المعالجين النفسيين. إن المكوث في المكان عينه، والتوقف في حقبة زمنية عنها يشكلان جسراً بين زمنيّتين غريبتين أحدهما عن الأخرى.

إن هذه الإجراءات، الدالة على التصور الزمني، تخدم في تحقيق تشارك الراوي والقارئ في تجربة زمنية، أو بالأحرى في نطاق كامل من التجارب الزمنية، وهي لذلك تخدم في إعادة تصور الزمن ذاته في قراءتنا؛ هذا هو ما يلزم الآن إظهاره عبر النفاذ إلى الحكاية حول الزمن تلك التي تنسرب خلال «السيدة دالوي».

واضح تماماً أن ما يمثل الزمن التعاقبي في القصة دقائق بغيره من الأجراس والساعات التي تؤشر برنينها مرور الساعات. لكن المهم ليس هذا التذكير بالساعة، الذي يدق بالنسبة للجميع في وقت واحد، ولكن العلاقة التي يؤسسها الأبطال المختلفون مع هذه العلامات الدالة على الزمن. وتشكل التنويعات نفسها في هذه العلاقة، التي تعتمد على الشخصية والمناسبة، التجربة الزمنية القصصية التي يشيدها السرد بمنتهى الحرص من أجل أن يفلح في إقناع القارئ.

تتعالى دقائق بغيره لأول مرة بينما كلاريسا تستعيد في طريقها إلى أسواق ويستمنسر الفاخرة القطع الذي انتهت إليه أيامها السعيدة مع بيتر، دون أن تعلم بعد أنه قد عاد. المهم هو دلالة دقائق بغيره بالنسبة لها في هذه اللحظة: «هناك! انطلق الصوت فجأة. تحذيراً في البداية، موسيقياً؛ ثم الساعة التي لا تستعاد. وذابت الدوائر الرصاصية الكثيفة في الهواء». (ص.5) هذه الجملة، التي تُكرر ثلاث مرات في سياق السرد، ستذكر هي ذاتها بتمائل زمن الساعة بالنسبة للجميع. أهى الساعة التي لا تستعاد؟ لكن ما لا سبيل إلى استعادته في هذا الصباح الحزيراني ليس ثقيلًا، إنه يبت حيوية جديدة في متعة أن يكون المرء حياً، مع تجدد كل ساعة وتوقع مساء متائق. لكن ظلاً يعبر: إذا عاد بيتر ألن يخاطبها مرة أخرى بتهكمه الرقيق بوصف

«المضيغة الكاملة»؟ هكذا يمر الزمن الداخلي، تسحبه الذاكرة إلى وراء ويدفعه التوقع إلى أمام. روح الانتشار (distentio animi): «لقد ظلت دائما تنطوي على الشعور بأن العيش خطر، خطر جدا حتى ولو ليوم واحد» (ص. 11). كلاريسا الغريبة، رمز الانشغال الذي لفقه غرور العالم؛ والتي تقلقها صورتها المعروضة لتأويل الآخرين، تراقب بحذر تقلبات مزاجها، وهي قبل كل شيء منهمكة بشجاعة في الحياة برغم أن الأخيرة تفتقر إلى الاستقرار وتعاني الازدواجية. بالنسبة لها لازمة شكسبير في «سمبلين» تبقى تردد في نشيد يحتويه سياق السرد:

كُفَّ عن مخافة حر الشمس

و ثورات الشتاء الصاخبة⁽¹¹⁾.

لكن علينا قبل أن ننظر في المناسبات الأخرى التي تدق فيها بـغ بن، ملاحظة أن الزمن الرسمي الذي يواجه الشخصيات لا يعتمد على زمن الساعات ولكن على ما يتواطأ معه. معه يتوافق كل ما يستحضر في السرد التاريخ التذكاري، إن استخدمنا تعبير نيتشه، بدءا بالديكور الرخامي الفاخر للعاصمة الفخمة (والعاصمة هي المكان «الواقعي» لكل الأحداث وترجيعاتها الداخلية في هذه القصة). يفرز هذا التاريخ التذكاري بدوره ما سأغامر بتسميته «الزمن التذكاري»، والذي ليس الزمن التعاقبي إلا التعبير المسموع عنه. الشخص التي تمثل السلطة والقوة تنتمي إلى هذا الزمن التذكاري الذي يشكل الثقل الموازن للآزمنة المعيشة التي تجربها كلاريسا وسبتموس؛ إنه الزمن الذي سيدفع بقسوته سبتموس إلى الانتحار، وسيقذف كلاريسا بسبب كبريائها إلى مواجهة عنيفة مع الحياة⁽¹²⁾. لكن ابرز شخوص السلطة هم الأطباء المزوعون الذين عذبوا سبتموس المسكين الغارق في أفكاره الانتحارية إلى حد دفعه إلى حتفه. فما الجنون بالنسبة للسير وليم برادشو، تلك الشخصية الطبية المرموقة التي زاد من رفعتها لقب الفروسية الذي تحمله، إلا «افتقاد الإحساس بالتوازن»؟ (ص. 146). «التوازن، التوازن

المقدس، هو ربة السير وليم» (ص. 156). هذا الإحساس بالتوازن تحديدا هو الذي يضع حياته المهنية والاجتماعية برمتها داخل الزمن التذكاري. ولا يخشى الراوي من إضافة الدين إلى شخوص السلطة هذه، الذي يتوافق كثيرا مع الزمن الرسمي كما تجسده الأنسة كيلمان، المدرسة القبيحة الكريهة الورعة التي سرقت تعلق إليزابيث بأمرها منها، قبل أن تهرب الفتاة الشابة وتحرز زمنا خاصا بها، بوعوده ومخاطره. «لكن للتوازن أختا، اقل ميلا للابتسام وأكثر صرامة.. اسمها الهداية» (ص. 151).

زمن الساعة، زمن التاريخ التذكاري، زمن شخوص السلطة؛ ذاك زمن واحد! وتبقى الساعات، التي يهيمن عليها هذا الزمن التذكاري الأكثر تعقيدا من الزمن البسيط، تدق طوال سياق السرد.

تدق بغ بن للمرة الثانية في تزامن تام مع تقديم كلاريسا ابتنتها لبيتري⁽¹³⁾. «صوت بغ بن وهو يعلن منتصف الساعة علا بينهما بقوة خارقة كأن شابا قويا، مندفعاً ومتهوراً يؤرجح كرات تمرين من حديد ذات اليمين وذات الشمال». (ص. 71). وهي ليست هنا، كما في المرة الأولى، تذكيرا بقوة متعنتة ولكن تقديماً لغرابة الوضع «بينهما». ويكرر الراوي «تذوب الدوائر الرصاصية في الهواء». لمن إذاً كان الإيذان بمنتصف الساعة؟ «تذكرُ حفلاتي الليلة» تنادي السيدة دالاي في أعقاب بيتري المبتعد ضابطة هذه الكلمات على إيقاع زنين بغ بن. وهو يفكر أن الوقت هو الحادية عشرة والنصف فقط. ثم تلتحق بها أجراس كنيسة القديسة مارغريت ودودة مضيافة مثل كلاريسا. بهيجة إذاً؟ تبقى كذلك حتى يعيد الصوت وهو يتلاشى ذكرى مرض كلاريسا القديم، وحتى تصبح قوة الدقة الأخيرة جرس الموت الذي يعلن موتها المتخيل. يا للموارد الغنية التي تتوفر للقصص لمتابعة التنويعات المزهقة بين زمن الوعي والزمن التعاقبي!

ثم تدق بغ بن للمرة الثالثة (ص. 142). يعلن الراوي دقة منتصف النهار لكل من سبتموس ورزيا وهما في الطريق لتسليم أمرهما للدكتور هولمز،

الذي طُرحت علاقته الخفية بالزمن الرسمي من قبل، وكلاريسا وهي تنشر ثوبها الأخضر على السرير. لكل واحد، وللأحد «تلاشى الدوائر الرصاصية في الهواء» (المصدر السابق). هل نقول مرة أخرى إن الساعة هي ذات الساعة بالنسبة للجميع؟ نعم من الخارج، ولا من الداخل. وحده القصص على وجه الحصر يملك القدرة على الاستكشاف والتعبير اللغوي عن هذا الانفصال بين رؤى العالم ومنظوراتها غير المتطابقة إلى الزمن، وهو انفصال يدمر الزمن العام.

تدق الساعة مرة أخرى، الواحدة والنصف، وهذه المرة نسمع ساعات المنطقة التجارية الغنية. على رزيا المنخرطة في البكاء «أشاروا بالخضوع، واعدوا من شأن السلطة، وبرزوا مجتمعين الفوائد الجمّة للإحساس بالتوازن». (ص ص. 155 - 154).

تدق بغ بن معلنة الساعة الثالثة بالنسبة لريتشارد وكلاريسا. بالنسبة للأول الذي يغمره الامتنان للمعجزة التي يبدو أن زواجه من كلاريسا يعينها له، «تبدأ بغ بن دقائقها، الإنذار في البداية، وهو موسيقى، ثم إشارة الساعة، لا تستعاد» (ص 177). إنها رسالة غامضة تؤثر مفاصل السعادة أو زمننا ضائعا في انشغالات عقيمة. أما بالنسبة لكلاريسا الجالسة في غرفة الصالون منشغلة بمشاكل الدعوات التي توجهها فقد «فاض صوت الناقوس على الصلاة بموجته الحزينة» (ص 178). لكن ها هو ذا ريتشارد يقف أمامها مقدّما إليها الزهور. الزهور، نعم الزهور مرة أخرى. «ما السعادة إلا هذا، هذا... فكّر هو» (ص. 180).

عندما تدق بغ بن معلنة نصف الساعة اللاحق، فإنها تشير إلى الوقار، المعجزة، معجزة المرأة العجوز التي لمحتها كلاريسا عبر الطريق، مؤطرة بشباكها، ثم منسحبة إلى غرفتها، فكأنما الدقات التي تصدر عن الناقوس الضخم تغمر كلاريسا من جديد في منطقة من السكينة لم يكن بوسع الندم العقيم على الحب الذي سعى إليه بيتر ذات يوم، ولا التدين المتغطرس

الذي تبديه الأنسة كيلمان اختراقها. ولكن ما هي إلا دقيقتان بعد دقائق بخ بن، وإذا بدقات ناقوس آخر تعلو لتختلط أصواته الخفيفة، رُسل اللاجدوى، مع الأصداء المهيبة الأخيرة لأجراس بخ بن، معلنة سلطة القانون.

عندما تدق الساعة السادسة تنقش داخل الزمن العام فعلا خاصا كل الخصوصية هو انتحار سبتموس. «كانت الساعة تدق؛ الواحدة، الثانية، الثالثة: كم كان الصوت معقولا بالمقارنة مع كل هذا الضرب المكتوم والهمس؛ مثل سبتموس نفسه. كانت هي [رزيا] تستسلم للنوم. لكن الساعة واصلت دقاتها، الرابعة، الخامسة، السادسة» (ص. 227). أصوات الدقات الثلاث الأولى مثل شيء صلب ملموس في لفظ الهمسات؛ الثلاث الأخيرة مثل راية مرفوعة على شرف من مات في ارض المعركة.

النهار يحث الخطى، مدفوعا إلى أمام بسهم الرغبة والتوقع الذي أُطلق في بداية السرد (حفلة المساء التي دعت إليها السيدة دالوي)، ومسحوبا إلى الوراء بالتراجع المتواصل إلى الذاكرة الذي، وهنا المفارقة، يرسم محطات التقدم العنيد لليوم الذي يموت.

يجعل الراوي بخ بن تدق معلنة الوقت للمرة الأخيرة عندما يقذف إعلان انتحار سبتموس كلاريسا في سورة أفكار متناقضة سأتكلم عنها فيما يلي. ومرة أخرى تعود العبارة نفسها: «الدوائر الرصاصية تتلاشى في الهواء». بالنسبة لكل واحد من الشخصيات، ولكل صنف من الأمزجة، الأصوات هي نفسها، لكن الساعة ليست ببساطة تلك الأصوات التي يُصدرها الزمن العنيد أثناء مروره...

علينا إذاً أن نتجنب الاكتفاء بضدية بسيطة بين زمن الساعة والزمن الداخلي، بل علينا أن نأخذ بالاعتبار تنوع العلاقات بين التجربة الزمنية العينية لمختلف الشخصيات والزمن التذكاري. تنأى التنويعات على موضوعه هذه العلاقة بالقصة بعيدا خارج الضدية المجردة التي اشرنا إليها للتو، وتخلق

منها، بالنسبة للقارئ، وسيلة قوية في الكشف عن الطريقة المتنوعة على نحو لا متناه للربط بين منظورات الزمن التي يفشل التفكير المجرد في التوسط فيه.

تشكل هذه التنوعات أفقا كاملا من «الحلول»، يُعبّر عن جانبيه الاتفاق العميق بين الزمن التذكاري وشخص السلطة الذين يقدم الدكتور برادشو صورة مصغرة لهم، و«رعب التاريخ» - إن استخدمنا تعبير مرسيا الياد - الذي يتمثل عبر سبتموس. وتنظم بقية التجارب الزمنية، وفي المقدمة منها تجربة كلاريسا، ثم تجربة بيتر ولش بدرجة أقل، عبر علاقتها بهذين القطبين، حسب بعدها أو قربها من التجربة الأولية التي يعتمدها الراوي قياسا لكل التجربة الزمنية: تجربة التنافر المهلك بين الزمن الشخصي والزمن التذكاري، والذي يمثل سبتموس بالنسبة له البطل والضحية في آن واحد. لا مناص إذا من الابتداء بقطب التنافر الجذري هذا.

تؤكد «التجربة المعيشة» لسبتموس تأكيدا وافرا أن هوة لم تكن لتنتفتح أمامه بين الزمن الذي «تعلنه» بغي بن ورعب التاريخ الذي ينتهي به إلى حتفه لو لم يمنح التاريخ التذكاري، المائل في كل مكان من لندن، وصور السلطة المتنوعة التي تلخصها مهنة الطب، زمن الساعة مواكب القوة التي تحول الزمن إلى تهديد جذري. رأى سبتموس هو الآخر السيارة الملكية وهي تمر، وسمع مهممات الاحترام من الحشد، تماما كما شهد الطائرة المحلقة فوق الرؤوس بذيلها الإعلاني، ولم يدفعه كل ذلك إلا إلى البكاء، إذ جمال الأمكنة يجعل كل شيء يبدو فظيعا. الرعب! التخويف! هاتان الكلمتان تلخصان بالنسبة له العداء القائمة بين المنظورين الزمنيين، وهي العداء نفسها تماما القائمة بينه وبين الآخرين - «ذلك الشعور الأزلي بالوحدة» (ص. 37)، وبينه وبين الحياة. إذا كانت هذه التجارب، التي يصعب التعبير عنها حين تصل حدودها القصوى، تحصل برغم ذلك على لغة داخلية، فإنما يحدث ذلك لأنها واجهت تواطؤا لفظيا في قراءة اسخيلوس ودانتلي

وشكسبير، قراءة لم تنقل لسبتموس إلا رسالة تعلن اللا معنى الشامل. هذه الكتب على الأقل تقف إلى جانبه، محتجة على الزمن التذكاري، وعلى كل القوى الجائرة القمعية في علم الطب. ولأن هذه الكتب تقف إلى جانبه تحديدا، فهي تخلق حاجزا إضافيا بينه وبين الآخرين والحياة. ويعبر عن كل هذا مقطع واحد في «السيدة دالوي»، وهو عندما تلتفظ رزيا، صانعة القبعات الصغيرة من ميلانو، الضائعة في لندن حيث تبعت زوجها، بعبارة «إنه الزمن». «شقت كلمة [زمن] قشرتها، وصبت خيراتها عليه، وسقطت من بين شفتيه مثل الصدف، مثل القشور التي تخرج من مسحجة النجار دون أن يتدخل هو في صناعتها، كلمات صلبة، بيض، لا تفنى. وتطايرت لتلتصق بمواقعها في غنائية إلى الزمن، غنائية خالدة إلى الزمن» (ص. 105) لقد استعاد الزمن هيئته الأسطورية، وسمعتة الجهممة في انه مدمر أكثر منه مولد. إنه رعب الزمن الذي يبعث من الموت شبح رفيقه في الحرب ايفانز، منبثقا من أعماق التاريخ التذكاري - الحرب العظمى - في قلب المدينة الملكية. لاحظ سخرية الراوي المتشابهة: «سأخبرك الزمن، قال سبتموس بروية شديدة، ونعاس شديد وعلى وجهه ابتسامة غامضة»⁽¹⁴⁾. وبينما هو جالس يتنسم للرجل الميت بدلته الرمادية، دقت الساعة معلنة الربع؛ الثانية عشرة إلا ربعا. هكذا هو الشباب، فكر بيتر ولش وهو يمر بهما» (ص. 106)

يواجه طرفا التجربة الزمنية احدهما الآخر في مشهد انتحار سبتموس. كان الدكتور برادشو - السير وليم ! - قد قرر ضرورة الفصل بين رزيا وسبتموس لصالح المريض. «كان هولمز وبرادشو ضده!» (ص. 223) الأسوأ، أن الطبيعة البشرية أصدرت عليه حكما بالإدانة، حكما بالموت. بين الأوراق التي يطلب سبتموس أن تحرق وتحاول رزيا إنقاذها «غنائيته إلى الزمن» (ص. 224). لن يكون ثمة مقياس مشترك بعد الآن لزمه وزمن حَلة لواء المعرفة الطبية، إحساسهم بالتوازن، أحكامهم، قدرتهم على فرض المعاناة. هكذا يقذف سبتموس نفسه من النافذة.

ويثار السؤال: ألم يشحن الراوي موت سبتموس، بمعزل عن رعب التاريخ الذي يتجسد فيه، بمعنى آخر يجعل من الزمن الجانب السلبي للأبدية؟ يحمل سبتموس، في غمرة جنونه، كشفا يرى في الزمن العائق أمام رؤيا بوحدة كونية، وفي الموت الطريق لبلوغ هذا المعنى المُسَكَّن. برغم كل هذا، لم يشأ الراوي أن يجعل من كشفه «رسالة» السرد. فالراوي، من خلال ربطه الكشف بالجنون، يترك القارئ متشككا في معنى موت سبتموس ذاته⁽¹⁵⁾. فضلا عن ذلك، فإن الراوي سيوكل لكلاريسا، كما سأذكر لاحقا، مهمة إضفاء الشرعية على هذا المعنى الخلاصي لموت سبتموس، برغم انه يفعل ذلك ضمن حدود معينة. لذا يجب أن لا تغيب عن أنظارنا حقيقة أن ما يخلق المعنى هو المجاورة بين تجربتي سبتموس وكلاريسا للزمن⁽¹⁶⁾. إن نظرة سبتموس إلى العالم، إذا أخذت على انفراد، تعبر عن عذاب نفس تجد أن الزمن التذكاري لا يطاق. والعلاقة التي يمكن أن تقوم بين الموت والأبدية تزيد من شدة هذا العذاب (حسب التأويل الذي اقترحته في معرض قراءتي لـ «اعترافات» أوغسطين للعلاقة بين الأبدية والزمن)⁽¹⁷⁾. وهكذا فإن التجارب الزمنية لكل واحدة من الشخصيات الأخرى تترتب على وفق علاقتها بهذا الصدع [faille] الفاجر الذي لا يمكن عبوره بين الزمن التذكاري للعالم والزمن الفاني للنفس، وتترتب أيضا طرقهم في التعامل مع العلاقة بين جانبي هذه الثغرة. سأحصر نفسي بالحديث عن بيتر ولش وكلاريسا، برغم أن بالامكان قول الكثير حول التنويعات الخيالية الأخرى التي ينجزها الراوي .

بيتر، الذي ضاع حبه السابق إلى الأبد - «لقد انتهى!» - وما حياته الحاضرة إلا كوم حطام، يغمغم: «موت النفس» (ص. 88). إذا كان يفترق إلى ثقة كلاريسا الحية بنفسها لتساعده على الاندفاع من جديد، فإن له خفة معينة تعينه على البقاء. «هتف: انه لفظيع، فظيع، فظيع! ما زالت الشمس حارة. ما زال بالامكان التغلب على المصاعب. ما زالت الحياة على دأبها في إضافة الأيام إلى الأيام. ما زال ... ما زال... أطلق بيتر ولش ضحكة»

(ص ص. 97 - 98). لأنه إذا لم تكن الشيوخوخة تضعف العواطف «فان المرء يحصل - أخيرا - على تلك القدرة التي تضفي النكهة الأسمى على الوجود، قدرة التمكّن من التجربة، وتقليبها في الضوء، على مهل». (ص 119).

من الواضح تماما أن كلاريسا هي بطلّة الرواية. فما يقرر حدود الزمن المروي هو سرد فعالها وخطاباتها الداخلية، لكن فضلا عن ذلك، تكون تجربتها الزمنية التي توضع مقابل تجربة سبتموس، وبيتر، وشخص السلطنة، الرهان في اللعبة مع الزمن، كما تقدمها التقنيات السردية المميزة لـ«السيدة دالوي».

حياتها الاجتماعية، ومعرفتها بشخص السلطنة تجعل جزءا منها ينتمي إلى جانب الزمن التذكاري. ألن تحتل مكانها، في هذا المساء ذاته، على قمة سلمها كأنها ترحب بضيوفها في قصر بكنهام؟ أليست هي من شخص السلطنة في عيون الآخرين لطريقتها في الحركة بانتصاب واستقامة؟ أليست، كما يراها بيتر، جزءا من الإمبراطورية البريطانية (ص. 116)؟ ألا يعرفها تعريفا جامعا مانعا تعبير بيتر الرقيق والقاسي، «المضيئة الكاملة»؟⁽¹⁸⁾ لكن الراوي يريد برغم هذا أن ينقل إلى القارئ إحساسا بقرابة عميقة بين كلاريسا وسبتموس الذي لم تره قط ولا تعرف حتى اسمه. يسكنها الرعب نفسه، لكنها خلاف سبتموس تواجهه مدعومة بحب يفوق الوصف للحياة. الذعر ذاته: يكفي أن تتذكر جفاف الحياة في وجه السيدة بروتون - المرأة التي لم توجه إليها دعوة لتناول الغداء، وإن دعت زوجها! - ليذكرها إلى أي حد كانت «تخاف الزمن نفسه» (ص 44). إن ما يحافظ على توازنها الهش بين الزمن الفاني وزمن العزيمة في وجه الموت - إذا ما تجرأنا على أن نطبق عليها هذه المقولة الوجودانية الرئيسة في كتاب «الوجود والزمان» - هو حبها للحياة، للجمال المهدد بالفساد، للضوء المتغير، لهفتها على «القطرة المنسكبة» (ص. 54). من هنا قدرتها المدهشة على أن ترتد من الذاكرة لتغوص «في عمق قلب اللحظة الراهنة». (المصدر السابق).

تمثل الطريقة التي تلقت بها كلاريسا خبر انتحار هذا الشاب المجهول المناسبة التي عمد فيها الراوي إلى موضعة كلاريسا على قمة بين الحدين المتطرفين اللذين غطاهما أفق السرد بتنويعاته الخيالية على التجربة الزمنية. لقد خفنا من قبل أن سبتموس هو «قرين» كلاريسا؛ وبطريقة ما فانه يموت بدلا عنها⁽¹⁹⁾. أما بالنسبة لكلاريسا فإنها تكفر عن موته بان تستمر في الحياة⁽²⁰⁾. يثير خبر الانتحار، الذي يرد في معرض الدردشة عند منتصف الأمسية، الفكرة التالية لدى كلاريسا، وهي فكرة عابثة ومتواطئة معا: «أوه! فكرت كلاريسا، في قلب حفلي، ها هو ذا الموت» (ص. 279). لكن يقينا راسخا استقر في عمق ذاتها بان هذا الشاب بفقده الحياة قد أنقذ أعلى معاني الموت. «كان الموت تحديا. كان الموت محاولة للتواصل؛ أناس يستشعرون استحالة الوصول إلى المركز الذي يفلت منهم على نحو إعجازي، التذاني يتباعد، الحماس يفتر، ويجد المرء نفسه وحيدا. ثمة حضن يجمعهم في الموت» (ص. 281). يوحد الراوي هنا في صوت سردي واحد صوت الراوي نفسه، وصوت سبتموس، وصوت كلاريسا. من الجلي أن صوت سبتموس هو القائل، كما لو كان ترجيع صدى عبر كلاريسا: «صارت الحياة لا تطاق، لقد جعلوا الحياة لا تطاق، رجال من ذلك النوع» (المصدر السابق). وهي ترى بعيون سبتموس الدكتور برادشو «شريرا على نحو غامض، دون جنس أو شهوة، جم الأدب مع النساء، لكنه قابل للانزلاق في نوبة غضب لا يوصف؛ يوهن روحك، هذه هي الصياغة المناسبة» (المصدر السابق). لكن زمن كلاريسا ليس هو نفسه زمن سبتموس. لن تنتهي حفلتها بكارثة. هنالك «علامة» يضعها الراوي نفسه مرة أخرى ستساعد كلاريسا على ربط الرعب بحب الحياة في كبرياء قبول التحدي. هذه العلاقة هي إيماء المرأة العجوز عبر الطريق، التي تفتح ستائرنا وتبتعد عن النافذة، تقصد فراشها «بهدهوء وسلام»؛ صورة للسكينة، ترتبط فجأة بلازمة مسرحية «سمبلين»: «كُفَّ عن الخوف من حر الشمس». ونحن نتذكر هنا أن كلاريسا قد رأت

في وقت أبكر من صباح ذلك اليوم نفسه وهي تقف أمام واجهة محل، كتاب شكسبير مفتوحا على هذه الأبيات. وسألت نفسها حينذاك، «ما الذي كانت تحاول أن تستعيده؟ أي صورة لفجر ابيض في ريف مفتوح؟» (ص. 12) في وقت لاحق من ذلك اليوم، يجد سبتموس في لحظة عودة وادعة إلى وقع الزمن كلمات مواساة في هذه الأبيات نفسها: «كُفَّ عن الخوف، يقول القلب في الجسد، كُفَّ عن الخوف. لم يكن خائفا. تُقدِّم الحياة في كل لحظة إلماحة ضاحكة من نوع تلك البقعة الذهبية التي دارت على الحائط - هنا، هنا، هنا - تصميمها على أن تعرف، من خلال.... الوقوف اقرب ما يمكن للتنفس في كفيها الفارغتين كلمات شكسبير، معناها هي». (ص ص. 212 - 211). عندما تكرر كلاريسا بيت الشعر في أواخر الكتاب يكون تكرارها شبيها بما فعل سبتموس؛ «يخالطه إحساس بالأمان والثقة»⁽²¹⁾.

هكذا ينتهي الكتاب: إن موت سبتموس، المفهوم والمُشارك فيه بطريقة ما، يثبت في الحب الغريزي الذي تكنه كلاريسا للحياة نبرة تحد وتصميم. «لقد جعلها تشعر بالجمال، جعلها تشعر بالهزل. لكن عليها أن تعود. عليها أن تلتحق بالحدس» (ص 284) غرور؟ غطرسة؟ المضيفة الكاملة؟ ربما عند هذه النقطة يمتزج صوت الراوي بصوت بيتر الذي يصبح عند هذه اللحظة الأخيرة من السرد أكثر الأصوات مصداقية بالنسبة للقارئ؛ «ما هذا الرعب؟ ما هذه النشوة؟ فكر مع نفسه. ما الذي يملأني بإثارة خارقة؟ إنها كلاريسا، قال. لقد كانت هي هناك» (ص. 296)

يقول الصوت ببساطة «لقد كانت هي هناك». إن قوة هذا الحضور هي هبة الرجل المتحدر لكلاريسا⁽²²⁾.

إجمالا، هل يمكن أن نتكلم عن تجربة واحدة للزمن في «السيدة دالوي؟» لا، لا يمكن ذلك ما بقيت مصائر الشخصيات ونظراتها إلى العالم مطروحة في تجاور، نعم، ما ظل التقارب بين «الكهوف» التي تزار يشكّل نوعا من شبكة أنفاق هي تجربة الزمن في «السيدة دالوي». إن هذه التجربة

للزمن ليست تجربة كلاريسا ولا سبتموس، كما إنها ليست تجربة بيتر ولا تجربة أية شخصية أخرى. بدلا من ذلك، إن ما يوحى بها للقارئ ترجيع - وهو تعبير مستحب لدى باشلار استعاره من إ. منكوفسكي - لأصدقاء تجربة معزولة واحدة في تجربة معزولة أخرى. وهذه الشبكة إجمالا هي تجربة الزمن في «السيدة دالوي». تواجه هذه التجربة بدورها، في علاقة معقدة وغير مستقرة، الزمن التذكاري الذي هو نفسه ناجم عن كل التواطؤات بين زمن الساعة وشخص السلطة⁽²³⁾.

الجبيل السحري

لا احتاج إلى الإطالة لتأكيد أن «الجبيل السحري» رواية حول الزمن، لأن هذا من الأمور الجلية⁽²⁴⁾. لكن الأصعب منه كثيرا توضيح بأي معنى هي كذلك. دعونا ابتداء نقيد أنفسنا بالملامح الأبرز التي تعطي «الجبيل السحري» الوصف الإجمالي رواية زمن (Zeitroman).

بادئ ذي بدء، أبرز ملامح الطريقة التي يوجد ويحيا بها ضيوف بيرغهوف، مصحة دافوس، هو إلغاء الإحساس بقياس الزمن. ويبقى هذا التفادي للزمن التعاقبي بارزا بوضوح من بداية الرواية إلى نهايتها بوساطة التباين بين «أولئك الموجودين في الأعلى هنا»، المتكفين مع ما وراء الزمن هذا، و«أولئك الموجودين أسفل» - أصحاب الأرض المسطحة - الذين تتبع مشاغلهم إيقاع التقويم والساعات. الضدية المكانية تكرر الضدية الزمانية وتعززها.

بعدها، نلاحظ أن خط القصة، البسيط نسبيا، مليء بحركات الذهاب والمجيء العديدة بين أولئك الموجودين في الأسفل وأولئك الموجودين في الأعلى، وهو ما يزيد فتنة المكان درامية. يشكل وصول هانس كاستورب الحدث الأول من هذا النوع. يصل هذا المهندس الشاب في بداية الثلاثينيات من عمره من هامبورغ - أرض مسطحة إن وجدت أرض كذلك - ليزور ابن عمه يواكيم الذي كان قد بدأ بتلقي العلاج قبل أكثر من ستة أشهر في

بيرغهوف. وكانت نيته الأولى أن يمكث ثلاثة أسابيع فقط في هذا المكان الغريب. عندما يكتشف الدكتور بيهرنز، وهو المدير الفاسد والجلف للمؤسسة، أن هانس كاستورب مريض، يصبح الأخير بدوره واحداً من نزلاء بيرغهوف. رحيل يواكيم، الذي يعود إلى الحياة العسكرية، ثم عودته اللاحقة إلى المصححة ليموت فيها، وكذلك رحيل مدام شوشات المفاجئ - وهي الشخصية المحورية في المغامرة الغرامية التي تتخلل نسيج الحكاية حول الزمن - بعد الحدث الفاصل في «ليلة فلبرغس»، ثم عودتها المفاجئة برفقة مينهير بيبركورن؛ تمثل كل حركات الذهاب والمجيء هذه العديد من نقاط القطع والاختبارات والتساؤلات في مغامرة تقع في جزئها الأكبر، في عزلة بيرغهوف المكانية والزمانية. هانس كاستورب نفسه سيمكث هنا سبع سنوات حتى تنزعه «صاعقة» إعلان الحرب عام 1914 من سحر الجبل السحري. لكن انفجار التاريخ العظيم لن يعيده إلى زمن أولئك الموجودين في الأسفل إلا ليسلمه لـ «وليمة الموت» التي هي الحرب. لذلك فإن تكشف السرد التدريجي في جانبه الحدثي، يجعلنا نميل إلى أن نرى في مواجهة هانس كاستورب مع الزمن الملفى الخيط الرئيس للسرد في «الجبل السحري».

تؤكد التقنية السردية المستخدمة في العمل بدورها تشخيص الرواية بوصفها رواية زمن Zeitrroman. تتعلق أوضح الإجراءات بالتوكيد على العلاقة بين زمن السرد والزمن المروي⁽²⁵⁾.

يغطي تقسيم الرواية إلى سبعة فصول فترة تعاقبية من الزمن هي سبع سنوات. لكن العلاقة بين طول الزمن الذي يرويهِ كل فصل والزمن الذي تستغرقه روايته مقيساً بعدد الصفحات، تفتقر إلى التوازن. يخصص الفصل الأول خمس عشرة صفحة لـ «الوصول». ويشكل الفصل الثاني عودة عبر الماضي إلى اللحظة التي أُنْخِذ فيها قرار القيام بالرحلة المهلكة؛ وسأناقش معناه فيما يلي. يخصص الفصل الثالث أربعاً وخمسين صفحة لليوم الأول الكامل هناك (اليوم الذي يعقب وصول هانس). بعدها تكون الصفحات التسع

والثمانون الخاصة بالفصل الرابع كافية لتغطية الأسابيع الثلاثة الأولى، وهو تحديدا الزمن الذي كان هانس كاستورب قد عقد النية على قضائه في بيرغوف. وتتطلب الأشهر السبعة الأولى الصفحات المئة والستين للفصل الخامس. وتغطي الصفحات المئة والست والتسعون الخاصة بالفصل السادس عاماً واحداً وتسعة أشهر. وتستغرق السنوات الأربع والنصف المتبقية الصفحات المئة والخمس والسبعين للفصل السابع. إن هذه العلاقات العددية أكثر تعقيداً مما تبدو. من جهة يقلص زمن فعل السرد Erzählzeit باستمرار في علاقة مع زمن مادة السرد erzählte Zeit. ومن جهة أخرى، تخلق إطالة الفصول مقترنة بهذا الاختصار للسرد تأثيراً منظورياً، وهو جوهرى لإيصال التجربة الرئيسية، أي الجدل داخل البطل حول فقدانه الإحساس بالزمن، ويحتاج فهم هذا التأثير المنظوري إلى قراءة تراكمية تسمح لكلية العمل أن تبقى حاضرة في كل مرحلة من تطوراتها. والواقع إننا لن نتمكن بسبب طول العمل من إعادة تأسيس هذا المنظور إلا بإعادة القراءة.

تقودنا هذه الاعتبارات بصدد طول السرد إلى جدال أخير دفاعاً عن تأويل «الجبل السحري» كرواية زمن Zeitromon. وهو الجدل الأكثر حسماً بمعنى ما. لكنه يرمي بنا في الوقت ذاته إلى القلب من الاضطراب الذي يمر به القارئ عندما يتساءل بأي معنى وبأي ثمن تعد هذه الرواية بالفعل رواية زمن. علينا في الواقع أن نستمد العون من أقوال الكاتب ذاته، الذي أعطى نفسه امتياز التدخل في السرد - وهو أمر لا غبار عليه بصفته كذلك، وغالباً ما يسلم به روائي الماضي - . من المستحيل إغفال هذه التدخلات طالما أنها تساعد في عمل مكتوب على إبراز معالم الصوت السردى وتقديمه داخل العمل. (فضلاً عن ذلك، فاني لا استمد جدالي من تدخلات المؤلف إلا بهذا المعنى، بالنظر إلى تصميمي على إهمال المعلومات السيرية الذاتية والسيرية النفسية المتصلة بتوماس مان، التي تشجع عليها هذه المقاطعات. دون أن أنكر بهذا أن الراوي الذي يواجهنا في السرد هو المؤلف نفسه، أي

توماس مان. بالنسبة لنا يكفي أن المؤلف، وهو خارجي بالنسبة للعمل ومتوفى الآن، قد تحول إلى صوت سردي مازال اليوم مسموعاً في عمله). يمثل الصوت السردى الذي يخاطب هنا وهناك القارئ ويشرح ما يخص بطله جزءاً لا يتجزأ من كتابة النص. في الوقت ذاته، فإن هذا الصوت المتميز عن السرد بالمعنى الضيق للكلمة والمفروض من أعلى القصة السردية، يمتلك حقاً دون منازع لأن يُعطى أذنًا صاغية - مع التحفظات التي سأطرحها فيما يلي - حين يشخص السرد بأنه رواية زمن Zeitroman.

يمكن سماع أول تدخل له في الـ Vorsatz أو التقديم (وتعني حرفياً «التصميم») الذي نجده في بداية السرد. هذه الـ Vorsatz ليست مقدمة إن شئنا الدقة. إنها تفرض سلطة الصوت السردى داخل النص نفسه. والمشكلة التي يطرحها الـ Vorsatz هي تحديداً مشكلة العلاقة بين زمن فعل السرد Erzählzeit وزمن مادة السرد erzählte Zeit. وللمشكلة وجهان. سأبدأ بثانيهما الذي يستأنف جدالاً صار مألوفاً بالنسبة لنا نتيجة دراستنا للألعاب مع الزمن⁽²⁶⁾. تتعلق المسألة هنا بمدة (Dauer) القراءة. والإجابة عن هذا السؤال تأخذنا مباشرة إلى خارج مملكة الزمن التعاقبي: «فمتى كان الزمن الفعلي للسرد أو المكان الذي يشغله سبباً في طوله أو قصره؟» («الجبل السحري»، (ص5 - 6). إن مجرد الإيحاء بالملل يُلَمِّح إلى مماثلة بين زمن الكتابة وزمن التجربة التي يعكسها العمل. وحتى الرقم سبعة - سبعة أيام، سبعة أشهر، سبعة أعوام - يعمل على تقوية هذه العلاقة بين زمن القراءة - منظوراً إليه على أنه يمتد مع زمن الكتابة في حيز واحد - والزمن المروي، مع بطاقة تهكم تُعلّق على اختيار الرقم سبعة، المتختم بالرمزية الهرمسية: «لندعو الله أن لا تكون سبعة أعوام» (المصدر السابق). يقال ذلك عند الإشارة إلى الزمن الذي ستستغرقه رواية القصة من راويها وقارئها. تكمن خلف هذه الإجابة التسوية بوضوح مسألة مدى كفاءة مقاييس الزمن عند تطبيقها على تجربة البطل⁽²⁷⁾. لكن الأكثر حسماً بالنسبة لغايتنا هو الملاحظة الملفتة التي تسبق هذه التلميحات.

تعلن المقدمة Vorsatz في معرض كلامها عن الزمن أن القصة التي نؤشك على قراءتها كان لابد من روايتها من عمق الماضي (In der Zeitform der tiefsten Vergangenheit (ص5). وحقيقة أن القصة تروى بصيغة الماضي تشكل بحد ذاتها مشكلة متميزة ستكون الموضوع الشاغل في الفصل الختامي من الجزء الثالث. كما أن الحقيقة المتعلقة بالماضي المروي والقائلة: «كلما زاد الماضي كان أفضل». (المصدر السابق)، تطرح أحجية محددة، إذ بها يفقد العصر طبيعته التعااقبية: «درجة قديمها [أي القصة] لا يربطها بمرور الزمن أي رابط» (المصدر السابق). ما الذي يفرضها علينا إذن؟ يقدم لنا الراوي المتهم إجابة غامضة. ينشطر هذا القدم في ظل الظروف القائمة إلى قدم عتيق، انتهى بالنسبة لنا، وهو يخص العالم قبل الحرب العظمى، وقدم لا عصر له، يخص الخرافة (Märchen)⁽²⁸⁾. هذا التلميح الابتدائي لا يخلو من ترجيع على مشكلة تجربة الزمن التي تنتجها القصة المحكية: «يقارب المؤلف عامداً الطبيعة المزوجة الغريبة والمريبة لذلك العنصر المحير» (المصدر السابق). أية طبيعة مزدوجة؟ إنها تحديداً تلك التي ستخلق مواجهة طوال الرواية بين زمن التقاويم والساعات وزمن يتجرد تدريجياً من أية خاصية قابلة للقياس، أو حتى من أي اهتمام بالقياس.

يبدو مع هذا الاستبصار الأول أن المشكلة التي تطرحها هذه الطبيعة المزوجة للزمن تشبه تلك التي تطرحها رواية «السيدة دالوي». من حيث الخطوط العريضة: استكشاف العلاقات المتصارعة بين الزمن الداخلي والزمن التعااقبي، وقد اتسع ليتخذ أبعاد الزمن التذكاري. لكن هنالك فعليا فارق كبير بين الروائيتين. إن الكواكب التي تحركها جاذبية القطبين مختلفة تماماً في «الجبل السحري» إلى حد أنها توقع في أنفسنا الشك في اعتبار «الجبل السحري» حصراً، أو حتى أساساً رواية زمن Zeitroman. لذلك لابد لنا من سماع جانب آخر من هذا الجدل.

ابتداءً، الخط الفاصل بين «أولئك الموجودين في الأعلى» و«أولئك

الموجودين في الأسفل» يفصل في الوقت ذاته بين عالم المرض والموت وعالم الحياة اليومية؛ عالم الحياة، والصحة، والفعل. والحقيقة أن كل الموجودين في بيرغهوف مرضى، بما فيهم الأطباء، الأخصائي منهم في علاج السل والمعالج النفسي المشعوذ. يخترق هانس كاستورب فضاء تأسست فيه سلطة المرض والموت قبل وصوله. وكل من يدخله مقضي عليه بالموت. إذا غادر أحد هذا العالم، مثل يواكيم، فإنه يعود ليموت فيه. المقصود بالسحر، بغواية الجبل السحري غواية الموت، غريزة الموت. الحب نفسه أسير هذه الفتنة. في بيرغهوف، تمضي الحسية والتعفن يدا بيد. هنالك ميثاق سري يربط بين الحب والموت. إن هذا أيضاً، وربما أكثر من أي شيء آخر، يمثل سحر هذا الحيز الواقع خارج المكان والزمان. يهيمن على عاطفة هانس كاستورب نحو مدام شوشات هذا المزج بين الجاذبية الحسية والافتتان بالتحلل والموت. كانت مدام شوشات موجودة في المكان بالفعل عند وصوله. إنها، إن صح القول، جزء من مؤسسة الموت. يكون رحيلها المفاجئ وعودتها غير المتوقعة برفقة المتألق مينير بيركورن - والذي سيبتحر في بيرغهوف - انقلاب الحظ الأساس بالمعنى الأرسطي للمصطلح.

لذا ليست «الجبل السحري» رواية عن الزمن ببساطة. المشكلة بالأحرى هي كيف يمكن للرواية ذاتها أن تكون في آن واحد رواية حول الزمان ورواية حول مرض قاتل. أيتوجب علينا تأويل تحليل الزمان على أنه امتياز يحتكره عالم المرض، أم يشكل هذا العالم ضرباً من حالة - الحد بالنسبة لتجربة زمن غير مسبوق؟ إذا تبيننا الفرضية الأولى تكون «الجبل السحري» رواية عن المرض، أما إذا تبيننا الثانية فأنها تقود إلى أن هذه الرواية عن المرض هي أولاً وأخيراً رواية زمن Zeitromon.

يمكن إضافة بديل ثان لهذا الأول. تتعقد الرواية في الواقع بوساطة حضور مكوّن ثالث في سياق تطورها، يوازي تفادي الزمن والافتتان بالمرض. ذلك العنصر يتعلق بمصير الثقافة الأوربية. من خلال إخلاء مكان

فسيح للمحاورات والنقاشات والخلافات التي تتخذ من هذا المصير موضوعاً لها، ومن خلال خلق شخصيات واضحة المعالم من أمثال ستمبريني الأديب الإيطالي والمتحدث بلسان فلسفة التنوير، ونافتا اليسوعي من أصل يهودي، والمنتقد العنيد للأيديولوجيا البرجوازية، جعل المؤلف روايته خرافة أخلاقية عن انحلال الثقافة الأوروبية، حيث يرمز السحر الذي يمارسه الموت داخل حيطان مصحة بيرغهوف إلى غواية العدمية - كما كان ليبنتز ليقول - . يحول الجدل حول الثقافة هيكل الحب نفسه حتى أنه يتجاوز الأفراد، ويدفعنا إلى التساؤل إن لم يكن هذا الجدل قد استنفد بمجرياته قدرة الحب على تحقيق الانعتاق.

نساءل إذن كيف يمكن لرواية بعينها أن تكون رواية عن الزمن، ورواية عن المرض، ورواية عن الثقافة؟ ألا تتراجع خطوة موضوع العلاقة بالزمن التي بدت في البداية مهيمنة ثم ظهر إنها تفسح المجال لموضوع العلاقة بالموت، إذا ما أصبح مصير الثقافة الأوربية هو الرهان الأساس؟

يبدو أن مان حل هذه المشكلة بوساطة دمج الأبعاد الثلاثة - الزمن، المرض، الثقافة - في التجربة الفريدة (بمعني الكلمة باللغة الفرنسية: تجربة وتجريب) للشخصية المحورية هانس كاستورب. وهو بفعله هذا يكون قد أنشأ عملاً متصلاً بالتقليد الألماني الكبير لما يسمى رواية التطور الداخلي Bildungsroman، والتي مثل لها قبل قرن غوته في روايته الشهيرة «سنوات تعلم وللهلم مايستر» Wilhelm Meisters Lehrjahre. يترتب على هذا أن ثيمة الرواية هي تعلم وتطور وتربية شاب بسيط لكنه برغم ذلك «محب للإطلاع» و«مقدام» (كل هذه التعبيرات تعود إلى الصوت السردية). عندما نُقرأ الرواية على أنها قصة تدريب روحي يتركز على شخص هانس كاستورب، يصبح السؤال: بآية وسيلة نجحت التقنية السردية في دمج تجربة الزمان، والمرض القاتل، والجدال الكبير حول مصير الثقافة؟

فيما يخص البديل الأول المذكور آنفاً - أعن الزمن هذه الرواية أم عن

المرض ؟ - تتمثل التقنية السردية المعتمدة في رفع المواجهة المزدوجة مع تلاشي الزمن والافتتان بالتحلل إلى مستوى تجربة فكرية سندرس فيما بعد تحولاتها. يصبح نزع الزمنية والفساد، عبر فن السرد، الموضوع اللا مرئي لغواية البطل ونظراته. إن القصص الخيالي حصراً هو القادر على خلق الأحوال غير المسبوقة التي تستلزمها هذه التجربة الزمنية، التي هي نفسها غير مسبوقة، وذلك بوساطة غرس تواطؤ بين تفادي الزمن وجاذبية الموت. بهذه الطريقة، وحتى قبل أن ننظر في الجدل حول مصير الثقافة، فإن القصة الخاصة بالتدريب الروحي تربط رواية الزمن بالرواية عن المرض داخل إطار رواية التطور الداخلي.

البديل الثاني - مصير بطل، وحتى بطل مضاد، أو مصير الثقافة الأوربية - يُحلّ على وفق الطريقة ذاتها. إن مان من خلال جعله ستمبريني ونافتا «معلمي» هانس كاستورب، يدمج الجدل الأوربي الكبير داخل قصة مفردة هي قصة تربية عاطفية *une éducation sentimentale*. تُرفع المناقشات المطولة مع الناطقين بلسان النزعة الانسانية المتفائلة والنزعة العدمية المشوبة بكاثوليكية ميالة إلى الشيوعية، إلى مستوى موضوعات غواية وتخمين، بالطريقة ذاتها التي يُرفع بها الموت والزمن.

وتستحق رواية التطور الداخلي *Bildungsroman*، التي توضع ضمن إطارها رواية الزمن *Zeitroman* اسمها هذا لا لأن الرهان هو مصير الثقافة الأوربية، ولكن لأن هذا الجدل العابر للأفراد يُقدّم مصغراً بطريقة ما - إن أمكن أن نتكلم عن رواية تقع في حوالى سبعمئة صفحة بهذه الطريقة! - في رواية التطور الداخلي المتمركزة حول هانس كاستورب. بهذا تقع تبادلات بين هذه الأبعاد الثلاثة - الزمن، الموت، الثقافة - يصبح مصير الثقافة وجهاً من وجوه الجدل بين الحب والموت؛ بالمقابل تتخذ خيبات حب تلازم فيه الشهوة الحسية الفساد صورة «معلمين» في التقصي الروحي للبطل، نموذجاً على وفق المعلمين الذين يعتمدون اللغة وسيلتهم.

هل يعني هذا القول أن رواية الزمن تصبح في هذا المعمار المعقد مجرد وجه واحد من وجوه رواية التطور الداخلي واقفة على قدم المساواة مع الرواية حول المرض، والرواية حول الانحلال الأوربي؟ تحتفظ رواية الزمن، كما أرى، بميزة ثابتة لا تظهر إلا إذا طرحنا أكثر الأسئلة صعوبة، أي السؤال المتعلق بالطبيعة الحقيقية للتدريب الروحي الذي تحكي قصته الرواية. لقد اختار توماس مان أن يجعل بحث البطل في الزمن حجر الزاوية لكل المباحث الأخرى في المرض، والموت، والحب، والحياة، والثقافة. يُقَارَن الزمن، في نقطة معينة من القصة سأتناولها فيما بعد، بالمحرار الخالي من التدرج الذي يُعطى للمرضى المخادعين. لذلك فإنه يحمل معنى «الأخت الصامته»، - معنى شبه أسطوري، وشبه تهكمي - «الأخت الصامته» لجاذبية الموت، للحب ممزوجاً بالفساد، للاهتمام بالتاريخ الكبير. يصح القول إن رواية الزمن هي «الأخت الصامته» لملمحة الموت ومأساة الثقافة.

إن الأسئلة التي يطرحها تدريب البطل على مختلف الصعد التي تنقسم إليها الرواية، وقد تركزت بهذا الشكل على تجربة الزمن، يمكن اختصارها بسؤال واحد: هل تعلم البطل أي شيء في بيرغهوف؟ أنابغة هو كما قال البعض أم بطل مضاد؟ أم ينتمي تدريبه إلى طبيعة أدق لا صلة لها بتقليد رواية التطور الداخلي؟

تعود هنا الشكوك التي أثارها تهكم الراوي بقوة. لقد وضعت المكان المتميز لهذا التهكم في علاقة التباعد المتأسسة بين صوت سردي، نُصِب على المسرح بفخر وإلحاح وعناد، ومجمل القصة المحكية التي يظل هذا الصوت السردي يتدخل على طولها دون توقف، ويقدم الراوي بوصفه المراقب البارع لمجريات القصة التي يرويها. يبدو وكأن هذه المسافة النقدية، بصفتها مقتربا أوليا، تدمر مصداقية الراوي، وتضير أية إجابة عن السؤال إن كان البطل قد تعلم أي شيء في بيرغهوف عن الزمن، أو الحياة والموت، أو الحب والثقافة أمرا إشكاليا. لكننا بإمعان النظر نبدأ بالشك في أن علاقة

التباعد هذه بين الصوت السردى والسرد يمكن أن تشكل المفتاح الهرمنوطيقي (التأويلي) للمشكلة التي تطرحها الرواية نفسها. ألا يحتمل أن للبطل في غمرة جداله مع الزمان، العلاقة نفسها التي للراوي مع القصة التي يرويها؟ أي علاقة مسافة تهكمية؟ ألا يُحتمل أنه، وهو الذي لم يقهره المحيط المرضى، ولم يحقق نصرا غوتيا عبر الفعل، ضحية، لا ينمو إلا في عالم الوضوح والطاقة التأملية؟

إن هذه هي الفرضية القرائية هي التي يلزم اختبارها ونحن نراجع الفصول السبعة التي تكوّن «الجل السحري» للمرة الثانية⁽²⁹⁾.

تبدأ الرواية كما يلي: «انطلق شاب لا يكاد يلفت النظر لبساطته عند منتصف الصيف في رحلة من مدينته هامبرغ إلى دافوس - بلاتز في كانتون غريسونز في زيارة تستغرق ثلاثة أسابيع». (ص3) تجد رواية الزمن مكانها المناسب بمجرد ذكر الأسابيع الثلاثة⁽³⁰⁾. لكن هنالك ما هو أكثر. مع إعادة القراءة يصبح التعرف على الصوت السردى ممكنا منذ الوصف الأول للبطل بوصفه شاباً «لا يكاد يلفت النظر لبساطته» (einfach) وهو ما يجد صدًى له في السطور الأخيرة من الرواية التي يأمر الراوي فيها بطله دون تهيب قائلاً: «إن مغامرات الجسد وتلك التي في الروح، بينما هي تعزز (steigerten) بساطتك، فإنها تهب لك أن تعرف في الروح ما كان سيتعذر عليك فعله في الجسد» (ص716) فضلاً عن هذا، فإن التهكم في هذا الصوت تخفيه هذه الملاحظة الظاهرة: «انطلق... في زيارة تستغرق ثلاثة أسابيع». بإعادة القراءة سنجد أن هذه الأسابيع الثلاثة تطرح تبايناً مع الأعوام السبعة التي تصرّمت في بيرغهوف. هنالك إذن سؤال مضمّر في هذه البداية البريئة: ما الذي سيحل ببساطة بهذا الشاب عندما يتمزق مشروعه إرباً إرباً وبوساطة المغامرات التي انطلق فيها هو نفسه؟ نحن نعلم أن طول مكثه سيوفر الحافز الدرامي لمجمل السرد.

يستفيد الراوي في هذا الفصل الأول ذاته، للمرة الأولى من العلاقة

المكانية ليدل بها على العلاقة الزمانية: ابتعاده عن مدينته الأم يؤدي وظيفة النسيان. «نقول إن الزمن هو اللث»^(*)، لكن تغيير المكان يمثل تحويلاً مماثلاً، فإذا كان فعله أقل شمولاً فإنه يتم بسرعة أكبر، (ص4) يحمل هانس كاستورب عند وصوله إلى بيرغهوف رؤيا الزمن في الأسفل. والحوار الأول بين هانس وابن عمه يواكيم، الذي اكتمل تأقلمه مع الزمن في الأعلى، يأتي إلى الواجهة بالتناظر بين الطريقتين في الوجود، أسلوب الحياة. لا يتكلم هانس ويواكيم اللغة ذاتها عند الحديث عن الزمن. لقد فقد يواكيم دقة المقاييس فعلاً: «بالنسبة لهم تشبه ثلاثة أسابيع يوماً واحداً ... لا بد وأن يبدل المرء أفكاره بمرور الزمن» (ص7) بهذا يتولد توقع لدى القارئ. لن يؤدي الحديث كما هو هنا وظيفة إجراء بسيط يُظهر على مستوى اللغة الفارق بين طرق إدراك الزمن وتجربته فقط، بل سيكون الوسيط المتميز في تدريب البطل⁽³¹⁾.

يتألف اليوم الثاني برمته، ويحكي وقائعه الفصل الثالث، من أحداث صغيرة كثيرة يعقب بعضها بعضاً. يبدو وكأن وجبات الطعام تتعاقب دون استراحة، ونكتشف جمعاً متنوعاً من الناس خلال برهة قصيرة من الزمن تبدو في آن واحد حافلة مزدحمة، ومقسمة بدقة بوساطة المسيرات، وجلسات المحرار، وفترات الراحة. كما إن الراوي يعرض في مرحلة مبكرة الأحاديث مع يواكيم، ثم مع المعلم الأول، ستمبريني، وهي تفاقم من تضاربات اللغة التي لُمع إليها في اليوم السابق، يوم «الوصول». ويندهش هانس كاستورب لتقريبية يواكيم الغامضة⁽³²⁾. يدافع في لقائه الأول مع ستمبريني عن بقاءه «ثلاثة أسابيع»⁽³³⁾ لكن النقاش مع ستمبريني يتناول منذ البداية قضية مختلفة عن الحديث مع يواكيم. يشكل سوء الفهم منذ البدء البداية لبحث، لتقصي «وستمبريني على حق حين يقول، «الفضول هو احد

(*) اللث هو نهر النسيان في هيدس - على وفق الاساطير اليونانية - المترجم.

الامتيازات المكرسة بالتقادم للظلال»^(*) (ص 58). يقدم المقطع المعنون *Gedankenschärfe* «جمناسك عقلي» (أو «جلاء الفكر») التمهيد لنظر سيحاول فن السرد دون كلل إضفاء السردية عليه. في مشهد المحرار تتهاوى ثقة هانس بنفسه، ولكن ليس يقظته. ألا تُقاس الحرارة في ساعات بعينها ولمدة سبع (سبع!) دقائق!⁽³⁴⁾ يتشبه هانس بتنظيم ما يمكن أن يسمى «الزمن السريري»؛ لكن هذا على وجه التحديد هو ما ينأى به عن الزمن. يتخذ هانس في الأقل الخطوة الأولى نحو جلاء الفكر بعزله الزمن كما يبدو لـ «الشعور» (*Gefühl*) عن الزمن الذي يقاس بالعقارب أثناء دورانها على قرص الساعة (ص 66). إنها دون شك اكتشافات قليلة الأهمية، لكن لا مناص من أن تنسب برغم ذلك إلى جلاء الفكر⁽³⁵⁾؛ حتى وإن غمرت الحيرة كل شيء⁽³⁶⁾. لا يخلو من أهمية بالنسبة لتربية بطلنا انه رأى في البداية إضاءة مفاجئة تتعلق بما يمكن أن تكون حقيقة الزمن في حلم. كيف يقدم الزمن نفسه؟ بصفته «الأخت الصامته»، عمودا من الزئبق يخلو من التدرج لاستخدام «أولئك الذين حاولوا الغش» (ص 92) يكرر مشهد المحرار ويُلقى في آن واحد. تختفي الأرقام من المحرار. يختفي الزمن العادي، كما في ساعة تتوقف عن إخبارنا الوقت. ينتمي الحلمان المنقولان، بما يطبعهما من «البهجة الغامرة والتشويق»، إلى سلسلة «اللحظات السعيدة» - بالمصطلح البروستي - التي تمثل علامات في مسار تقصيه، وإليها تحوّل السطور الأخيرة من الرواية اهتمامنا في قراءة ثانية: «كان ثمة لحظات، جاء إليك فيها من داخل الموت وثورة الجسد، بينما أنت تقلّب وجوه حالتك التي تحكمها [ahnungsvoll und regierungsweise]، حلم بالحب» (ص 716). صحيح أن هذا الحلم ليس بعد احد تلك الأشياء التي يصح القول إن البطل «يقلّب وجوها ويحكمها» لكنه في الأقل يشير إلى فضول كاف، برغم انه

(*) يصف ستمبرني نزلاء المصح بـ «الظلال» في هذا الحوار - المترجم.

أسير الجاذبية الشهوانية التي مارستها كلوديا شوشات، لأن يجعله يقاوم نصيحة ستمبريني بالمغادرة: «تكلم بإصرار مفاجئ» (ص. 87).

يتواصل إلغاء الإحساس بالزمن وباللغة التي تناسبه في الفصل الرابع الطويل الذي يغطي الأسابيع الثلاثة التي قصد هانس كاستورب إلى قضائها كزائر بسيط في بيرغهوف. يُسهّم اضطراب الفصول في خلط نقاط الإحالة المشتركة على الزمن، بينما المناقشات السياسية والثقافية المطولة مع ستمبريني تتواصل (لم يكن نافعا قد ظهر بعد). بالنسبة لقراءة أولى تميل هذه المناقشات المطولة إلى جعلنا نغفل عن التجربة الزمنية للبطل، وإلى إيجار رواية التطور الداخلي على الخروج من تخوم رواية الزمن. في قراءة ثانية، يتضح أن الدور المنسوب إلى "Exkurs über den Zeitsinn" أو «العرض المستفيض بصدد معنى الزمن» (ص ص 105 - 102) هو إعادة إدراج الجدال الكبير حول مصير الثقافة الأوروبية داخل تاريخ تعلم البطل، وبهذه الطريقة ضمان التوازن بين رواية الزمن ورواية التطور الداخلي. هنالك تعبير واحد يمكن أن ينفعنا كنقطة ارتكاز في هذه التسوية الدقيقة التي هي من عمل الراوي وحده: «التأقلم»، «تعويد النفس»، «diesem Sicheinleben an fremden Ort» (ص ص 104 - 103)، بصفتها ظاهرة ثقافية وزمنية في آن واحد⁽³⁷⁾. ينطلق الاسترسال من هنا ليتناول تأملات الراوي نفسه في الرتبة والملل. فيتقرر أن من الخطأ القول إن هذه الانطباعات تبطئ مسار الزمن. على العكس «صحيح أن للفراغ والرتابة خاصية الإبطاء من حركة اللحظة والساعة وجعلهما باعثتين على الضجر. لكنهما تقدّران على ضغط وتبديد وحدات الزمن الكبيرة، بالغة الكبر، حد اختزالها إلى عدم مطلق» (ص 104). يسلب اثر التقصير والتمديد المزدوج هذا فكرة طول الزمن من تماسك المعنى ولا يسمح إلا بإجابة واحدة عن السؤال، كم من الوقت؟ هي «لوقتٍ طويل جداً». (ص. 105).

بدلاً من ذلك نجد أن النبذة الغالبة على «العرض المستفيض» هي

التحذير. «هنالك في نهاية المطاف شيء خاص في عملية تعويد النفس على مكان جديد، إنها غالباً ما تكون تطابقاً وتعوداً، ينتكها المرء لذاتها، مدفوعاً بعزم على إيقافها ما أن تكتمل دون أي تأخير، والعودة إلى حالته السابقة» (ص. 103 - 104). عندما يتعلق الأمر بشيء يختلف تماماً عن الخروج على المؤلف، استراحة في مسار الحياة العام، فإن الرقابة التي لا يعتورها أي شيء تهدد بسلبنا الوعي بالمدة نفسه. «فإدراك الزمن وثيق الصلة بوعي الحياة إلى درجة أن أحدهما لا يمكن أن يتعرض للوهن دون أن يعاني الآخر من تلف محسوس». (ص. 104). لا يخلو تعبير «وعي الحياة» "Lebensgefühl" من تلميح تهكمي واضح. ومع ذلك فإن الراوي يشير، وهو ينسب أفكاراً مماثلة لبطله، إلى أنه لا يملك ببساطة إلا القليل مما يتفوق به على كاستورب في السعي إلى جلاء الفكر⁽³⁸⁾. لا يخدم فضول البطل أبداً، حتى وهو يجرب في بعض الأحيان الرغبة في «الهرب لحين من حلقة [Bannkreis] بيرغهورف ليعب الهواء الطلق إلى عمق رثتيه» (ص 117).

تسهم أيضاً في طمس الزمن، الذي يعد البطل جزئياً ضحيته الجلية، الأحداث المتعلقة بالشبح في حالة حلم اليقظة عن بريسلاف هب Hippe التلميذ صاحب قلم الرصاص الذي تتحول عيناه ومظهره إلى كلوديا شوشات. بسبب الطبيعة الرمزية اللازمة قلم الرصاص الذي يُستعار ثم يُعاد⁽³⁹⁾ (بما يوفر للراوي نهاية غامضة لأحداث ليلة فلبرغس Walpurgisnacht، التي سأناقشها لاحقاً) فإن هذا الحدث الذي يسميه ثيربرغر Thieberger «الللحن الحلمي الفاصل» Vertraumte Intermezzo، يظهر على السطح مرة أخرى عمق الزمن المتراكم، الذي فحص فعلاً عبر العودة إلى الماضي في الفصل الثاني؛ وهو عمق يمنح بدوره اللحظة الراهنة امتداداً لانهاياً من نوع ما» (ص. 122). فيما بعد، ستقوم سلسلة الأحلام الخاصة بالأبدية على هذا العمق.

أحس هانس، حتى قبل أن تنقضي الأسابيع الثلاثة المخطط لها، أن

«تجدد إحساسه بالزمن» قد بدأ يبهت، ومع ذلك بقيت الأيام التي كانت تتطير حوله تمتد «طويلة وأطول لتستوعب الآمال والمخاوف المزدحمة الخفية التي كان يطفح بها [أي اليوم الواحد - م]» (ص. 141). وظل ميله إلى كلوديا واحتمال المغادرة يمنح الزمن حركة وتوتراً⁽⁴⁰⁾. ومع ذلك، عندما لاحت نهاية الأسابيع الثلاثة كانت الأفكار التي عبر عنها يواكيم عندما التقيا قد تغلبت على هانس كاستورب. «ثلاثة أسابيع في الأعالي هنا لا تعني شيئاً البتة؛ هكذا قال له الجميع في البداية. اصغر وحدة زمنية كانت الشهر» (ص. 162) ألم يكن الأسف قد بدأ يساوره لأنه لم يكرس وقتاً أطول لهذه الزيارة؟ ألم يقع فريسة للجبل السحري، كما هو حال بقية المرضى، عندما وافق على المشاركة في «جلسات المحرار» (وهو عنوان فرعي مهم في الفصل الرابع) (ص. 161)؟⁽⁴¹⁾

ما أن «يتعود» هانس كاستورب حتى يصبح برغم ذلك مستعداً للتجربة الأولى مع الأبدية، التي يفتح بها الفصل الخامس، وهو أطول من الفصل السابق عليه. لقد فرض الراوي سيطرته منذ البداية لكي يعود إلى السؤال الذي أثير في «التقديم» Vorsatz حول طول الرواية. فيقرر صوت الراوي: «نفهم أن الأسابيع الثلاثة القادمة ستنتهي ويمر ذكرها بطرفة عين». (ص. 183). هنا تسهم الغرابة التي تعزى إلى العلاقة بين زمن فعل السرّ Erzählzeit وزمن مادة السرّ erzählte Zeit في إبراز معالم غرابة تجربة البطل ذاتها في القصة. يقال إن قوانين السرّ تستدعي توسع تجربة الزمن الخاصة بالكتابة والقراءة أو انكماشها حسب مغامرة البطل، ولكن الآن وقد انتصر قانون أولئك الموجودين في الأعلى، فإن كل ما تبقى هو أن يدفن المرء نفسه أعمق في كثافة الزمن. ليس ثمة شهود من العالم في الأسفل. لقد استأصل زمن الشعور زمن الساعة. لذا فإن لغز الزمن يفتح أمامنا بما يبعث فينا الدهشة (ترد الكلمة مرتين ص. 183).

لا يحتوي الحدثان Ewigkeitssuppe und plötzliche Klarheit «الحساء

الابدئي» و«التنوير المفاجئ» (ص ص 183 - 219)، على أي من «المعجزات» المعلن عنها، إن توخينا الدقة، وإنما بالأحرى الأرضية - وحتى تحت الأرضية - التي ستبرز على مهادها «المعجزات». إن هذه الأبدية ذاتها هي أبدية غريبة فعلاً. ومرة أخرى يكون الصوت السردى هو القائل عن سلسلة الأيام هذه المتشابهة كلها، التي تمضي في الفراش؛ «يأتونك بمرق منتصف النهار، كما جاءوا به أمس وكما سيأتون به غداً... وما ينكشف لك بوصفه المحتوى الحقيقي للزمن لا يعدو كونه حاضراً لا أبعاد له يأتونك فيه بالمرق أبداً. لكن من المفارقة في هذا الخصوص الكلام عن الزمن بصفته يمر ببطء؛ والمفارقة، عندما يتعلق الأمر ببطل كهذا، هي ما يجب أن ننفاده». (ص ص 183 - 184). ليس من شك في النبوة التهامية. لكن لهذه الإشارة أهمية قصوى. على القارئ الاحتفاظ بها ماثلة في عقله خلال زمن إعادة القراءة التراكمي الذي يستلزمه على نحو خاص هذا النوع من الروايات. لابد أن يبقى معنى «الحساء الأبدى» معلقاً حتى تأتي الإجابة عن طريق تجربتين أخريين للأبدية، هما تجربة «ليلة فلبرغس» في نهاية الفصل نفسه، وتلك الخاصة بمشهد «الثلج» في الفصل السابع.

إن العنصر السردى الذي يتيح للراوي إصدار هذا التعليق هو حالة هانس كاستورب الجديدة، بأوامر من الدكتور بهرين، منطرحاً على ظهره في فراش موت المريض السابق. تمر ثلاثة أسابيع من هذه الأبدية مسرعة في عشر صفحات. وكل ما يهم هو ذلك «الحضور الدائم لساعة منتصف النهار تلك» (ص. 190)، التي يعبر عنها ركام من الإشارات حول الزمن. لا يعرف المرء أي الأيام هو فيه؛ لكنه يعرف أي الأوقات هو في «يوم، يُقَصَّر صناعياً، ويُجَزَأ إلى قطع صغيرة» (ص. 192) ويُعطى ستمبريني الفرصة للإلقاء خطاب - بنبرة الرجل الأديب، والسياسي الانساني - عن العلاقة التي تربط كل شيء، بما في ذلك الدين والحب، بالموت. ثم تقدم أشعة اكس باقتضاب التشخيص القاتل: أن هانس كاستورب هو فعلاً ضحية حية للمرض

والموت. إن منظر ذاته الطيفي على شاشة الدكتور بهرين المضاءة تصوير سبقي لتحلله، نظرة تمتد إلى داخل ضريحه. «بعيون ثاقبة نبؤية حدّق في هذا الجزء المألوف من جسده، ولأول مرة في حياته فهم أن احتمال موته قائم» (ص 219).

يقف آخر وصف دقيق للزمن - مرة أخرى عبر تهكم الراوي - عند أسابيع سبعة، هي الأسابيع السبعة التي كان هانس كاستورب قد عقد العزم على أن يمضيها في بيرغهوف، والراوي هو من يقدم هذا الوصف (ص. 219). لا يخلو من الأهمية أن هذا الإحصاء - تحصى ستة أسابيع حتى أعياد الميلاد، وسبعة حتى «الليلة» الشهيرة - يُدرج تحت عنوان الفصل الفرعي Freiheit «الحرية» (ص. 219). لا يمكن عزل التقدم المتحقق في تربية هانس كاستورب عن النصر على آخر وخزة قلق بصدد الزمن المؤرخ. ويبقى أهم من ذلك حقيقة أن بطلنا يتعلم أن ينأى بنفسه عن معلمه الإيطالي بينما هو ينأى بنفسه عن الزمن⁽⁴²⁾. لكنه لن يحرر نفسه منه حتى يفلت من عدمية «الحساء الأبدي»، والتي لا تكف بدورها عن ترك بصمتها المرضية على الحب، المختلط بالمرض والموت⁽⁴³⁾.

من هنا فصاعداً تتلون تربية هانس كاستورب بمسحة تحرير عن طريق الزمن الفارغ (ص ص. 287 - 288). هنالك قسم فرعي آخر في هذا الفصل الطويل، وفي سياقه يخرج الزمن عن نقاط إحالته حين يتجاوز الأسابيع السبعة، بعنوان Forschungen «بحث» (ص ص. 267 - 286). وهو مثقل باستطرادات جليلة في التشريح والحياة العضوية والمادة والموت، مزيج الشهوانية والمادة العضوية، الفساد والخلق. وبرغم أن هانس كاستورب مولع بقراءة علم التشريح، فانه يحصل بنفسه دون عون من أحد على تعليمه في موضوعة الحياة في علاقتها بالشهوانية والموت، تحت شعار الهيكل العظمي للبدن كما تظهره أشعة أكس. لقد صار هانس كاستورب راصداً كما هو شان الراوي. يعقب «بحث»، Totentanz «رقصة الموت» (ص ص. 286 - 322)؛

ثلاثة أيام من الاحتفال بمناسبة عيد الميلاد، حيث لا يخترق المكان أي شعاع من ضياء ولادة السيد المسيح، ولا يؤشرها إلا تأمل جثمان «الجتلمان الفارس»^(*). هاهي ذي طبيعة الموت المقدسة والبذية التي كان قد لمح جانباً منها أمام رفات جدّه تفرض نفسها مرة أخرى. ومهما كان مروّعاً الحافز الذي يدفع هانس كاستورب من سرير شخص محتضر إلى آخر، فإن ما يحركه هو الحرص على تكريم الحياة، طالما بدا له التقدير المقدم للميت السبيل الضرورية لهذا التكريم (ص. 296). ليس بوسع «طفل الحياة الرقيق» بعبارة ستمبريني الجميلة، إلا أن ينشغل بـ «أطفال الموت» (ص. 388). لن نقدر عند هذه المرحلة على البت إن كان هانس كاستورب في خضم هذه التجربة التي تغيّره سجين أولئك الموجودين في الأعلى أم هو يحث الخطى إلى الحرية.

وسط هذه الحالة القلقة، حيث تميل جاذبية المروّع إلى أن تشغل المكان الذي تحرر بوساطة طمس الزمن، وقبل بضعة أيام من انتهاء الشهر السابع من إقامته - إن توخينا الدقة في أمسية ثلاثاء الرماد (اليوم الأخير قبل بدء الصوم) Mardi Gras، أي في زمن احتفالي - تتغلب على البطل التجربة المخارقة التي وضعها الراوي المتهمك تحت عنوان «ليلة فلبرغس» (ص. ص 322 - 343). وهي تبدأ بـ «أنت» البعيدة عن الرسمية التي يخاطب بها هانس كاستورب، وهو نصف مخمور، ستمبريني الذي لا يفوته أن يرى في هذا علامة على تحرر «تلميذه» - «يبدو ذلك أشبه بالوداع» (ص. 329) -، وتصل الذروة في الحديث الذي يشارف الهذيان مع كلوديا شوشات، في وسط «غرائب المرضى المقتنعين» (ص. 335)⁽⁴⁴⁾.

تحدث في أعقاب هذا الحديث البارع والاضطراري، الذي يتمحور على استخدام صيغة «أنت» الأليفة ويبدأ وينتهي بقلم الرصاص معارفاً ومعاداً

- قلم هبه! -، تحدث رؤيا حُلُمية، حاملة معها إحساسا بالأبدية، أبدية تختلف تماماً، بالتأكيد، عن «الحساء الأبدي»، لكنها أبدية في حلم برغم ذلك.

«مثل حلم عميق جداً، لأن علينا أن نحلم بعمق كي تأتينا أحلام على هذا الشكل. أود أن أقول إنه حلم معروف جداً، حلم الناس به في كل الأزمنة، حلم مديد أبدي، أجل. إن الجلوس قربك كما هو حالي الآن هي الأبدية بعينها».

إنه حلم أبدية يكفي إعلان كلوديا عن رحيلها الوشيك، الذي يكون له وقع الزلزال، لتبديده. ولكن هل يمكن أن تكون كلوديا الداعية إلى تحقيق الحرية عبر الخطيئة والخطر وفقدان الذات، قد مثلت لهانس أي شيء مختلف عن سيرينيات (جنيات بحر) يوليسيس، عندما طلب أن يُشد وثاقه إلى صاري سفينة ليقاوم غواية أغانيهن؟ إن الجسد والحب والموت مشدود بعضها إلى البعض الآخر بقوة المرض والشهوانية، الجمال والفساد، تمتزج هي أيضاً امتزاجاً كلياً إلى حد يتعذر معه دفع ثمن فقدان الإحساس بالزمن القابل للعد، بدوره، بوساطة شجاعة العيش التي تمثل هذه الخسارة ثمناً لها⁽⁴⁵⁾. لا تعدو تكملة الحساء الأبدي حلماً بالأبدية، أبدية كرنفالية هي ليلة فلبرجس!

يوفر تأليف الفصل السادس، الذي يحتل بذاته أكثر من نصف القسم الثاني من «الجبل السحري»، إيضاحاً جيداً للفرق ليس بين زمن فعل السرد وزمن مادة السرد فقط، ولكن بين الزمن المروي وتجربة الزمن التي يسقطها الفن القصصي أيضاً.

على مستوى الزمن المروي، يتعزز الإطار السردى بوساطة التبادلات، التي تزداد ندرة ودرامية، بين أولئك الموجودين في الأعلى وأولئك الموجودين في الأسفل، وهي تبادلات توفر في ذات الوقت صورة لانقضاخ الزمن العادي على الامتداد اللازماني الذي هو القدر المشترك في

بيرغهوف. يفلت يواكيم بعودته إلى مهنته العسكرية من المصح. ويظهر نافتا في القصة، وهو المعلم الثاني - اليسوعي من أصل يهودي، الفوضوي والرجعي في آن واحد - ليضع نهاية للحوار المباشر بين ستمبريني وهانس كاستورب. يحاول العم الكبير من هامبورغ، ممثلاً عن أولئك في الأسفل، انتزاع ابن أخيه من غوايته دون جدوى. ثم يعود يواكيم إلى بيرغهوف ليموت فيه.

من كل هذه الأحداث يطفو على السطح حدث واحد هو Schnee، «الثلج» (ص ص . 469 - 498)، وهو وحده الذي يستحق أن يدخل ضمن سلسلة لحظات الحب وأحلامه التي يشار إليها في السطور الأخيرة من الكتاب، «لحظات حرجة» (Augenblicke)، تبقى تمثل قمماً متباعدة يبلغ عليها الزمن المروي وتجربة الزمن معاً الذروة. والحال أن فن التأليف برمته يسعى إلى إنتاج لقاء القمة هذا بين الزمن المروي وتجربة الزمن.

قبل بلوغ هذه القمة، تمدّ تأملات هانس كاستورب في الزمن - التي تتسع بإضافة تأملات الراوي إليها - إطار السرد الذي رسمنا خطوطه للتو إلى نقطة الانفجار، كأنما قصة هذا التدريب الروحي لا تكف عن تحرير نفسها من ربة العوارض المادية. فضلاً عن ذلك فإن الراوي هو من يحتل المشهد الأول، محاولاً بمعنى ما مساعدة بطله على تنظيم أفكاره، وهكذا نجد أن تجربة الزمن قد قطعت شوطاً بعيداً، عبر تفاديها التتابع الزمني وتزايد عمقها، باتجاه التبعر إلى منظورات لا سبيل إلى التوفيق بينها. بخسارة هانس كاستورب الزمن القابل للقياس يكون قد بلغ المعضلات ذاتها التي أوضحها نقاشنا لظاهراتية الزمن لدى أوغسطين بصدد العلاقات بين زمن النفس والتغير الفيزيقي. «ما الزمن؟ لغز، بدون حقيقة تخصه وذو قوة كلية. إنه يكيف العالم الخارجي، انه الحركة وقد اقترنت مع وجود الأجسام في المكان وامتزجت به، ومع حركتها». (ص . 344). لذلك ليس الزمن الداخلي، إن توخينا الدقة، هو ما يطرح مشكلة، ما أن يُفك ارتباطه بالقياس، ولكن استحالة التوفيق بينه وبين الأوجه الكونية للزمن، تلك التي بدلا من ان

تختفي مع اختفاء الاهتمام بمرور الزمن، يصار إلى تمجيدها على نحو متصاعد. ما يشغل هانس كاستورب هو تحديداً التباس الزمن؛ دائريته الأزلية وقدرته على اجترار التغيير. «الزمن فقال، يمكن الإشارة إليه على أنه فعل: نحن نقول إن شيئاً ما «أحدثه الزمن». أي نوع من الأشياء؟ التغيير!» (المصدر السابق). إن الزمن لغز لأن الملاحظات التي تنتج عن النظر فيه لا يمكن توحيدها. (وهذا، بالنسبة لي، هو بالضبط ما يمثل أحجية لا سبيل إلى تجاوزها. وهذا هو ما جعلني أسارع إلى إعطاء الراوي العذر لما يبدو من همسه أفكار هانس كاستورب له.)⁽⁴⁶⁾ كم ابتعدت الرواية عن القصص البسيط المتعلق بطمس الزمن القابل للقياس! إن ما حرره هذا الطمس بمعنى ما هو التقابل بين الأبدية الثابتة والتغيرات المتولدة، سواء أكانت المسألة تتعلق بالتغيرات المرئية للفصول وظهور حياة نباتية جديدة (صار هانس كاستورب يوليها اهتماماً جديداً) أم بتغييرات عميقة الغور يجربها في نفسه - برغم الحساء الأبدي - بفضل انجذابه الشبقي إلى كلوديا، ثم في زمن الاكتمال في ليلة فلبرغس، والآن في انتظار عودتها. إن اندفاع هانس كاستورب العاطفي نحو علم الفلك، الذي صار يحل الآن محل اهتمامه بعلم التشريح، سيمنح من الآن فصاعداً تجربة الزمن المملة أبعاداً كونية. يضيف تأمل السماء والنجوم على حركتها نفسها ثباتاً ينطوي على مفارقة، ويتاحم تجربة نيتشه الخاصة بالعود الأبدي. ولكن ما الذي يمكن أن يقيم جسراً بين أبدية حلم ليلة فلبرغس، والأبدية موضوع التأمل الخاصة بثبات السماوات؟⁽⁴⁷⁾

يتواصل تعليم هانس كاستورب اعتباراً من هذه النقطة بوساطة اكتشاف التباس التفكير، في غمرة اضطراب المشاعر وعبره⁽⁴⁸⁾. وليس هذا الاكتشاف مجرد تقدم طفيف إذا ما قورن مع ركود ضيوف بيرغهوف في اللا زمن البسيط. لقد اكتشف هانس كاستورب الأزلي في ما لا يقبل القياس؛ «لمدة ستة أشهر طويلة عجيبة برغم تسارعها» (ص 346).

يضمن الراوي هذا التغيير العميق في تجربة الزمن داخل سلسلة

الأحداث التي تشكل الزمن المروي في الرواية. من جهة، يوفر انتظار عودة كلوديا مناسبة لتدريب آخر، هو المصابرة في مواجهة الغياب. صار هانس كاستورب قوياً الآن بما يكفي لتمكينه من مقاومة إغواء مغادرة الجبل السحري مع يواكيم. لا، لن يغادر معه، لن يهرب ليعود إلى الأرض المسطحة: «لوحدي لن أجد طريق العودة أبداً» (ص. 416). لقد أنجزت الأبدية الثابتة عملها السلبي في الأقل؛ إذ هو تجرد من الحياة. إن هذا العبور بوساطة السلبي يكون انقلاب الحظ المركزي في رواية التطور الداخلي، وكذلك في رواية الزمن Zeitroman. وهجمة العم الكبير تينابل، الذي جاء من هامبورغ ليضع تاريخاً محدداً لعودة الابن الضال، والتي قوبلت بالصد، لا تفعل بدورها إلا أن تحوّل المصابرة، التي تبقى الإجابة المتوفرة الوحيدة لفعل الغرور الأبدي المدمر، إلى عناد. في أعقاب هذا، أصر هانس رهينة الدكتور بيهرنز وأيديولوجيته الطبية، والتي تكرر عقيدة المرض والموت المهيمنة في بيرغهوف فقط؟ أم هو بطل جديد لغنوص الأبدية والزمن؟ يحرص الراوي على صقل هذين التأويلين كليهما بعناية. لقد جرد هانس كاستورب نفسه بالتأكيد من الحياة، وهذا الأمر يجعل تجربته ماثراً شك لا محالة. بالمقابل، فإن مقاومته للهجمات من الأرض المنبسطة «كانت تعني بالنسبة له اكتمال الحرية؛ والتي صارت فكرتها على نحو تدريجي عاجزة عن بث الرعدة فيه» (ص. 440)⁽⁴⁹⁾.

يجرب هانس كاستورب هذه الحرية أساساً مع ناصحيه ستمبريني ونافتا. لقد كان الراوي موفقاً كل التوفيق في تقديم نافتا في النصف الثاني من سرده، إذ هو منح البطل بذلك فرصة الاحتفاظ بمسافة متساوية بعيداً عن معلّميه اللذين لا سبيل إلى التوفيق بينهما، وبهذه الطريقة الوصول خطوة خطوة إلى المنزل العليا التي ظل الراوي يحتلها على نحو ظاهر منذ «التقديم». لا يقل الإغراء الذي يمثله نافتا عن ستمبريني ونزعت الإنسانية المتفائلة. إن لاستطرادات نافتا، التي لا يرى فيها ستمبريني إلا صوفية موت

وقتل، صلة خفية مع درس الرسالة التي تركتها كلوديا في ليلة فلبرغس المعروفة. فإذا لم يكن يتكلم عن الخلاص بوساطة الشر، فإن من تعاليمه أن الفضيلة والصحة ليستا حالتين «دينيتين». إن لهذه المسيحية الغربية ذات الصبغة النيتشوية - أو الشيوعية⁽⁵⁰⁾، والتي ترى «أن تكون إنسانا يعني أنك معتل» (ص. 465) تلعب في رواية تربية هانس كاستورب دور غواية شيطانية، الانزلاق بعيداً في السليبي كما عبّر عنه «الحساء الأبدي». لكن حظ هذه الغواية من النجاح لم يعد يفوق حظ بعثة الأرض المنبسطة في إيقاف التجريب المندفَع للبطل.

الأحداث المعنونة Schnce «الثلج» (ص ص. 469 - 498)، والتي نصل إليها ألان، هي الأكثر حسماً منذ «ليلة فلبرغس»، وهي تدين بتميزها لحقيقة أنها تعقب مباشرة الأحداث الخاصة بمناورات نافتا الشيطانية (وهي ترد على نحو دال وتهكمي تحت عنوان «تمارين روحية» Operations Spirituales). كما إن من المهم ملاحظة أن هذه الأحداث تتخذ مكاناً لها فانتازيا صور الفضاء الجليدي، الذي يتجاوب، على نحو غريب، مع ساحل البحر؛ «كانت رتابة المشهد في الحالتين عميقة» (ص. 473). إن الجبل الذي حوّل الجليد إلى يباب أكثر من مجرد مكان للمشهد الحاسم. إنه المساوي المكاني للتجربة الزمنية ذاتها. يوحد «الصمت البدائي» Das Urschweigen (ص. 476) المكان والزمان في نظام رمزي واحد. فضلاً عن ذلك، فإن المواجهة بين الجهد الإنساني والطبيعة وما تنصبه من عقبات في الطريق تؤشر رمزياً وعلى نحو دقيق تغير مستوى التعبير في العلاقة بين الزمان والأبدية، أي بين العمودين الروحانيين للحدث⁽⁵¹⁾. وينقلب كل شيء، عندما تتحول الشجاعة إلى تحدٍ؛ «رفض لكل ضروب الحذر، باختصار... تحد». (ص. 481)، تحضر المقاتل، الذي أسكره التعب (وخمر بورتو)، رؤيا أوراق شجر وسماء زرقاء، أغنية الطيور، وضوء الشمس: «هكذا الآن، مع هذا المشهد أمامه، يتحول ويغتر مظهره باستمرار أمام عينيه [Sich öffnete in Wachsender Verklarung] (ص. 490). من المؤكد أن تذكر البحر المتوسط، الذي لم يره

من قبل قط، لكنه ظل «دائماً» (Von je) يعرفه (المصدر السابق)، لا يخلو من رعب - المرأتان العجوزان تقطعان أوصال طفل على حوض، بين موقدين ملتئمين! - كما لو أن للقيح صلة وثيقة ومباشرة بالجميل. كما لو أن اللا عقل والموت جزء من الحياة؟؛ «لا تكون حياة بدون» (ص . 496) في أعقاب ذلك لن يجد هانس في نفسه حاجة إلى معمله. انه يعلم . ماذا يعلم؟ «من اجل الطيبة والحب، لن يسمح الإنسان بأن تكون للموت سطوة على أفكاره». (ص ص . 496 - 497، التأكيد في الأصل) .

وهكذا يجد حلم الأبدية في «ليلة فلبرغس»، وثيق الصلة بعقيدة المرض والموت، الإجابة عليه في أبدية أخرى، في «دائماً» تكون في آن واحد المكافأة على شجاعة العيش والأصل لها.

لذا فإن عودة يواكيم إلى بيرغهورف قليلة الشأن، وكذلك حقيقة أن لهذه العودة شكل انعدام الوزن الزمني نفسه الذي اتسم به وصول هانس في الماضي. يمكن للنزاعات بين ستمبريني وناقنا أن تتواصل مستعرة حول موضوعات الخيمياء والماسونية الحرة، لكن ثمة علاقة جديدة مع عالم المرض والموت تتأسس، معلنة تغيراً خفياً في العلاقة مع الزمن نفسه. ويشهد على ذلك حدث موت يواكيم نفسه. يرعى هانس الرجل المحتضر دون إعراض أو انجذاب، ثم يغمض عينيه عندما يموت⁽⁵²⁾. لقد جاء فقدان الشعور بطول الوقت المنصرم واختلاط الفصول بهذه اللامبالاة تجاه مقاييس الزمن - «لأننا أضعنا الزمن، الزمن أضاعنا» (ص. 546) - وشيئاً فشيئاً تأخذ الحياة السيادة من الافتان بالمرض.

يخضع هذا الاهتمام الجديد بالحياة للاختبار في الفصل السابع، الذي تميزه أساساً عودة كلوديا شوشات إلى بيرغهورف يرافقها على غير توقع مينير بيركورن. لا يثير الغضب المتهور لدى هذا العملاق الهولندي الملكي الباخوسي المعربد لدى هانس كاستورب الغيرة المتوقعة بقدر ما يثير تبجيلاً هيباً تحل محله تدريجياً دماًة مرحلة. بهذه الطريقة، برغم اضطرابه إلى

التخلي عن كلوديا بعد وصولها مع رفيقها غير المتوقع، فإن الفائدة المتحصلة من هذا الحدث كبيرة بالفعل. قبل كل شيء، فقد «مُريتا» بطلنا المتواضع كل تأثير عليه، إذا ما قورنا بحجم هذه الشخصية التي يضيف عليها الراوي - لزمان وجيز - حضوراً وقوة خارقين. والأهم من كل ذلك أن العلاقة الثلاثية الغربية التي تأسست بين مينهير وكلوديا وهانس اقتضت من الأخير سيطرة على مشاعره التي اقترن الحقد فيها بالخضوع. كانت القرارات تتخذ بتحريض من الرجل الهولندي منعطفاً متوحشا وغريباً. ولقد بلغ من تدمير الراوي بتهكمه للمعاني الواضحة أن المواجهة مع كلوديا يصعب تقييمها صعوبة جمّة. تطفو كلمة «روح»: «حلم روحاني خالص»، «ذرى الروح هذه»، «الموت هو المبدأ الروحي»، «الطريق الروحي» (ص. 596). هل أصبح بطلنا كما تخبره كلوديا فيلسوفاً طريفاً؟ إنه إذن لنصر مدهش على معلميه أن لا ينتج عن رواية التطور الداخلي إلا شخص روحاني، مبتلى بالسحري والغامض⁽⁵³⁾. لكن أبعد الفرضيات عن العقلانية أن نتوقع من بطلنا خطأً مستقيماً في النمو، على الطريقة التي مثل بها ستمبريني «تقدّم الإنسانية». يؤدي انتحار الرجل الهولندي، واضطراب المشاعر المترتبة عليه إلى القذف بهانس في حالة لا يجد لها الراوي اسماً إلا «الغباء العظيم يسقط» Der grosse Stumpfsinn (ص ص. 624 - 635)⁽⁵⁴⁾. الغباء العظيم «يسقط»: «انه اسم رؤيوي شرير، يقصد منه إثارة مخاوف غامضة... أصابعه الذعر. بدا له أن «كل هذا» لن يجدي نفعاً، أن ثمة كارثة وشيكة، أن الطبيعة التي طال عذابها ستثور، تنتفض في عاصفة وزوبعة وتحطم الأغلال العظيمة التي تستعبد العالم؛ تختطف الحياة إلى ما وراء «نقطة الموت» وتضع حداً لـ«البطاطا الصغيرة» في يوم واحد أخير فظيع» (ص. 634). لم يفلح لعب الورق، الذي يستبدل به الفونوغراف في إخراجه من هذه الحالة. انه يرى خلف لحن غونو^(*) وأغنية الحب الممنوع صورة الموت. إذن

(*) غونو Gounod مؤلف موسيقى فرنسي من القرن التاسع عشر - المترجم .

لم يتحقق الفصل بين الاستمتاع والفساد؟ أو بالأحرى، هل يتخذ الاعتزال والسيطرة على الذات ألوان العواطف المرضية نفسها التي يفترض أنهما قد هزمتاها؟ جلسة استحضار الأرواح السحرية - والتي وضعت تحت العنوان الفرعي «شك شديد» Fragwürdigstes (ص ص. 653 - 681) - والتي تبلغ ذروتها بظهور شبح ابن العم يواكيم، تدفع التجريب في الزمن إلى حدود الالتباس والخداع الغائمة. وغرابة مشهد المباراة بين ستمبريني ونافتا (حيث يطلق ستمبريني النار في الهواء، ويطلق نافتا النار على رأسه هو) تصل قمة الاضطراب. «تلك كانت أوقات فريدة من نوعها» (ص . 703).

بعدها تضرب الصاعقة، Der Donnerschlag، والتي نعرفها جميعاً، ذلك الانفجار الذي يصم الأسماع في مزيج قاتل كوّنته التأثيرات المترامية من «الإله العظيم يسقط» و«عواطف هستيرية»، وهما عنوانا القسمين السابقين. إنها صاعقة تاريخية؛ «الصدمة التي أشعلت اللغم تحت الجبل السحري» [يطلق عليه هنا هذا الاسم لأول مرة]، ورمت بالنائم خارج البوابات بفضافة (ص 709). هكذا يتكلم صوت الراوي. بضربة واحدة تُمحى المسافة الفاصلة بين هنا في الأعلى وهناك في الأسفل على الأرض المنبسطة. لكن انفجار الزمن التاريخي هو ما يقتحم السجن المسحور من الخارج. ومعه تعود كل شكوكنا بصدد واقعية تدريب هانس كاستورب: هل كان بوسعه تحرير نفسه من سحر أولئك الموجودين في الأعلى دون أن ينتزع من الدائرة المسحورة؟ هل كان قد تغلب على الإطلاق على تجربة «الحساء الأبدي» المهيمنة الساحقة؟ هل تمكن البطل من إنجاز أي شيء يفوق السماح لتجارب متنافرة بأن يتراكم بعضها فوق بعض الآخر، مادام قد أخفق في وضع قدرته على دمجها معاً أمام اختبار التجربة؟ أم هل يتعين علينا القول إن الحالة التي تكشف فيها تجربته تدريجياً كانت الأنسب لإماطة اللثام عن تعددية معاني الزمن العvisية على الاختزال؟ وإن الاضطراب الذي ألقاه فيه

التاريخ واسع النطاق كان الثمن الذي لا بد من دفعه لكشف مفارقة الزمن ذاتها؟

لا تساعد الخاتمة على التخفيف من حيرة القارئ. يخلط الراوي في آخر مناورة تهكمية الصورة الظلية لهانس كاستورب بظلال القتل الواسع الأخرى: «وبهذا يختفي عن أنظارنا؛ في الجبلية، في المطر، في الغسق». (ص . 715). الواقع إن مصيره كجندي ينتمي إلى قصة أخرى، إلى تاريخ العالم. لكن الراوي يوحي أن ثمة بين القصة المحكية - «لم تكن قصيرة ولا طويلة، كانت مغلقة» -، وتاريخ العالم الغربي كما تتلاحق وقائعه على أرض المعركة، رابطة مماثلة تثير بدورها سؤالاً: هل يمكن أن تتمخض هذه الوليمة الكونية للموت... عن محبة ذات يوم؟» (ص . 716). ينتهي الكتاب بهذا السؤال. لكن المهم أنه مسبوق بتأكيد اقل غموضاً يتعلق بالقصة التي رويت للتو. ونبرة الثقة بالنفس التي تسم هذا السؤال الآخر هي التي تضفي نغمة أمل على السؤال الأخير. يتخذ حكم الراوي بشأن قصته الشكل البلاغي لخطاب يتوجه إلى «مغامرات [البطل] الخاصة بالجسد وفي الروح، [والتي] بينما هي تعزز البساطة [die deine Einfachheit steigerten] أباحت لك أن تعرف في الروح ما كان سيتعذر عليك أن تفعله بالجسد. كانت ثمة لحظات، أنك فيها من الموت ومن ثورة الجسد، بينما أنت تجري جرداً لأحوالك، حلم بالمحبة». (المصدر السابق). لقد سمح «التعزيز» Steigerung المشار إليه هنا للبطل، دون شك، أن «يبقى بالروح» فقط (im Geist überleben)، ولم يمنحه إلا فرصة ضئيلة لأن «يبقى بالجسد» (im Fleische). انه يفتقد إلى اختبار بوساطة الفعل، وهو المعيار النهائي لرواية النمو الداخلي. وهذا هو وجه التهكم هنا، بل وحتى المحاكاة الساخرة. لكن فشل رواية النمو الداخلي ليس إلا الوجه الآخر لنجاح رواية الزمن. لا يعدو تعليم هانس كاستورب حضور لحظات حرجية (Augenblicke) قليلة لن يبقى منها إذا أخذت مجتمعة مما يدل على الاتساق ما يزيد على «حلم محبة». على الأقل توفرت للبطل فرصة «إجراء جرد» للأحلام التي تولد عنها حلم المحبة هذا. (في هذا

المجال تبدو الترجمة الفرنسية للكلمتين المحورييتين *ahnungsvoll* و *regierungsweise* اضعف من أن تحمل ثقل الرسالة الايجابية الوحيدة التي ينقلها الراوي المتهكم إلى القارئ، وهو يزج به في أعلى درجات الحيرة⁽⁵⁵⁾. ولكن ألا يترتب على ذلك أن تهكم الراوي وحيرة القارئ هما في آن معاً صورة ونموذج لمثليهما لدى البطل في لحظة انفجار مغامرته الروحية المفاجيء؟

إذا ما سألنا الآن ما الموارد التي تستطيع بها «الجليل السحري» أن ترفد إعادة تصور الزمن، فمن الجلي تماماً أن ما نتوقعه من الرواية ليس حلاً تخمينياً لمعضلات الزمن، بل هو على نحو ما، تعزيزها *steigerung*، «الارتقاء بها إلى مستوى أعلى». لقد وضع نفسه عامداً في حالة متطرفة كان طمس الزمن الخاضع للقياس قد تكرر فيها عند ظهور بطله. يشكل التعلم الذي فرضت عليه هذه التجربة مكابדתه بدوره تجربة في الفكر لا تنحصر في تأمل سلبي لهذه الحالة من انعدام الوزن الزمني، بل تذهب به إلى تأمل يستكشف مفارقات الحالة المتطرفة التي رفع عنها اللثام بهذا. إن اللقاء الذي تحقق عبر التقنية السردية بين الرواية عن الزمن، والرواية عن المرض، والرواية عن الثقافة هو الوسيلة التي تنتجها مخيلة الشاعر لتحقيق أكبر قدر ممكن من الوضوح الذي يتطلبه مثل هذا الاستكشاف.

دعونا نذهب أبعد. إن التضاد الشامل بين الزمن العادي وأولئك الموجودين في الأسفل وفقدان الاهتمام بمقاييس الزمن الذي يميز أولئك الموجودين في الأعلى لا يمثل إلا درجة الصفر في تجربة الفكر التي باشرها هانس كاستورب. لذلك لا يمكن للصراع الرئيس بين المدة الداخلية وخارجية زمن الساعة الذي لا سبيل إلى إلغائه أن يكون هو الرهان المطلوب في نهاية المطاف في هذه التجربة، كما يصح القول بالمعنى الضيق عن «السيدة دالوي». وبينما تضعف العلاقات بين أولئك الموجودين في الأسفل وأولئك الموجودين في الأعلى، يتكشف تدريجياً فضاء جديد للاستقصاء، تكون

التناقضات الظاهرة فيه تحديداً تلك التي تبتلى بها التجربة الداخلية للزمن عندما تتحرر من علاقتها بالزمن التعاقبي.

أخصب الاستكشافات في هذا الصدد تتعلق بالعلاقة بين الزمن والأبدية. وهنا تتنوع العلاقات التي تقترحها الرواية تنوعاً هائلاً. هنالك اختلافات كبيرة بين «الحساء الأبدي» في الفصل الخامس و«Le rêve bien connu, rêve de tout temps, long, eternal» (*) في «ليلة فلبرغس» التي يختتم بها الفصل الخامس، وبين التجربة الوجدانية التي يصل حدث «الثلج» معها ذروته. تكشف الأبدية عن تناقضاتها الخاصة التي تعزز من أثرها المقلق الحالة السائدة في بيرغهوف. فالهيام بالمرض والفساد يكشف أبدية الموت الذي تتمثل بضمته على الزمن في التكرار الأبدي لما هو معتاد. ينشر تأمل السماء المرصعة بالنجوم بدوره نعمة الطمأنينة على تجربة تُفسدُ فيها الأبدية بفعل «اللانهاية السيئة» لاتصال الحركة. ليس من السهل التوفيق بين الجانب الكوني من الأبدية، الذي يفضل تسميته بالخلود، والجانب الحلم في التجريبتين الرئيسيتين «ليلة فلبرغس» و«الثلج»، حيث تندفع الأبدية مبتعدة عن جانب الموت لتتجه نحو الحياة، دون أن تنجح برغم هذا في التوحيد بين الأبدية والمحبة والحياة بالطريقة التي اعتمدها أوغسطين. من جهة أخرى، فإن التجرد المتهكم، الذي ربما كان «أسمى» حالة بلغها البطل، يؤشر انتصاراً مقلقاً على أبدية الموت يشارف الطمأنينة الرواقية. لكن حالة الافتتان المتمكنة التي يمثل هذا التجرد المتهكم رداً عليها لا تفسح له في المجال لكي يوضع على محك الفعل. لم يقدر على إبطال السحر إلا الانفجار الكبير للتاريخ Der Donnerschlag.

على الأقل اتاح التجرد المتهكم، الذي بفضل ينضم هانس كاستورب إلى راويه مرة أخرى، عرض نطاق واسع من الإمكانات الوجودية، حتى وإن

(*) الحلم المعروف جداً، حلم الناس في كل الأزمنة، حلم مديد أبدي.

لم ينجح في الخروج بتركيبة منها. بهذا المعنى تكون الغلبة للتنافر على التوافق في نهاية المطاف. لكن وعي التنافر قد «سما» درجة أعلى.

عبور الزمن: البحث عن الزمن الضائع

هل يحق لنا البحث عن «حكاية حول الزمن» في «البحث عن الزمن الضائع»؟⁽⁵⁶⁾

لقد تعرض هذا المسمى للتشكيك من منطلقات مختلفة. ولن أتوقف طويلاً في الخلط، الذي وضع النقد المعاصر حداً له، بين ما يمكن أن يُعد سيرة ذاتية متخفية لمارسيل بروست، المؤلف، والسيرة الذاتية القصصية للشخصية التي تقول «أنا». نحن نعلم الآن أننا إذا كنا نعتبر تجربة الزمن هي بيت القصيد في الرواية، فإن ذلك لا يرجع إلى ما تستعيره الرواية من تجربة مؤلفها الواقعي، وإنما إلى قدرة القصص الأدبي على خلق بطل - راوٍ يتقصى غاية تخصصه هو، وفي تقصيه هذا يشكل بُعد الزمن على وجه التحديد الرهان. لكن السؤال الذي ينتظر الحسم هو بأي معنى يكون الأمر هكذا؟ وبغض النظر عن الجنس بين «مارسيل» الراوي - البطل للرواية، ومارسيل بروست، مؤلفها، فإن الرواية لا تدين بمكانتها القصصية للأحداث التي وقعت في حياة بروست، والتي قد تكون نُقلت إلى الرواية وتركت ندوبها عليها، وإنما للتأليف السردى وحده، الذي يُسقط عالماً يحاول فيه البطل - الراوي الإمساك مجدداً بمعنى حياة مبكرة، هي نفسها قصصية كلياً. يترتب على ذلك أن يفهم الزمن المفقود والزمن المستعاد كليهما بوصفهما ملامح تجربة قصصية تتكشف تدريجياً داخل عالم قصصي.

لذلك فإن الفرضية الأولى التي تنطلق منها قراءتي اعتبار البطل الراوي، دون أخذ ورد، كياناً قصصياً يدعم الحكاية حول الزمن التي تكون «البحث عن الزمن الضائع».

هنالك طريقة أقوى في تحدي القيمة النموذجية للرواية بوصفها حكاية

حول الزمن تتمثل في القول، مع جيل دولوز في «بروست والعلامات»، إن الرهان أساساً في «البحث...» هو الحقيقة لا الزمن⁽⁵⁷⁾. وينبع هذا التحدي من المحاجة المتينة القائلة إن «عمل بروست لا يستند على كشف الذاكرة، وإنما على تعلم العلامات» (ص. 4)؛ علامات العالم الاجتماعي، علامات الحب، العلامات الحسية، علامات الفن. فإذا كانت، برغم ذلك «تسمى بحثاً عن الزمن الضائع، فإن ذلك يصح بقدر ما يكون للحقيقة علاقة جوهرية بالزمن» (ص. 15). وردّي على هذا أن هذا التوسط عبر تعلم العلامات والبحث عن الحقيقة لا يصيب بالضرر وصف «البحث...» أنها حكاية حول الزمن. لا تفند محاجة دولوز إلا تلك التأويلات التي تفهم «البحث...» حصراً عن طريق تجارب الذاكرة اللاإرادية، وهي لهذا السبب تهمل التدريب الطويل على الخيبة الذي يمنع «البحث...» سعة أفق تفتقدها تجارب الذاكرة اللاإرادية القصيرة والعرضية. إذا كان التدريب على العلامات يقتضي المعبر الطويل والدائري الذي تعتمده «البحث...» بديلاً عن معبر الذاكرة اللاإرادية السريع، فإن هذا التأويل لا يستفد بدوره معنى «البحث...». يشكل اكتشاف البعد خارج - الزمنى للعمل الفني تجربة غريبة بالنسبة للتدريب على العلامات - الذي يستغرق بالفعل زمناً - ولكنها تطرح مشكلة العلاقة بين هذين المستويين من التجربة وتلك التجربة الفريدة من نوعها التي يؤجلها الراوي ولا يكشف عنها أخيراً إلا بعد زهاء ثلاثة آلاف صفحة.

تعود الخاصية الفريدة لـ «البحث...» إلى حقيقة أن تعلم العلامات، كما هو انبثاق الذكريات اللاإرادية، يمثل شكلاً من التنقل المطوّل الذي تقطعه، ولا أقول تبلغ به الذروة، الإضاءة المفاجئة التي تحوّل بنظرة إلى الوراء السرد برمته إلى التاريخ اللامرئي لمهنة معينة. ويصبح الزمن مرة أخرى بيت القصيد حين يتعلق الأمر بجعل التعلم الطويل يستجيب على نحو مبالغ فيه لفجاء لحظة الإلهام المروية في الختام، والتي تجعل بنظرة إلى الوراء التقصي برمته زمناً ضائعاً⁽⁵⁸⁾.

من هنا تأتي الفرضية الثانية التي تعتمدها قراءتي. من أجل تفادي منح

امتياز حصري إما للتدريب على العلامات، الذي يمكن أن يحرم الكشف الختامي من دوره كمفتاح هرمنطقي للعمل بأكمله، وإما للكشف الختامي، الذي يمكن أن يُجَرّد آلاف الصفحات التي تسبق الكشف من آية دلالة ويستأصل مشكلة العلاقة بين التقصي والاكتشاف نفسها، من أجل ذلك يكون لزماً علينا تقديم دائرة «البحث...» على شكل قطع ناقص يمثل أحد مركزيه البحث، ويمثل الآخر لحظة الإلهام. يترتب على ذلك أن الحكاية حول الزمن هي الحكاية التي تخلق العلاقة بين هذين المركزين في الرواية. وتكمن أصالة «البحث...» في أنها اخفت المشكلة وحلها كليهما حتى بلغ البطل نهاية مساره، وتركت بذلك لقراءة ثانية معقولة العمل إجمالاً.

هنالك طريقة ثالثة أقوى من سابقتها الساعيتين إلى تنفيذ الادعاء أن «البحث...» حكاية حول الزمن تتمثل في الهجوم، كما فعلت آن هنري في كتابها *Proust romancier: le tombeau égyptien*، على أولوية السرد نفسه في «البحث...»، واعتبار شكل الرواية إسقاطاً، على مستوى الحكاية، لمعرفة فلسفية صيغت في مكان آخر، مما يجعلها خارجية بالنسبة للسرد⁽⁵⁹⁾.

وحسب مؤلفة هذه الدراسة البارعة فإن «الجزء الأساس العقائدي، الذي يُفترض أنه يدعم الحكاية في كل نقطة فيها» (ص. 6) لابد من البحث عنه حصراً في الرومانتيكية الألمانية، وخصوصاً في فلسفة الفن التي اقترحها شلنغ أولاً في «نظام المثالية الترنسندنطالية»⁽⁶⁰⁾، ثم طورها شوبنهاور في «العالم إرادة وتمثيلاً»⁽⁶¹⁾، وأخيراً أعيدت صياغتها بلغة سيكولوجية في فرنسا على يد معلمي بروست في الفلسفة: سيائي Séailles، ودارلو Darlu، وعلى الأخص تارد. لذلك فإن نظرة إلى العمل في مستواه السردية تكشف أنه يستند إلى «أساس نظري وثقافي» (هنري، ص. 19) سابق عليه. المهم بالنسبة لنا هنا أن هذه الفلسفة التي تحكم العملية السردية من الخارج لا تضع الزمن غاية لها بل ما اسماء شلنغ «الهوية»، أي إلغاء الانشطار بين الروح والعالم المادي، وتصالحهما في الفن، وضرورة تأسيس الدليل

الميتافيزيقي على هذا من اجل منحه شكلاً دائماً وعينياً في العمل الفني. ينتج عن هذا أن «البحث...» ليست فقط منبئة الصلة بالسيرة الذاتية القصصية - الكل يتفقون على هذا اليوم - ولكنها رواية مختلفة، «رواية عبقرية» (ص ص 23 وما بعدها، التأكيد منها). ليس هذا فقط، هنالك بين الفروض النظرية التي تحكم العمل التحويل النفسي الذي تمر به الجدلية لكي تصبح رواية؛ وهو تحويل ينتمي إلى الأساس الاستمولوجي السابق على إنشاء الرواية أيضاً. والأكثر من ذلك، أن نقل الجدلية هذا إلى المستوى السيكلولوجي، كما ترى آن هنري، لا يشير إلى فتح جديد بقدر ما يشير إلى تدهور الميراث الرومانتيكي. لذا فإن العبور من شلنغ إلى تارد عن طريق شوبنهاور يوضح أن الوحدة المفقودة، حسب الرومانتيكية، كان بالامكان أن تصبح زمناً مفقوداً، وإن الإصلاح المزدوج للعالم والذات كان بالامكان أن يُحوّل إلى رد اعتبار لماضي الفرد؛ باختصار، إذا كان مقدراً للذاكرة عموماً أن تصبح الوسيط المميز في ولادة العبقرية، فيجب أن لا تُخفى حقيقة أن هذه الترجمة للنزاع إلى نطاق وعي واحد تعبر عن انهيار فلسفة الفن العظيمة التي وصلتنا من الرومانتيكية الألمانية وفي الوقت ذاته تواصلها .

يبدو إذاً أن ثمة تحدياً مزدوجاً لمحاولتي اعتماد بروس في توضيح فكرة التجربة القصصية للزمن. فلا يقتصر الأمر على أن المركز النظري، الذي تمثل الرواية مثلاً يوضح معناه، يجعل مسألة الزمن تابعة لمسألة أعلى شأناً منها هي فقدان الهوية واستعادتها، لكن العبور من هوية مفقودة إلى زمن مفقود يمثل ندوباً دالة على اعتقاد محطم. إن آن هنري، من خلال ربطها تصاعد السيكلولوجي، والذات، والذاكرة إلى انحلال الميتافيزيقا العظيمة، إنما تهوّن من شأن كل ما يتعلق بالرواية بوصفها كذلك. حقيقة أن البطل برجوازي يعيش حياة فراغ، مجرّجراً ملله من حب تعيس إلى آخر، ومن صالون سخيف إلى آخر، وتعتبر عن فقر يناسب «ترجمة النزاع ضمن وعي ما» (ص ص 46). «إن حياة مسطحة، برجوازية، لا تهزها أي نكبات ... توفر التفاهة

المثالية لنمط تجريبي من السرد». (ص . 56)⁽⁶²⁾. ينتج عن هذا الشك الذي يستنزف من الداخل ميزة جنس السرد بصفته كذلك قراءة قوية على نحو ملفت لـ«البحث...». ما أن يتحول الرهان الرئيس من الوحدة المفقودة إلى الزمن المفقود حتى يفقد كل الامتياز الذي يعزى لرواية العبقريته بريقه.

لنقبل مؤقتاً الأطروحة القائلة إن «البحث...» تولدت عن «نقل النظام إلى الرواية». بهذا سيصبح الخلق السردى، كما أرى، أكثر غموضاً وحل أسئلته أكثر صعوبة. نحن نعود هنا، على نحو متناقض، إلى تفسير من خلال الأصول. بعد أن نفصنا أيدينا من تلك النظرية الساذجة عن عناصر مأخوذة من حياة بروس، ها نحن ذا نصل إلى نظرية أكثر صقلاً عن عناصر مأخوذة من فكر بروس. إن تولد «البحث...» كرواية يقتضي منا النظر في التأليف السردى نفسه بحثاً عن مبدأ الاكتساب السردى لـ«التخمينات المتلاقحة» القادمة من سيالي وتارد، وكذلك من شلنغ وشوبنهاور. وهكذا لا يعود السؤال كيف أمكن أن تتدهور فلسفة الوحدة المفقودة إلى تقص للزمن الضائع، وإنما كيف يحقق البحث عن الزمن الضائع عبر وسائل سردية حصراً، وبوصفه المؤلد التأسيسي للعمل، استعادة الإشكالية الرومانتيكية الخاصة بالوحدة الضائعة⁽⁶³⁾.

ما هي هذه الوسائل؟ الطريقة الوحيدة لدمج «التخمينات المتلاقحة» الخاصة بالمؤلف في صلب العمل السردى هو أن ننسب إلى البطل الراوى ليس تجربة قصصية فقط، ولكن «أفكاراً» تشكل اللحظة الانعكاسية الأمضى لهذه التجربة⁽⁶⁴⁾. ألم ندرك، منذ «فن الشعر» لأرسطو أن الفكرة هي المكون الرئيس للحبكة الشعرية؟ فضلاً عن ذلك، فإن النظرية السردية تقدم لنا عوناً لا يضاهى هنا، وهذا هو ما سيشكل فرضية قراءتي الثالثة، تحديداً، مورد تمييز عدة أصوات سردية في قصة الراوى.

تسمعنا رواية «البحث...» صوتين سرديين على الأقل، هما صوت البطل وصوت الراوى .

يروى البطل مغامراته الدنيوية، الغرامية، الحسية، الجمالية أثناء وقوعها. هنا يتخذ التلخيص شكل مسيرة تتجه نحو المستقبل، حتى عندما يكون البطل في حالة استغراق في الذكريات؛ وهو ما ينشأ عنه «المستقبل في الماضي» الذي يقذف «البحث...» إلى لحظة تنويرها. كما أن البطل مرة أخرى هو من يتلقى الكشف عن معنى حياته الماضية بوصفه تاريخاً لا مرثياً لمهنة معينة. في هذا الإطار، يكون على جانب عظيم من الأهمية التمييز بين صوت البطل وصوت الراوي، ليس من أجل إعادة وضع ذكريات البطل نفسها في تيار بحث يمضي قدماً فحسب، ولكن من أجل الحفاظ على الطبيعة الشبيهة بالحدث للحظة الإلهام.

مع ذلك، علينا سماع صوت الراوي أيضاً، الذي يسبق تقدم البطل لأنه يقوم بمسحه من أعلى. الراوي هو من يقول، أكثر من مرة؛ «كما سئري فيما بعد». لكن الأهم أن الراوي يعطي التجربة التي يرويها البطل المعنى، الزمن المستعاد، الزمن المفقود. قبل الكشف الأخير، يكون صوته شديد الانخفاض بحيث يكاد لا يُميز عن صوت البطل (وهو ما يخولنا الكلام عن البطل - الراوي)⁽⁶⁵⁾. لكن هذه الحالة لا تنطبق على سياق وقوع لحظة الإلهام وما يعقب سردها. يهيمن صوت الراوي إلى درجة أنه ينتهي بالتغطية على صوت البطل. بعدها يطلق العنان لجناس بين المؤلف والراوي، يصل حد المجازفة بجعل الراوي يتكلم نيابة عن المؤلف في أطروحته الكبيرة عن الفن. ولكن حتى حينذاك، فإن المسألة التي تشغل قراءتنا هي العرض الذي يقدمه الراوي لمفاهيم المؤلف بوصفها مفاهيمه. عند ذاك تُدمج مفاهيمه في أفكار الراوي. وترافق أفكار الراوي هذه، بدورها، تجربة البطل المعيشة وتضيئها. وهي تسهم بهذه الطريقة في الطبيعة الشبيهة بحدث لميلاد مهنة الكتابة كما يعيشها البطل.

من أجل اختبار هذه الفرضيات القرائية دعونا نطرح سلسلة من ثلاثة أسئلة: (1) ما هي العلامات الدالة على الزمن المفقود والزمن المستعاد

بالنسبة لقارئ لا يعرف شيئاً عن خاتمة «البحث...» التي نعرف أنها كُتبت خلال الفترة نفسها التي كتبت فيها «طريق سوان» في «الزمن المستعاد»؟ (2) بأية وسيلة سردية دقيقة تدمج التأملات حول الفن في «الزمن المستعاد» مع التاريخ اللا مرئي لمهنة؟ (3) ما العلاقة التي يؤسسها مشروع العمل الفني، النابع من اكتشاف مهنة الكتابة، بين الزمن المستعاد والزمن المفقود؟

يضعنا السؤالان الأولان تبعاً في بؤرتي «البحث...»، ويسمح لنا الثالث بأن نجسّر الفجوة بينهما. وعلى أساس السؤال الثالث سيتقرر التأويل الذي أقدمه لـ «البحث عن الزمن الضائع».

الزمن المفقود

لا يملك قارئ «طريق سوان» بُعد - مع افتقاده الإضاءة الاستيعادية التي تسقطها خاتمة الرواية على بدايتها - وسيلة تمكنه من مقارنة غرفة النوم في كومبري، حيث يكابد وعي بين الصحو والمنام تجربة فقدان هويته، وزمنه، ومكانه، مع المكتبة في منزل آل غيرمانت، حيث يتلقى وعي شديد اليقظة تنويراً حاسماً. من جهة أخرى، لا مفر من أن يلاحظ هذا القارئ ملامح فريدة بعينها في هذا القسم الافتتاحي. يستحضر صوت الراوي القادم من لا مكان، منذ الجملة الأولى زمناً مبكراً لا تأريخ له ولا مكان، زمناً يفتقد إلى ما يحدد المسافة الفاصلة عن حاضر التلخيص، زمناً سبق مضاعفاً على نحو لانهائي. (توجد تعليقات كثيرة تخص ربط الماضي المركب مع ظرف الزمان «لزمن طويل» longtemps: «تعودت لزمن طويل على أن آوي إلى الفراش مبكراً [Longtemps, je me suis couché de bonne heure] أحياناً...» 1، [ص 3]). هكذا تشير البداية بالنسبة للراوي إلى زمن أسبق لا حدود له (البداية التعااقبية الوحيدة التي يمكن تصورها، أي مولد البطل، لا يمكن أن تظهر في ثنائية الصوتين هذه). في هذا الزمن الأسبق، في الأفق بين الصحو والمنام، حيث

تُنشر ذكريات الطفولة، يتعد السرد خطوتين عن الحاضر المطلق للسرد⁽⁶⁶⁾.

تعتبر هذه الذكريات عن نفسها بالإحالة إلى دورة أحداث فريدة، هي تجربة حلوى المادلين، تتميز هي نفسها بوجود ما قبل وما بعد. أما قبلها فلا وجود إلا لأرخبيلات من الذكريات المشتتة؛ لا تنبثق منها إلا ذكرى قُبلة تمنى ليلة سعيدة، تُطرح هي نفسها على مهاد طقس يومي⁽⁶⁷⁾: قُبلة الأم التي تُمنع عنه عند وصول المسيو سوان؛ القُبلة المنتظرة بجزع، قُبلة تُستجدي مع قرب انتهاء المساء؛ قُبلة يتم الفوز بها أخيراً ولكن تُنزع عنها مباشرة السعادة المتوقعة منها⁽⁶⁸⁾. لأول مرة نسمع صوت الراوي واضحاً. إذ يلاحظ الراوي وهو يستحضر ذكرى والده «مَرّت سنوات عديدة منذ تلك الليلة. حائط السُلّم الذي كنت أرقب عليه ضوء قنديله يتصاعد دُمر منذ زمن بعيد... كما مر زمن طويل منذ كان أبي قادراً على أن يقول لأمي: «اذهبي مع الصغير». لن تعود مثل هذه اللحظات لي أبداً» (1. ص ص. 39 - 40). هكذا يتكلم الراوي عن الزمن المفقود بمعنى الزمن المنقضي، المُلغى. لكنه يتكلم أيضاً عن زمن مستعاد. «لكنني صرت مؤخراً أزداد قدرة على الإمساك، إذا ما أصغيت بانتباه، بصوت حشرات البكاء التي تمكنت من السيطرة عليها في حضرة أبي، والتي لم تنفجر إلا عندما ما وجدت نفسي وحيداً مع والدتي. والواقع أن صداها لم يتوقف قط؛ والآن، لأن الحياة حولي صارت أهدأ فحسب، أنا اسمعها من جديد، مثل تلك الأجراس من الدير التي تغرقها ضوضاء الشارع خلال النهار حتى يفترض المرء أنها أوقفتها، حتى تعلو دقاتها مرة أخرى عبر هواء المساء الصامت» (1، ص. 40) هل يمكن لنا، دون استعادة الأفكار نفسها في نهاية «الزمن المستعاد» تمييز الجدلية بين الزمن المفقود والزمن المستعاد في صوت الراوي الذي لا يكاد يسمع؟

بعدها يأتي حدث الاستهلال - المروي بصيغة الماضي المطلق - «تجربة المادلين» (1، ص. 48). تتحقق النقلة وما يترتب عليها بوساطة ملاحظة من الراوي تخص نقاط ضعف الذاكرة الإرادية، وإن مهمة إعادة اكتشاف المفقود

مرهونة بالخط. بالنسبة لمن لا يعرف شيئاً عن المشهد الختامي في مكتبة آل غيرمانت، الذي تقرر فيه استعادة الزمن المفقود بخلق عمل أدبي دون لبس، يمكن لتجربة حلوى المادلين أن تضل القراء وتضعهم على الطريق الخطأ، إذا لم يطرحوا جانباً، داخل نطاق توقعاتهم الخاصة، كل التحفظات التي تلازم استرجاع هذه اللحظة السعيدة. «غمرت حواسي متعة رفيعة، شيء معزول، فريد ليس ثمة ما يوحى بأصله». (المصدر السابق). وهذا يشير السؤال، «من أين يمكن أن يكون هذا الفرح المقتدر قد جاءني؟ فكرت انه قد يكون مرتبطاً بطعم الشاي والكيك، لكنه تجاوز هذه المذاقات إلى ما لانهاية، لا يمكن في الواقع أن يشترك معها في طبيعة واحدة. من أين جاء؟ ما معناه؟ كيف أتمكن من الإمساك به وفهمه؟» (المصدر السابق). لكن السؤال، وهو يطرح بهذه الطريقة، يحمل داخله فخ إجابة شديدة الاقتضاب، يمكن أن تكون ببساطة الذاكرة اللاإرادية⁽⁶⁹⁾. إذا صح أن الإجابة التي تقدمها هذه «الحالة المجهولة» يوضحها على أكمل وجه الاندفاع المفاجئ لذكرى المادلين الصغير الأول الذي قدمته العمة ليوني قبل زمن طويل، إذاً فإن «البحث...» تكون قد بلغت غايتها في لحظة شروعه. ولن تعدو فيما تبقى سوى تقص لحالات إعادة تحريك مشابهة، أقل ما نستطيع قوله عنها إنها لا تحتاج إلى مجهود الفن. هنالك مفتاح دال على أن الأمر ليس كذلك، يتجه إلى قارئ مرهف السمع. إنه جملة معترضة تقول «(مع أنني لم أكن حينذاك اعلم، وعليّ أن أوجل طويلاً اكتشاف السبب الذي جعل هذه الذكرى مصدر فرح غامر بالنسبة لي)». (I، ص. 51) لن تكتسب هذه الملاحظات التي يضعها الراوي بين قوسين معناها وقوتها إلا عبر قراءة ثانية أغناها «الزمن المستعاد»⁽⁷⁰⁾. ومع ذلك فإن بمقدور القارئ إدراكها في القراءة الأولى، حتى وإن كانت مقاومتها ضعيفة للتأويل المتسرع الذي يرى أن التجربة القصصية للزمن لدى بروس تآلف من المساواة بين الزمن المستعاد والذاكرة اللاإرادية، التي ينظر إليها على أنها تركب عفوية انطباعين متميزين

ولكنهما متشابهان أحدهما على الآخر بفضل الحظ فقط⁽⁷¹⁾.

إذا كانت نشوة المادلين لا تزيد عن كونها علامة تحذيرية أولية دالة على الكشف الأخير، فإنها على الأقل تتضمن بالفعل بعضاً من خواصه، وهي تشرع الأبواب أمام الذاكرة وتفسح في المجال أمام الصورة الوصفية الأولى في «الزمن المستعاد»: حكاية كومبري (I، ص ص . 52 - 204). بالنسبة للقراءة غير الملمة بـ«الزمن المستعاد» تبدو الانتقالة إلى حكاية كومبري وكأنها اسهامة في أكثر تقاليد السرد سذاجة، وان خلت من التكلف والتزيق البلاغي. بالنسبة لقراءة ثانية أكثر علماً، تفتح نشوة المادلين زمن الطفولة المستعاد، تماماً كما سيفتح التأمل في المكتبة ذلك الزمن الذي توضع فيه المهنة، وقد تم إدراكها أخيراً، موضع الاختبار. بهذا يتكشف أن التناظر بين البداية والنهاية هو المبدأ الموجه للتأليف برمته. إذا كانت كومبري تنبثق من كوب شاي (I، ص. 51)، تماماً كما يطلع سرد المادلين من الحالة ما بين الصحو والنام التي تقع في غرفة النوم، فإنها تفعل ذلك بالطريقة نفسها التي سيتحكم بها التأمل في المكتبة بسلسلة التجارب اللاحقة. لا تمنع هذه السلسلة من الإضافات إلى الإطار العام التي تتحكم في التأليف السردى الوعي من إحراز تقدم. على وعي الصفحات الأولى المضطرب - «كنت أكثر حرماناً من إنسان الكهوف». (I، ص. 5) - تأتني الإجابة من وعي يقظ عندما يطلع النهار، (I، ص. 204).

لا أود مغادرة القسم المخصص لـ«كومبري» دون أن أحاول تحديد ما يجعل ذكريات الطفولة تأخذنا بعيداً عن النظر في الذاكرة اللاإرادية وتوجهنا تأوليناً بالفعل نحو تدريب على العلامات، دون أن تجعل، برغم كل ذلك، هذا التدريب على جوانب لا صلة بينها منطبقاً ببساطة على تاريخ مهنة معينة.

إن لكومبري أولاً وقبل كل شيء كنيستها، «التي تلخص المدينة» (I، ص. 52) فهي، من جهة، تفرض على كل شيء يحيط بها، بفضل استقرارها الدائم⁽⁷²⁾، بعد الزمن الذي لم يتلاش، وإنما تم اجتيازها. وهي من جهة أخرى

تفضي، عبر زجاجها الملون والأشكال المرسومة على حيطانها وعبر شواهد قبورها، على الكائنات الحية التي يلتقي بها البطل الخاصة العامة لصور مطلوب حل شفرتها. فضلاً عن هذا، فإن حقيقة أن البطل الشاب مشغول بالكتب دائماً تميل إلى جعل الصورة مغرباً متميزاً إلى الواقع (1، ص. 91).

تعني كومبري أيضاً اللقاء مع الكاتب بيرغوت (وهو الأول في ثلاثة فنانين يقدمهم السرد على وفق حركة صاعدة مخطط لها بعناية، قبل إستر الرسام، وفينتوي الموسيقي بوقت طويل). يسهم اللقاء في تحويل الأشياء المحيطة إلى كائنات قيد القراءة.

برغم ذلك يستمر زمن الطفولة على وجه الخصوص متشكلاً من جزر متناثرة، جزر يصعب بينها التواصل تماماً كما بين «الطريقين». طريق مسيفليس Méséglise، الذي يتضح أنه طريق سوان وجيلبرت، وطريق آل غيرمانت، طريق الأسماء الخرافية لأرستقراطية لا سبيل إلى الوصول إليها، خصوصاً طريق مدام دي غيرمانت، الموضوع الأول لحب متعذر. لم يجانب جورج بوليه الصواب عندما رسم موازاة حادة هنا بين تعذر التواصل بين الجزر الزمنية ومثيله بين المواقع، والأماكن، والكائنات⁽⁷³⁾. هنالك مسافات يصعب قياسها تفصل بين اللحظات المستحضرة، وبالقدر نفسه بين الأماكن المجتازة.

تذكرنا كومبري أيضاً، في تباين مع اللحظات السعيدة، ببعض الأحداث التي تؤذن بالخيبة، ويبقى معناها موجلاً حتى بحث لاحق⁽⁷⁴⁾. من هنا مشهد مونتجوفان Montjouvain، بين الأنسة دي فينتوي وصديقتها، حيث يتعرف البطل، الذي يكشف عن ميله إلى التلصص، على عالم عمورة. لا يخلو من أهمية بالنسبة للفهم اللاحق لفكرة الزمن المفقود أن هذا المشهد يحتوي على ملامح بغیضة: الأنسة دي فينتوي تبصق على الصورة الشخصية لوالدها، الموجودة على طاولة صغيرة أمام الأريكة. وبهذا تتأسس رابطة سرية بين هذا التدنيس والزمن المفقود، لكن عمقها الغائر لا يسمح بإدراكها. يتجه انتباه

القارئ بدلاً من ذلك إلى قراءة المتلصص للعلامات وتأويله تلميحات الرغبة. بكلمات أدق، يتجه فن حل الشفرات نتيجة لهذا الحدث الغريب إلى ما يسميه دولوز الدائرة الثانية من العلامات، دائرة الحب⁽⁷⁵⁾. تنشط استعادة «طريق آل غيرمانت» أيضاً كمنطلق لتأمل في العلامات وتأويلها. يمثل آل غيرمانت، بادئ ذي بدء، أسماء خرافية متصلة بالرسوم الحائطية وتشكيلات الزجاج الملون. يربط الراوي، بلمسة لا تكاد تحس، هذه الحلمية الخاصة بالأسماء مع العلامات المؤذنة بالمهنة التي يقال أن «البحث...» ترويه. لكن هذه الأفكار الحلمية، كما هو حال قراءته لبيرغوت، تخلق نوعاً من الحاجز، كما لو أن الابتكارات المصطنعة للأحلام كشفت خواء موهبته هو⁽⁷⁶⁾.

إذا كانت الانطباعات المتجمعة خلال الجولات تضع عائقاً أمام مهنة الفنان أيضاً، فإن ذلك يصح لأن الخارجية المادية تبدو مهيمنة عليها، وتبقى على «وهم نوع من الخصوصية» (I)، (ص. 195) وهو ما يعفي المرء من جهد البحث عما «يقبع خفياً تحتها» (المصدر السابق). يستمد الحدث الخاص بأبراج كنائس مارتفيل، الذي يستجيب لتجربة المادلين، معناه تحديداً من هذا التباين مع غنى فيض الانطباعات الاعتيادية، وهو الحال ذاته مع الأحلام المتكررة. إن الوعد بشيء خفي، شيء يُتَوَجَّ البحث عنه بالعثور عليه، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بـ «المتعة الخاصة» (I)، (ص. 195) التي تميز الانطباع. إن هذه الجولات نفسها تقود البحث. «لم اعرف سبب المتعة التي غمرتني حين رأيته في الأفق، ومهمة السعي إلى اكتشاف ذلك السبب بدت لي أمراً مزعجاً، لقد رغبت أن اختزن في عقلي هذه السطوح المتنقلة المضاءة بالشمس لكي أستريح من التفكير بها» (I)، (ص. 197). لكن هذه هي المرة الأولى التي ينطلق فيها البحث عن المعنى بوساطة الكلمات أولاً، ومن ثم عن طريق الكتابة⁽⁷⁷⁾.

بصرف النظر عن الإشارات المتعلقة بتاريخ مهنة، التي ما تزال متباعدة

وسلبية تماماً، وبصرف النظر خصوصاً عن العلاقة الخفية بين هذه المهنة والحدثين المتصلين بكومبري، فإن ما يبدو مهيماً على تجربة الزمن التي مازالت في بواكيرها في القسم الذي يدور حول كومبري هو استحالة التنسيق بين حزم الأحداث غير المؤرخة⁽⁷⁸⁾، والتي تقارن مع «الطبقة الأعمق من تربتي العقلية» (I، ص. 201). كتلة غير متميزة من الذكريات لا يستطيع أن يجلي معالمها إلا شيء يشبه «صدوعاً واقعية، شروخ حقيقية» (ص. 201). بإيجاز يمكن القول إن زمن كومبري المفقود هو الفردوس المفقود الذي يتعذر فيه تبين «الإيمان الذي يخلق» (I، ص. 201) من وهم الواقعية المكشوفة والصامتة للأشياء الخارجية.

لاشك إن المؤلف قد قرر لكي يؤكد الطبيعة القصصية السيرية الذاتية لـ«البحث...» إجمالاً أن يُدخل «سوان عاشقاً» - أي سرد بصيغة الغائب - بين «كومبري» و«اسماء المكان»، كلاهما سرد بصيغة المتكلم. في الوقت ذاته، فإن وهم المباشرة الذي يمكن أن تكون مروبات الطفولة قد أنتجته بسبب سحرها الكلاسيكي، قد انقطع بفعل هذا الانتقال بالسرد نحو شخص آخر. كما أن «سوان عاشقاً» تجهز الآلية الشيطانية لحب ينخره الوهم والشك والخيبة، حب محكوم عليه أن يجتاز عذاب الترقب، ولسعة الغيرة، والأسى الذي يرافق تدهوره، واللامبالاة التي يقابل بها موته. وسيفيد هذا التكوين نموذجاً لسرد علاقات الحب الأخرى، وبالأخص حب البطل لألبرتين. بسبب هذا الدور المناط بها بوصفها نموذجاً تبادلياً تقول «سوان عاشقاً» شيئاً ما عن الزمن.

لا جدوى من الإلحاح على أن السرد يفتقد التواريخ. إنه يرتبط دون قيود بأحلام اليقظة، يحيلها الراوي الناعس الذي يتكلم في الصفحات الافتتاحية من الكتاب إلى ماضٍ غير محدد⁽⁷⁹⁾. بهذه الطريقة، يوضع سرد «سوان عاشقاً» داخل الذكريات الضبابية للطفولة، بوصفه ما حدث قبل الولادة. تكفي براعة الصنعة لكسر الخط الزمني التتابعي مرة وإلى الأبد،

وفتح السرد لاستقبال خواص أخرى للزمن الماضي لا تأبه بالتواريخ. والأهم هو انتشار الرابطة بين هذا السرد وتاريخ مهنة، والذي يُنظر إليه بوصفه ما يهيمن على «البحث...» إجمالاً. تقع هذه الرابطة على مستوى «ربط الذكريات» الذي يشار إليه في نهاية القسم الخاص بـ«كومبري». ويبدو أن العبارة الموسيقية القصيرة من سوناتا فينتوي فاعلة بوصفها تمثل محطة الانتقال من تجربة المادلين (وأبراج مارتنفيل) إلى الكشف في المشهد الختامي، وذلك بسبب ظهورها المتكرر في قصة البطل، والظهور الذي يتعزز في «الأسيرة» بذكرى سباعية فينتوي التي تمثل النظير القوي مع هذه العبارة الموسيقية القصيرة⁽⁸⁰⁾. قد تغيب وظيفة العبارة الموسيقية في وحدة السرد عن الإدراك بسبب الرابطة الوثيقة بين هذه العبارة وحب سوان لأوديت. كما لو أن إمرأ قد وقع في غرام عبارة موسيقية (I، ص 231). يتعلق وإن بذكرى حبه لأوديت إلى درجة يمنعها من استشارة الاستجواب الذي ينطوي عليه وعددها بالسعادة. يحتل الحقل برمته استجواب أكثر إلحاحاً، يصل حد السعار، يتولد على الدوام من الغيرة. إن تعلم علامات الحب، في صالون فيردورين، التي تتشابه مع علامات المجتمع، هو وحده القادر على أن يجعل البحث عن الزمن الضائع منطبقاً على البحث عن الحقيقة، ويجعل الزمن الضائع نفسه منطبقاً على الهجر الذي يخرب الحب. لاشيء إذن يبيح لنا تأويل الزمن الضائع على أنه زمن معين مستعاد؛ مادام استحضار العبارة الموسيقية يبقى متجذراً في تربة الحب. أما بالنسبة لـ«عاطفة البحث عن الحقيقة» (I، ص 298) التي تحركها الغيرة، فلا شيء يسمح لها بأن تلبس تاج الزمن المستعاد. الزمن مفقود ببساطة تامة بمعنى مزدوج، انقضاؤه ونفص اليد منه، وتناثره وتشظيه⁽⁸¹⁾. وأقصى ما يمكن أن يوحى بفكرة زمن مستعاد هو إما الثقل الذي تُخَصُّ به لحظات قليلة نادرة عندما تقوم الذاكرة «بربط الشذرات معاً، وحذف الفواصل بينها». (I، ص. 342)، مشخصة زمناً مهترئاً، وإما الطمأنينة التي تتصل بسر لوحق دون جدوى في

زمن الغيرة وتكشفت حقيقته أخيراً في زمن مات فيه الحب (I، ص. 346). هكذا يصل تعلم العلامات في هذا السياق نهايته ما أن يتحقق نوع معين من التجرد.

من المفيد النظر إلى الطريقة التي يرتبط بها القسم الثالث من «طريق سوان» المعنون «أسماء المكان: الاسم» (I، ص ص. 416 - 462) مع ما يسبقه بشأن الترابط بين الحقب الزمنية⁽⁸²⁾. فالواقع أن «ليالي السهاد الطويلة» (I، ص 416) نفسها التي كانت تستعاد لتكون مسرح مرويّات الطفولة المتصلة بكومبري، تستخدم هنا أيضاً من أجل ربط يقع في الذاكرة الحلمية بين غرف الفندق الكبير (جراند هوتيل) في بالبيك، وغرف كومبري. لذلك فليس من المدهش أن يسبق حلم بالبيك بالبيك الحقيقية، في فترة من مراهقة البطل كانت الأسماء فيها تؤذن بالأشياء وتقرر الواقع قبل أي أدراك. وبهذا تكون أسماء بالبيك، والبندقية، وفلورنسا مولّدات للصور، وعبر الصور للرغبة. ما الذي سيفهمه القراء في هذه المرحلة من السرد من هذا «الزمن الخيالي» الذي تُجمع فيه رحلات عديدة تحت اسم واحد؟ (I، ص ص. 425 - 426). يمكن لهم فقط إبقاؤه مائلاً في عقولهم، عندما تخفي الشانزليزيه، الحقيقية بما يكفي، والألعاب مع جيلبرت الأحلام عن الأعين: «لم يكن ثمة في هذه الحديقة العامة ما دخل أحلامي». (I، ص 427). هل هذه الفجوة بين «صورة تشبيهية» لعالم خيالي (المصدر السابق) والواقع صورة أخرى تعبر عن الزمن المفقود؟ دون شك. إن صعوبة ربط هذه الصورة وكل الصور الأخرى اللاحقة مع خط القصة العام تزداد بسبب غياب أي تمازج واضح بين الشخصيات المبكرة في سوان، وخصوصاً أوديت؛ التي قد يظن إنها «اختفت» في نهاية سرد ضمير الغائب الوسطي، وسوان وأوديت اللذين يتضح أنهما والدا جيلبرت، في الفترة التي لعب بها البطل في جادة الشانزليزيه⁽⁸³⁾.

بالنسبة للقارئ الذي تتوقف قراءته لـ «البحث...» عند الصفحة الأخيرة

من «طريق سوان»، تتمثل خلاصة الزمن المفقود في «كم هو متناقض أن يبحث المرء في الواقع عن صور خزنها في ذاكرته، التي لا مفر من أن تخسر ذلك السحر الذي تضيفه عليها الذاكرة نفسها، وكونها لا تدرك بالحواس» (I، ص. 462). يمكن أن تبدو «البحث...» نفسها أسيرة صراع يائس ضد الفجوة المتسعة دائماً التي تولد النسيان. حتى اللحظات السعيدة في كومبري، حيث تتحول المسافة بين الانطباع الحاضر والانطباع الماضي على نحو سحري إلى تعاصر عجائبي، يمكن أن يبدو وكأن هذا السلوان المدمر ذاته قد ابتلعها. لن يتسنى استعادة لحظات النعيم أبداً - عدا حالة واحدة - بعد الصفحات المتعلقة بـ «كومبري». وحدها نكهة العبارة الموسيقية المأخوذة من سوناتا فينتوي - وهو مذاق لا نعرفه إلا عبر سرد داخل السرد - تحمل إلينا وعداً آخر. ولكن وعد بماذا؟ لن يتمكن من حل هذه الأحجية، ومعها أحجية اللحظات السعيدة في كومبري، إلا قارئ «الزمن المستعاد».

في حل شفرة علامات العالم، والحب، والانطباعات الحسية الطويل الممتد من «داخل بستان مزهر» إلى «الأسيرة» لا يبقى مفتوحاً إلا طريق الخيبة قبل هذا المنعطف.

الزمن المستعاد

دعونا نتقل الآن دفعة واحدة إلى «الزمن المستعاد»، وهو النقطة البؤرية الثانية في المقطع الناقص الكبير الذي شَبَّهنا به «البحث عن الزمن الضائع»، مذكرين حتى المرحلة الثالثة من بحثنا الكلام عن الفاصل الموسع توسيعاً كبيراً بين هاتين البؤرتين.

ما الذي يعنيه الراوي بالزمن المستعاد؟ لكي نحاول الإجابة على هذا السؤال لا بد أن نستفيد من التناظر بين بداية السرد الكبير ونهايته. كما أن تجربة المادلين تؤشر في «طريق سوان» ما قبل وما بعد بالنسبة لها - أما الما قبل فهو الحالة ما بين الصحو والنام، وأما الما بعد فهو الزمن المستعاد بالنسبة لكومبري - كذلك يؤشر المشهد الكبير في مكتبة آل غيرمانت بدوره

حدود ما قبل، منحه الراوي سعة كبيرة، وما بعد، تُكتشف فيه الدلالة النهائية لـ «الزمن المستعاد».

لا يسرد الراوي الحدث الذي يؤثر ولادة كاتب على نحو مفاجئ، بل هو يمهد لذلك التنوير بوساطة العبور خلال مرحلتين ابتدائيتين. الأولى، والتي تستغرق العدد الأكبر من الصفحات، تتكون من غلالة من الأحداث التي لا يجمع بينها رابط قوي، على الأقل في مخطوط «الزمن المستعاد» غير المكتمل بحالته التي وصلتنا، ولكنها تحمل كلها العلامة المزدوجة للخبية والعزلة.

مما له دلالة أن «الزمن المستعاد» تبدأ بسرد فترة إقامة في تانسونفيل، غير بعيد عن كومبري الطفولة، يكون أثرها إخماد الرغبة، لا إعادة إيقاد الذاكرة⁽⁸⁴⁾. حينها، يؤثر في البطل ما يعانيه من فقدان الفضول الذي بلغ حد تعزيز الإحساس الذي جرّبه ذات مرة في المكان نفسه «في أنني لن أتمكن أبداً من الكتابة» (III، ص. 709). على المرء الكف عن محاولة إعادة عيش الماضي إذا ما أراد العثور على الزمن المفقود مرة أخرى بطريقة لم تتضح معالمها بعد. يرافق موت الرغبة في رؤية الأشياء مرة أخرى هذا موت الرغبة في امتلاك النساء اللواتي ظل عاشقاً لهن. من اللافت للانتباه أن الراوي يعتبر «فقدان الفضول» هذا شيئاً «أنزله به الزمن»، الكيان المشخص الذي لن يُرَدّ تماماً على نحو كلي لا إلى الزمن المفقود ولا الأبدية، وسوف يرمز له حتى النهاية، كما في أقوال الحكمة القديمة الماثورة، بقوته التدميرية. سوف أعود إلى هذا في نهاية مناقشتنا.

تُطرح كل الأحداث المروية وكل اللقاءات المسجلة فيما يعقب ذلك تحت علامة واحدة هي التدهور والموت. السرد الذي تقدمه جيلبرت عن بؤس علاقاتها مع سنت - لوب، وهو زوجها الآن؛ زيارة الكنيسة في كوبري، حيث تُبرز قوة ما يبقى ماثلاً هشاشة الكائنات الفانية؛ وخصوصاً، الذكر المفاجئ لـ «السنوات الطويلة» التي أمضاها البطل في المصح، مسهمة في إضفاء مسحة واقعية على الشعور بالعزلة والابتعاد الذي تقتضيه الرؤيا

الختامية⁽⁸⁵⁾. ويزيد وصف باريس أثناء الحرب قوة الانطباع بالتآكل الذي يؤثر في كل شيء⁽⁸⁶⁾. كما أن هنالك ما يوحى بالانحلال في طيش صالونات الاستقبال الباريسية (III، ص ص. 746 - 747). لقد طوى النسيان حملات الدفاع عن دريفوس أومهاجمته. وزيارة سنت - لوب، العائد من الجبهة إلى بيته، هي زيارة شبح؛ ونتعرف على موت كوتار، ثم على موت مسيو فيردورين. ويضع لقاء المصادفة مع المسيو دي شارلوس في احد شوارع باريس خلال الحرب على هذا الدخول الفاسد ختم دناءة مهلكة. هنالك نوع غريب من الشعر يتصاعد من انحطاط جسده، ومن غرامياته (III، ص. 789) يعزوه الراوي إلى عزلة تامة لم يكن البطل بعد قادراً على بلوغها (III، ص. 799). ويختزل المشهد في مبقى جوبيان، حيث يسلم البارون نفسه ليضربه بالسياط جنود في إجازة، تصوير مجتمع في حالة حرب، إلى جوهره الانحطاطي. إن الترابط في السرد بين زيارة سنت - لوب الأخيرة، التي يعقبها مباشرة خبر وفاته - وهو يستحضر موتاً آخر هو موت البرتين⁽⁸⁷⁾ -، وسرد أعمال شارلوس الشائنة إلى أقصى حد، حتى أنها تؤدي إلى إلقاء القبض عليه، تمنح هذه الصفحات نبرة اضطراب عارم جنائزي، وهو ما سيهيمن مرة أخرى، برغم انه سيكتسب دلالة مختلفة تماماً، على المشهد المناظر الذي يأتي في أعقاب الكشف الكبير، مشهد العشاء محاطاً برؤوس الموت، أول اختبار للبطل وقد تحول إلى الأبدية.

يحدث الراوي قطعاً حاداً في القصة ليؤكد مرة أخرى على نوع العدم الذي يحيط بالكشف. «المصح الذي انسحبت إليه لم يكن أكثر نجاحاً في شفائي من الأول، وقد مر العديد من السنوات قبل أن اخرج منه» (III، ص. 885) يتأمل البطل للمرة الأخيرة خلال رحلة عودته إلى باريس حالته المثيرة للشفقة: «كذبة الأدب»، «عدم وجود المثال الذي آمنت به»، «الهام ممتنع»، «لا مبالاة مطلقة» (III، ص ص. 886 - 886).

تعقب المرحلة الأولى من التعليم التي أنجزتها ظلمات التذكر مرحلة

ثانية أقصر، تحمل علامات تؤذن بقرب وقوعها⁽⁸⁸⁾. تنقلب نبرة السرد في الواقع ما أن يسلم البطل نفسه، كما في الأيام الباكّة في كومبري لغواية اسم آل غيرمانت مطبوعاً على الدعوة إلى حفلة ما بعد الظهر التي يقيمها الأمير. لكن لرحلة السيارة هذه المرة وقع رحلة بالطائرة. «ومثل طيار ظل حتى الآن يتقدم بعناء على الأرض، حلّقت بـ «إقلاع» مفاجئ نحو مرتفعات الذاكرة الصامتة على مهل». (III، ص. 890). ولا يكفي لإحباط هذا الإقلاع اللقاء مع سوء الطالع متمثلاً في شخص مسيو دي شارلوس، في دور نقاهة بعد نوبة صرع - «لقد أضفى هذا المرض الأخير على الأمير المنهار العجز تلك الفخامة الشكسبيرية التي تليق بالملك لير» (III، ص. 891). بدلاً من ذلك، يجد البطل في صورته المهدمة «نوعاً من الرقة، تكاد تكون رقة جسدية، وعزلة عن وقائع الحياة، وهي مظاهر تتجلى على نحو ملفت في أولئك الذين ضمهم الموت بالفعل تحت ظله» (III، ص. 892) عندها فقط يتلقى البطل بصيغة «إيدان» تخليصي سلسلة من التجارب تشبه تماماً، عبر السعادة التي تمنحه إياها، تجارب كومبري، «التي بدا لي أن آخر أعمال فينتوي تجمع خيوط طابعها الجوهري» (III، ص. 899) السير على البلاطات غير المستوية، صوت ملعقة تضرب صحناً، صلابة مندبل مائدة مُنثى ومطوي. ولكن، بينما كان على البطل في السابق تأجيل استيضاح أسباب سعادته حتى وقت لاحق، نراه هنا قد عقد العزم على حل الأحجية. ليس الأمر في أن الراوي قد اخفق، منذ فترة كومبري، في إدراك أن الفرح الغامر الذي يكتنفه ناجم عن اللقاء العرضي بين انطباعين متشابهين برغم التباعد بينهما زمنياً. لم يتأخر هذه المرة أيضاً في التعرف على البندقية والبلاطتين غير المتساويتين في كنيسة القديس مرقس تحت تأثير البلاطات غير المتساوية في باريس. لذا ليست الأحجية المطروحة للحل هي إمكانية إلغاء المسافة الزمنية بهذه الطريقة «صدفة»، كما لو كان بسحر ساحر، في تطابق لحظة واحدة؛ وإنما في أن الفرح الذي يُجرّب «شبيه باليقين، وهو كافٍ، من دون أي براهين

أخرى، لجعل الموت مسألة لا تعنيني» (III، ص.900). بكلمات أخرى، الأحجية المطروحة للحل هي العلاقة التي تصل ما بين اللحظات السعيدة، وهي علاقة توفرها الصدفة والذاكرة اللاإرادية، و«التاريخ اللامرئي لدعوة (ربانية)».

وهكذا نجد أن الراوي قد اصطنع نقلة سردية من كتلة المرويات الكبيرة التي تمتد آلاف الصفحات إلى المشهد الحاسم في المكتبة، وهي نقلة تحوّل معنى رواية النمو الداخلي من تعلم العلامات إلى لحظة الهام. إن نظرة إلى هذين الجناحين للتحوّل السردى ضمن إطار واحد تكشف لنا أنهما يحققان في آن واحد فصلاً بين بؤرتي «البحث...» ووصلاً بينهما. أما الفصل فتحققه علامات الموت، التي تؤكد إخفاق تعلم علامات تفتقر إلى مبدأ يساعد على حل شفرتها. وأما الوصل فيتم عبر علامات الإيذان بالكشف الكبير.

ها نحن الآن نقف في قلب مشهد لحظة الإلهام العظيمة الذي يقرر فيه المعنى الأولي - لا النهائي - لفكرة الزمن المستعاد. إن المكانة السردية لما يمكن أن يُقرأ بوصفه أطروحة فخمة عن الفن - وحتى بوصفه «فن الشعر» الخاص بمارسيل بروست، وقد أدخل بقوة في السرد - تتعزز عبر رابطة الفضاء السردى الدقيقة التي يؤسسها الراوي بين مشهده الرئيس هذا والسرد الأسبق للأحداث التي كانت بمثابة النقاط الانتقالية في تجربة تعليم البطل. لهذه الرابطة مستويان في آن واحد. هنالك أولاً المستوى الحكائي الذي حرص فيه الراوي على أن يوضع سرده حول العلامات الختامية المنذرة في المكان ذاته الذي يرد فيه سرد الكشف الكبير: «غرفة الجلوس الصغيرة التي تستخدم مكتبة» (III، ص.900). بعدها، المستوى الشمسي، حيث يقطع الراوي تأمله في الزمن بلحظات السعادة وعلامات الإيذان. بهذا فإن التأمل في الزمن يصدر عن أفكار الراوي أثناء تأمله ما ظلت الصدفة توفره حتى الآن⁽⁸⁹⁾. أخيراً، وعلى مستوى أعمق من التأمل، فإن النظر في الزمن يركز

على السرد بوصفه حدثاً مؤميساً في دعوة الكاتب. إن دور الأصل، الذي يُنسب بهذه الطريقة إلى النظر في تاريخ دعوة، هو الضمانة لمنع اختزال الطابع السردى لهذا النظر ذاته.

ما قد يبدو انه يبعد هذا النظر عن السرد هو حقيقة أن الزمن الذي يساعدنا على إضاءته ليس، في البداية، زمناً مستعاداً، بمعنى الزمن المفقود الذي يُعثر عليه مرة أخرى، لكنه تعليق للزمن نفسه، انه الأبدية، أو إن استخدمنا كلمات الراوي، الوجود «خارج الزمن» (ص.904)⁽⁹⁰⁾. وستبقى الحالة هكذا ما دام النظر غير خاضع لقرار الكتابة، الذي يعيد إلى الفكر قصد عمل مزعم. تؤكد لنا العديد من الملاحظات الصادرة عن الراوي أن ما هو خارج الزمن لا يبدو كونه العتبة الأولى من الزمن المستعاد. هنالك، أولاً، ما يميز التأمل نفسه من تبخر سريع؛ ثم هنالك ضرورة أن يدعم البطل اكتشافه لكيان خارج - زمني يشكّله بتغذية سماوية لجواهر الأشياء؛ وأخيراً، نجد الطبيعة المحايثة، واللامتعالية، لأبدية تتأرجح بغموض بين الحاضر والماضي، وتخلق منهما وحدة معينة. لذلك فان خارج - الزمني لا يستنفد المعنى الكامل لـ «الزمن المستعاد». انه بالطبع، ضمن الأبدية^(*) sub specie aeternitatis تؤدي الذاكرة اللاإرادية معجزتها في الزمن⁽⁹¹⁾. ويتمكن الفكر من أن يحتوي بنظرة واحدة مسافة المتنوع وفورية المتشابه. وانه بالفعل لوجود خارج - زمني، عندما يستفيد من التشابهات التي تقدمها الصدفة والذاكرة اللاإرادية، وكذلك من عملية تعلم العلامات، لكي يعيد مسار الأشياء نحو الفناء إلى جوهرها «خارج الزمن»، (III، ص.904). ومع ذلك، يبقى هذا الوجود خارج الزمني يفتقد القوة على «جعلني أُعيد اكتشاف الأيام التي انطوت منذ عهد بعيد» (المصدر السابق). عند نقطة الانعطاف هذه ينكشف معنى العملية السردية التي تتكون منها الحكاية حول الزمن. ما يبقى قيد

(*) أي برويتها ضمن صفتها الأبدية، ومن هنا كما هي من حيث الجوهر، وهو تعبير مأخوذ من سبينوزا - المترجم.

الإنجاز هو جمع التكافؤين(*) المنسوبين جنباً إلى جنب إلى «الزمن المستعاد»⁽⁹²⁾. يشير هذا التعبير أحياناً إلى ما هو خارج الزمن، ويشير في أحيان أخرى إلى فعل إعادة اكتشاف الزمن المفقود. لن يضع نهاية لازدواجية معنى الزمن المستعاد إلا قرار الكتابة. لم يكن ثمة من سبيل لتجاوز هذه الازدواجية قبل اتخاذ هذا القرار. يرتبط خارج - الزمني في الواقع بتأمل في أصل الخلق الجمالي نفسه، في أثناء لحظة تأملية غير متصلة بتسجيلها في عمل فعلي، ومن دون أي اعتبار لعناء الكتابة. في مجال خارج - الزمني، لا يعد العمل الفني، من منظور أصله، نتاج صانع الكلمات؛ فوجوده يسبقنا؛ وما علينا إلا اكتشافه. على هذا المستوى، أن تخلق يعني أن تترجم.

ينجم الزمن المستعاد، بالمعنى الثاني للمصطلح، أي بمعنى الزمن المفقود وقد عاد إلى الحياة، عن تثبيت هذه اللحظة التأملية الهاربة في عمل باق. السؤال عندئذ، كما قال أفلاطون عن تماثيل ديدالوس التي بدت دائماً على استعداد للفرار، هو تقييد هذا التأمل من خلال تسجيله داخل امتداد محدد. «لقد قررت بصدد تأمل جوهر الأشياء هذا، إذًا، أن عليّ في المستقبل أن اضبط نفسي بحيث أتمكن من تجميده على نحو ما. ولكن كيف؟ وبأي الوسائل يمكن لي أن أفعل ذلك؟» (III، ص. 909). هنا يعرض الخلق الفني وساطته بعد أن أخذ القيادة من التأمل الجمالي. «ما هذه الوسيلة التي بدت لي الوسيلة الوحيدة، إن لم تكن خلق عمل فني؟» (III، ص. 912). خطأ سوان، في هذا المجال، انه ذوّب السعادة التي منحناها له جملة السوناتا في مسرات الحب: «لم يكن قادراً على أن يجدها في الخلق الفني» (III، ص. 911). وهنا أيضاً يهبط فك شفرة العلامات لمد يد العون للتأمل المتبخر ولا يتحقق ذلك بان يقوم مقامه، واقل من ذلك أن يسبقه، ولكن بان يضيئه بإرشاده.

(*) التكافؤ valence في الكيمياء هو قابلية الذرة أو مجموعة ذرات على الاقتران مع ذرات أخرى بنسب معينة - المترجم.

يملك قرار الكتابة إذا القدرة على تحويل الطابع خارج - الزمني للرؤيا الأصلية إلى زمنية انبعاث الزمن المستعاد. بهذا المعنى يمكننا القول بحق إن عمل بروست يسرد الانتقال من معنى للزمن المستعاد إلى آخر؛ وهو السبب في اعتباره حكاية حول الزمن.

بقي علينا القول بأية طريقة تتأكد الطبيعة السردية لميلاد دعوة (ربانية) عبر فعل الاختيار الذي يعقب كشف حقيقة الفن، وكذلك عبر انهماك البطل في العمل المزمع إنجازه. يقع هذا الاختيار عبر تحدي الموت. وليس من المبالغة القول إن العلاقة مع الموت هي ما يُميز الفارق بين معنيين للزمن المستعاد: خارج - الزمني، الذي يسمو على «قلقي بخصوص موضوع موتي» ويجعلني «غير آبه بتقلبات المستقبل» (III، ص. 904)، والانبعاث في العمل حول الزمن المفقود. إذا كان مصير الأخير ينتهي إلى مسؤولية عناء الكتابة، فان تهديد الموت لن يقل في الزمن المستعاد عنه في الزمن المفقود⁽⁹³⁾.

هذا هو ما أراد الراوي أن يعنيه عندما وضع في أعقاب سرد الاهتداء إلى الكتابة المشهد المدهش الذي يقدمه الضيوف في حفل عشاء الأمير دي غيرمانت. هذا العشاء، الذي بدا فيه كل الضيوف وكأنهم «متنكرين» [s'être fait une tête]، (III، ص. 920) - كان فعلياً رأس موت -، أوله الراوي على نحو مقبر على أنه «انقلاب مشهدي ودراماتيكي» (III، ص. 959)، وقال عنه أنه «هدد بأن يضع أمام مشروعي أكثر الاعتراضات جدية» (III، ص. 960 - 959). ما هذا إن لم يكن الرابط بالموت، الذي يهدد، من دون أن تكون له سلطة على خارج - الزمني، التعبير الزمني عنه المتمثل في العمل الفني نفسه.

من هي الشخصيات في رقصة الموت هذه؟ «عرض دمي، نعم، لكنه عرض كان ضرورياً فيه، من أجل مهاواة الدمى مع الناس الذين عرفهم في الماضي، قراءة ما كان مكتوباً على مستويات عديدة في آن واحد، مستويات تقع خلف المظهر الخارجي للدمى وتمنحها عمقاً، وتجبر المرء بينما هو ينظر إلى هذه اللعب المعجزة القيام بجهد فكري عارم؛ إذ كان لزاماً عليه

دراستها بعينه وذاكرته معاً. تلك كانت دمي تسبح في الألوان الأثيرية للسنين، دمي جعلت الزمن خارجياً، الزمن غير المرئي عادة، يبحث، لكي يصبح مرئياً، عن أجساد يستحوذ عليها أينما وجدها، لكي يسلط فانوسه السحري عليها ويعرضها». (III، ص. 964)⁽⁹⁴⁾. ما الذي تعلنه كل هذه الشخوص المحتضرة إن لم يكن موت البطل الوشيك نفسه؟ (III، ص. 967). هنا يكمن الخطر. «لقد اكتشفت هذا الفعل المدمر للزمن في اللحظة نفسها التي ساورني فيها الطموح لجعل وقائع كانت خارج الزمن مرئية ولإضفاء الطابع الفكري عليها بصياغتها في عمل فني» (III، ص. 971). إن لهذا الإقرار أهمية كبرى. ألا يمكن أن تكون الأسطورة القديمة حول الزمن المدمر أقوى من رؤيا الزمن المستعاد بوساطة العمل الفني؟ نعم، إذا ما فصل المعنى الثاني للزمن المستعاد عن معناه الأول. والواقع إن هذا هو الإغراء الذي يستحوذ على البطل حتى نهاية السرد. وهو إغراء قوي مادام جهد الكتابة يتزامن مع الزمن المفقود. الأسوأ، أن السرد السابق قد أكد بطريقة معينة، بوصفه سرداً على وجه الدقة، الطبيعة المتبخرة للحدث، المرتبطة باكتشاف إلفائه في خارج - الزمني. لكن هذه ليست الكلمة الفصل. يكشف الزمن للفنان القادر على الحفاظ على العلاقة بين الزمن المنبعث وخارج - الزمني، عن جانبه الأسطوري الآخر: تشهد الهوية العميقة التي تحافظ عليها الكائنات برغم مظهرها المتغير على «قوة التجديد بأشكال مبتكرة التي يمتلكها الزمن، والتي تستطيع بهذا أن تنتج، بينما هي تحترم الوحدة بين الفرد وقوانين الحياة، تغيراً في المشهد، وتدخل تباينات جريئة على المظاهر المتلاحقة لشخص واحد» (III، ص. 977 - 978). عندما سنناقش التعرف لاحقاً، بوصفه المفهوم الأساسي للوحدة بين بؤرتي القطع الناقص لـ «البحث...» سيكون لزاماً علينا تذكر أن ما يجعل التعرف على الكائنات ممكناً مازال هو «الفنان، الزمن» (III، ص. 978). «إن هذا الفنان، فضلاً عن ذلك، يعمل ببطء شديد» (المصدر السابق)

يرى الراوي علامة تدل على إمكانية عقد مثل هذا الميثاق بين صورتين «الزمن المستعاد» والحفاظ عليه في اللقاء غير المتوقع، والذي لم يسمح كل ما مر من قبل بالتنبؤ به: ظهور ابنة جيلبرت سوان من روبرت دي سان - لوب، التي ترمز إلى التوفيق بين «الطريقين»، طريق سوان عبر أمها، وطريق آل غيرمانت عبر أبيها. «وجدتها رائعة الجمال. مازالت غنية بالآمال، طافحة بالضحك، شكّلتها الأعوام ذاتها التي فقدتها أنا، كانت تشبه شبابي». (III، ص. 1088). هل يُوحى هذا الظهور، الذي يوفر عياناً للمصالحة، التي أعلن عنها أو استُشرفت عدة مرات في العمل، بأن للخلق الفني ميثاقاً مع الشباب - مع «نسبة المواليد»، كما يمكن أن تقول حنا أرندت - الأمر الذي يجعل الفن، بخلاف الحب، أقوى من الموت؟⁽⁹⁵⁾

على خلاف العلامات السابقة ليست هذه العلامة إعلاناً عن شيء قادم ولا هي تحذير سبقي، إنها بالأحرى «مهماز». «كان لفكرة الزمن قيمة بالنسبة لي لسبب آخر: لأنها كانت مهمازاً، كانت تقول لي إن الألوان قد آن لأن أبدأ إن كنت أرغب في بلوغ ما كنت أدركه في بعض الأحيان طوال حياتي، بإيجاز ومضات برق، على طريق غيرمانت وخلال جولاتي في عربة مدام دي فلبارسي، وفي لحظات الإدراك التي جعلتني أفكر أن الحياة تستحق العيش. كم تبدو في عيني أحق بالعيش الآن، الآن وقد توفرت لي القدرة على ما يبدو لرؤية أن هذه الحياة التي نحيها في نصف ظلام يمكن إضاءتها، هذه الحياة التي نشوّها في كل لحظة يمكن أن نعيدها إلى حقيقة ما كانت عليه، وباختصار أن نحققها بين دفتي كتاب!» (III، ص. 1088).

من الزمن المستعاد إلى الزمن المفقود

في نهاية هذا البحث في رواية «البحث عن الزمن الضائع» بوصفها حكاية حول الزمن، مازال علينا أن نصف العلاقة التي يؤسسها السرد بين بؤرتي القطع الناقص: تعلم العلامات، بزمنه المفقود، وانكشاف الفن

بتمجيده خارج - الزمني. إن هذه العلاقة هي التي تجعل الزمن مستعاداً، أو إن توخينا الدقة زمناً مفقوداً - مستعاداً. ولكي نفهم هذه الصفة، علينا تأويل الفعل النحوي: ما معنى أن نستعيد الزمن المفقود إذا؟

للإجابة على هذا السؤال ستركز اهتمامنا مرة أخرى على أفكار الراوي حصراً، وهو يتأمل عملاً لم يكتب بعد (في القصة لا يكون هذا العمل ما قرأناه للتو). ونتيجة ذلك أن أفضل طريقة لتعيين المعنى الممنوح لفعل استعادة الزمن هي دراسة الصعوبات المتوقعة لعمل لم يتحقق بعد.

نجد هذه الصعوبات مكشفة في الإعلان الذي يحاول فيه الراوي تشخيص معنى حياته الماضية ضمن علاقتها بالعمل المطلوب تحقيقه. «بذلك فإن حياتي برمتها، وصولاً إلى اليوم الذي نحن فيه يمكن، ومع ذلك لا يمكن، أن تختصر تحت عنوان: دعوة (ربانية)» (III، ص 936)

إن الغموض، الذي يتعزز بحرص، بين نعم ولا، يستحق منا الاهتمام. لا، «الأدب لم يلعب دوراً في حياتي» (المصدر السابق)؛ نعم، هذه الحياة برمتها «شكلت ذخيرة»، تكاد تكون منطقة استزراع تتغذى فيها الحياة المتبرعمة. «على النحو ذاته ترتبط حياتي مع [en rapport avec] ما سيحقق في نهاية المطاف نضجها». (المصدر السابق، التأكيد مني).

ما هي إذاً الصعوبات المطلوب من فعل استعادة الزمن المفقود التغلب عليها؟ ولماذا يكتنف حلها الغموض؟

تطرح فرضية أولية نفسها. هل يمكن استنتاج العلاقة التي يتأسس بها فعل استعادة الزمن على صعيد «البحث...». إجمالاً من تلك العلاقة التي يكشف عنها تأمل أمثلة التذكر المعتمدة الموضحة والبيّنة؟ وبدورها، ألا يمكن أن تكون هذه التجارب متناهية الصغر هي المختبر المصغر الذي تصاغ فيه العلاقة التي ستضفي الوحدة على مجمل «البحث...»؟

يمكن أن نقرأ هذا الاستنتاج الاستقرائي في القول التالي: «ما نسيمه واقعاً هو ارتباط معين بين هذه الأحاسيس المباشرة والذكرات التي تحتوينا - وهو ارتباط مختزل في رؤيا سينمائية بسيطة تبتعد عن الحقيقة كثيراً لمجرد أنها تعلن تقييد نفسها بها -، ارتباط فريد يلزم الكاتب إعادة اكتشافه من أجل أن يربط بعبارة رباطاً أبدياً مجموعتي الظواهر اللتين يجمعهما الواقع معاً». (III، ص. 924) كل عنصر له أهمية هنا: «الارتباط الفريد»، كما في اللحظات السعيدة وكل التعبيرات الشبيهة عن التذكر، وهي ما أن تتضح - عندما «يعاد اكتشاف» صلة (أو علاقة) - حتى يقترن العنصران المختلفان «اقتراً أبدياً في عبارته».

هكذا يفتح أمامنا المسار الأول، الذي يقودنا إلى البحث عن مسارات أخرى، تتعلق بالصور الأسلوبية التي تختص وظيفتها بطرح العلاقة بين شيئين مختلفين. والصورة هنا هي الاستعارة. يؤكد الراوي هذا في عبارة واحدة أجد نفسي مستعداً، مع روجر شاتوك، لأن اعتبرها أحد المفاتيح الهرمنوطيقية لـ «البحث...»⁽⁹⁶⁾. تصبح هذه العلاقة الاستعارية، التي أضاءها كشف اللحظات السعيدة، المنشأ لكل العلاقات التي يُصعد فيها موضوعان متميزان، بالرغم من الاختلافات بينهما، إلى جوهرهما ويتحرران من عوارض الزمن. إن مجمل تعلم العلامات، الذي يقف وراء الحجم الكبير لـ «البحث...»، يخضع بذلك للقانون المُدرك عبر الأمثلة المميزة لعلامات إيدان قليلة، وهي تحمل بالفعل المعنى المزدوج الذي ما على الفكر إلا إيضاحه. تهيمن الاستعارة حيث تفشل رؤيا التصور السينمائي التي تعتمد التسلسل اعتماداً كلياً في نقل الأحاسيس والذكرات. ولقد أدرك الراوي التطبيق العام لهذه العلاقة الاستعارية، إذ يعتبرها «تشبه في عالم الفن الصلة الفريدة التي يوفرها قانون السببية في عالم العلم». (III، ص. 924) لذلك لا مبالغة في القول إن الأحاسيس والذكرات، على مستوى «البحث...» إجمالاً، تكون موجودة ضمناً داخل «الارتباطات الضرورية التي تسم أسلوباً

متقنا» (III، ص. 925). لا يعني الأسلوب هنا أي شيء تزويقي، وإنما الكيان الفريد الناجم عن اتحاد الأسئلة الذي ينطلق منه عمل فني فذ وإجاباته عليها. إن الزمن المستعاد، بهذا المعنى الأول، هو الزمن المفقود وقد أبدته الاستعارة.

ليس المسار الأول هو المسار الوحيد. يستلزم الحل الأسلوب، الذي يُدرج تحت حماية الاستعارة، حلاً يكون تكملة له يمكن وصفه بـ «البصري»⁽⁹⁷⁾. والراوي نفسه يدعونا إلى متابعة هذا المسار الثاني، من دون أن يتوقف ليُعرف النقطة التي يتقاطعان عليها، عندما يعلن «أن الأسلوب بالنسبة للكاتب، شأنه شأن اللون بالنسبة للرسم، ليس مسألة تقنية ولكن رؤية». (III، ص. 931).

نفهم من رؤية شيئا يختلف عن بث الحياة فيما هو مباشر: إنها قراءة للعلامات تتطلب تدريباً كما نعرف. إذا كان الراوي يسمي تجربة الزمن المستعاد «رؤية»، فإن ذلك يصح ما دامت هذه الرؤية متوجة بـ «تعرف» هو العلامة التي يتركها خارج - الزمني على الزمن المفقود⁽⁹⁸⁾. مرة أخرى، توضح اللحظات السعيدة على نحو مصغر هذه الرؤية المجسامة المتشكلة بوصفها نوعاً من التعرف. لكن فكرة «نظرة بصرية» تنطبق على كل تعلم للعلامات. إن هذا التعلم يحفل بالأخطاء البصرية، التي تتخذ عند استعادتها معنى سوء المعرفة. في هذا المجال، فإن نوع رقصة الموت - رؤوس الموت في حفلة عشاء آل غيرمانت - التي تعقب التأمل الكبير، لا تميزها ببساطة علامة الموت، ولكن أيضاً علامة عدم المعرفة (III، ص. 971، 990 ... الخ). بل إن البطل يخفق حتى في التعرف على جيلبرت. وهو مشهد حاسم، لأنه يضع عن طريق الاستعادة كل التقصي السابق تحت مسمى كوميديا الأخطاء (الأخطاء البصرية) وعلى طريق إنجاز مشروع تعرف تكاملي في آن واحد. يخولنا هذا التأويل الإجمالي لـ «البحث...» بصيغة التعرف اعتبار اللقاء بين البطل وابنة جيلبرت مشهد تعرف أقصى، إلى درجة أن الفتاة، كما

قلت من قبل، تجسّد التوفيق بين الطريقتين، طريق سوان وطريق آل غيرمانت.

يتقاطع المساران اللذان تابعتها في نقطة معينة. تشترك الاستعارة مع الإدراك في أنهما يؤديان دور الارتفاع بانطباعين إلى مستوى الجوهر، دون إلغاء الاختلاف بينهما. «لأن [التعرف] على شخص ما، ولأسباب أقوى معرفة هوية شخص ما بعد الفشل في التعرف عليه، هو أن تسند شيئين متناقضين لمحمول واحد» (III، ص.982). يؤسس هذا النص الحاسم التكافؤ بين الاستعارة والتعرف، جاعلاً من الأولى (المساوي) المنطقي للثاني («أن تسند شيئين مختلفين لمحمول واحد»)، والثاني (المساوي) الزمني للأول («هو الإقرار بان الموجود هنا، الشخص الذي يتذكره المرء، لم يعد موجوداً، وأيضاً أن ما هو موجود هنا الآن شخص لم يعرف المرء انه موجود» (المصدر السابق). بناء على ذلك يمكن لنا القول إن الاستعارة تمثل بالنسبة للأسلوب ما يمثله التذكر بالنسبة للرؤية المجسامة.

لكن الصعوبة تعاود الظهور في هذه النقطة بالذات. فما هي العلاقة بين الأسلوب والرؤية؟ نلامس بهذا السؤال المشكلة التي تهيمن على «البحث...» إجمالاً، أي تلك الخاصة بالعلاقة بين الكتابة والانطباعات، أو لنقل بالمعنى النهائي، بين الأدب والحياة.

سنكتشف في هذا المسار الجديد المتعلق بفكرة الزمن المستعاد معنى ثالثاً. إذ سأقول الآن إن الزمن المستعاد هو الانطباع المستعاد. ولكن ما الانطباع المستعاد؟ علينا مرة أخرى، الانطلاق من شرح اللحظات السعيدة، ثم نوسع ذلك إلى مجمل تعلم العلامات الذي تستمر متابعته طوال رواية «البحث...». لكي يستعاد الانطباع يجب أولاً أن يكون قد فُقد بوصفه متعة مباشرة، مقيدة بموضوعها الخارجي. المرحلة الأولى لإعادة الاكتشاف هي تلك الخاصة بتحويل الانطباع إلى الداخل⁽⁹⁹⁾. المرحلة الثانية تحويل الانطباع إلى قانون، إلى فكرة⁽¹⁰⁰⁾. المرحلة الثالثة هي تسجيل هذا المعادل الروحي

في عمل فني. ويُفترض أن هنالك مرحلة رابعة، لا يشار إليها إلا مرة واحدة في «البحث...» عندما يذكر الراوي قراء المستقبلين. «إذ بدا لي أنهم لن يكونوا قرائي بل قراء أنفسهم، فكتابي لا يعدو كونه عدسة مكبرة كتلك التي اعتاد صانع البصريات في كومبري تقديمها لزبائنه؛ سيكون كتابي، لكنني سأوفر لهم بمعونته الوسيلة لقراءة ما يقع داخل أنفسهم». (III، ص. 1089)⁽¹⁰¹⁾.

تقدم خيمياء الانطباع المستعاد هذه على أكمل وجه الصعوبة التي يدركها الراوي وهو يعبر عتبة الدخول إلى عمله: كيف السبيل إلى منع استبدال الحياة بالأدب، أو مرة أخرى، كيف السبيل تحت رعاية القوانين والأفكار، إلى منع ذوبان الانطباع في سيكولوجيا أو في سوسيولوجيا تجريدية، عارية عن أية طبيعة سردية؟ يجيب الراوي على هذا الخطر بالحرص على المحافظة على توازن مقلقل بين الانطباعات، التي يقول عنها، «كانت طبيعتها الجوهرية أنني لم أكن حراً في اختيارها، وأنها أعطيت لي كما هي» (III، ص. 931)، ومن جهة أخرى حل شفرة العلامات الذي يسترشد بتحويل الانطباع إلى عمل فني. لذلك يبدو وكأن الخلق الأدبي يمضي في اتجاهين متضادين في آن واحد.

من جهة، يجب أن يعمل الانطباع بوصفه «البرهان على صحة الصورة بأكملها» (المصدر السابق)⁽¹⁰²⁾ وفي سياق هذا الخط يبدأ الراوي بالكلام عن الحياة بوصفها «كتاباً داخلياً لشارات مجهولة» (المصدر السابق). هذا الكتاب، لم نكتبه بعد، ومع ذلك فإن «الكتاب الذي تكوّن هيروغليفياته نماذج لم نقتف أثرها هو وحده الكتاب الذي ينتمي إلينا فعلاً» (III، ص. 914)⁽¹⁰³⁾ والأفضل القول انه «حياتنا الحق... الواقع كما أحسنا به، والذي يختلف اختلافاً كبيراً عما نحمل من قناعات عنه بحيث انه إذ تأتي واقعة عرضية بذكرى حقيقية عنه، تملأنا سعادة غامرة» (III، ص. 915). لذلك فإن إنجاز كتابة العمل تستند على «ملكة الامتثال للواقع الداخلي» (III، ص. 917)⁽¹⁰⁴⁾.

من جهة أخرى، قراءة كتاب الحياة «فعل خلق لا يمكن لأحد أن يقوم بعمله لحسابنا نيابة عنا أو حتى أن يتعاون معنا على إنجازه». (III، ص.913). يبدو أن كل شيء يندفع إلى جانب الأدب الآن. النص التالي معروف على نطاق واسع. «الحياة الحقيقية، الحياة وقد انكشفت وأصبحت أخيراً - فهي إذن الحياة الوحيدة التي يمكن أن يقال إنها قد عيشت فعلاً؛ هي الأدب، والحياة وقد عُرِفَت على هذا النحو هي بمعنى تسكن في كل لحظة لدى كل البشر كما لدى الفنان. غير أنهم لا يرونها لأنهم لا يسعون إلى إلقاء الضوء عليها» (III، ص.931). يجب أن لا نُضَلِّنا هذه العبارة. فهي لا تحوي على ما يقود إلى دفاع عن «الكتاب» كما فهمه مالارميه. بل هي تطرح معادلة لا بد، في نهاية المطاف، من أن تكون قابلة للقلب بين الحياة والأدب، وهو ما يعني في نهاية المطاف بين الانطباع المستقبلي في الأثر الذي تتركه والعمل الفني الذي يعبر عن معنى الانطباع. لكن إمكانية القلب هذه لن توجد كمعطى في أي مكان. يجب أن تكون ثمرة يطرحها عناء الكتابة. يمكن بهذا المعنى أن تعنون «البحث عن الزمن المفقود» البحث عن الانطباع المفقود، إذ لا يعدو الأدب كونه الانطباع المستعاد؛ «نشوة إعادة اكتشاف الواقعي». (III، ص.913).

بهذا تطالعنا نسخة ثالثة من الزمن المستعاد لتأملها. وهي لا تضاف إلى النسختين السابقتين بقدر ما تستوعبهما معاً. في الانطباع المستعاد يتقاطع المساران اللذان تابعاها وبتوقفان بين ما يمكن أن نسميه «الطريقين» في «البحث...»: «طريق الاستعارة على مستوى الأسلوب؛ وطريق التعرف على مستوى الرؤية»⁽¹⁰⁵⁾. وتُظهر الاستعارة والتعرف للعيان بدورهما العلاقة التي يؤسس عليها الانطباع المستعاد نفسه، العلاقة بين الحياة والأدب. وهي علاقة تتضمن النسيان والموت في كل مراحلها.

هكذا هي غزارة معنى الزمن المستعاد، أو بالأحرى عملية إعادة اكتشاف الزمن المفقود. يحتوي هذا المعنى الصيغ الثلاث التي استكشفناها

للتو. يمكن لنا القول إن الزمن المستعاد هو الاستعارة التي تحصر الاختلافات «في الارتباطات الضرورية التي تسم أسلوباً متقناً». وهي أيضاً التعرف الذي يتوج الرؤيا المجسامة. أخيراً، فإن الانطباع المستعاد هو الذي يوفق بين الحياة والأدب. والواقع انه ما دامت الحياة هي الصورة لطريق الزمن المفقود، والأدب صورة لطريق خارج - الزمني، فإن لنا الحق في القول إن الزمن المستعاد يعبر عن استعادة الزمن المفقود في خارج - الزمني، تماماً كما إن الانطباع المستعاد يعبر عن استعادة الحياة في العمل الفني.

لا تندمج بؤرتا القطع الناقص الذي تُشكله «البحث عن الزمن الضائع» في بعضهما البعض؛ تبقى ثمة مسافة تفصل بين الزمن المفقود لتعلم العلامات وتأمل خارج - الزمني. لكنها ستكون مسافة تم اجتيازها.

بهذا التعبير الأخير، «اجتياز» سأختم، لأنه يشير إلى الانتقال من خارج - الزمني، الذي نلمحه في التأمل، إلى ما يسميه الراوي «الزمن مُجسداً» (III، ص. 1105)⁽¹⁰⁶⁾. ما خارج - الزمني إلا نقطة العبور؛ فضيلته انه يخول «انعطافات المراحل المعزولة» إلى مدة متصلة. لذا فإن «البحث...» بعيدة عن الرؤيا البرغسونية الخاصة بامتداد لا يحده حد، إنها تؤكد بدلا من ذلك الطبيعة البعدية للزمن. ومسار حركة «البحث...» يتحرك من فكرة مسافة تفصل، إلى فكرة مسافة تصل معاً. وهذا هو ما توحى به الصورة الختامية المطروحة في «البحث...»، تلك الخاصة بمدة متراكمة تقع، بمعنى ما، تحتنا. من هنا يرى البطل - الراوي الناس «جائمين على طوالات أقدام لا تتوقف عن النمو حتى تصبح يوماً أطول من أبراج الكنائس، مما يجعل المشي عليها في النهاية صعباً ومحفوفاً بالمخاطر معاً، رافعة إياهم إلى قمة سرعان ما يسقطون منها فجأة» (III، ص. 1107). أما بالنسبة له فهو يرى نفسه وقد ضَمَّ إلى حاضره «كل هذا الطول من الزمن»، «جائماً على ذروته المدوخة». (III، ص. 1106). تقول هذه الصورة الأخيرة للزمن المستعاد شيئين: إن الزمن المفقود موجود ضمناً في الزمن المستعاد، ولكن أيضاً إن

الزمن هو ما يجرفنا معه في نهاية المطاف. لا تنتهي «البحث...» بصيحة نصر، بل «إحساس بالتعب، وبما يكاد أن يكون ذعراً» (المصدر السابق). فالزمن المستعاد هو أيضاً الموت المستعاد. لم تولد «البحث...»، بعبارة هانس روبرت ياكوبس، إلا زمناً قيد الإنجاز؛ زمن عمل لم يكتمل بعد، عمل قد يدمره الموت.

حقيقة أن الزمن يحيط بنا في التحليل الأخير، كما تقول لنا الأساطير القديمة، عرفناها منذ البداية؛ فقد كان لبداية السرد طابع غريب يتمثل في إحالتنا رجوعاً على فترة سابقة غير محدودة. لا يختلف الختام السردى عن ذلك. يتوقف السرد عندما يشرع الكاتب في عمله. عندها تنتقل كل الأزمنة من المستقبل إلى الشرط. «لكن مهمتي كانت أطول...»، كان على كلماتي أن تصل إلى أكثر من شخص واحد. كانت مهمة طويلة. أقصى ما أمل به في النهار هو أن أتمكن من النوم. فإذا عملت فلا أعمل إلا في الليل. لكنني بحاجة إلى ليال كثيرة، ربما مئة، وحتى ألف. لا مفر من أن أحيا قلق عدم معرفة إن كان من بيده مصيري أكثر تسامحاً من السلطان شهريار، إن كان سيقبل في الصباح، حين اسكت عن سردي المباح، إرجاء آخر ويسمح لي أن أواصل سردي في المساء التالي» (III، ص. 1101) (107).

هل هذا هو السبب في أن الكلمات الأخيرة تعيد وضع الذات وكل الآخرين في الزمن؟ إنه حقاً «مكان كبير بالمقارنة مع ذلك الفضاء المقيد الذي يسمح لهم به المكان» (المصدر السابق) إلا أنه برغم ذلك مكان «داخل بُعد الزمن». (ص. 1107).

الاستنتاجات

أود عند نهاية هذا الجزء الثاني من دراستي للزمان والسرد إجراء تقييم إجمالي، كما فعلت في نهاية الجزء الأول (ص. 353 - 359). يتعلق الاستنتاج الأول الذي اخرج به بالنموذج السردى الذي وضعته في القسم الأول من «الزمان والسرد» تحت عنوان «ثالث المحاكاة». لقد حرصت الدراسة التي انتهى القارئ للتو من قراءتها على البقاء داخل حدود المحاكاة²، أي ضمن حدود العلاقة المحاكاتية التي ماهى أرسطو بينها وبين تأليف لحكاية ما محكوم بقاعدة. هل كنت وفيًا حقاً لهذه المعادلة المهمة بين المحاكاة والحبكة؟

أود بصراحة أن أعبر عن بعض الشكوك التي ظلت تساورني طوال كتابة هذا الجزء.

تجد أسهلها على الصياغة إجابتها في «فن الشعر» لأرسطو. أليس استخدامي للمفهوم الجوهرى «سرد»، ولصيغة الصفة «سردى» والفعل «يسرد» (وأحياناً «يحكى»، «يقص»)، والتي أعتقد أنها مترادفة بدقة متناهية، يعاني من غموض جدي، إلى درجة أن هذه المصطلحات تبدو وكأنها تغطي أحياناً حقل محاكاة الفعل برمته، وتقتصر في أحيان أخرى على نمط الفضاء السردى مستبعدة النمط الدرامى؟ والأكثر من ذلك، ألا تجد بسبب هذا الغموض أنني نقلت من دون تعليق مقولات يختص بها النمط الدرامى إلى نمط الفضاء السردى؟

يبدو لي أن حقي في استخدام مصطلح «سرد» بمعنى توليدي، بينما أنا احترم في السياقات المناسبة الفرق بين نمط الفضاء السردى والنمط الدرامى، يستند إلى اختياري لفكرة محاكاة فعل كمقولة مهيمنة نفسه. الواقع إن لمقولة الحكبة، ومنها تُشتق فكرتي عن الحكب، النطاق نفسه الذى يمتلكه محاكاة الفعل. وهو اختيار يؤدي إلى تراجع التمييز بين نمط الفضاء السردى والنمط الدرامى إلى الخلفية. إنه يجيب عن سؤال «كيف» المحاكاة، وليس عن «ماذا» المحاكاة. لهذا السبب نجد أن بالامكان إيراد الأمثلة على الحكبات المتقنة دون تمييز من هوميروس أو من سوفوكليس.

لكن هذا الشك يعاود الظهور بصيغة أخرى عندما ينظر المرء في ترتيب فصولي الأربعة في هذا الجزء. يمكن أن يُسلم المرء بأنني بتوسيعي وتعميقي لفكرة الحكبة، كما أعلنت في مقدمة الفصلين الأولين من هذا الجزء، قد أكدت وعززت أسبقية المعنى التوليدي للسرد القصصي مقارنة بالمعنى النوعي لنمط الفضاء السردى. من جانب آخر، قد ألام لأنني حصرت تحليلاتي تدريجياً بنمط الفضاء السردى من خلال تعاملتي مع الزمن بصيغة ألعاب. التمييز بين التلفيز والتقرير، ثم التأكيد على الجدلية بين خطاب الراوي وخطاب الشخصية، وأخيراً حقيقة أنني ركزت في النهاية على وجهة النظر والصوت السردى؛ ألا تدل كل هذه الجوانب على انحياز لنمط الفضاء السردى؟ لقد حرصت حرصاً شديداً، وأنا استشرف هذا الاعتراض، على أن لا أقارب هذه الألعاب مع الزمن إلا ضمن إسهامها في تأليف العمل الأدبي، متبعاً في ذلك الدرس الذى تعلمته من باختين، وجينيت، ولوتمان، وأوسبنسكي. واعتقد أنني قد «أغنيت» بهذه الطريقة فكرة الحكبة، بما ينسجم والوعد الذى قطعته في مقدمتي، كما أنني أبقيتها على مستوى عمومية محاكاة الفعل نفسه أيضاً، والتي تبقى بذلك المفهوم الذى استرشد به. وأنا مستعد للاعتراف بأن إجابتي كانت ستزداد إقناعاً لو أن تحليلات مثل تلك التي كرسها هنري غوهير للفن الدرامى قد تمكنت من إظهار أن المقولات نفسها

- وجهة النظر والصوت بين أخريات - تبقى فاعلة في الصنف الدرامي أيضاً⁽¹⁰⁸⁾. كان بوسع ذلك أن يوفر لنا الدليل على أن التركيز على الرواية يمثل ببساطة حصراً لمساحة التناول قائماً كأمر واقع، وهو الوجه الآخر للتركيز الذي مارسه أرسطو على الحكمة المأساوية بما أتى عليها بالنفع. لكن علينا الإقرار بحقيقة غياب هذا الدليل عن العمل الحالي.

لسوء الحظ تبعت هذه الإحالة على الرواية شكوكي الابتدائية بسبب طبيعة هذا الجنس نفسها. هل الرواية مجرد مثال واحد على السرد القصصي بين أمثلة أخرى؟ هذا هو بالفعل ما يبدو أنه الفرضية الكامنة خلف اختيار الحكايات الثلاث عن الزمن التي اختبرتها في الفصل الختامي. ومع ذلك هنالك أسباب تدعونا إلى الشك في أن الرواية تقبل تصنيفها دوناً إشكالات ضمن خطة متجانسة لوصف الأجناس السردية. أليست الرواية جنساً ضد - الجنس يجعل من المستحيل بحكم هذه الحقيقة ذاتها الجمع مرة أخرى بين الفضاء السردى والنمط الدرامى تحت مصطلح شامل هو «السرد القصصى»؟ هنالك ما يعزز هذا الجدل على نحو يثير الإعجاب في المقالات التي كرسها باختين لـ «المخيلة الحوارية»⁽¹⁰⁹⁾. حسب باختين، تفلت الرواية من كل تصنيف متجانس لأننا لا نستطيع أن نجمع تحت مسمى واحد تلك الأجناس التي أصابها الجفاف، والملحمة مثالها التام، مع الجنس الأدبي الوحيد الذي وُلد بعد تأسيس الكتابة والكتب، الوحيد الذي يستمر في التطور من دون أن يتوقف أبداً عن معاودة التفكير في هويته. قبل الرواية، كانت الأجناس ذات الأشكال الثابتة تميل إلى تعزيز بعضها البعض مشكلة بذلك كلاً متجانساً، طاقماً أدبياً متسقاً، وبالتالي كان بوسع نظرية عامة في التأليف الأدبي مقاربتها. لكن الرواية، بما أوقعته من زعزعة لبقية الأجناس، بشت الاضطراب في الانساق الإجمالي. حسب باختين، هنالك ثلاثة عوامل رئيسة تمنعنا من وضع الملحمة والرواية ضمن صنف واحد. أولاً، أن الملحمة تضع تاريخ بطلها في «ماض تام» إذا استخدمنا تعبير هيجل، ماض لا صلة له مع زمن

الراوي (أو القاص) وجمهوره. ثم أن هذا الماضي المطلق لا يرتبط بزمن التلاوة إلا بوساطة التقاليد الوطنية التي تأمر باحترام يخلو من أي نقد، وبالتالي من أية ثورة. أخيراً، وقبل كل شيء، يعزل التقليد عالم الملحمة وشخصياته البطولية عن محيط التجربة الجمالية والشخصية للناس اليوم. الرواية تولد من تدمير هذه «المسافة الملحمة». لقد كان للأثر الضاغط الذي مارسه الضحك، والسخرية، و«الكرنفالية»، وعلى نحو أعم الوسائل التعبيرية للملهة الجادة - التي تبلغ ذروتها في عمل رابليه، الذي يلقي أعلى درجات الاحتفاء من باختين نفسه - كان لكل هذا الأثر دوره في أن تخلي المسافة الملحمة الطريق للراهنية المستندة إلى الاشتراك في كون أيديولوجي ولغوي واحد والتي تميز العلاقة بين الكاتب والشخصيات والجمهور في عصر الرواية. باختصار، إن ما يوفر الأساس الأكيد لإقامة الضدية بين أدب «وضع» وكل ما عداه من أدب «رفيع» هو اندثار المسافة الملحمة.

هل يجعل هذا التضاد الشامل بين الملحمة والرواية من تحليل كالذي قدمته، يدعي جمع كل الأعمال الهادفة بشكل أو بآخر إلى خلق محاكاة للفعل تحت مُسمى عام واحد، عديم الفائدة؟ لا اعتقد ذلك. مهما وسعنا شقة التضاد بين الأدبين «الرفيع» و«الوضع»، ومهما عمقنا الهوة التي تباعد المسافة الملحمة والراهنة بين الكاتب والجمهور، فإن ذلك لن يلغي الملامح العامة للقصص. كانت الملحمة القديمة، على نحو لا يقل عن الرواية الحديثة، نقداً متفحصاً لمحدوديات الثقافة المعاصرة لها كما بين جيمس ردفيلد عبر مناقشته الإلياذة. والعكس بالعكس، لا تحقق الرواية الانتماء إلى زمنها إلا بقبولنا نوعاً آخر من المسافة، هي مسافة القصص نفسها. وهذا هو السبب الذي يدعو النقاد المعاصرين إلى الاستمرار، كما فعل غوته وشيلر في عملهما المشترك، وهيغل في «ظاهراتية الروح» وفي كتابه «علم الجمال»، دون إنكار لأصالة الرواية في تشخيصها بوصفها شكلاً - وهو شكل «وضع» إن شئت - من أشكال الملحمة، وتقسيم الأدب إلى ملحمة،

ودراما، وشعر غنائي. تؤثر نهاية المسافة الملحمية بالتأكيد قطيعة بين المحاكاة «الرفيعة» والمحاكاة «الوضيعة» لكننا تعلمنا من نورثرب فراي الإبقاء على هذا التمييز ضمن فضاء القصص. وكما لاحظ أرسطو، فسواء كانت الشخصيات «أرقى» أم «أدنى» أم «مساوية» لنا، فإنها تبقى كلها برغم ذلك تمثل فاعلين لتاريخ مُحاكى. وهذا هو السبب في أن الرواية لم تفعل إلا زيادة مشكلة الحبك تعقيداً على نحو لانهاثي، بل ويمكن لنا حتى القول، من دون الوقوع في تناقض، وبدعم من باختين أيضاً، أن تمثيل واقع في حالة تحول كامل، ورسم شخصيات غير مكتملة، والإحالة على حاضر يُعد مُعلّقاً، «دون أية خاتمة»؛ كل هذا يستلزم من خالق الحكايات نظاماً شكلياً أكثر صرامة من ذلك المطلوب من حكاياتي العالم البطولي الذي يحمل معه إكتماله الداخلي. لكنني لن احصر نفسي في مثل هذا الجدال الدفاعي. فأنا ادعي أن الرواية الحديثة تطالب النقد الأدبي بما هو أكثر بكثير من إعادة صياغة أدق لمبدأ تركيبة المتنوع، الذي عرّفت به الحبك رسمياً. إنها تنتج فضلاً عن ذلك إثراء لفكرة الفعل نفسها، بما يتناسب وفكرة الحبك. فإذا بدا أن الفصلين الأخيرين من هذا الجزء قد ابتعدا عن محاكاة الفعل بالمعنى الضيق للكلمة، لصالح محاكاة الشخصية، من أجل أن ينتهيا، بكلمات دوريت كوهن، إلى محاكاة الوعي، فإن هذا الانجراف الذي سار فيه تحليلي شكلي أكثر منه واقعي. في أقصى حد، يمثل «المونولوج المروي» الذي يمكن أن يُختزل إليه حدث «بنيلوبي» في نهاية رواية جويس «يوليسيس» ذروة الإيضاح لحقيقة أن القول يبقى هو نفسه الفعل، حتى عندما يتحصن القول في الخطاب غير المنطوق لفكر صامت لا يتردد الروائي في سرده.

والآن لا بد من أن يُستكمل هذا التقييم الأولي بمقابلة استنتاجات هذه الدراسة المكرسة لتصور الزمن في السرد القصصي مع تلك التي خرجت بها، في نهاية الجزء الأول، بصدد تصور الزمن في السرد التاريخي.

اسمحوا لي أولاً القول إن هذين التحليلين، اللذين يتعاملان على

التوالي مع التصور في السرد التاريخي والتصور في السرد القصصي، يتوازن على نحو دقيق ويولفان وجهين لبحث واحد في فن التأليف؛ الذي وضعته في القسم الأول تحت مسمى المحاكاة². بهذا يكون واحداً من القيود المفروضة على تحليلاتي للسرد التاريخي قد أزيل؛ لقد أصبح الحقل السردى برمته الآن مفتوحاً أمام التأمل. وبذلك أيضاً، تكون فجوة جذية تعاني منها الدراسات التي تتناول السردية اليوم قد سُدت. لقد استدعيت كتابة التاريخ والنقد الأدبي كليهما ودعوتهما لتشكيل علم سرد كبير، تتساوى فيه حصتا السرد التاريخي والسرد القصصي.

هنالك الكثير من الأسباب التي تمنعنا من التعجب لهذا الانسجام بين السردين التاريخي والقصصي على مستوى التصور. لن أطيل الوقوف عند أول هذه الأسباب، تحديداً حقيقة أن النمطين كليهما مسبوقان باستخدام السرد في الحياة اليومية. إن القسط الأكبر من معلوماتنا عن الأحداث في العالم يرجع في الواقع إلى معرفة تأتينا عبر ما نسمعه من الآخرين. بهذه الطريقة يكون فعل - إن لم نقل فن - السرد أو القصص جزءاً من التوسطات الرمزية للفعل التي ربطتها بالفهم السبقي للحقل السردى ووضعت تحت مسمى المحاكاة¹. بهذا المعنى يمكننا القول إن كل فنون السرد، وفي مقدمتها تلك المتعلقة بالكتابة، هي تقليد للسرد كما يُمارس فعلاً في تعاملات الخطاب العادي. ومع ذلك لا يستطيع هذا المصدر المشترك للمرويات التاريخية والقصصية بحد ذاته أن يحفظ القرابة بين النمطين السرديين في شكلهما الأكثر تفصيلاً، كتابة التاريخ والأدب. لا بد من بحث سبب ثان لهذا الانسجام القائم. لا تصبح إعادة تأسيس الحقل السردى ممكنة إلا بقدر ما تكون العمليات التصورية في الميدانين قابلة للقياس بمعيار واحد. بالنسبة لي ظل هذا المعيار هو الحك. في هذا المجال، لا عجب أننا أعدنا في السرد القصصي اكتشاف العملية التصورية نفسها التي واجهت التفسير التاريخي، طالما إن النظريات السردية المطروحة في القسم الثاني سمحت بتحويل مقولات الحك الأدبية

إلى حقل السرد التاريخي. بهذا المعنى، نكون قد أعدنا إلى الأدب ما كان التاريخ قد استعاره منه.

لا يصمد هذا السبب الثاني، بدوره، إلا إذا حافظت التحويلات الخاصة بنموذج الحبكة البسيط المأخوذ عن أرسطو، على تقارب بيتن حتى في أكثر صيغها تباعدا. ولا بد أن القارئ قد لاحظ في هذا المضممار شيئا كبيرا بين محاولتي التي قمت بها في الحقلين السريين كل على انفراد لكي أمنح فكرة الحبكة امتدادا أوسع، وذلك الفهم الأكثر أساسية الذي قصد إليه أرسطو بواسطة الحكمة معتمدا، كما وصل إلينا، على تأويله المأساة اليونانية. لقد استرشدت في هاتين المحاولتين بالفكرتين أنفسهما الخاصتين بـ «التركيبة الزمنية للمتنوع» و«التوافق المتنافر»، وهما فكرتان تبلغان بالمبدأ الشكلي الأرسطي للحبكة أبعد من أمثلته الخاصة في أجناس ونماذج أدبية مقرررة بصرامة، مفسحا المجال له ليتنقل دون محاذير من الأدب إلى التاريخ.

أخيرا، يعتمد أعمق أسباب الوحدة في «التصور السري» على القرابة بين مناهج الاشتقاق التي استحضرتها في الحالتين لتوضيح خصوصية الممارسات السردية الجديدة التي ظهرت في حقل كتابة التاريخ والقصص السري على حد سواء. أما بالنسبة لكتابة التاريخ، فإن علينا أن لا ننسى التحفظات التي استقبلتُ بها الطروحات السردية التي تجعل التاريخ جنسا بسيطا من نوع «القصة»، ولا تفضيلي الطريق الطويل المتمثل في «السؤال رجوعا» المستعار من «أزمة» هوسرل. لقد تمكنت بهذه الطريقة من أن أنصف ولادة شكل جديد من العقلانية داخل حقل التفسير التاريخي، بينما استبقيت في الوقت ذاته، من خلال هذا النشوء للمعنى، على تبعية العقلانية التاريخية للفهم السري. تذكروا أفكار شبه - الحكمة، وشبه - الشخصية، وشبه - الحدث التي حاولت بوساطتها أن أضع هذه الأنماط الجديدة من التصور التاريخي في المكان الذي يناسبها ضمن مفهوم الحبكة بمعناه الواسع على أنه تركيبة المتنوع.

يقودنا الفصلان الأول والثاني من هذا الجزء إلى تعميم مماثل لمفهوم الحبكة ضمن قيود فكرة التركيبة الزمنية للمتنوع المتنافر. لقد تمكنا، من خلال إثارة الأسئلة حول التقليدية التي تميز تطور الأجناس الأدبية بقدر ارتباطها بالسردية، من أن نستكشف امكانات الانحراف التي يمكن للمبدأ الشكلي للتصور السردى أن يتحملها، وانتهينا إلى الرهان على أنه برغم العلامات المنذرة بانقسام يتهدد مبدأ الحبكة السردية نفسه، فإن هذا المبدأ ينجح دائما في تجسيد نفسه في أجناس أدبية جديدة قادرة على أن تديم التواصل الأزلي على مر العصور لفعل السرد. ولكن اختباري للمحاولات التي قامت بها السيميائية السردية لإعادة صياغة البنى السطحية للمرويات بوصفها وظيفة لبنائها العميقة يمكننا من ملاحظة تواز دقيق بين أبستمولوجيا التفسير التاريخي وتلك الخاصة بالنحو السردية. ولقد بقيت فرضيتي دون تغيير في الحالتين. إنها دفاع عن أسبقية الفهم السردية على العقلانية السردوية. وبذلك تتأكد الطبيعة الشمولية للمبدأ الشكلي الخاص بالتصور السردية بقدر ما يكون ما يواجهه هذا الفهم هو الحبكة في أقصى درجات الشكلانية، أي تحديدا التركيبة الزمنية للمتنوع المتنافر.

لقد اكتفيت حتى الآن بالتأكيد على التماثل، من وجهة نظر أبستمولوجية، بين تحليلاتي للعمليات التصورية على مستويي السردين التاريخي والقصصي. ويمكننا الآن أن ننتقل إلى التأكيد على اللاتناظرات التي لن تجد ايضاحا كاملا لها إلا في الجزء القادم، عندما أرفع الفواصل التي فرضتها على سؤال الحقيقة. فإذا كان هذا السؤال هو ما يميز التاريخ بوصفه سردا حقيقيا عن القصص في نهاية المطاف، فإن اللاتناظر الذي يؤثر في قدرة سرد ما على إعادة تصور الزمن - أي العلاقة المحاكائية الثالثة بين السرد والفعل، على وفق المعجم الذي دأبت عليه - يعلن عن نفسه في المستوى الذي، كما كنا نناقش للتو، يُظهر فيه السردان القصصي والتاريخي أكبر قدر من اللاتناظر بينهما: مستوى التصور.

يمكن أن نهمل هذا اللاتناظر باستعادة النتائج الملفتة التي توصلت إليها دراسات المتوازية للسردين التاريخي والقصصي، طالما أن التأكيد الرئيس، في الكلام عن تصور السرد للزمن، كان يدور حول نمط المعقولية الذي يمكن للقوة التصورية للسرد ادعائه، وليس حول الزمن الذي كان موضع الاهتمام فيه.

والحال، يُعد السرد القصصي، لأسباب لن تظهر إلا في الجزء القادم، أكثر غنى في المعلومات بصدد الزمن على هذا المستوى ذاته من التأليف من السرد التاريخي. لكن ذلك لا يعني أن السرد التاريخي يفتقد الخصب في هذا المجال. إن مناقشتي للحدث، وعلى نحو أدق ملاحظاتي المتعلقة بعودة الحدث بوساطة منعطف الحقبة الزمنية الطويلة، جعلت زمن التاريخ يبدو حقلاً واسعاً، متضمناً من التنويعات ما يكفي لإجبارنا على صياغة فكرة شبه - الحدث. ومع ذلك، فإن هنالك قيوداً أخرى، لن أتمكن من إيضاحها إلا في الجزء الثالث، تنتج عن حقيقة أن الحقب الزمنية المتنوعة التي يهتم بها المؤرخون تمثل لقوانين تتصل بموضعها ضمن تيارات تزداد اتساعاً، وأنها بالرغم من اختلافات كمية تتعلق بالإيقاع وتسارع الأحداث لا سبيل إلى إنكارها، تجعل هذه الحقب الزمنية والسرعات التي تناسبها متجانسة كل التجانس. وهذا هو السبب في أن ترتيب الفصول في القسم الثاني لم يتوافق مع أي تقدّم ملموس في فهم الزمن. لكن الشيء نفسه لا يصح على تصور الزمن في المرويات القصصية. لقد أمكن تنظيم الفصول الأربعة المطروحة في هذا الجزء على أساس فهم يزداد تفصيلاً للزمنية السردية.

في الفصل الأول، كان الأمر يتعلق ببساطة بالجوانب الزمنية الخاصة بنمط التقليديّة الموجودة في تاريخ الأجناس الأدبية ذات العلاقة بالسرد. لقد استطعت بذلك أن أعرف نوعاً من الهوية العابرة للتاريخ، من دون أن تفقد زمنيته، لعملية التصور من خلال إيجاد صلة بين الأفكار الثلاث الخاصة

بالابتكار، والتأيد، والأفول التي تبدو مضامينها الزمنية واضحة للعيان. وذهب الفصل الثاني أبعد في إشكالية الزمن عبر الجدل بين الفهم السردى والعقلانية الخاصة بعلم السرد، بقدر ما تستلزم الأخيرة لنماذجها الخاصة بالنحو العميق للسرد مكانة لا تعاقبية من حيث المبدأ، والتي تبدو تعاقبية التحولات مشتقة وغير جوهرية بالمقارنة معها. ولقد عمدت إلى وضع الطبيعة المنتجة للعملية الزمنية المتأصلة في الحبك بوصفها متصلة بالفهم السردى، على الضد منها، وهي العملية التي نرى عقلانية علم السرد تقدّم صياغة تشبه بها. ولكن مع دراسة «الألعاب مع الزمن» في الفصل الثالث، ظهر للمرة الأولى أن السرد القصصي يطور الموارد التي بدا أن السرد التاريخي يمنع استغلالها، لأسباب أكرر مرة أخرى لا يمكن إيضاحها في هذه المرحلة من بحثي. إذ في السرد القصصي فقط يضاعف صانع الحبكات الالتواءات التي تسمح بإقامة تقسيم إلى زمن يستغرقه السرد وزمن الأشياء التي تُسرد، وهو تقسيم يذّشنه نفسه التفاعل بين التليظ والتقرير في سياق السرد. يحدث كل شيء كما لو أن القصص، من خلال خلقها عوالم خيالية، تفتح فضاء لا محدوداً أمام تمظهر الزمن.

قطعنا في الفصل الأخير الخطوة الأخيرة نحو خصوصية الزمن القصصي، وهو الفصل المكرس لفكرة التجربة القصصية للزمن. وأنا أعني بالتجربة القصصية طريقة افتراضية للعيش في العالم يُسقطها العمل الأدبي نتيجة قدرته على التعالي على الذات. وهذا الفصل هو النظر المقابل للفصل الذي كرسه للقصدية التاريخية في القسم الثاني. لذلك فإن اللاتناظر الذي اتكلم عنه الآن يُوازى علي نحو دقيق التناظر بين السرد التاريخي والسرد القصصي على مستوى البنية السردية. هل يعني هذا أننا اجتزنا، في القصص وكذلك في التاريخ، الحد الذي رسمته في البداية بين مسألة المعنى ومسألة الاحالة، أو الأفضل، كما أميل إلى القول، بين مسألة التصور ومسألة إعادة التصور؟ لا أعتقد ذلك. حتى لو كان لازماً عليّ الأقرار بأن إشكالية التصور

تبقى في هذه المرحلة مفتوحة أمام جاذبية قوية جداً تمارسها اشكالية إعادة التصور - والأمر كذلك بسبب قانون اللغة العام القائل إن ما نقوله محكوم بما نتكلم عنه - فانا لا أزال أؤكد بقوة مماثلة أن الحد الفاصل بين التصور وإعادة التصور لم يتم اجتيازه بعد، ما بقي عالم العمل تعالياً محايثاً في النص.

لهذا التحفظ في تحليلي شبيه في تحفظ مشابه مارسه في القسم الثاني، عندما فصلت الخواص الأبتمولوجية للحدث التاريخي بقدر تعلق الأمر بـ «واقعية» الماضي التاريخي. لذلك، فكما امتنعت عن البت في مسألة الإحالة الخاصة بالحدث التاريخي على الماضي الفعلي، فأنا امتنع عن اتخاذ أي قرار بخصوص قدرة السرد القصصي على كشف وتحويل عالم الفعل الواقعي. بهذا المعنى، فإن الدراسات التي كرستها للحكايات الثلاث عن الزمن تمهد الطريق - دون أن تحقق فعلياً - النقلة من مشاكل التصور السردى إلى مشاكل إعادة تصور الزمن بوساطة السرد، والذي سيكون موضوع القسم الرابع. لن يمكن عبور العتبة التي تفصل بين هذه الإشكاليات، في الواقع، إلا عندما يواجه عالم النص عالم القارئ. عندها فحسب يكتسب العمل الأدبي معنى بكل ماتعنيه الكلمة، عند التقاطع بين العالم الذي يسقطه النص والعالم المعيش للقارئ. وتتطلب هذه المواجهة بدورها المرور عبر نظرية في القراءة، بقدر ما تؤسس الأخيرة المكان المُميز الذي يحدث فيه التقاطع بين العالم المتخيل والعالم الفعلي. لن يتمكن السرد القصصي من تأكيد أحقيته في الصحة إلا بعد طرح نظرية في القراءة في أحد الفصول الختامية للجزء الثالث، وسيكون ثمن ذلك إصلاحاً جذرياً لمشكلة الحقيقة. وسوف يتضمن ذلك قدرة العمل الفني على تقديم الفعل الإنساني وتحويله. وبالطريقة نفسها، لن تدخل مساهمة السرد القصصي في إعادة تصور الزمن في تضاد مع مقدرة السرد التاريخي على الكلام عن الماضي الفعلي وفي تآلف معها إلا عندما يكتمل تقديم نظرية القراءة. إذا كانت

أطروحتي حول مشكلة الإحالة المثيرة لكثير من الخلاف في نظام القصص تمتلك أية أصالة، فإنما سيكون ذلك بقدر امتناعها عن فصل ادعاء الحقيقة الذي يؤكد السرد القصصي عن ذلك الادعاء بها الذي يُقدمه السرد التاريخي، بل تحاول أن تفهم كل واحد منهما في إطار علاقته بالآخر.

لذلك لن تصل مشكلة إعادة تصور الزمن بوساطة السرد إلى خاتمتها إلا عندما نكون في موقع يسمح لنا بجعل المقاصد المرجعية للسرد التاريخي والسرد القصصي على التوالي تتمازج فيما بينها. عندها سيكون تحليلنا للتجربة القصصية للزمن قد رسم على الأقل انعطافة حاسمة باتجاه حل هذه المشكلة التي هي أفق بحثي، من خلال توفيره لنا شيئاً من قبيل عالم النص لنفكر فيه، بينما ننتظر تكملته، التجربة المعيشة للقارئ، التي بدونها لا تكتمل دلالة العمل الأدبي.

دليل المصطلحات

achronological	لا تعاقبي
additive	تراكمي
aeuum	الحين: زمن رياضي يشير إلى عمر العالم دون تحديد.
aktant	فاعل
aktzeit	زمن الفعل
alazon	الدجال
alchemy	الخيماء
alcatory	حظي: متعلق بالحظ
allocutionary	الوسيلي، التقريري
anachronism	القوات: التخالف بين زمنين
anachrony	التخالفات الزمنية
anagnosis	الانكشاف: كيف تنتهي القصة
anagogic	باطني: يشير إلى معان خفية
anagogy	تأويل باطني أو أشاري
analepsis	الاستعادة
angust	كرب
animism	الاحيائية: معاملة الجماد كبشر

anisochronies	تباينات زمنية: تسريع الأحداث أو خفض سرعتها
anterior past	الماضي المتقدم
anticlosure	الختام المضاد
antonomy	التضاد
aorist	الماضي المبهم: زمن ماض لا يتحدد فيه اكتمال الفعل أو استمراريته أو تكراره.
Apocalypse	سفر الرؤيا
apocalypsc	كشف رؤيوي
apodicty	القطعية
apologue	خرافة أخلاقية
aporia	معضلة
apperception	وعي الذات الاستبطاني
apprenticeship	تعلم
archetype	نموذج بدئي
articulation	النطق
as if	كأنما
aspects	كيفيات
aspectuality	كيفية
assertive	تقريري
atemporal	لا زمني
atemporality	اللازمنية
attendent spirit	الروح القرينة
Augenblick	اللحظة الحرجة
auktoriale ES	المنظور العلوي
aussparen	العزل جانباً

authoritative	موثوق به
axioms	أوليات: يصدق فيها العقل لذاته
Bildung streisender	إنسان مترحل: من أجل الثقافة والتعلم
Bildungsroman	رواية التطور الداخلي
canon	معتمد
catalyzer	حفاز
catharsis	تطهير
centrifugal	نابذ: طارد من المركز
centripetal	جاذب نحو المركز
chronicle	أخبار: عرض متسلسل للأحداث
chronogenesis	التوليدية الزمنية
chronology	تعاقب زمني
chronos	الزمن المستقيم: زمن لا عضوي خال من الاعتبارات الإنسانية.
chronotype	نموذج زمني
closure	الختام
codetermined	يتقرر بالمشاركة
coherent	مترابط منطقيا
conative	إرادي
concordance	توافق
concrete	عيني
conditional	شرطي
configuration	تصور
constative	معلوماتي
contariety	ضدية
contraction	إدماج

contradiction	تناقض
contrary	ضد
conventions	مواضعات
coordinate	عطف: في النحو
co-ordinates	إحداثيات
correlate	متلازم
counterpoint	طباق موسيقي: فن مزج الألحان
cri de coeur	صرخة من القلب
dechronologize	يتزع التعاقبية الزمنية
deductive	استنباطي
defiguration	نزع الشكل
denouement (lusis)	حل العقدة
desis	إحكام العقدة
diachrony	التعاقبية
dialogic	حواري
dianoia	الفكرة، التفكير
diegesis	الفضاء السردى: لدى جينيت
diegesis	نمط المحاكاة: لدى أرسطو
discordance	تنافر
discursive	استطرادي: انتقالي من المبادئ إلى النتائج
distentio animi	روح الانتشار
distributional	توزيعي
duration	امتداد
duration	مدة
durativity	صيغة الاستمرار

eidos	الرد على الماهيات
ellipse	قطع ناقص
emplotment	حبك
episode	حدث
epistemic	ابستيمي
equivocal	ملتبس
equivocity	التباس
erlebte Rede	المونولوج المروي
Erzähleit	زمن فعل السرد
Erzählte Zeit	زمن مادة السرد
Erzählungssituationen: Es	الحالات السردية (ستانزل)
eschatology	الدراسات الأخروية
esoteric	عرفان (حدسي لا عقلائي)، باطني
essence	ماهية
ethical	أخلاقي: الأخلاق النظرية
Eucharist	القربان المقدس
evaluation	تقييم
externalized	متخارج
extra - temporal	خارج الزماني
fable	حكاية خرافية
fiction	قصص (خيالي)
fictional	قصصي (خيالي)
fiduciary	ثقوي
figurative	مجازي
first person	ضمير المتكلم

fixation	تثبيت
flashback	استرجاع
focalization	تنبير
folding	الرزم
frequency	التواتر: عدد المرات
fullness	امتلاء
fusion	انصهار
gaze	تحديق
generic	توليدي
genre	جنس أدبي
Gestalt	جشطلت
gnomic	قول مأثور
gnosis	غنوص، معرفة حدسية
grasping together	الإدراك معاً
grotesque	مشوه
hamartia	الخلل (في البطل المأساوي)
heuristic	كشفي، إرشادي
homology	تشاكل
homonymy	الاشتراك اللفظي
homophonic	أحادي الصوت
I - origines	أنا - الأصول
I - origo	أنا - الأصل
Ich ES	منظور المتكلم
illocutionary	التمريزي، الأداتي
immanence	المحايثة، الملازمة

imminent	وشيك
imperfect	غير تام: زمن يشير إلى فعل، في الماضي عادة، يتسم بالاستمرارية وعدم الاكتمال.
inchoativity	صيغة الشروع
induction	استقراء
initiation	استهلال
instant	آن
intelligibility	معقولية
interdiction	التحريم
interlocution	تحادث، حوار
interlocutionary	تحادثي
interpolation	إقحام
introspection	الاستبطان
Ish - originat	ذاتية
isotopy	نظير متماكن
iterative	تكرار
iterativity	صيغة التكرار
judicative	قضائي
kairos	الأوان: زمن تمنحه الفعالية الإنسانية دلالة وانتظاما.
langue	اللغة: لدى دي سوسير
lexeme	وحدة متمكنة (لكسيم)
lexical semantics	علم الدلالة المعجمي
locutionary	التعبيري
meaning effect	ناتج معنى
metabole	التبدل في الحظ

mimesis logou	محاكاة ثانوية للفكر
mimesis praseos	محاكاة فعل
modality	الجهة: نسبة الموضوع إلى المحمول
mode	طراز
molestation	إغاطة: لدى إدوارد سعيد
monad	جوهر فرد
moneme	عنصر دال (مونيم)
monologic	مونولوجي
moral	خلفي: الأخلاق العملية
morphology	مورفولوجيا (علم التشكل)
narratives	مرويات
narratology	علم السرد
noological	عارف
normative	معياري
occurrence	حدوث
omniscient	كلي المعرفة
omnitemporality	الكلية الزمنية
order	ترتيب الأحداث: لدى جينيت
overdetermination	تحديد تضافري
paradigm	نموذج تبادلي
paradigmatic	تبادلي
parody	محاكاة ساخرة
past perfect (pluperfect)	الماضي المركب الثاني: زمن ماض اكتمل وانتهى قبل نقطة محددة أو ضمنية في الماضي.
pathos	التعاطف

perenniality	الديمومة
perfect tense	الزمن التام: يشير إلى فعل تم قبل نقطة محددة في الزمن.
performative	أدائي
peripeteia	انقلاب الحظ
perlocutionary	الوسيلية
personale or figurale ES	منظور الشخصية (ستانزل)
pharmakos	كبش الفداء
phoneme	وحدة صوتية (فونيم)
phonology	علم الصوت (الوظيفي)
picaresque novel	رواية العيارين
pluperfect (past perfect)	الماضي المركب الثاني: يصف فعلاً اكتمل قبل فعل ظاهر أو مضمر آخر
plurivocity	تعددية
polyphony	بوليفونية: تعدد الأصوات
pragmatics	تداوليات
predication	الإخبار
present perfect	الحاضر المركب الأول: يدل على فعل اكتمل في الحاضر.
presentification	استحضار
preterite	الماضي المطلق: يصف فعلاً أو حالة ماضية أو مكتملة
projection	إسقاط
prolepsis	استباق
propositional content	محتوى خبري
prospective	المستقبل الاحتمالي
pseudo - autobiographical	شبه سيرة ذاتية
putting into relief	إبراز المعالم

quest	تقصص
recurrent	معاود، متكرر
refiguration	إعادة التصور
reflective judgment	حكم تأملي أو تفكري
register	مستوى التعبير
relogicizing	إعادة المنطقية
renunciation	التخلي
reported	غير محكي
resonance - effect	الأثر الترجيعي
retrospective	استعادي
revelation	كشف
rites	طقوس
rituals	شعائر
rupture - effect	أثر القطع
Scepticism	ارتبابية
schematism	تخطيطية
schism	انشقاق
second order	الصف الثاني
segments	أجزاء، مقاطع
sequence	تتابع
setting aside	العزل جانبا
signification	دلالة
simulocrum	صورة تشبيهية
singularity	(سرد) المرة الواحدة
speech acts	أفعال الكلام

speech situation	حالة كلامية
sprechsituation	حالة كلامية
statement	تقرير
Stereo - optics	بصريات مجسمة
syntagmatic	تتابعي
syntax	التركيب النحوي
taxonomy	تصنيف
tempo	شدة الايقاع
temporality	الزمنية
tense	زمن نحوي
tensivity	صيغة التوتر
terminativity	صيغة الختام
textzeit	زمن النص
thematic	ثمعي
third person	ضمير الغائب
tradition	تقليد
traditionality	التقليدية
transcendent	متعال
transcendental	ترنسندنطالي
transfiguration	التجلي، تغيير المظهر
typology	نمطية
univocal	أحادي
utterance	التلفيز: فعالية القيام بالسرد
verb	فعل نحوي
verisimilitude	احتمالية الصدق

villainy	نذالة
violation	الخرق
visitation	لحظة الهام
voice	الصوت
Zeitroman	رواية الزمن

هوامش الكتاب

المقدمة

- (1) قارن مع بول ريكور، «الزمان والسرد»، الجزء الأول، ت: كاتلين مكلوخلين وديفيد بيلور (شيكاغو: جامعة شيكاغو، 1984)، الفصل 3، خصوصا ص. 113 - 122 [المقصود الفقرة الخاصة بالمحاكاة 2 - م.]
- (2) يعرف تزفيتان تودوروف الأفكار الثلاث أدب وخطاب وجنس بصيغ بعضها البعض. قارن "La notion de litterature" في "Les Genres du discours" (باريس، سوي، 1978)، ص. 13 - 26. إذا ما تم الاعتراض بأن الأعمال المفردة تتجاوز كل تصنيف، يبقى صحيحا برغم ذلك بأن «التجاوز لكي يوجد بصفته كذلك يستلزم قانونا يتعرض تحديدا للتجاوز» (المصدر السابق، ص. 45). ويعتمد هذا القانون على تشفير معين لخواص انتقالية ذات وجود مسبق، أي في اضافة الصفة المؤسساتية على بعض «التحويلات التي تمر بها أفعال كلامية معينة لكي تنتج جنساً أدبيا معيناً». (المصدر السابق، ص. 54). بهذا نحافظ على الوشائج الأدبية والخطاب العادي، وكذلك على استقلالية الأدب. ترد تحليلات تودوروف الابتدائية لفكرة الأجناس الأدبية في كتابه «الفنطازي: مدخل بنيوي إلى جنس أدبي»، ت: ريتشارد هوارد (إيثاكا: جامعة كورنل، 1973).
- (3) قارن «الزمان والسرد»، الجزء الأول، ص. 113
- (4) إن توخي الدقة يجب تسمية علم السرد علم البنى السردية، من دون اعتبار للتمييز بين السرد التاريخي والسرد القصصي. ومع ذلك فإن «علم السرد» حسب الاستخدام المعاصر للمصطلح يتركز على السرد القصصي، من دون استبعاد بعض الغارات على منطقة كتابة التاريخ. وفي ضوء هذا التقسيم الواقع فعلا للدوار أقوم بوضع علم السرد مقابل كتابة التاريخ.
- (5) اخترت تكريس ثلاث دراسات لثلاثة نصوص أدبية عن هذه المسألة: رواية فرجينيا وولف «السيدة دالوي»، ورواية توماس مان «الجبيل السحري»، ورواية مارسيل بروست «البحث عن الزمن الضائع». أنظر أدناه، الفصل الرابع.

- (6) يقترب تأويلي لدور القراءة في التجربة الأدبية من التأويل الذي طرحه ماريو فالديس في «ظلال في الكهف: مقارنة ظاهرانية إلى النقد الأدبي تعتمد نصوصاً إسبانية» (تورنتو: جامعة تورنتو، 1982). «في هذه النظرية، البنية تابعة على نحو تام للوظيفة و.... مناقشة الوظيفة ستقودنا رجوعاً في نهاية المطاف إلى إعادة دمج التعبير والتجربة في التشارك التفاعلي بين الذوات الذي يمارسه القراء عبر الزمان والمكان». (المصدر السابق، ص. 15). كما أتفق أيضاً مع الأطروحة المركزية لجاك غاريلي في *Le Recel et la* Dispersion: Essai sur le champ de lecture poétique (باريس: غاليمار، 1978).

الفصل الأول

- (1) يشير مصطلح نموذج تبادلي paradigm إلى الفهم السردى لقارئ مقتدر. وهو يرادف إلى حد كبير قاعدة تحكم التأليف. وقد اخترت أن أستخدم «نموذج تبادلي» كمصطلح عام يغطي ثلاثة مستويات هي المستوى المتعلق بمبادئ التأليف التي تغلب عليها الشكلانية، وذلك المتعلق بالمبادئ التوليدية (المأساة، الملهاة، وما إلى ذلك)، وأخيراً ذلك المتعلق بأنواع محددة (المأساة الإغريقية، الملحمة السلتيّة، وما إلى ذلك). ونقيضه العمل المفرد منظوراً إليه بصيغ قدرته على الابتكار والانحراف. بهذا المعنى فإن مصطلح «نموذج تبادلي» يجب أن لا يخلط بمصطلحي «تبادلي» paradigmatic، «توزيحي» syntagmatic الخاصين بالعقلانية السيميائية في مشبهاتها للفهم السردى.
- (2) انظر «الزمان والسرد»، الجزء الأول، ص ص. 113 - 122.
- (3) وجب الشكر لروبرت شولز وروبرت كيلوغ لكتابتهما «طبيعة السرد» (نيويورك: جامعة أوكسفورد، 1966)، حيث أنهما يصدران دراستهما للمقولات السردية، وبضمنها الحكمة، بعرض لإرثنا السردى الدارس، والقديم، والقروسطي، والحديث.
- (4) لمثال الرواية الأنجليزية قيمة عالية على نحو خاص. قارن، إيان واط «نشوء الرواية: دراسات في ديفو، وريشاردسون، وفيلدنغ» (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 1957). يصف واط العلاقة بين نشوء الرواية ونمو جمهور قراء جديد ولدت معه حاجة جديدة للتعبير عن التجربة الخاصة. وهذه مشكلات سأعود إليها في القسم الرابع من الجزء الثالث عندما أنظر في موقع القراءة ضمن نطاق المعنى الخاص بعمل سردي.
- (5) انظر أيضاً أ. أ. ميندلو، «الزمان والرواية» (لندن: بيتر نيفل، 1952، ط 2، نيويورك: هيومانتى برس، 1972).
- (6) قارن ما كتبه هيغل عن «ابن أخ رامو» Le Neveu de Rameau في ج. و. ف. هيغل، «ظواهرية الروح»، ت: أ. ف. ميلر (أوكتفورد: كلارندون، 1977)، ص ص. 317 - 318، 322.
- (7) رغم أن روبنسون كروسو لا يرقى إلى مستوى أبطالنا الأسطوريين المعاصرين الغربيين دون كيخوت، أو فاوست، أو دون جوان، يمكن اعتباره بطلاً سابقاً على ظهور رواية التعلم: فهو إذ يوضع في ظروف عزلة لا مثيل لها في الحياة الواقعية لا يحركه إلا الاهتمام بالربح ومعيار المنفعة، يصبح بطل نقص تتفاقم فيه عزله الأزلية كأنما هي متقم خفي يوقع به القصاص لانتصاره المبين على خصومه. وهو بذلك يرفع العزلة منظوراً

إليها على أنها الحالة الشاملة للوجود الإنساني إلى منزلة نموذج تبادلي. وهو ما يلزمنا بالابتعاد عن القول إنه شخصية تتحرر من الحكبة، بل هو يولدها. إن موضوعه هذه الرواية، ما أسميته تقصي البطل، تعيد طرح مبدأ نظام يفوق في دقته ذلك الموجود في الحكبات التواصلية في الماضي. وفق هذا الاعتبار، يمكن أن يُعزى كل ما يرقى برائعة ديفو عن مجرد سرد بسيط لرحلة ومغامراتها ويضعها داخل الحيز الجديد للرواية، إلى ظهور تصور نكون فيه «الحكاية الخرافية» محكومة بالثيمة على نحو ضمني، في إشارة إلى ترجمة نورثرب فراي لحبكة muthos أرسطو بـ «خرافة وثيمة». [يفضل د. عبد الرحمن بدوي ترجمة كلمة muthos بـ «خرافة» كما ورد في ترجمته لـ «فن الشعر» لأرسطو، وهي الترجمة الأدق، لكننا اعتمدنا في هذا الكتاب الترجمة التفسيرية «حبكة» كما فعلت من قبل السيدة هيفاء هاشم في ترجمته لـ «فن الشعر» لأرسطو الواردة في ثلثية «النقد: أسس النقد الأدبي الحديث» ج1 الصادرة عن وزارة الثقافة السورية، 1966. المترجم]

- (8) ليست الإضاءة المتبادلة لمحوري الشخصية والفعل اللوليين بالإجراء الجديد كلياً. يظهر فرانك كرمود في كتابه «نشوء السرية: حول تأويل السرد» (كمبردج: جامعة هارفرد، 1979) كيف ينشط هذا الإجراء من انجيل إلى آخر في اغتناء متزامن لشخصية يهوذا والأحداث المروية التي يشترك فيها. قارن المصدر السابق، ص ص. 84 - 95. وقد أظهر أوبرياخ في وقت أسبق، في كتابه «المحاكاة: تمثيل الواقع في الأدب الغربي» (ت: ولاد ر. تراسك [برنستون: جامعة برنستون، 1953])، وجوه الاختلاف بين شخصيتي إبراهيم والرسول بطرس والشخصيات الهوميروسية. بينما الأخيرة مسطحة وتفتقر إلى العمق، فإن للاولى خلفية غنية قابلة للتطور السردية.
- (9) رواية بروس، «البحث عن الزمن الضائع» التي سأنظر فيها لاحقاً، يمكن أن تعد في آن واحد رواية تعلم ورواية تيار وعي. انظر أدناه، الفصل الرابع.
- (10) من «بامبلا» إلى «كلاريسا» نستطيع أن نرى أن هذا الإجراء يزداد صفلاً. بدلاً من مراسلة بسيطة بين البطلة وأبيها، كما في الرواية الأولى، تشبك «كلاريسا» في نسيج واحد تبادليين للرسائل بين البطلة وكاتمة أسرارها، والبطل وكاتم أسرارها. والواقع، ان الكشف المتوازي لسلسلتين من المراسلات يسمح لريتشاردسون بالتخفيف من نواقص هذا الجنس بينما يزيد من مزاياه إلى أقصى حد من خلال تنويع وجهات النظر. وأرى أن بمقدورنا إطلاق تسمية «حبكة» على هذا الربط الراسخ الدقيق، الذي يجعل الرؤيتين الأنثوية والذكورية تتناوبان، إلى جانب تناوب الحذر والانطلاق، بطء التطورات وفجائية الأحداث العنيفة. وقد كان ريتشاردسون، وهو واع جيداً بما كان يفعل واستاذ في فنه، يفخر بأن عمله يخلو من استطراد لا ينبع من موضوعه ويساهم أيضاً فيه، وذلك هو التعريف الرسمي للحبكة.

- (11) ليس من قبيل المصادفة أن يطلق على العمل الإنجليزي في هذا الجنس الأدبي مسمى novel «رواية» [تعني الكلمة الإنجليزية «جديد» أيضاً - المترجم]. يورد مندبلو وواط عدداً من التصريحات اللافتة للنظر صدرت عن ديفو وريتشاردسون وفيلدنغ تشهد على قناعتهم أن ما يتكروون جنس أدبي جديد، بالمعنى الضيق للكلمة. بالمثل صارت كلمة «أصيل»،

والتي كانت تعني في القرون الوسطى ما تركز على مر الزمن، صارت تدل على شيء غير مشتق، مستقل، مستقى من المصدر الأول، باختصار، شيء «جديد novel وحي في طبيعته وأسلوبه». («نشوء الرواية» ص. 14). لذلك صار لازما أن تكون القصة المروية «جديدة» novel وأن تكون شخصياتها كائنات متعينة في ظروف خاصة. ولا مبالغة في ربط هذه الثقة بلغة بسيطة ومباشرة بالاختيار المشار إليه أنفاً لشخصيات من خلفية اجتماعية دنيا، يمكن أن يصفهم أرسطو بأنهم لا أسوأ منا ولا أحسن، بل مثلنا، كما هو الحال في الحياة الواقعية. إن أحد توابع هذه الرغبة في الصدق تجاه التجربة هو الابتعاد عن الحكبات التقليدية المستمدة من مخزن الأساطير، والتاريخ، والأدب الأسبق، إلى جانب اختيار شخصيات ليس لها ماضي أسطوري وقصص ليس لها تقليد سابق.

(12) يحدد نقطة التماس هذه بين الحميمية والطباعة وماينجم عنها من وهم عجيب بتماء بين القاريء والبطل، قارن «نشوء الرواية» ص. 196 - 197.

(13) تحتل رواية «توم جونز» لفيلدنغ مكانا خاصا في تاريخ الرواية الإنجليزية. وإذا كانت «بامبلا» أو «كلاريسا» ريتشاردسون قد فُضِّلنا عليها فذلك لأن النقاد وجدوا في هاتين الروايتين غلبة كبيرة لتصوير الشخصيات تصويرا مفصلا على حساب الحكمة بمعناها الضيق. وقد أعاد النقد الحديث لـ «توم جونز» مكانة بارزة بسبب معالجتها التفصيلية للبيئة السردية من وجهة نظر التفاعل بين الزمن المروي وزمن الأشياء المروية. ومع أن الفعل المركزي فيها بسيط نسبيا، إلا أنه مقسم إلى سلاسل من الوحدات السردية، مستقلة نسبيا عن بعضها البعض ومتفاوتة في الطول، مخصص كل واحد منها لمجموعة أحداث مستقلة episodic. تتميز ببنائها فواصل زمنية قصيرة أو طويلة تغطي هي نفسها فترات زمنية متباعدة تماما، هنالك في الواقع ثلاث مجموعات تحتوي كل واحدة على ست مجموعات فرعية مكونة ثمانية عشر كتابا كل واحد منها يحتوي على سبعة وحتى عشرين فصلا. لقد استدعت هذه المشاكل الكبيرة في التأليف تنوعا كبيرا من الإجراءات والتغييرات المتواصلة وطبقات مدعشة. وليس مصادفة أن فيلدنغ كان أكثر حساسية بالاستمرارية التي تربط الرواية بالأشكال الأقدم في التراث السردية مما كان ديفو أو ريتشاردسون، اللذين هونا من شأن الملحمة التي تعود جذورها إلى هوميروس، أو إنه اضطر إلى استيعاب الرواية في «ملحمة نثرية». إيان واط الذي يورد هذه الصيغة يربطها مع تعليق هيجل في كتابه «علم الجمال» الذي مفاده أن الرواية تظهر روح الملحمة متأثرة بمفهوم حديث ونثري عن الواقع («نشوء الرواية»، ص. 239).

(14) بهذا المعنى، لا يكون ثمة تناقض جذري بين فكرتي ت. س. كوهن عن نفلة في النماذج التبادلية، وفوكو عن قطيعة أبستمية، وتحليل غادامير للتقليد. لن تكون حالات القطيعة الأبستمية ذات أهمية - بالمعنى الدقيق للكلمة - لو أنها أخفقت في تشخيص أسلوب تقليديتنا نفسه، الطريقة الفريدة التي هيكلت بها نفسها. ونحن نخضع لفاعلية التاريخ عبر مثل هذه الحالات من القطيعة التي يسميها غادامير Wirkungsgeschichte، وهي فكرة سأنظر فيها مستقلة في القسم الرابع من الجزء الثالث.

(15) نورثروب فراي، «تشریح النقد: أربع مقالات» (برنستون: جامعة برنستون، 1957).

(16) بول ريكور، «تشریح النقد، أو نظام النماذج التبادلية» في إيلانو كوك، جافيا هوسك،

- جي ماكفرسون: باتريشا باركر، جوليان باترك (محررون)، «المركز والمتاحة: مقالات في تكريم نورثرب فراي» (تورنتو: جامعة تورنتو، 1983)، ص ص. 1 - 13.
- (17) يتأكد التوازي بين الأنماط القصصية من خلال الربط بين الحكمة والفكرة dianoia في «فن الشعر» لأرسطو إلى جانب أطروحة لونغينيوس عن السمو. «الخرافة والثيمة» يكونان معا القصة، وتعين الفكرة «غرض القصة».
- (18) يمكن أن تنتهم الرواية الواقعية في هذا المضمار أنها تخلط بين الرمز والعلامة. يتولد الوهم الروائي، على الأقل في بداياته، عن مزج مشروعين متباينين في مبدأ واحد: تأليف بنية لفظية مستقلة، وتمثيل الحياة الواقعية.
- (19) هنري دي لوباك Exégèse médiévale: Les Quatre Sens de l'Écriture (باريس: أوبييه، 1959 - 1962) في خمسة مجلدات.
- (20) محاولتي فصل التصور عن إعادة التصور بوصفها تجريدا فقط تستند إلى مفهوم مقارب لمرحلة الرمز لدى فراي. إعادة التصور، فعليا، هي معاودة على مستوى المحاكاة 3 لملاحع عالم الفعل التي أنجز فهمها على مستوى المحاكاة 1، عبر تصورهما السردى (المحاكاة 2)؛ أو بكلمات أخرى، عبر الأنماط «القصصية» و«الثيمية» لدى نورثرب فراي.
- (21) «يمكن أن يتخلق الشعر من قصائد أخرى، والروايات من روايات أخرى. إن الأدب يشكل نفسه.» (تشریح النقد، ص. 97).
- (22) لا يختلف نقد النموذج البدني، بهذا المعنى، اختلافا أساسيا عن النقد الذي مارسه غاستون باشلار في نظريته عن مخيلة «مادة» تحكمها «عناصر» الطبيعة: الماء، والهواء، والتراب، والنار؛ والتي يتولى فراي البحث في تحولاتها داخل نطاق اللغة. وهو أيضا قريب من الطريقة التي أقام بها ميرسيا إلباد كشوفات الأسرار المقدمة hierophanies بصيغ الأبعاد الكونية للسماء، والماء، والحياة الخ، والتي ترافقها دائما شعائر منطوقة أو مكتوبة. القصيدة بالنسبة لنورثرب فراي أيضا تقلد في طورها البدني الطبيعة بوصفها عملية دورية مُعَبَّر عنها بطقوس (قارن «تشریح النقد»، ص. 145). تفكر الحضارة في ذاتها عبر هذه المحاولة لاستخلاص «شكل إنساني كلي» من الطبيعة.
- (23) عندما تصاغ أسطورة الفصول الأربعة بصيغ الرمز الرئيس لسفر الرؤيا، وهي الأسطورة التي يُقِيم فيها هذا الرمز بالفعل، فإنها تفقد مرة وإلى الأبد صفاتها الطبيعية. في الطور النموذجي البدني للرمز، تبقى الطبيعة تحتوي الإنسانية. في الطور الباطني المتسامي، الإنسانية هي التي تحتوي الطبيعة تحت علامة المرغوب فيه على نحو لامتناه.
- (24) في مقالتي المشار إليها آنفا أناقش محاولة فراي جعل الأنماط السردية تتوافق مع أساطير الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء.
- (25) «في اللحظات العظيمة لدى دانتى وشكسبير، لنقل في «العاصفة» وذروة «المطهر»، يتولد لدينا شعور بأمر جليل تتجمع خيوطه، الشعور بأننا نوشك على رؤية ما ظلت كل تجربتنا الأدبية تدور حوله، الشعور بأننا انتقلنا إلى المركز الساكن لنظام الكلمات.» (تشریح النقد، ص. 117).
- (26) يورده فراي على ص. 126، ويكتب: «يعني مفهوم كلمة كلية التسليم بأن ثمة ما يمكن

اعتباره نظاما للكلمات.» (المصدر السابق، ص. 126). إلا أن من الخطأ الفادح القول بأصداء لاهوتية في هذه المقولة. بالنسبة لفراي، يكرس الدين نفسه لما هو موجود، بينما يكرس الأدب نفسه لما يمكن أن يوجد إلى حد يمنع الخلط بينهما. إن الثقافة والأدب المعبر عنها يحوزان على استقلالهما عبر النمط التخيلي تحديدا. يمنع هذا التوتر بين الممكن والفعل فري من أن يضيف على مفهوم القصص الألق والقوة المحيطة للذين يضيفهما فرائك كرمود عليه في العمل الذي سأنظر فيه لاحقا، وفيه يشغل سفر الرويا مكانا يشبه ذلك الذي يمنحه إياه فراي في نقده.

(27) «فن الشعر لأرسطو»، ت: جيمس هولتن (نيويورك: و. و. نورتن، 1982)، ص. 52.

(28) قارن جون كوستش Kucich «الفعل في نهايات ديكتز: «البيت الكتيب» و«الآمال الكبيرة» في مجلة «قصص القرن التاسع عشر»، 33 (1978): 88 - 109. (هذا العدد من المجلة مكرس برمته للنهايات السردية). يطلق كوستش تسمية النهايات «الحاسمة» على تلك التي تأتي معها بقطيعة تطلق ذلك النوع من الفعالية الذي يصفه جورج باتاي بـ «المضني». كما أنه يعبر عن دينه لعمل كينيث بيرك، خصوصا «القواعد النحوية للدوافع» (نيويورك: برنتس - هول، 1945) و«اللغة فعلا رمزيا» (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 1966). وملاحظته الأخيرة تستحق الاقتباس: «في كل النهايات الحاسمة، الوسائل التي تتسبب في ظهور تلك الثغرة هي النهاية.» (ص. 109، التأكيد منه).

(29) ج. هيلس ميلر، «إشكالية النهاية في السرد» في «قصص القرن التاسع عشر» 33 (1978): 3 - 7. ويعلن فيه «ليس من سرد يعرض بدايته أو نهايته.» (المصدر السابق، ص. 4). ويقرر أيضا أن «التباس النهاية ينشأ عن حقيقة أن من المستحيل القول إن كان سرد ما مكتملا.» (المصدر السابق، ص. 5). صحيح إنه يتخذ مرجعا له العلاقة بين إحكام العقدة (desis) وحل العقدة (lusis) في «فن الشعر» لأرسطو وإنه يطور التباسات هذه الاستعارة الخاصة بإحكام العقدة بحماس كبير. لكن مكان هذا النص في «فن الشعر» يثير الكثير من الجدل بقدر ما تكون عملية إحكام العقدة وحل العقدة غير خاضعة لمعيار البداية والنهاية المنصوص عليه بوضوح في الفصل المعتمد الذي يكرسه أرسطو للمبكرة. تبدو الأحداث المروية لا نهاية لها وهي حقيقة هكذا في واقع الحياة؛ لكن السرد بوصفه حبكة له نهاية. وليس لما يحدث بعد هذه النهاية صلة بتصور القصيدة. وهذا هو السبب في وجود مشكلة تتعلق بالنهايات الجيدة، وكما سنرى لاحقا، بـ «الختام المضاد».

(30) إحدى مزايا عمل باربرا هيرنشتين سمث «الختام الشعري: دراسة في كيف تنتهي القصائد» (شيكاغو: جامعة شيكاغو، 1968)، هو أنه يوفر لنظرية السرد ليس فقط نموذجا للتحليل جديرا بالملاحظة، ولكن أيضا اقتراحات ملموسة حول كيفية توسيع تعليقاته المحددة عن «الختام الغنائي» لتشمل «الختام الشعري» إجمالا. يسهل تبرير هذه النقطة، فنحن في الجانبين نتعامل مع أعمال شعرية، أي مع أعمال مبنية على أساس تعاملات مجالها اللغة العادية، وبالتالي فهي توقف هذه التعاملات. فضلا عن ذلك، فإن مدار الاهتمام في الحالتين أعمال محاكاةية بالمعنى الخاص لهذا المصطلح، تحاكي «ملفوظا» عاديا؛ جدالا، إعلانا، تفجعا. من هنا فإن العمل الأدبي لا يحاكي فعلا فحسب، بل يحاكي أيضا سردا عاديا مأخوذا من تعاملات الحياة اليومية.

- (31) تتكلم باربرا هيرنشتين سمث في هذا المجال عن «الإحالة الختامية الذاتية» (المصدر السابق، ص. 172) حيث يحيل العمل على نفسه بوصفه كذلك من خلال طريقته في الانتهاء أو عدم الانتهاء.
- (32) تميز سمث بين «الخاتمة المضادة» التي تظل تحافظ على بعض الصلة مع الحاجة إلى نهاية ما بوساطة تطبيقها للإمكانات الانعكاسية للغة على عدم الاكتمال الشيعي للعمل والاستعانة بأشكال أكثر دقة للنهاية، وبما يقع «وراء الختام». أما فيما يتعلق بالخاتمة المضادة وتقنياتها في «تخريب» اللغة، فهي تقول، «إذا لم يتعرض الخائن، الذي هو اللغة، للنفي فإن للمرء أن يجرده من السلاح ويصيرَه أسير حرب». (المصدر السابق، ص. 254). أما بالنسبة لما يقع وراء الختام فإن «الخائن، اللغة، يلقي به على ركبته ولا يجرد من السلاح فقط بل ويضرب عنقه». (المصدر السابق، ص. 266). وهي لا تقدم على هذه الخطوة لقناعتها أن اللغة الشعرية، بوصفها محاكاة لملفوظ، لا تستطيع أن تغفل من التوتر بين اللغة الأدبية وغير الأدبية. عندما تستبدل بالمفاجأة الحظية *aleatory*، مثلاً، المفاجأة المتعمدة، كما هو الحال مع الشعر البصري، لا يتبقى ما يقرأ، وإنما ما يُنظر إليه فقط. عندها يجد النقد نفسه في مواجهة رسالة متوعدة تقول له «عليك أن ترك كل متاعك اللغوي عند هذه النقطة» (ص. 267) لكن يتعذر على الفن أن يقطع صله بمؤسسة اللغة المقتدرة. وذلك هو السبب في أن كلماتها الختامية تردد صدى كلمات فرانك كرمود «ومع ذلك... لكن» حين تتكلم على مقاومة النماذج التبادلية للتناكل: «ينتهي الشعر بطرق عديدة، لكن الشعر، كما أعتقد، لم ينته بعد». (المصدر السابق، ص. 271).
- (33) فرانك كرمود «الإحساس بالنهاية: دراسات في نظرية القصة» (نيويورك: جامعة اوكسفورد، 1966).
- (34) سأعود إلى تعليقات كرمود البليغة عن الحين [acum] يشير هذا المصطلح إلى عمر العالم دون تحديد، وهو نوع من الزمن الرياضي يجربه في العادة فكر غير عضوي كالملائكة والشياطين - المترجم]، الأبدى أو السرمدى. وهو يرى في هذا الزمن المأساوي «نظام أمد ثالث متميز عن الزمن والأبدية». (المصدر السابق، ص. 70)، وهو ما نسبته النظرية القروسطية إلى الملائكة. بالنسبة لي، سأربط في القسم الرابع هذه الخواص الزمنية بعلامح أخرى في الزمن السردي تشير إلى تحرره من التابع البسيط.
- (35) يربط كرمود مصيباً هذا التعبير المرعب عن الزمن في «مكبث» مع روح الانتشار *distentio*، كما جربها مؤلف «الاعترافات» في عذابات هداية موجهة باستمرار: «بقيت اصرخ حثام سأبقى أردد غدا، غدا *Quamdiu, quamdiu, cras et cras*» (الكتاب الثامن، 12: 28). ومع ذلك، فإن هذه الخاصية شبه الأزلية في «مكبث» التي تسم القرار الموجل هي الضد لصبر المسيح في الحديقة على جبل الزيتون بينما هو ينتظر أوانه *kairos*، «الموسم الزاخر بالدلالة» (كرمود، ص. 45). هذا التضاد بين *chronos* أو الزمن المستقيم و *kairos* أو الأوان [يشير الزمن المستقيم *chronos* إلى زمن عشوائي، فوضوي، غير أنساني يمضي دون أن يابه بمشاغل البشر، بينما يشير الأوان *kairos* إلى زمن متوافق، منظم، فيه مواساة لمحنة الوجود الإنساني، وهو الزمن الذي

- يسمى السرد إلى تشكيله - المترجم] يشير باتجاه موضوعة القسم الرابع من كتابي.
- (36) تأكيد كرمود على هذه النقطة ذو دلالة: قارن المصدر السابق، ص ص. 25، 27، 28، 30، 38، 42، 49، 55، 61، وفي الصادرة ص ص. 82 و 89.
- (37) انظر هنا على نحو خاص مقال كرمود الرابع «الرؤى الحديثة» وفيه يصف ويناقش ادعاء عصرنا الفريدة، والإحساس الذي يسوده بأنه أسير أزمة أبدية. كما إنه ينظر فيما يسميه هارولد روزنبرغ التقليد الجديد. أما بالنسبة للرواية المعاصرة تحديداً، ألاحظ أن مشكلة نهاية النماذج التبادلية مطروحة بصيغ تناقض تلك المستخدمة في الأيام الأولى للرواية. في البدء غطى أمان التمثيل الواقعي على قلق التأليف الروائي. اليوم، عند الطرف الآخر لتطور الرواية، يرتد القلق الذي كشف اللثام عنه الاقتناع بأن الواقع فوضوي، ضد فكرة التأليف المنظم نفسها. هكذا تصبح الكتابة مشكلة بالنسبة لنفسها ولاستحالتها.
- (38) «الأزمة، بالرغم من سهولة المفهوم، هي عنصر مركزي لا محالة في محاولتنا الخروج بمعنى للعالم الذي نعيش فيه.» (المصدر السابق، ص. 94).
- (39) قارن مناقشة كرمود لروب - غرييه والكتابة المتناهية (ص ص. 19 - 24). وهو يؤكد محققاً الدور المتوسطي الذي لعبته التقنية السردية لدى سارتر وكامو، في «الغثيان» و«الغريب»، بوصفها أسهمت في الانشقاق الذي دعا إليه روب - غرييه.
- (40) اقتبه كرمود، ص. 102.
- (41) تعبير «حبكة موسمية» يصبح تقريباً ضرباً من الحشو. لا يقل أهمية عن تأثير ينشئه تأثير الشاعر والاس ستيفنس، خصوصاً في الفقرة الأخيرة من مؤلفه «ملاحظات نحو قصص فائق».
- (42) من هنا التحديد التضافري لمصطلح «النهاية» نفسه. فقد تكون النهاية نهاية العالم لهذا، أو سفر الرؤيا؛ نهاية الكتاب، أو كتاب سفر الرؤيا؛ نهاية الأزمة التي لا نهاية لها، أو أسطورة خاتمة القرن fin de siècle ؛ نهاية تقليد النماذج التبادلية، أو الانشقاق؛ استحالة وضع نهاية لقصيدة ما، أو العمل الناقص؛ وأخيراً الموت، نهاية الرغبة. يمكن لهذا التحديد التضافري أن يفسر التهكم الكامن في التنكير الوارد في العنوان «الإحساس بنهاية» A Sense of an Ending] لا يظهر هذا المعنى في الترجمة العربية التي أنجزها د. عناد غزوان إسماعيل وجعفر صادق الخليلي («الإحساس بالنهاية»، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1979)، وقد حرصت على عدم تغيير العنوان الذي عُرف به الكتاب في العربية - المترجم] لن نفض أيدينا من النهاية أبداً. أو كما يقول والاس ستيفنس «توجد المخيلة دائماً في نهاية مرحلة ما.» (مقتبس في كرمود، ص. 31).
- (43) هنالك إمكانية لاستكشاف آخر للعلاقة بين القصص والأسطورة المحطمة، استكشاف يركز على الوظيفة الاستبدالية للقصص الأدبي بالنسبة لتلك السرديات التي مارست الأسطورة في ثقافتنا في الماضي. عندها تلوح معالم نوع آخر من النظام، الشك أن القصص قد استحوذ على سلطة هذه السرديات التأسيسية، أن هذه النقطة في القوة تتطلب، بالمقابل، حسب تعبير لإدوارد سعيد، أثر «إغاطة»، إذا فهمنا بذلك الجرح الذي يفتحه الكاتب في نفسه حين يدرك الطبيعة الوهمية والمغتصبة للسلطة التي يمارسها بوصفه مؤلفاً (author)، قادراً ليس فقط على التأثير على القاري ولكن على إخضاعه

- لقوته فحسب. قارن، إدوارد سعيد، « البدايات: القصد والمنهج » (نيويورك: بيسك بوكس، 1975)، ص ص. 83 - 85 وإشارات متفرقة. من أجل المزيد من التحليل للثنائي سلطة/إغاطة، قارن مثله « الإغاطة والسلطة في القصص السردية »، في ج. هيلس ميلر، محرراً، « مظاهر السرد » (نيويورك: جامعة كولومبيا، 1971)، ص ص. 47 - 68.
- (44) علينا أن نؤكد في هذا الخصوص فشل التبرير البيولوجي أو السيكلوجي البسيط للربغة في التوافق، حتى إذا اتضح أنه يتأسس على ما في جشطت الإدراك الحسي، كما في عمل باربرا هيرنشتين سمث، أو كما يقترح كرمود مستخدماً مثال نكتكة الساعة. « نسال ما الذي نقوله: ونتفق على أنها تقول تيك توك. من خلال هذه القصة نحن نؤنسها، نجعلها تتكلم لغتنا ... تيك هي تكوين متواضع، توك رؤيا تنبؤية ضعيفة؛ وتيك توك لا ترقى على أية حال إلى مستوى حبكة. » (المصدر السابق، ص ص. 44 - 45، التأكيدات منه). هذه الايقاعات البيولوجية والادراكية الحسية تعود بنا على الدوام إلى اللغة: تدس «تكلمة» تخص الحبكة والقصص نفسها ما أن نتكلم عن ساعة، ومع هذه التكلمة يأتي زمن الروائي» (المصدر السابق، ص. 46). [رغم أن كرمود يؤكد أن تيك توك لا ترقى إلى مستوى حبكة، فإنها بالنسبة له نموذج يوضح ما تسمى الحبكة إلى إنجازها: «إنها تنظيم يؤنس الزمن من خلال إعطائه شكلاً، والفاصلة بين «تك» و«توك» تمثل زمناً متعاقباً يفقد النظام من ذلك النوع الذي نسعى إلى أنسته» ص. 45 - المترجم]
- (45) يوري لوتمان، « بنية النص الفني »، ت: رونالد فرون (آن آربر: جامعة ميشيغان، 1977)، يقدم حلاً بنبوياً بمعنى الكلمة لمشكلة ديمومة أشكال التوافق. وهو يرسم الخطوط العريضة لسلسلة من الدوائر متحدة المركز تحيط على نحو متزايد بدائرة مركزية، هي تلك الخاصة بالحبكة، والتي تشكل فكرة حدث ما، بدورها، مركزها. ويبدأ من تعريف عام للغة باعتبارها نظام اتصال يستخدم علامات مرتبة بطريقة ما، ونحصل من هذا على فكرة نص مفهوم بوصفه تتابعاً من العلامات تتحول على وفق قواعد خاصة إلى علامة فريدة واحدة. بعدها نعبّر إلى مفهوم الفن بوصفه نظاماً نموذجاً ثانوياً، ومن ثم إلى الفن اللفظي أو الأدب بوصفه واحداً من الأنظمة الثانوية المبنية من لغاتنا الطبيعية. على طول هذه السلسلة من العناصر المضمنة نشهد تكشف مبدأ « تعيين للحدود »، وبالتالي مبدأ عمليات تضمين وإبعاد تبدو وكأنها متصلة في فكرة النص. إن النص، الذي يعينه حد ما، يتحول إلى وحدة مندمجة من الإشارات. وفكرة الختام ليست بعيدة. إنها تدخل عبر فكرة « إطار » ما، التي ترتبط بهذا المفهوم نفسه في الرسم، والمسرح (أصواء المسرح، الستارة)، والهندسة المعمارية، والنحت. بمعنى ما، تحدد بداية الحبكة ونهايتها فكرة الإطار هذه فقط، والتي ترتبط مباشرة بفكرة النص. ليس من حبكة من دون إطار، أي « الحد الفاصل بين النص والانص » (المصدر السابق، ص. 209). هذا هو السبب كما سألين في القسم الرابع، في أن العمل الفني، « وهو محدد مكانياً، يمكن أن يكون النموذج المتناهي للكون اللامتناهي، علم متخارج مع العمل » (المصدر السابق، ص. 217). لا تكون القصص مفتوحة النهاية أو التي دون نهاية مثيرة للاهتمام إلا بسبب الانحرافات والخروقات التي تفرضها على قاعدة الختام. لذلك تمثل فكرة الحدث بالنسبة للوتمان مركز لعبة الحلقات هذه (قارن، المصدر السابق، ص ص.

233 وما بعدها). إن التقرير الحاسم الذي يزيد من ضبط مفهوم الحدث، ويشخص بذلك الحبكة على أنها واحدة من الأطر الزمنية الممكنة، أمر غير متوقع تماما، على حد علمي، ليس له ما يوازيه في الأدب المتوفر حول هذا الموضوع. يبدأ لوتمان بتخيل ما يمكن أن يكون عليه نص دون أية حبكة أو أحداث. فيجد أنه سيكون نظام تصنيف محض، خزين بسيط؛ مثل قائمة مواضع، كما على خارطة. أما بالنسبة للثقافة، فستكون نظاما ثابتا من الحقول الدلالية (مرتبة بطريقة ثنائية لافته: غني ضد فقير، نبيل ضد وضيع، الخ). متى يقع حدث إذا؟ «عندما تغبر شخصية ما حدود بعض الحقول الدلالية» (المصدر السابق، ص. 233). لذلك، هنالك حاجة إلى صورة ثابتة للعالم، وذلك لكي يتمكن أحد من تجاوز حواجزها ونواحيها الداخلية. والحدث هو هذا العبور، هذا التجاوز. بهذا المعنى، «يقام نص له حبكة على أسس نص يخلو من الحبكة، يكون هو نفيه» (المصدر السابق). أليس هذا تعليقا يدعو إلى الإعجاب على قلب أرسطو وتنافر كرمود؟ هل نستطيع تصور ثقافة لا تحتوي على حقل دلالي محدد ولا على عبور تخوم ما؟

- (46) أريك ويل، *Logique de la Philosophie* (باريس: Vrin 1967).
- (47) في ولتر بنجامين، «إضاءات»، تحرير: حنه أرندت، ت: هاري زوهن (نيويورك: شوكن بوكس، 1969)، ص. ص. 83 - 109.
- (48) هنا تلتقي باربرا هيرنشتين سمث مع فرانك كرمود، كما بينت: تقول سمث «ينتهي الشعر بطرق عديدة، لكن الشعر كما أرى لم ينته بعد». (ص. 271). ويقول كرمود: «تبقى النماذج التبادلية على نحو ما.... وبقاء النماذج التبادلية يشغلنا بقدر ما يفعل تأكلها». (ص. 42).

الفصل الثاني

- (1) قارن رولان بارت، «مقدمة إلى التحليل البنيوي للمرويات» في منتخبات من بارت، ت: سوزان سونتاغ (نيويورك: هل اند وانغ، 1982)، ص. ص. 251 - 295.
- (2) رولان بارت، *Poétique du récit* (باريس: Seuil، 1977)، ص. 14. يقتبس ترفيتان تودوروف بصدد هذا التشاكل المفترض بين اللغة والأدب ملاحظة فاليري «ما الأدب إلا «توسيع وتطبيق لخواص معينة في اللغة». («شعرية النشر»، ت: ريتشارد هوارد [إيثاكا: جامعة كورنيل، 1977] ص. 28). على وفق هذا الاعتبار تكون إجراءات الأسلوبية (ووضعها الصور البلاغية) والإجراءات الرامية إلى تنظيم سرد ما، إلى جانب الأفكار الرئيسة في المعنى والتأويل جميعا تجليات للمقولات اللغوية في السرد الأدبي (قارن المصدر السابق، ص. ص. 29 - 41). ويزداد هذا التشاكل دقة عندما نحاول أن نطبق على السرد المقولات النحوية مثل اسم العلم، والفعل، والصفة لوصف الفاعل الحقيقي - الذات - المسند إليه والفعل - المحمول، ومن هنا حالة التوازن أو اللاتوازن. لذلك يعد نحو السرد ممكنا. ومع ذلك علينا أن لا ننسى أن هذه المقولات النحوية تكون مفهومة على نحو أفضل حين نألف تجليها في السرد (قارن المصدر السابق، ص. ص. 108 - 119، 218 - 233). وأود أن أؤكد هنا أن علاقة نحو السرد تتأصل مع نحو اللغة *Langue*

عندما نعبّر من التركيب اللغوي إلى الجمل إلى وحدة تركيبية أعلى أو إلى تنابع (قارن المصدر السابق، ص. 116). وعلى هذا المستوى يفترض أن يصبح نحو السرد مساوياً لعملية الحبك.

(3) Poétique du récit، ص ص. 131 - 157. وجدت أن من الأفضل متابعة هذا التمييز في الفصل القادم.

(4) انظر لاحقاً، ص ص. 38 - 44.

(5) يجد بارت في هذا تمييز بنفسه بين الشكل الذي ينتج الوحدات عبر التقطيع، والمعنى الذي يجمع هذه الوحدات في وحدات من صنف أعلى.

(6) قارن «مقدمة إلى التحليل البنيوي للروايات»، ص. 270.

(7) يصل كلود ليفي - شتراوس بهذا المطلب إلى أكثر نتائج تطرفاً في كتابه

Mythologique. ومع ذلك، سيذكر قراء كتابه «الأنثروبولوجيا البنيوية» أيضاً مقالته

الموسومة «الدراسة البنيوية للأسطورة» والتحليل البنيوي التي تحتوي لأسطورة أوديب.

(كلود ليفي - شتراوس، «الدراسة البنيوية للأسطورة» في أماكن متفرقة، «الأنثروبولوجيا

البنيوية»، ت: كلير جاكسون وبروك غرونغست شوبف [نيويورك: بيسك بوكس،

1963]، ص ص. 206 - 231. وانظر أيضاً مقاله «قصة أسديوال "Asdiwal" في «

الأنثروبولوجيا البنيوية»، الجزء الثاني، ت: مونيكا ليتون [نيويورك: بيسك بوكس،

1976] ص ص. 146 - 197). وكما هو معروف جيداً، فإنه يلغي التكشف الحكائي

للأسطورة لصالح قانون تجميعي لا يربط بين جمل زمنية ولكن بين ما يسميه ليفي -

شتراوس خُزماً من العلاقات، مثل المبالغة في تقدير أهمية علاقات الدم في ضدية مع

التقليل من شأنها، وعلاقة الاعتماد على الأرض (autochthony) في ضدية مع التحرر

منها. وسوف يكون القانون البنيوي لهذه الأسطورة المنشأ المنطقي للحلول المطروحة

لهذه المتناقضات. سأغفل هنا أي دخول في عالم الأسطورة، وقد اتخذت من الملحمة

بداية للسرد القصصي عبر انتزاعها تجريدياً من قرابتها للأسطورة واعتمادها عليها. وسألتزم

بهذا التحفظ نفسه في القسم الرابع، خصوصاً في مناقشة التقويم الزمني حيث سأمتنع عن

تناول مشكلة العلاقات بين الزمن التاريخي والزمن الأسطوري.

(8) مونيكا شيندر، والتي أستعير منها هذا الاستبصار الحاسم (مونيكا شيندر، "Le Temps

du Conte" [باريس: Editions du Centre National de la Recherche Scientifique،

1980]، ص ص. 85 - 123، قارن ص ص. 85 - 87) أكدت مثلاً على تحول الطبيعة

«العجائبية» للحكاية الفولكلورية، والذي نجم عن إشراكها المسبق في ممارسة شعائر

الاستهلال، إلى موضوع معقول تماماً، واقتربت «إيقاظاً جديداً لتلك القوى التي تمكن

الحكاية الفولكلورية من مقاومة هذه المصادرة». (المصدر السابق، ص. 87). لا يعني

هنا تلك القوى التي تلازم الطبيعة «العجائبية» للحكاية الفولكلورية، إنما ما تتميز به من

مصادر للمعقولة بوصفها ابتداء خلقاً ثقافياً.

(9) يعلن رولان بارت في مقاله «مقدمة إلى التحليل البنيوي للروايات» أن «التحليل اليوم

يميل إلى «نزع التعاقب الزمني» عن الاستمرارية السردية و«يعيد المنطق» إليها، ليجعلها

تعتمد على ما يسميه مالا رميه بالنسبة للغة الفرنسية «الصواعق البدائية للمنطق» (بارت،

ص. 270). ثم يضيف بخصوص الزمن، «إن المهمة هي النجاح في تقديم وصف بنيوي لوهم التعاقب الزمني؛ إن على المنطق السردى إيضاح الزمن السردى». (المصدر السابق). كان بارت يرى في تلك الفترة أن بإمكان استبدال العقلانية السردية بالمعقولة السردية أن يحول الزمن إلى «وهم التعاقب الزمني». والواقع، إن مناقشته لهذه الفكرة تأخذنا إلى ما وراء إطار المحاكاة²: «لا ينتهي الزمن إلى الخطأ، إن توخيها الدقة، وإنما إلى المرجح؛ إن كلا من السرد واللغة لا يعرفان إلا الزمن السيميائي، إذ الزمن «الحقيقي» وهم «واقعي»، مرجعي، كما يظهر تعليق بروب. وعلى الوصف البنيوي أن يتعامل معه بوصفه كذلك». (المصدر السابق، ص ص. 270 - 271). سأعود إلى مناقشة هذا الوهم المزعم في القسم الرابع. ما نحن بصده في هذا الفصل هو ما يسميه بارت نفسه الزمن السيميائي.

(10) تذكر تعليق لي غوف المشابه الذي يشير إلى عدم حماس المؤرخ لتبني معجم التزامن والتعاقب، الوارد في الجزء الأول، ص. 340 - 341.

(11) فلاديمير بروب، «مورفولوجيا الحكاية الشعبية»، ط 1، ت: لورين سكوت، ط 2 مراجعة وتحريرو: لويس أ. فاغر (أوستن: جامعة تكساس، 1968). يشكل هذا العمل واحدة من نقاط الذروة في حقل الدراسة الأدبية المعروفة بـ «الشكلانية الروسية»، والتي تطورت خلال السنوات 1915 - 1930. للحصول على خلاصة للإنجازات المنهجية الرئيسة لهذه الحركة ومقارنتها بالتطورات اللاحقة المستندة إلى علم اللغة خلال ستينيات القرن العشرين قارن، تزفيتان تودوروف، «الميراث المنهجي للشكلانية» في «شعيرة النشر»، ص ص. 247 - 267. وانظر أيضا مناقشته في المجلد الذي حرره: *Theorie de la littérature. Textes des formalistes russes* (باريس: Seuil، 1965)، ومهمة على نحو خاص بالنسبة لنقاشنا أفكار «الأدبية» (Litterarite)، والنظام المحايث، ومستوى التنظيم، والملمح (أو العلامة) المميزة، واللازمة، والوظيفة، والتصنيف الطوبولوجي. وأهمها فكرة «التحويل» التي سأتناولها لاحقاً.

(12) طموح بروب لأن يصبح لينايوس الحكاية الخرافية معلن بوضوح (قارن المصدر السابق، ص. (xii)). والواقع إنهما يشتركان بالسعي إلى الغاية ذاتها: اكتشاف الوحدة المدهشة الكامنة تحت متاهة المظاهر. ووسائلهما واحدة: جعل المدخل التاريخي خاضعاً للمدخل البنيوي (المصدر السابق، ص. 6). أما بالنسبة لغوته فإنه يمثل ما لا يقل عن خمس إحالات في مقدمة هذا الكتاب وفصوله، وقد بقيت لسبب ما خارج الترجمة الإنجليزية بوصفها «غير جوهرية» (انظر ملاحظة المترجم على ص. (x)).

(13) هذا العدد هو عدد الوحدات الصوتية (الفونيمات) نفسه في النظام الصوتي الوظيفي.

(14) يفسر هذا القصور في حقل بحث بروب حذره الشديد في نقل نتائج الاستقرائية خارج هذا الميدان. ودخل هذا الميدان، تخضع حرية الخلق بصرامة لقيد نتائج الوظائف في السلسلة الأحادية. ليس لراوي الحكاية من حرية عدا حرية حذف بعض الوظائف، واختيار الأنواع داخل جنس الأفعال المعرف بوظيفة ما، وأن ينسب هذه الصفة أو تلك إلى شخصياته، وأن ينتقي من مخزون اللغة وسائله التعبيرية.

(15) إذا كان بإمكان الخطة العامة أن تكون فاعلة بصفتها وحدة قياس لحكايات بعينها، فإن

مرد ذلك دون شك عدم وجود مشكلة انحراف في الحكاية الخرافية كما هو الحال في الرواية الحديثة. وإن استخدمنا المعجم الخاص بالفصل السابق المتعلق بالتقليدية نقول إن النموذج التبادلي والعمل المحدد يميلان إلى التداخل فيما بينهما. ولا شك في أن الحكاية الخرافية توفر بسبب هذا التداخل الكامل تقريبا حقلا خصبًا كل هذه الخصوبة لدراسة القبول السردية، إذ تختزل مشكلة «التشويهاات المحكومة بقاعدة» إلى حذف لوظائف معينة أو تعيين لعلامح توليدية تُعرف وظيفة ما.

(16) في الواقع يطرح بروب قبل كل وظيفة قضية يرد فيها ذكر شخصية واحدة على الأقل. سيقود هذا التعليق كلود بريمون، كما سنرى، إلى وضع تعريف «الدور» بوصفه اقتران بين فاعل وفعله. ومع ذلك كتب بروب بالفعل في مستهل عمله: «نُفهم الوظيفة على أنها فعل شخصية ما، معرّف من زاوية أهميته بالنسبة لمسار الفعل.» (مورفولوجيا الحكاية الشعبية، ص. 21).

(17) مرة أخرى من المناسب استذكّار مناقشة فرانك كرمود لهذه النقطة في «تكوين السّرية»، ص. 75 - 99، حيث يظهر لنا كيف تزداد شخصيتنا بطرس ويهوذا في الأناجيل تحديدا بينما التتابعات التي تحتويهما تزداد سعة وتعقيدا في مرويّات آلام المسيح.

(18) يرد في الترجمة الفرنسية لبروب «تتابع» بدلا من «حركة». في الترجمة الإنجليزية يستخدم «تتابع» sequence مقابل ما يسميه الفرنسيون l'ordre، أي التتابع المطرد للوظائف. قارن، «مورفولوجيا الحكاية الشعبية»، ص. 21 - 22.

(19) ما تبقى من هذا الفصل لدى بروب مكرس للطرق المختلفة التي تتمكن بها حكاية ما أن تجمع «الحركات»: الإضافة، المقاطعة، التوازي، التقاطع ... الخ.

(20) استبعدت عن تحليلي كل ما يتعلق بمساهمة «مورفولوجيا الحكاية الخرافية» في تاريخ جنس «الحكاية الخرافية». وكنت قد أوضحت سابقا كيف أن بروب يحرص على وضع أسئلة التاريخ في مرتبة أدنى من الوصف، في اتفاق مع علم اللغة السوسيري في هذه النقطة. وهو لا يتخلّى عن تحفظه الابتدائي بهذا الصدد في الفصل الختامي. لكنه يقترح مع ذلك صلة بين الدين والحكايات الخرافية: «يمكن لطريقة في الحياة أو الدين أن تموت، بينما تتحول محتوياتها إلى حكايات.» (المصدر السابق، ص. 106). فمثلا القصص، الذي يعد من أخص مميزات الحكاية، ربما كان نابعا من تيه الأرواح في العالم الآخر. قد يكون إطلاق هذا التعليق دون قيد أو شرط متعذرا إذا تذكرنا أن الحكاية الخرافية نفسها في طريقها إلى الزوال. «لا توجد صياغات جديدة في الوقت الحاضر.» (المصدر السابق، ص. 114). ولكن، إذا كانت الحال كذلك، فهل اللحظة السانحة لتقديم تحليل بنيوي هي تلك التي تصبح فيها عملية إبداعية معينة مستنفدة؟

(21) كلود بريمون، La Logique du récit (باريس، seuil، 1973). وللحصول على نسخة قصيرة منه في الانجليزية قارن «منطق الامكانات السردية» في «نيو لثري بري هستري» 11 (1980): 387 - 411. إحالاتي إلى النسخة الفرنسية.

(22) يمكن للترابط بينها مثلا أن يتحقق ببساطة من خلال وضع الأشياء «جنبًا إلى جنب» (حقد، إثم ... الخ)، أو إدراج تتابع ما داخل آخر (الاختبار بوصفه جزءا من القصص)، أو من خلال توازيات بين سلاسل مستقلة. أما بالنسبة للروابط التركيبية التي تمسك بهذه

التتابعات المعقدة معا فإنها تأتي أيضا بأشكال مختلفة: تعاقب محض، ربط سببي، تأثير، علاقة وسيلة بغاية، وهكذا.

(23) لنلاحظ أيضا أن هذا التفرع الثاني الأول يبدو من الناحية التحليلية وكأنه يقع داخل مفهوم الدور بقدر ما يقرن هذا المفهوم اسم فاعل بفعل/محمول. هذه النقطة لا تنطبق على الحالات اللاحقة.

(24) انظر آرثر سي. دانتو «الفلسفة التحليلية للفعل» (نيويورك: جامعة كيمبردج، 1973)؛ أ. غولدمان، «نظرية في الفعل البشري» (انجلود كلفس، نيوجرسي؛ برنتس هول، 1970).

(25) يطبق بريمون فكرة «الشكل الجيد» هذه على ذلك النوع من التتابع الذي يقدمه بروب («منطق الحكاية»، ص، 38).

(26) قارن تودوروف، «نحو السرد»، في «شعرية النثر»، ص ص. 108 - 119. ينطلق التقرير السردى من جمع اسم علم (مسند إليه نحوي غفل من الخواص الداخلية) ونوعين من المسندات، أحدها يصف حالة توازن أو لا توازن (نعتي)، وآخر يصور العبور من حالة إلى أخرى (فعل). بذلك توازي الوحدات السردية للسرد أقسام الخطاب: الأسماء، والصفات، والأفعال. ومع ذلك، يصح القول إن ثمة فيما وراء الفرض ما يشهد في التركيب المنسجم مع تتابع ما على أنه «لا يوجد أية نظرية لغوية للخطاب» (المصدر السابق). وهذا يعني الإقرار بأن الحكمة الكاملة في حدها الأدنى تتكون من تقرير توازن ما، ثم فعل تحويلي، وأخيرا توازن جديد نابع من نحو محدد مطبق على القواعد الخاصة بالتحويلات السردية (قارن أيضا، «التحويلات السردية»، المصدر السابق، ص ص. 218 - 133).

(27) «إن أماننا، وقد أنجزنا تحليل الحكمة إلى عناصرها المكونة، الأدوار، النظر في العملية المعاكسة والتكميلية التي بها يتحقق تركيبها في الحكمة.» (المصدر السابق، ص. 136).

(28) يجيب بريمون عن السؤال إن كان «بالإمكان تصور نظام آخر لتوزيع الأدوار يمتلك القدر نفسه من الإقناع، وربما أفضل.» (المصدر السابق، ص، 327)، بالقول «علينا إثبات أن منطق الأدوار الذي استفدنا منه يفرض نفسه، دائما وفي كل مكان، بصفته المبدأ الوحيد الذي يوفر تنظيما متسقا للأحداث في حبكة ما.» (المصدر السابق). ويرد في معرض كلامه على ميتافيزيقا ملكات الكائن البشري التي شيد عليها هذا النظام: إن الفعالية السردية نفسها هي التي تفرض هذه المقولات علينا كشروط لتشكيل التجربة المروية.» (المصدر السابق).

(29) يفضل بريمون طريقة أخرى للتعبير عن ذلك. «إن أساسا في ميتافيزيقا ملكات الكائن البشري على تنظيم عالم الأدوار يكون لذلك ضروريا لمسعانا.» (المصدر السابق، ص. 314). في الواقع، تمكن هذا الافتراض بالفعل من التحكم في تكوين التتابع الابتدائي بوصفية تصادفية، ثم عبورا إلى فعل ما، ثم إتماماً. ومنه نتعلم أننا إما أن نكون المتأثر وإما أن نكون الفاعل المساعد على أي تحويل. لذا لا غرابة في أنه يتحكم أيضا في مفاهيم التقييم، والتأثير، والمبادرة، والثواب والعقاب. وهو يؤجّه أيضا التكوين اللاحق للعلاقة التركيبية المشار إليها على عجل آنفا. بين تنسيق بسيط وتطورات متلاحقة، سبب

ونتيجة، وسيلة وغاية، والتضمين (الحط من القدر يتضمن إمكانية الحماية، الإزدراء يتضمن إمكانية العقاب). ويدعي بريمون لنفسه الحق باللغة العادية أيضا، « لكي يوصل إلى القاري، احساسا حدسيا بالتنظيم المنطقي للأدوار في السرد » (المصدر السابق، ص. 309).

(30) أ. ج. غريماس، «علم الدلالة النيو: محاولة في المنهج» ت: دانييل ماكديول، رونالد شليفير، آلان فيلي (لنكولن: جامعة نبراسكا، 1983)، « المعنى: مقالات سيميائية » Du Maupassant La sens: Essais semiotiques (باريس: سوي، 1970)، «موباسان» Maupassant La semiotique du text: Exercices pratiques (باريس: سوي، 1976). وتتمثل النواة النظرية لكتاب «المعنى» في الدراستين (ص ص. 135 - 186) الموسومتين «تفاعل القيود السيميائية» التي كتبها بالتعاون مع فرانسوا راستير ونشرت لأول مرة في دورية بيل للدراسات الفلسفية 41 (1968): 84 - 105. و«Elements d'une grammaire narrative» المنشورة لأول مرة في 71 (1969) L'Homme 9:3 - 92. انظر أيضا أ. ج. غريماس وج. كورتيس «السيميائية واللغة: قاموس تحليلي»، ت: لاري كرايست ودانييل بات، وآخرون. (بلومنتون: جامعة انديانا، 1982). وقد صدر كتاب جديد لغريماس عند تقديم الطبعة الفرنسية لهذا الكتاب إلى المطبعة هو: أ. ج. غريماس، «المعنى»، الجزء الثاني (باريس، سوي، 1983).

(31) إتيان سوريو، Les Deux Cent Mille Situations Dramatiques، (باريس: فلاماريون، 1950).

(32) «يمكن اعتبار الاختبار، لهذا السبب، النواة العصبية على الاختزال التي تفسر تعريف القصة بوساطة التعاقب الزمني.» (المصدر السابق، ص. 237).

(33) يخول غريماس نفسه هذه الملاحظة ضد معالجة بروب التي ترى في مجمل تتابع الوظائف تتابعا واحدا ثابتا، وذلك لأن الاختبار يكون على القصد من هذا دلالة معينة على الحرية. ولكن ألا يمكن تحويل هذا الجدال ضد محاولة غريماس نفسه في تكوين نموذج تبادلي يفتقد إلى أي بعد تعاقبي منتج. والواقع أنه يقر بصراحة بما يلي: «إذا لم تنبثق فضلة تعاقبية، يصبح متاحا اختزال كل السرد إلى هذه البنية البسيطة المتمثلة في الثنائي الوظيفي (مواجهة ضد نجاح) التي لا تقبل التحويل إلى مقولة معنوية أولية.» (المصدر السابق، ص. 236).

(34) وهو يضيف في توجه مماثل «البديل الذي يقدمه السرد هو الاختيار بين حرية الفرد (و هو ما يعني غياب العقد) والعقد الاجتماعي المقبول.» (المصدر السابق).

(35) «نتيجة لذلك فإن النزاع (ن) - الزوج الوظيفي الوحيد الذي يتعذر تحليله في بنية لا تعاقبية - هو ما يجب أن يوضح التحول نفسه.» (المصدر السابق، ص ص. 244 - 245).

(36) تجد هذه الأطروحة ما يدعمها في استخدام تودوروف لمفهوم «التحول» في «التحولات السردية» المذكور آنفا. وميزة هذا المفهوم أنه يجمع زاوية النموذج التبادلي التي طرحها ليفي - ستروس وغريماس مع زاوية بروب التوزيعية. إنه، بين أشياء أخرى، يشطر محمولات الفعل، فعل شيء ما، التي تمتد من أحكام الكلام (يجب، يستطيع، يفعل) إلى المواقف (يود أن يفعل). كما إنه يجعل السرد ممكنا بوساطة النقلة التي ينسب بها

من محمول الفعل إلى التابع بوصفه تركيبة اختلافاً ومماثلة. باختصار، هو «يربط حقيقتين دون أن تتوفر إمكانية تعريفهما» (المصدر السابق، ص. 233). لا تختلف هذه التركيبة في شيء عن ذلك الذي حدث بالفعل ثم فهم، كما أرى، بوصفه تركيبة المتنوع على مستوى فهمنا السردى. كما إنني ألتف مع تودوروف في وضعه التحول على الضد من التابع في كتابه "Les genres du discours". ويبدو بالفعل أن فكرة التحول تُعزى إلى العقلانية السردية، على الضد من فكرتي عن التصور الذي أرى أنه ينشأ عن الفهم السردى. لن نتمكن، إن توخينا الدقة، الكلام عن «التحول» دون أن نقدم له صياغة منطقية، ولكن، بقدر ما يساعد السرد على ظهور تحولات أخرى عدا النفي، تعتمد الفصل والوصل، - مثلاً العبور من الجهل إلى المعرفة، أو إعادة تأويل أحداث وقعت بالفعل، أو الخضوع لأوامر أيديولوجية (قارن، المصدر السابق، ص. 67 وما بعدها) - يبدو صعباً إعطاء مكافئ منطقي يغطي كل أشكال التنظيم السردية التي اكتسبت قدرة على التعامل معها بفضل ما ألفناه من أنواع الحكمة الموروثة عن ثقافتنا.

(37)

«تفاعل الفيدو السيميائية»، ص. 87.

(38)

هنالك مناقشة لمسألة البنية المنطقية للمربع السيميائي في هامشين طويلين (الرابع والحادى عشر) لمقالاتي «النحو السردى لغريماس» La grammaire narrative de Grimas في Documents de recherches semio-linguistiques de l'Institut de la langue française رقم 15 (1980): 5 - 35. والملاحظتان على ص. 29 - 30 و 32 - 33.

(39)

يتعذر في هذه المرحلة التمييز بين الجمل السردية وجمل الفعل. ومازال متعذراً تطبيق معيار داننو لجملة سردية. ذلك هو السبب في أن ما هو متوفر لنا عند هذه النقطة هو التحدث عن عبارة برنامج.

(40)

العبارة الأخيرة للاداء - المسماة نسبة - هي «المعادل على المستوى السطحي للتأكيد المنطقي في النحو الأساسي» (المصدر السابق، ص. 175). أناقش في مقالي المذكورة آنفاً (ص. 8 - 9) التوافق المنطقي لهذا التعادل أيضاً.

(41)

«يجب تكوين تركيبة تخص العاملين على نحو مستقل عن تركيب العمليات. لا بد من طرح مستوى ميتاسيميائي لتبرير نقل القيم» (المصدر السابق).

(42)

في مقابلة مع فرديريك نيف Frederic Nef نشرت في فرديريك نيف وآخرين، Structures élémentaires de la signification (بروكسل: كوملكنس، 1976)، يؤكد غريماس، «إذا كنا ننظر الآن في السرد بصيغة المنظور التوزيعي، حيث يبدو كل برنامج سردي عملية تتألف من اكتساب قيم وفقدانها، من اغناء لذات ما وإفقار لها، فنحن نرى أن كل خطوة نخطوها على طول المحور التوزيعي تتفق مع استبدال موقعي على طول المحور التبادلي أو تُعرّف بوساطته» (انظر ص. 25).

(43)

«الصديقان» في ج. د. موباسان، قصص قصيرة مختارة، ت: روجر كوليت (نيويورك: بنغوين، 1971)، ص. 147 - 156.

(44)

الثاني مربيل/مستلم يوسع مفهوم بروب للتفويض أو مفهوم العقد الافتتاحي في نموذج غريماس الفاعلي الأول، وهو العقد الذي يفضلته يتلقى البطل القدرة على فعل شيء ما.

لكن هذا الثنائي مريب/ مستلزم يضع الآن على مستوى شكلي أكثر جذرية. هنالك في الواقع مرسلون اجتماعيون، وحتى كوتيون، كما إن هنالك مرسلين أفراداً.

(45) **Le Récepteur face à l'Acte persuasif, Contribution à la théorie de l'interprétation (à partir de l'analyse de textes évangéliques), thèse de 3e Cycle en sémantique générale dirigée par A. J. Greimas** (Paris, EHESS, 1979)

(46) يقترح كتاب «موباسان» تميزات أخرى أدق بصدد فعل شيء ما. المدخل في ثبوت الكتاب الخاص بكلمة FAIRE يعطي فكرة عن التفرعات التي تفرض الأعمال التي تفوق في براعتها كثيراً الحكايات الشعبية على النظرية انتاجها. ويبدو أن المحافظة على التمييز بين «فعل شيء ما» و«الوجود» ضمن إطار السردية هو الأصعب ما دام غير منقوش داخل «فعل شيء ما» وحده. فضلاً عن ذلك، فإن الوجود المقصود هنا يرتبط لفعل شيء ما عبر توسط فكرة حال أو ميل ثابت؛ مثلاً، المرح الذي يشير إلى دخول حالة من النشاط والتوثب، أو حرية «الصدّيقين»، اللذين حرماً من كل قدرة على فعل شيء ما في أعقاب أسر البروسيين لهما، وهما يمارسان متى شاء أن يكونا قادرين على أن لا يفعلوا شيئاً ما، أي رفضهما طاعة الضابط البروسي، ومن هنا دخولهما «حالة وجود حر» تعبر عنها في نهاية القصة قدرتهما على الموت وقوفاً.

(47) انظر الهامش 38 الوارد آنفاً.

(48) قد يعترض معترض بالقول إنني أخلط المقولات المشبهة للبشر في المستوى السطحي مع المقولات الانسانية في المستوى المجازي (الذي يتميز بوجود أهداف، ودوافع، وخيارات)، أو باختصار مع المقولات العملية التي وصفتها في الجزء الأول تحت عنوان المحاكاة. لكنني أشك في أن بمقدورنا معرفة «فعل شيء ما» دون إحالة إلى الفعل البشري، حتى وإن كان ذلك فقط عبر مقولات مثل شبه - الشخصية، وشبه - الحكمة، وشبه - الحدث والتي قدمتها في الفصل السادس من ذلك الجزء.

(49) بول ريكور، **Le Discours de l'action**، في بول ريكور ومركز الفينومينولوجيا، La Semantique de l'action (Scientifique, 1977)، ص ص. 133 - 137. قارن على وجه الخصوص أنتوني كيني «الفعل والعاطفة والإرادة» (لندن: روتلج اند كيغان بول، 1963).

(50) لا تختلف الحالة هنا عن تلك التي وصفناها في اختبارنا لكتاب بريمون «منطق الحكاية». هناك أيضاً استند منطق السرد على ظاهراتية وعلم دلالة فعل، وهو ما أسماه بريمون «ميثافيزيقاً».

(51) قارن ماكس فيبر «الاقتصاد والمجتمع: خطوط عريضة لعلم اجتماع تأويلي» ت: افرام فسشوف وآخرون (نيويورك: بدمستتر، 1968، وأعيد طبعه في بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 1978)، الفصل الأول، الفقرة 8. المقولات السابقة هي الفعل الاجتماعي، العلاقة الاجتماعية، توجيه الفعل (العادات والطبائع)، النظام الشرعي (العرف، القانون)، وأساس الشرعية (التقليد، والايمان، والقانون).

(52) يقول غريماس في لقائه مع فردريك نيف (**Entretien**) ص. 25. إن البنية السجالية

للسرد هي التي تسمح بتوسيع التلفظ الابتدائي التبادلي للنموذج التصنيفي ليصل إلى كل الكشف التوزيقي للسرد. تضمن البنية السجالية بوساطة المقابلة بين ذات - ضد ذات، وبرنامج - ضد وبرنامج، وحتى من خلال مضاعفة المربعات الفاعلية من خلال شطر كل فاعل إلى فاعل، ولا - فاعل، وفاعل - ضد، ولا - فاعل ضد، تضمن دس النظام التبادلي في مجمل النظام التوزيقي. ليس « هنالك إذن ما يدعو إلى الدهشة في حقيقة أن تحليل حتى أقل النصوص تعقيدا يستلزم مضاعفة للمواقع الفاعلية والتي تكشف بهذه الطريقة، في جهة الكشف التوزيقي، التلفظ التبادلي للسردية. » (المصدر السابق، ص. 24). لكن بإمكاننا صياغة ذلك بطريقة معاكسة. لأن هنالك شيئا يحدث بوصفه صراعا بين ذاتين، يمكننا أن نُسقط ذلك على المربع. وهذا الاسقاط ممكن بدوره لأن هذا المربع نفسه قد عومل بوصفه المكان الذي تقع فيه العمليات المنطقية. » (المصدر السابق، ص. 26)؛ باختصار، لأنه قد تم اضافة السردية عليه فعلا. لذلك فإن كل التقدم في تطبيق مربع التقابل *La carréification* - من مستوى لآخر يمكن أن يبدو وكأنه التقدم خطوة خطوة الذي يحزره التبادلي نحو قلب التوزيقي، أو بوصفه اضافة أبعاد توزيعة جديدة (التقصي، الكفاح ... إلخ)، توجهها سرا البنية المزوجة التبادلية والتوزيعة للسرد المكتمل.

(53) فيما يخص اتساق التركيب النحوي الطوبولوجي بوصفه كذلك، والدور المنسوب إلى علاقة الافتراض المسبق الذي يعود بالجولة في زوايا المربع السيميائي إلى بدايتها، قارن مقالتي "La grammaire narrative de Greimas"، ص ص. 22 - 24.

(54) يقترب غريماس إلى الاقرار بهذا فيما بعد في مقابلته مع نيف. « برغم ذلك فإن المسألة هنا لا تعدو مسألة التحكم في التركيب النحوي، بمساعدة حالات الفصل والوصل، العبارات حول حالات الأمور، والتي تعطي السرد تمثيلا سكونيا لسلسلة من حالات الأمور فقط. وما دام المربع التصنيفي يجب أن ينظر إليه بوصفه المكان الذي تقع عليه العمليات المنطقية، فإن سلسلة العبارات عن حالات الأمور تنظمها وتتحكم بها العبارات حول فعل شيء ما والذوات التحويلية المسجلة فيها. » ("Entretien"، ص. 26).

الفصل الثالث

(1) يعود التأكيد على الطبيعة التأملية لإصدار حكم إلى وقت مبكر، مع فلاسفة القرون الوسطى. لكن كانط هو الذي أدخل التمييز المثمر بين حكم يمين وآخر تأملي. الحكم المعين محكوم كليا بالموضوعية التي ينتجها. الحكم التأملي يعود بأدراجا إلى العمليات التي يكون بها الأشكال الجمالية والعضوية على أساس السلسلة السببية للأحداث في العالم. بهذا المعنى، تكون الأشكال السردية فئة ثالثة من الحكم التأملي، أي إنها حكم قادر على أن يتخذ موضوعا له العمليات الغائية نفسها التي تتخذ الكيانات الجمالية والعضوية بوساطتها شكلها.

(2) اميل بنفست، «تعالقات الزمن في الفعل النحوي الفرنسي» في كتابه «مشاكل في علم اللغة العام»، ت: ميري اليزابت ميك (كورال جيبيلز، فلوريدا: جامعة ميامي، 1977) ص ص 205 - 215؛ كيت هامبرجر «منطق الادب»، ط2، طبعة مراجعة، ت: مارلين

ج. روز (بلومغنتن: جامعة انديانا، 1973)؛ هارالد وينرتش، Temps: besprochene und erzählte welt (شتوتغارت: كولهامر، 1964). وسأقتبس من الترجمة الفرنسية لكتاب ميشيل لاكوست le temps: le recit et le commentaire (باريس، سوي، 197) والذي هو في الواقع عمل أصيل لمؤلفه، لأن التقسيمات والتحليلات غالباً ما تختلف عن النص الألماني.

(3) إن لتردد بنفست في هذا المجال دلالة. فهو بعد أن يكرر «لا بد لهذه الأحداث، لكي تسجل على أنها وقعت فعلاً من أن تنتمي إلى الماضي.» (المصدر السابق، ص. 206)، نراه يضيف «لا شك في أن من الأفضل القول أنها تُشخص على إنها ماضٍ بواسطة الزمن الذي سُجلت فيه ولُفظت في تعبير زمني تاريخي.» (المصدر السابق). يتيح له معيار لا - تدخل المتكلم في السرد تفادي السؤال إن كان زمن السرد هو ما ينتج أثر كونه ماضياً، وإن كان لشبه - ماضي السرد القصصي علاقة مع الماضي الواقعي بالمعنى الذي يفهم به المؤرخ هذا المصطلح.

(4) في الواقع، يطرح بنفست الفصل بين أزمنة الفعل النحوي والزمن المعيش ببعض التحفظ: «لن نجد فكرة الزمن وحدها المعيار الذي يتقرر على وفقه موقع أو حتى إمكانية شكل معطى مع نظام الفعل النحوي.» (المصدر السابق، ص. 205). إن تحليل الأشكال المركبة، والذي يحتل جزءاً كبيراً من مقاله، يطرح مشاكل مشابهة تتعلق بفكرة الفعل المكتمل أو غير المكتمل، وأخرى تتعلق بأسبقية حدث على حدث متقول آخر. ويبقى السؤال: هل يمكن عزل هذه الأشكال النحوية عزلاً تاماً عن علاقات مرتبطة بالزمن؟

(5) يلتحق رولان بارت في هذه النقطة بموقع بنفست في كتابه Le Degré zéro de l'écriture (رولان بارت، «درجة صفر الكتابة وعناصر علم الدلالة»، ت: انيت لافرز وكولن سميث [بوسطن: بيكون، 1976]). بالنسبة لبارت يوحى استخدام الماضي المطلق ضمنياً بالطبيعة الأدبية للسرد، أكثر مما يدل دلالة قاطعة على أن الفعل يعود إلى الماضي. قارن أيضاً جيرارد جينيت Nouveau Discours du recit، ص. 53.. ولابد من إنجاز دراسة حول ما تنطوي عليه نظرية السرد بالنسبة لعلم اللغة الذي يتبناه غوستاف غوليوم، والتي يقدمها في Temps et verbe (باريس: تشامبيون، 1929، 1965). وهو يفتح الباب لمثل هذه الدراسة عبر تمييزه عمليات فكرية تقف وراء كل مخطط عام للزمن. فهو يميز على مستوى الطرز، مثلاً، مرور الزمن على وفق ما يسميه in posse (أي طراز المصدر، واسم الفاعل أو المفعول به)، ثم الزمن in fieri (أي طراز المسند إليه)، وأخيراً الزمن in esse (أي الطراز الدلالي). والتمييز، على مستوى الزمن in esse لنوعين من الحاضر - «نموذجين زمنيين» chronotypes (المصدر السابق، ص. 52) - أحدهما واقعي ومتدهور، والآخر افتراضي وعرضي؛ هذا التمييز يقع في المركز من هذه التوليدية الزمنية، chronogenesis. أما اندريه جيكون في كتابه Temps et Langage: Essai sur les structures du sujet parlant (باريس: ارماند كولن، 1967) فقد قطع خطوة أخرى باتجاه البحث الذي اقترح القيام به بطرحه مفهومنا ناشطاً ينتج نحو انثروبولوجيا عامة يتقاطع فيها تكوين الزمن الإنساني والذات المتكلمة.

- (6) تستخدم هامبرجر المصطلح العام Dichtung (أدب، شعر) لتعيين الأجناس الثلاثة الكبيرة: الملحمة، والدراما، والشعر الغنائي. تغطي الملحمة كل الميدان السردى، بينما تغطي الدراما منه الجزء المتعلق بالفعل الذي تعرضه على المسرح شخصيات تتحاور أمام النظارة، والشعر الغنائي هو تعبير، بوساطة تقنيات شعرية، عن الأفكار والمشاعر التي يمر بها الكاتب. لذلك لا ينتمي إلى ميدان القص إلا جنس genres الملحمة والدراما، ومازالت الملحمة توصف بالمحاكاةية، في استخدام يستحضر أفلاطون. يذكرنا استخدام مصطلح «ملحمة» بهذا المعنى باستخدامه في المناقشات التي جرت بين غوته وشيلر حول مزايا الجنسين القابلة للمقارنة: «Über epische und dramatische Dichtung» (1797) في و. غوته Samtliche werke (شتوتغارت وبرلين: Jubiläums Ausgabe، 1902 - 1907)، المجلد 36، ص 149 - 152. ولابد من ملاحظة أن «الماضي المركب الأول» (volkommen vergangen) يوضع في هذه المقارنة على الضد من «الحاضر المركب الأول» (Vollkommen gegenwartig) للدراما. والامر هنا لا صلة له بالرواية، إلا إذا كانت الرواية تنويعا حديثا على الملحمة، وهو ما يفسر مصطلح هامبرجر.
- (7) «غياب الأنا - الأصل الحقيقية والشخصية الفاعلة في السرد القصصي يمثلان ظاهرة واحدة لا غير». («منطق القصة»، ص 137). يمكن لتقديم راو قصصي مشخص، كما ترى هامبرجر، أن يُصنف القطيعة بين السرد والتقرير. لذلك فإنها مضطرة إلى التأكيد على أن حقل القصة «لا يمثل في نطاق تجربة الراوي، وإنما في نتاج الوظيفة السردية» (المصدر السابق، ص 230). لا مكان بين المؤلف وشخصياته القصصية لأنا - أصل أخرى.
- (8) لا أستطيع هنا عرض الأسباب التي يعد بموجها الراوي ذاتا قصصية للخطاب غير قابله للاختزال إلى مجرد وظيفة محايدة - (das Erzählen) سأعود للنصدي لهذه المشكلة مرة أخرى لاحقا عند مناقشتي لمفهومى «وجهة النظر» و«الصوت».
- (9) تعالج هامبرجر مشكلة أخرى تتعلق بالأزمة النحوية في الخطاب الحر غير المباشر أو المونولوج المروي (erlebte Rede)، وهي مشكلة تتطلب النوع نفسه من الشرح التكميلي. في المونولوج المروي (erlebte Rede) تسجل كلمات الشخصية في صيغة الغائب وفي الزمن الماضي، على عكس ما يحدث في المونولوج المُسجَّل حيث تعبر الشخصية عن نفسها في صيغة المتكلم وفي الزمن الحاضر. نفراً مثلاً، في «السيدة دالوي»: «تركَّ يدها تسقط. فكَّر أن زواجهما قد انتهى، بآلم، بارتياح. انقطع الجبل، كان يعلو، وكان حراً، كما هو مقرر، انه هو، سبتيموس، سيد الرجال، لابد أن يكون حراً، وحيداً... هو، سبتيموس كان وحيداً....». ترى هامبرجر في هذا التأكيد أن الماضي النحوي لا يدل على الماضي، مادامت الكلمات تشير إلى الحاضر القصصي للشخصية - وهو، بالمناسبة، حاضر دون زمن أيضاً - وهي لا تجانب الصواب في هذا، إذا كنا لا نستطيع أن نعني بالماضي إلا الماضي «الواقعي»، المرتبط بالذاكرة أو التاريخ. لكن بالامكان شرح المونولوج المروي على نحو أكمل إذا ما أؤلناه بوصفه ترجمة خطاب الشخصية إلى خطاب راو، حيث يفرض الأخير زمنه وسرده بصيغة الغائب. عندها يتحتم اعتبار الراوي فاعل الخطاب في القصص. سأعود إلى هذه المشكلة لاحقا عبر جدلية

- الراوي والشخصية في قصص صيغتي المتكلم والغائب.
- (10) لن يكتمل جدلي حتى مطرح فكرتي «وجهة النظر» و«الصوت». عندها سيكون بالإمكان تأويل الماضي المطلق الخاص بالملحمة بوصفه الماضي القصصي للصوت السرد.
- (11) يقصد وينرتش بـ «النص»: «تتابعاً من العلامات اللغوية دالاً على معنى يقع بين انقطاعين واضحين في الاتصال» (Le Temps: ص 13)، مثل فترات السكوت في الاتصال الكلامي، ودفتي الكتاب في الاتصال المكتوب، أو أخيراً، «حالات قطع يتم إدخالها بتقصّد وتقوم، بمعنى ما وراء لغوي، بالتخفيف من حدة الانقطاعات الواضحة في الاتصال». (المصدر السابق). أنواع الافتتاح والاختتام التي تميز السرد هي، على وفق هذا الاعتبار، «حالات قطع يتم إدخالها بتقصّد».
- (12) وجدت من الصعب الاتفاق مع المترجم الفرنسي لكتاب "Tempus"، الذي يترجم Besprechung على إنها commentaire (تعليق)، لكنني قررت أخيراً أن افعل ذلك. لا تأخذ هذه المفردة بنظر الاعتبار «موقف الشد» الذي يميز هذا النوع من الاتصال. هنالك، في الأذن الفرنسية، قدر أكبر من التجرد في استقبال تعليق مما هو مع السرد. من جانب آخر، فإن ترجمة Besprechung على أنها debat (جدال، نقاش)، وهو الخيار الذي أفضله، يطرح نبرة سجالية هي نفسها غير ضرورية. برغم ذلك يمكن لنا أن «نجادل» أو نناقش بشأن شيء ما دون وجود خصم. (يوضح هذا الهامش حدود المصطلح الذي تقوم عند نقله إلى العربية الإشكالية نفسها - م).
- (13) هنالك عرض لتعداد آخر أيضاً. على جانب التعليق يرد «الشعر والدراما، والحوار عموماً والصحيفة والنقد الأدبي، والوصف العلمي» (المصدر السابق، ص 39). على جانب السرد هنالك «القصة القصيرة، والرواية، والمرويات من كل الأنواع (عدا الحوارات)». (المصدر السابق). المهم لا يجمع هذا التقسيم مع تصنيف أشكال الخطاب بصيغ «الأجناس» جامع.
- (14) يلاحظ وينرتش أن «فكرة الشد... لم تخترق الشعرية إلا حديثاً تحت تأثير جماليات معلوماتية، بوساطة أفكار من مثل «التشويق» (المصدر السابق، ص 35). وهو يشير هنا إلى كتاب تودوروف «شعرية الشر».
- (15) «لا ينطبق الحد الفاصل بين الشعر والحقيقة مع ذلك القائم بين العالم المروي والعالم المُتعلّق عليه. للعالم المُتعلّق عليه حقيقة الخاصة (أضداده هنا هما الخطأ والأكاذيب)، وللعالم المروي حقيقته أيضاً (وضده هنا القصص الخيالي). كما إن لكليهما شعره على النحو ذاته. بالنسبة للأول الشعر الغنائي والدراما، وبالنسبة للآخر الملحمة». (المصدر السابق، ص 104). هكذا نرى أن هنالك فصلاً بين الدراما والشعر الملحمي كما كان الحال في «فن الشعر» لأرسطو.
- (16) اقترح هنا أن نقارن فكرة بروديل عن الحقبة الزمنية الطويلة مع فكرة وينرتش عن الخلفية. إن توزيع الزمنية بصيغة ثلاثة مستويات هو عمل يتصل كلياً بإبراز المعامل.
- (17) لم أقل شيئاً حتى الآن عن الدور التكميلي الذي تلعبه الإشارات التركيبية الأخرى ذات القيمة الزمنية مثل الضمائر، والظروف، الخ. بحسب وينرتش، تناط مهمة تقرير إن كانت الأطرادات التوزيعية معروضة على شكل اقترانات ذات امتياز إلى مسح عام للاقترانات.

لقد صارت الصلة بين الماضي المطلق وضمير الغائب معروفة، في أعقاب مقال بنفست المشهور. كما إن صلة ظروف معينه تختص بالزمن مثل «أمس»، «في هذه اللحظة»، «غدا» وما أشبه، مع الأزمنة النحوية للسرد جديرة بالملاحظة أيضا. وينطبق ذلك على نحو أكبر كما أرى، على الصلة التي تلاحظ بين العديد من العبارات الظرفية والأزمنة النحوية التي تبرز المعالم. إن كثرتها تلفت النظر. يحصي وينرثش أكثر من أربعين منها في فصل واحد من رواية فلوريير «مدام بوفاري» (المصدر السابق، ص 268)، والعديد نفسه تقريبا في فصل من رواية مالرو «الطريق الملكي». كل هذا العدد من الظروف لزمين نحويين فقط! واليه لا بد أن تُضاف الظروف التي تؤثر شدة الإيقاع السردى: «أحيانا»، «في بعض الأحيان»، «من حين لآخر»، «دائما... الخ»، التي تقتزن عموما مع غير التام. وأخيرا، «فجأة»، «على حين غرة»، «دون سابق إنذار... الخ»، والتي تقرر في الغالب الأعم مع الماضي المطلق. يُضاف إلى ما سبق كل الظروف التي تجيب على السؤال «متى؟» أو على سؤال مشابه يرتبط بالزمن» (المصدر السابق، ص 270): «أحيانا»، «غالبا»، «أخيرا»، «بعدها»، «عندها»، «دائما»، «مرة أخرى»، «بالفعل»، «الآن»، «هذه المرة»، «مرة أخرى من جديد»، «تدرجيا»، «فجأة»، «واحدا بعد الآخر»، «من دون توقف»، وما أشبه. توحي هذه الكثرة بأن الظروف والعبارات الظرفية تنسج شبكة لتخطيطية العالم المروي أكثر دقة بكثير مما تفعل الأفعال النحوية التي تقتزن بها.

(18)

تستمد الانتقالات الزمنية العون أيضا من اقتران الأزمنة النحوية والظروف. ما يصح على الجانب التبادلي من المشكلة ينطبق على الجانب التوزيعي أكثر. إن الظروف المذكورة آنفا تستحق أن توصف بأنها تصاحب الانتقالات الزمنية، وتقوِّمها، وتجعلها أكثر دقة. بهذه الطريقة فإن الظروف - «الآن»، «ذات مرة»، «ذات صباح»، «ذات مساء» - تؤكد على الانتقال المتنوع من الخلفية (غير تام) إلى الصدارة (الماضي المطلق)، بينما يلائم الظرف «وعندها»، بوصفه ظرف تتابع سردي، الانتقالات المنسجمة فيما بينها داخل العالم المروي أكثر. سناقش لاحقا الامكانات التي يقدمها التركيب الانتظامي للانتقالات السردية هذا بالنسبة لتلفظ التصورات السردية.

(19)

ما يقوله وينرثش حول أفكار الافتتاح والاختتام والنهاية المشبهة (التي يؤشرها موباسان على نحو دقيق، مثلا، باستخدامه ما أصطلح على تسميته زمن الانقطاع غير التام) يجب أن يؤخذ بالحسبان مرة أخرى في هذا المجال. هنا لا يتميز إبراز تفاصيل السرد عن بنية السرد نفسها.

(20)

قارن مثلا، ادموند هومرل، «افكار تتعلق بظاهراتية خالصة وبالفلسفة الظاهراتية. الكتاب الأول: مقدمة عامة إلى ظاهراتية خالصة»، ت: ف.، كيرستن (لاهاي: ماريتنوس نيجهوف، 1982)، 109، «تحويل الحيات»، ص ص. 257 - 259.

(21)

يوجين فلك، "De la Phenomenologie"، ت: ديدير فرانك (باريس: Minuit، 1974)، ص ص 15 - 93. الأصل الألماني "Vergegenwärtigen und Bild: Beiträge zur Phänomenologie der Unwirklichkeit"، متوفر في يوجين فلك، "studien zur phänomenologie"، 1930 - 1939 (لاهاي: ماريتنوس نيجهوف، 1966)، ص ص. 1 - 78.

(22)

سأعود إلى مناقشة أوسع لهذه المشكلة في الفصل الختامي من هذا الجزء.

- (23) ستوفر فكرة الصوت السردى لاحقاً في هذا الفصل استجابة أكمل لما هو مطروح هنا.
- (24) يمكن ربط هذا بسمائية غريماس، الذي يستدعي بخصوصه «كيفية» التحولات، حيث يضعها (كما نذكر) في منتصف الطريق بين المستوى المنطقي - الدلالي والمستوى الاستطرادي حصراً. وللتعبير عن هذه الكيفية تتوفر اللغة على تعبيرات دالة على المدة (وعلى التواتر)، وأخرى دالة على الأحداث. إضافة إلى ذلك، فلأنها تؤثر إلى الانتقال من الديمومة إلى الأحداث العرضية بوساطة ملامح صيغة الشروع وصيغة الختام.
- (25) مؤشرات تركيبية أخرى، مثل الظروف والعبارات الظرفية، والتي اشرنا إلى كثرتها وتنوعها آنفاً، تزيد من تأكيد القوة التعبيرية للأزمة النحوية.
- (26) الملاحظات التي ستعقب هذا تنسجم بشكل وثيق مع تأويلي للخطاب الاستعاري بوصفه «إعادة وصف» للواقع في الدراستين السابعة والثامنة من «حكم الاستعارة الحية».
- (27) سأحاول فيما يلي، وهي محاولة لا تخلو من مجازفة، أن أوّل «الجبل السحري» من زاوية تجربة الزمن، والتي تسقطها هذه الرواية الزمنية Zeitroman إلى ما وراء ذاتها دون أن تتوقف عن أن تكون قصة خيالية.
- (28) Morphologisches Poetik. تحرير: إيلينا مولر (توبنجن: م. نيمير، 1968) هو العنوان الذي تبنه مولر لمجموعة من مقالاته تعود إلى الأعوام 1964 - 1968.
- (29) مما يستحق الذكر أن بروب قد استلهم غوته أيضاً كما رأينا في الفصل الثاني.
- (30) غوته نفسه موجود في أصل هذه العلاقة الغامضة بين الفن والطبيعة. فهو يكتب من جانب الفن طبيعة أخرى "Kunst ist eine andere natur" لكنه يقول أيضاً بأن "Kunst ... is eine eigene Weltgegend [منطقة أصلية من العالم] (مقتبس لدى مولر، ص. 289).
- يفتح المفهوم الثاني الطريق أمام بحوث غوته الشكلية في السرد، والتي ندين إليها بـ «خطئه» المعروفة على نطاق واسع عن «الإلياذة». ويشير مولر إلى هذا بوصفه نموذجاً لبحوثه هو (قارن، المصدر السابق، ص ص. 270، 280، 409). قارن أيضاً Goethes Morphologie in ihrer Bedeutung für Dichtungskunde (المصدر السابق، ص ص 287 - 298).
- (31) يؤكد مصطلح العزل جانباً Aussparung في آن واحد على ما حُذف (الحياة نفسها كما سنرى) وعلى ما استبقى، اختيار، أو النقط. لكلمة épargne الفرنسية أحياناً هذان المعنيان: ما يُستبقى هو ما يتوفر لشخص ما وهو أيضاً ما لا يُمس، كما هو الحال عندما نقول إن قرية ما قد استبقاها (épargné par) القصف. كلمة «مدخرات» (l'épargne) تحتوي تحديداً معنى ما وُضع جانباً لكي يستفيد منه شخص ما، وما عزل جانباً وخُتِن.
- (32) يبدو مولر غير مرتاح في الكلام عن هذا الزمن المروي بذاته، والذي لا هو مروي ولا مقروء، نوع من زمن بلا جسد، مقياس بعدد الصفحات، من أجل تمييزه عن زمن القراءة الذي يسهم كل قارئ فيه بإيقاعه الخاص (المصدر السابق، ص 275).
- (33) على سبيل المثال تبدأ دراسة «سنوات التعلم» Lehrejahre غوته بمقارنة الصفحات الستمائة وخمسين المنظور إليها على أنها «مقياس الزمن الفيزيقي الذي يحتاجه الراوي لسرد قصته» (المصدر السابق، ص 270) بالأعوام الثمانية التي تغلّطها الأحداث المروية.

ولكن التنويعات المتواصلة في الأطوال النسبية هي التي تخلق سرعة إيقاع العمل. لن أقول شيئاً هنا عن دراسته لـ «السيدة دالاي»، لأنني سأقدم تأويلاً لها في الفصل القادم يأخذ بالحسبان تحليل مولر الدقيق للدراجات والاستطرادات، لنقل، الداخلية التي تسمح لعمق الزمن المستذكر أن يعلو إلى سطح الزمن المروي. كما أن مولر يبدأ دراسته لـ «ساغا فورسايت»، وهي مثل نموذجي على «رواية تاريخ العائلة»، بتحليل كمي دقيق. تغطي الرواية في 1100 صفحة مدى أربعين عامًا. في هذا الفاصل الشاسع من الزمن غزل الكاتب خمس فترات تتراوح بين بضعة أيام، وبضعة شهور، وعامين. وإذا يعود مولر إلى الخطة الكبيرة لـ «الإلياذة» التي اقترحها غوته فانه يعيد بناء الخطة الزمنية للجزء الثاني من «ساغا فورسايت» بتاريخه المحددة، وإحاطته على أيام الأسبوع.

(34) يمكن العثور على تحليل مفصل للطبيعة التقنية العالية لهذه العمليات المتنوعة في التأليف السرد في الدراسات التي تتناول «Zeitgerust des Erzählens» في يورج بيناتش (المصدر السابق، ص 388 - 418) Zeitgerust des Fortunatus-Volksbuch (المصدر السابق، ص 570 - 589).

(35) فعل القصيدة نحو زمن الحياة عبر الزمن المروي هذا هو مدار البحث في كل واحدة من الدراسات المشار إليها آنفاً. ويقال إن العلاقة بين الصنفين الزمنيين في «سنوات التعلم» «تلائم» أو تُخَيَّف مع الموضوع الخاص للسرد، التحول الإنساني وüberganglichkeit (المصدر السابق، ص 271). نتيجة لذلك فإن جشطلت Gestaltsinn هذا العمل الشعري ليس عشوائياً، ويجعل التدريب - Bildung - مثالاً للعلمية البيولوجية التي تتولد عنها أشكال حبة. ويصح الشيء نفسه على «رواية تاريخ العائلة». ولكن، بينما في رواية التطور الداخلي Bildungsroman التي كتبها ليسنغ وغوته يحكم فيض القوى الحية تحول الكائن الحي، فإن رواية تاريخ العائلة التي كتبها جالزورثي تسعى إلى إظهار عملية التقدم نحو الشيخوخة، العودة الضرورية إلى الظلام، وابتعد من مصير الفرد، صعوبة حياة جديدة يكشف من خلالها الزمن انه في آن واحد ينقذ ويدمر. في الأمثلة الثلاثة المشار إليها، «تصل صياغة الزمن المروي بشكل يتعلق بتلك المنطقة من الواقع التي تتجلى في جشطلت الشعر السردی einer erzählenden Dichtung» (المصدر السابق، ص 285). بهذا تُحوّل العلاقة بين الزمن الذي يستغرقه السرد والزمن المروي والتوتر بينهما إلى شيء ما، فوق السرد وابتعد منه، ليس السرد ولكن الحياة. ويُعرف الزمن المروي نفسه بأنه «الزَم» raffung بأخذ الأرضية التي يبرز عليها بنظر الاعتبار؛ تحديداً، الطبيعة بصفاتها غير ذات معنى، أو بالأحرى بوصفها لا مبالية بالمعنى.

(36) في مقال آخر في المجموعة نفسها Zeiterlebnis und Zeitgerust يقدم مولر ثانياً آخر من المصطلحات يعبر عنها العنوان (المصدر السابق ص ص 229 - 311). هذه التركيبية هي armature التفاعل بين الزمن الذي يستغرقه السرد والزمن المروي. أما بالنسبة للتجربة المعيشة للزمن، فهي حسب المصطلح الهوسرلي، أرضية الحياة اللامبالية بالمعنى. لا حدس يمكن أن يعطينا معنى هذا الزمن، الذي لا يزيد أبداً عن كونه مؤوّلاً، ومقصوداً على نحو غير مباشر بواسطة تحليل تركيبة الزمن Zeitgerust. تظهر ذلك أمثلة جديدة مأخوذة من مؤلفين نهمهم جائزة الرهان بقدر ما يهمهم اللعب على نحو أكثر

وضوحاً. بالنسبة لواحد منهم، هو اندرياس كروفيوس، ليس الزمن إلا سلسلة من الأناث المعزولة عن بعضها البعض، لا تنجها من العدم إلا الإحالة إلى الأزل. بالنسبة لآخرين مثل شيلر وغوته، فإن مسار زمن العالم نفسه هو الذي يؤسس الأزل. ويرى آخر، وهو هوفمانستال، أن الزمن هو الغرابة نفسها، الاتساع الذي يتلغ كل شيء. وهو بالنسبة لآخر، هو توماس مان، الخارق المثير بامتياز. مع كل واحد من هؤلاء المؤلفين نحن نمس البعد الشعري *poietische dimension* للزمن «المعيش». (المصدر السابق، ص 303)

- (37) في مقال *Über die Zeitgerüst des Erzählens* نقراً: «منذ جوزيف كونراد وجويس وفيرجينيا وولف وبروست وفوكنر أصبحت الطريقة التي يتم بها التعامل مع تطور الزمن مشكلة مركزية في التمثيل الملحمي، منطقة للتجريب السردى، وهي لا تتعلق فقط بمسألة تخمين بصدد الزمن، ولكن بـ «فن السرد». (المصدر السابق، ص 392). لا ينطوي هذا الإقرار على أن «التجربة» الزمنية تكف عن أن تكون مدار البحث، ولكن على أن اللعب يسبق جائزة الرهان. وسيخرج جينيت بنتيجة أكثر جذرية من هذا العكس. لا يبدو مولر مبالاً إلى اختزال جائزة الرهان إلى اللعب. ينتج التركيز على فن السرد من حقيقة أن الراوي غير مضطر إلى التخمين حول الزمن من أجل أن يقصد هذا الزمن الشعري؛ يحدث هذا من خلال إضفاء تصور ما على الزمن المروي.
- (38) جيرار جينيت، «تخوم السرد»، في «صور الخطاب الأدبي»، ت: آلان شيردان (نيويورك: جامعة كولومبيا، 1982) ص ص. 127 - 144؛ «الخطاب السردى: مقال في المنهج»، ت: جين ألوين (إيثاكا: جامعة كورنيل، 1980)؛ «Nouveau Discours du récit» (باريس: Seuil، 1983).

- (39) مصطلح «*diegesis*» (*diegese*) مستعار من إيتيان سورو الذي اقترحه لأول مرة عام 1948، من أجل أن يضع مكان المدلول في الفيلم على الضد من فضاء الشاشة بوصفه مكان الدال. ويخصص جينيت في «Nouveau Discours du Récit» أن الصفة «*diegetic*» تتشكل على وفق نموذج الـ «*diegese*» الجوهري دون إحالة إلى *diegesis* أفلاطون الذي يؤكد لنا جينيت في عمله الصادر عام 1983 «أن لا علاقة له مع *diegesis*» (*diegese*) (انظر ص. 113). والواقع أن جينيت كان قد أشار هو نفسه إلى نص أفلاطون الشهير في «تخوم السرد» (ص. 128). لكن قصده كان حينذاك سجالياً. لأن المسألة كانت عندها التخلص من مشكلة المحاكاة الأرسطية المتنامية مع وهم الواقع الذي تخلقه محاكاة الفعل. «التمثيل الأدبي، محاكاة الأقدمين هو السرد، والسرد فقط... المحاكاة هي «نمط المحاكاة» *diegesis*». (المصدر السابق، ص ص. 132 - 133، التأكيد منه) [لم يكن جينيت يشير إلى فهمه هو للمصطلح هنا - م. أ.]. ويعاود جينيت التصدي للمسألة بإيجاز أكبر في «الخطاب السردى» (ص ص. 162 - 166)، «تدل اللغة دون أن تحاكي» (المصدر السابق، ص. 164). ولتجنب أي التباس لابد أن نذكر أن أفلاطون لا يقيم في «الجمهورية» III، 392، تضاداً بين نمط المحاكاة *diegesis* والمحاكاة. إن نمط المحاكاة هو المصطلح التوليدي الوحيد الذي يناقشه. وهو يقسمه إلى نمط المحاكاة «الصريح»، عندما يسرد الشاعر أحداثاً أو خطاباً بصوته هو، ونمط

المحاكاة «بالتقليد» (dia mimèseos)، عندما يتكلم الشاعر كأنما هو شخص آخر، باذلاً ما يوسع له للتشبه بصوت هذا الشخص الآخر، وهو ما يساوي محاكاته. أما العلاقة بين نمط المحاكاة والمحاكاة فهي على الضد لدى أرسطو، الذي يعتبر أن الممارسة المحاكاتية mimesis praxeos هي المصطلح التوليدي، ونمط المحاكاة diegesis النمط الثانوي. لذلك يجدر بنا الحذر من السماح لهذين النوعين من المصطلحات بالتركيب لأنهما يتصلان بنوعين مختلفين من الاستخدام. قارن مع «الزمان والسرد»، الجزء الأول، ص ص. 66 - 69، 368، هـ 14.

(40) لم تتوقف النظرية السردية عن التآرجح بين التقسيم الثنائي والتقسيم الثلاثي. يميز الشكلايون الروس بين الموضوع *sjuzet* والحكاية *fabula*. بالنسبة لشك洛夫سكي تعني الحكاية المادة المستخدمة في تشكيل الموضوع؛ فموضوع «بوجين أونيجين» [قصيدة للشاعر الروسي بوشكين - م]، على سبيل المثال، هو تقديم تفاصيل الحكاية، ومن هنا فهو بناء. قارن مع «نظرية الأدب: نصوص الشكلايون الروس»، جمعها وقدمها وترجمها تزفيتان تودوروف، تقديم: رومان ياكوبسون (باريس، سوي، 1965)، ص ص. 54 - 55. ويضيف توماشيفسكي أن تطور الحكاية يمكن أن يُشخص بوصفه «المعبر من موقف إلى آخر» (المصدر السابق، ص. 273). والموضوع هو ما يدرك القارئ أنه ناتج عن تقنيات التأليف (المصدر السابق، ص. 208). ويميز تودوروف نفسه، بمعنى مشابه، بين الخطاب والقصة («Les categories du récit littéraire» يستخدم بريمون مصطلحي «السرد الراوي» و«السرد المروي» («منطق الحكاية»، ص. 321، هـ 1). لكن سيزار سيجر Cesare Sergre يقترح ثلاثياً هو الخطاب (الدال)، والحبكة (المدلول في ترتيب التأليف الأدبي) والحكاية *fibula* (المدلول في الترتيب المنطقي التعاقبي للأحداث) («البنى والزمان: السرد، الشعر، الأنماط»، ت: جون ميدمن [شيكاغو: جامعة شيكاغو، 1979]). لذلك فإن الزمن بوصفه الترتيب المتتابع غير القابل للعكس، هو ما يفيد بوصفه عاملاً يساعد على التمييز. زمن الخطاب هو زمن القراءة، وزمن الحبكة هو زمن التأليف الأدبي، وزمن الحكاية هو زمن الأحداث المروية. إجمالاً، يمكن القول إن الثنائيات موضوع/حكاية (شك洛夫سكي، توماشيفسكي)، وخطاب/قصة (تودوروف)، وسرد/قصة (جينيت) تتجاوز مع بعضها البعض الآخر بشكل جيد. إن إعادة تأويلها بمصطلح سوسيري هو ما يمثل الاختلاف بين الشكلايين الروس والفرنسيين. هل يكون لزاماً علينا القول إذن إن عودة ظهور التقسيم الثلاثي (لدى سيزار سيجر وجينيت نفسه) يؤشر إلى عودة إلى الثلاثي الرواقي: ما يُدَل، وما يُدَل عليه، وما يحدث؟

(41) سيكون أحد موضوعات هذه الدراسة تعداد وتصنيف الوسائل التي حاول بها الأدب السردى (و على وجه الخصوص الرواية) أن ينظم بطريقة مقبولة داخل معجمه الخاص العلاقات الدقيقة التي يحافظ عليها داخله بين مستلزمات السرد وضرورات الخطاب («تخوم»، ص. 142). إن الخطاب الجديد للحكاية واضح لا لبس فيه في هذا الشأن: سرد دون راو أمر مستحيل ببساطة لأنه سيكون تقريراً دون تلفظ، وبالتالي دون أي فعل اتصال (المصدر السابق، ص. 68). من هنا العنوان نفسه «خطاب الحكاية».

(42) بصدد هذه العلاقات المعقدة قارن المحاولات المتنوعة الرامية إلى الترتيب التي اقترحتها

سيمور تشاتمان، «القصة والخطاب: البنية السردية في القصص» (إيثاكا: جامعة كورنيل، 1978)؛ جيرالد برنس، «علم السرد: شكل السرد ووظيفته» (لاهاي: موتون، 1982)؛ شلوميت ريمون - كينان، «القصص السردية: الشعرية المعاصرة» (نيويورك: ميثون، 1983).

(43) يمكن أن نتساءل في هذا الصدد إن كان زمن القراءة الذي منه يُستعار زمن السرد لا ينتمي لهذا السبب إلى مستوى التليظ، وإن لم يكن التحويل الذي تقوم به الكتابة يخفي هذه القرابة من خلال إسقاطه على مستوى التقرير ما ينتمي حقا إلى مستوى التليظ. إضافة إلى ذلك، أنا لا أسمى هذا شبه - زمن، وإنما زمن قصصي على وجه الدقة فهو وثيق الارتباط، بالنسبة للفهم السردية بالتصورات الزمنية للقصص. وأميل إلى القول أن القصص يُنقل إلى شبه [القصصي - م] عندما يستبدل بالفهم السردية المُشبهات العقلانية التي تميز المستوى الأستيمولوجي لعلم السرد وهي عملية أكرر تأكيد أنها مشروعة وذات طبيعة اشتقاقية في آن معا. وكتاب «الخطاب الجديد للحكاية» يزيد هذه الفكرة دقة: «زمن السرد (المكتوب) وهو شبه - زمن» بمعنى أنه يوحد على نحو تجريبي بالنسبة لقارئ فضاء - نص لا تستطيع إلا القراءة أن (تعيد) تحويله إلى مدة. (المصدر السابق، ص. 15).

(44) يمكن أن تتركب دراسة التخالفات الزمنية (الاستباق، الاستدكار والاقترانات بينهما) بسهولة تامة على دراسة هارالد وينرث لـ «المنظور» (التوقع، الاستعادة، درجة الصفر).

(45) أحيل القارئ هنا إلى الصفحة الجميلة في «الخطاب السردية» التي يستحضر فيها جينيت «لعبة» مارسيل العام مع الأحداث الرئيسة لوجوده، «التي ظلت حتى ذلك الحين من دون أهمية بسبب تشتتها، وها هي الآن تُجمع معا مع أخرى، وقد صارت دالة بفضل اجتماعها كلها معا... الصدفة، العرضية، العشوائية اختفت فجأة الآن، لقد «أمسك» فجأة الآن بصورة حياته في شبكة بنية وتماسك للمعنى». (المصدر السابق، ص. 56 - 67).

(46) ليس بوسع القارئ إلا أن يقارن هذه الملاحظة من جينيت مع استخدام مولر لفكرة Sinngehalt، التي نوقشت آنفا، وكذلك التضاد بين المُخمل بالمعنى والخالي من المعنى (أو اللا مبالى) الموروث من غوته. إن هذا التضاد، كما أرى، يختلف تماما عن التضاد بين الدال والمدلول القادم من سومير.

(47) قارن، أوبرياخ، «المحاكاة» ص. 544، اقتبسه جينيت في «الخطاب السردية» ص. 70.

(48) يقر جينيت دون تردد أن هذه التوقعات بقدر ما تنشط اللحظة السردية نفسها على نحو مباشر، فإنها لا تمثل في الحاضر وقائع تخص الزمنية السردية فقط، ولكن وقائع تخص الصوت: وسوف نلتقي بها فيما بعد تحت هذا الاسم. (المصدر السابق، ص. 70).

(49) تجد فكرة «الزمن» Raffung لدى مولر، ما يكافئها هنا ممثلا في فكرة التسريع.

(50) «توجد مدة هذه التوقعات التأملية عموما على نحو يجعلها بعيدة عن خطر أن تتجاوزها مدة القراءة (حتى قراءة بطيئة جدا) للنص الذي (يخبر) عنها». (المصدر السابق، ص. 102).

(51) يقدم غريماس في «موباسان» مقولات التكرار والمرة الواحدة نفسها، ويتبنى لإيضاحها

الغثة النحوية الخاصة بـ «الكيفية». يشكل تعاقب التكرار والمرة الواحدة موازيا لفئة فايبريش الخاصة بـ «إبراز المعالم» أيضا.

(52) يقتبس جينيت من الصفحة الجميلة في «الأسيرة» التي نقرأ فيها، «أترع هذا الصباح المثالي عقلي بواقع دائم، كما هو دأب غيره من الصباحات المماثلة، ونقل لي عدوى ... المرح». (اقتبس جينيت، المصدر السابق، ص. 124).

(53) يضاف إلى ذلك أن جينيت هو أول «من شجب هذا التربيع لمشاكل الزمنية السردية» (المصدر السابق، ص. 157، هـ 88). ولكن هل ثمة أساس للقول «إن أي توزيع آخر سيكون له أثر في التقليل من شأن اللحظة السردية وخصوصيتها». (المصدر السابق).

(54) ومع ذلك، إذا كانت زمنية فعل السرد تحكم زمنية السرد، لن يكون بوسعنا الكلام عن «لعب مع الزمن» في عمل بروس كما يفعل جينيت في صفحاته الفاصلة (ص. 155 - 160)، والتي سأناقشها فيما بعد، إلا إذا نظرنا في التليظ والزمن الذي يلازمه، وبذلك نمنع تحليلات الزمنية من أن تتخطى اتجاهات عديدة في وقت واحد.

(55) يعرف أ. فندريس، على سبيل المثال، «الصوت» بأنه: «نمط من أنماط الفعل الخاص بالفعل النحوي في علاقته مع الذات» (ورد الاقتباس لدى جينيت، المصدر السابق، ص. 31). لا يضيف «الخطاب الجديد للحكاية» عنصرا جديدا بخصوص زمن التليظ والعلاقة بين الصوت والتليظ، من جهة أخرى، يحتوي هذا النص على ثروة من الملاحظات تتصل بالتمييز بين مسألة الصوت - من الذي يتكلم؟ - ومسألة المنظور - من الذي ينظر؟ - حيث تُعاد صياغة المسألة الأخيرة بصيغة «التبشير»؛ أين تقع بؤرة الإدراك؟ قارن المصدر السابق، ص. 43 - 52.

(56) كما ذكرت من قبل ينصب الثقل الأساس لتحليل زمن السرد في «البحث عن الزمن الضائع» على العلاقة بين السرد وقضاء السرد، وهي علاقة نجد اختيارا لها في الفصول الثلاثة الأولى تحت عناوين «الترتيب»، «المدة»، «التواتر» («الخطاب السردى»، ص. 133 - 161)، تعود صفحات قليلة تتناول «الصوت» (المصدر السابق، ص. 215 - 227) أدراجها، في لفئة لاحقة، إلى زمن فعل السرد. إن ما يفسر جزئيا انعدام التوازن هذا هو إضافة ثلاثي الزمن، وحكم الكلام، والصوت، المستعار من قواعد الأفعال النحوية، إلى التقسيم الثلاثي: تليظ، وتقرير، وموضوع. إن ما يقرر في نهاية المطاف ترتيب الفصول الخاصة بالخطاب السردى هو هذه الفئات الثلاث الجديدة. «تتعامل الثلاث الأولى (الترتيب، المدة، التواتر) مع الزمن، الرابعة مع حكم الكلام، الخامسة والأخيرة مع الصوت». (المصدر السابق، 32، هـ 13). ويمكن ملاحظة قدر معين من التنافس بين الخطتين، بحيث أن «الزمن النحوي وحكم الكلام كلاهما يعملان على مستوى العلاقات بين القصة والسرد، بينما الصوت يتبن العلاقات بين فعل السرد والقصة». (المصدر السابق، 32، التأكيدات منه). يفسر لنا هذا التنافس السبب الذي يجعل تركيزه الأساس ينصب على العلاقة بين زمن السرد وزمن القصة، والسبب في أن تعامله مع زمن التليظ أقل تفصيلا عند مناقشة الصوت في الفصل الأخير.

(57) «هنالك ببساطة توقيف السرد عند النقطة التي يكتشف فيها البطل الحقيقة ومعنى حياته؛ أي عند النقطة التي تنتهي فيها (قصة المهنة) - والتي هي لتذكر، الموضوع المعلن للسرد

البروستي - ... لذلك يكون من الضروري أن تتم مقاطعة السرد قبل أن يتجاوز البطل الراوي؛ فمن غير الممكن لكليهما أن يكتبتا معا: النهاية. (المصدر السابق، ص ص. 226 - 227).

(58) لا بد أن يكون بوسعنا القول عن تجربة الزمن الميتافيزيقية في «البحث عن الزمن الضائع» ما يقوله جينيت عن «أنا» بطل الكتاب، تحديدا أنه ليس بروست كليا ولا هو شخص آخر كليا. وهذا لا يمثل البتة «عودة إلى الذات»، «حضور الذات» مما قد تطرحه تجربة يعبر عنها النمط القصصي، لكنه بدلا من ذلك «شبه اشتراك لفظي» بين التجربة الواقعية والتجربة القصصية، يشبه ذلك الذي يشخصه المختص بعلم السرد بين البطل - الراوي وموقع العمل. (قارن المصدر السابق، ص ص. 251 - 252).

(59) رأينا أنما الرسائل المستلهمة من النحو التي يقدم بها جينيت هذه الأفكار في «الخطاب السردى». سنختبر فيما يلي ما يضيفه لها في كتاب «الخطاب السردى للحكاية».

(60) إذا كنت أتجنب هنا الدخول في نقاش مفصل لمفهوم «المؤلف الضمني» الذي طرحه وين بوث في كتابه «بلاغة القصص» (شيكاغو: جامعة شيكاغو، 1961)، فإنما يعود ذلك إلى التمييز الذي أجريه بين مساهمة الصوت ووجهة النظر في التأليف (الداخلي) للعمل ودورهما في الاتصال (الخارجي). وليس اعتباطا أن بوث يضع تحليله للمؤلف الضمني في إطار بلاغة القصص وشعريتها. هذا هو السبب في أنني أحتفظ بمناقشتي للراوي الضمني إلى تحليل لاحق لعلاقة العمل بالقارئ. ولا حاجة إلى القول برغم ذلك إن كل تحليلاتي المتعلقة بخطاب الراوي تبقى غير مكتملة حتى يصار إلى ربطها مع بلاغة قصص سادمجها في نظرية القراءة في القسم الرابع في الجزء الثالث.

(61) بصدد الثلاثي حبكة، شخصية، فكرة في «فن الشعر» لأرسطو، قارن «الزمان والسرد»، الجزء الأول، ص ص. 70 - 80.

(62) كنا قد اخبرنا من قبل مساهمة كيت هامبرجر في نظرية أزمنة الفعل النحوي. ومع ذلك، إذا كان الماضي المطلق للملحمة (أي الماضي المطلق الخاص بفضاء السرد) يفقد، كما ترى، قدرته على الدلالة على زمن واقعي، فالسبب أن هذا الماضي المطلق مرتبط بالأفعال النحوية العقلية التي تشخص الأفعال المتعلقة بـ (أنا - الأصول) التي هي نفسها قصصية.

(63) وهي تقول إن «الشخصيات الملحمية (epische Personen) هي ما يمنح قطعة من الأدب السردى صفتها هذه». (المصدر السابق، ص. 63). وأيضا، «القصص الملحمي هو اللحظة الأستيمولوجية الوحيدة التي يمكن بها تصوير [dargestell] أنا الأصل (أو الذاتية) الخاصة بالغائب بصفتها غائبا». (المصدر السابق، ص. 83).

(64) دوريت كوهن، «عقول شغافة: الأنماط السردية لتقديم الوعي في القصص» (برنستون: جامعة برنستون، 1978).

(65) في القصص السردى لضمير المتكلم يكون الراوي والشخصية الرئيسة شخصا واحدا؛ ولكن في السيرة الذاتية حصرا يكون المؤلف والراوي والشخصية الرئيسة شخصا واحدا. قارن فيليب ليجون Le Pacte autobiographique (باريس: سوي، 1975). لذلك لن أتعرض للسيرة الذاتية هنا. لكن يتحتم علي أن لا أتجنب الإشارة إليها في سياق إعادة

تصور الزمن الذي ينجزه التاريخ والقصص مجتمعين. إنه في الواقع المكان الوحيد الذي يمكن أن تخصصه الإستراتيجية الناشطة في «الزمان والسرد» للسيرة الذاتية.

- (66) اثنان من النصوص التي سأدرسها في الفصل القادم - «السيدة دالوي» و«الجبل السحري» - هي مرويّات قصصية بضمير الغائب. الثالث، «البحث عن الزمن الضائع» هو سرد قصصي بضمير المتكلم، يحتوي على سرد بضمير الغائب هو «غرام سوان». إن الطبيعة القصصية على نحو متساوٍ لـ «أنا» و«هو» تمثل عاملاً قوياً في دمج سرد داخل آخر. أما بالنسبة للانتقال بين الـ «أنا» والـ «هو» فإن «جان سانتوي» (ت: جيرارد هويكنز [لندن: ويدنفيلد اند نيكلسون، 1955])، تقف دليلاً لا سبيل إلى الطعن فيه. لا يدل هذا التبادل في الضمائر الشخصية على أن اختيار تقنية أو أخرى غير مستند إلى أسباب عينية أو أنه يخلو من تأثيرات سردية معينة. لا يقع ضمن أهدافي تقييم مزايا ونواقص هاتين الإستراتيجيتين السرديتين.

- (67) «كل فهم تخيل». (جان بولون، «الزمان والرواية» Temps et Roman [باريس: غاليمار، 1945]، ص. 45).
- (68) قارن روبرت أولثر «سحر جزئي: الرواية جنسا يعي ذاته» (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 1975).

- (69) يمكن أن نستدل بعلامات الاقتباس هنا. لكن مثل هذه العلامات مفقودة في الرواية المعاصرة. برغم ذلك، فإن المونولوج المقتبس أو الذي يقتبس ذاته يحترم الزمن النحوي (و هو الحاضر غالباً) والشخص (المتكلم)، ويتألف من مقاطعة للسرد من قبل الشخصية التي تبدأ عندها الكلام. وتزداد قراءة النص صعوبة عندما يتجنب هاتين العلامتين، كما نجد في أعمال ورتة جويس.

- (70) يستبق كتاب بويون «الزمان والرواية» نمذجة حالات السرد بتمييزه بين الرؤية «بوساطة»، والرؤية «من الخلف»، والرؤية «من الخارج». لكنه على خلاف الكثير من التحليلات الراهنة، لا ينطلق من عدم التشابه، بل القرابة بين القصص السردية، «الفهم النفسي الواقعي» (المصدر السابق، ص. 69). يكون الفهم في الحالتين كليهما عملاً للمخيلة. لذلك فإن من الجوهرى التحرك من علم النفس إلى الرواية، ومن الرواية إلى علم النفس (المصدر السابق، ص. 71). برغم ذلك، فإن امتيازاً معيناً يُمنح لفهم الذات، إلى حد أن مؤلف الرواية يحاول أن يعطي القارئ فهم الشخصيات نفسه الذي يحمله القارئ لنفسه. (المصدر السابق، ص. 69). وهذا الامتياز يخترق التصنيف المقترح برمته. فمثلاً، ما دام كل فهم يتألف من إدراك داخل بوساطة خارج، فإن الرواية «من الخارج» تعاني النواقص ذاتها التي تعانيها السيكلوجيا السلوكية، التي ترى أن بإمكانها استنتاج الداخل على أساس الخارج، بل وتحدد القول بانسجام لهذا مع فكرة «الداخل». أما بالنسبة للرؤية «بوساطة» والرؤية «من الخلف» فإنهما يتفقان مع استخدامين آخرين للمخيلة في الفهم. إنها تشارك، في إحدى الحالتين، «بوساطة with» الشخصية في الوعي الذاتي غير التأملّي نفسه (المصدر السابق، ص. 80)؛ وفي الأخرى، تكون الرؤية «غير مترابطة»، ليس بطريقة الرؤية «من الخارج»، ولكن بالطريقة التي يوضع بها التأمل الوعي غير التأملّي (المصدر السابق، ص. 85). لذلك يرى بولون أن التمييز بين وجهة

- نظر الراوي ووجهة نظر الشخصية، المأخوذ مباشرة من التقنية الروائية، يبقى وثيق الصلة مع التمييز، القادم من سارتر، بين الوعي السابق على التأمل والوعي التأملي. من جهة أخرى، فإن أبقي مساهمة لبيون تبدو لي تلك التي يقدمها الجزء الثاني من عمله، «التعبير عن الزمن». إن التمييز الذي يقوم به فيه بين «روايات المدة» و«روايات المصير» يتصل مباشرة بما أسميه هنا التجربة القصصية للزمن (قارن فيما يلي الفصل الرابع).
- (71) فرانز ستانزل، «الحالات السردية في الرواية: (توم جونز)، (موبي ديك)، (السفراء)، (بوليسيس)» ت: جيمس بوزاك (بلومغتن: جامعة انديانا، 1971). ويمكن الحصول على إعادة صياغة أكثر دينامية وأقل تصنيفية في صفحات متفرقة من *Theorie des Erzählens* (جوتغن: فان دن هيك اند روبرشت، 1979). وقد كان أول مؤلف مفرد كُرس لهذه المشكلة كتاب كيت فريدمان *Die Rolle des Erzählers in der Epik* (لايزك، 1910).
- (72) إن لمصطلح وسطية *Mittelbarkeit* معنى مزدوجا. «ينقل» الأدب، من خلال توفيره «وسطا» لتقديم الشخصية، محتوى القصص إلى القارئ.
- (73) يُفهم «المؤلف» هنا دائما على أنه يعني الراوي، أي المحاور المسؤول عن تأليف العمل.
- (74) قارن جوناثان كلر «تعريف وحدات السرد»، في روجر فاوئر، محررا، «الأسلوب والبنية في الأدب: مقالات في الأسلوبية الحديثة» (ايشاكا: جامعة كورنل، 1975)، ص ص. 123 - 142.
- (75) سايمور تشاتمان، في «بنية البث السردى»، (في «الأسلوب والأدب»، ص ص. 213 - 257)، يحاول أن يفسر قدرة القارئ على أساس قائمة مفتوحة «من الملامح الاستطرافية» التي تنزل بطريقة عزل قوائم احتمالات القوة التمريرية في الأفعال الكلامية من قبل جون اوستن وجون سيرل نفسها. وهو يديل معقول للبحث عن تصنيفات توفر النظامية والدينامية في آن واحد.
- (76) إحدى المحاولات التي حرصت حرصا خاصا على ربط التركيز النظامي للنمذجة مع القوة على إنتاج مزيد من «الأنماط السردية» المتنوعة خطط لها لودمير دولزيل في «نمذجة الراوي: وجهة النظر في القصص» في «على شرف رومان ياكوبسون» الجزء الأول (لاهاي: موتون، 1967)، ص ص. 541 - 552. تستند نمذجة دولزيل، بعكس نمذجة ستانزل، على سلسلة من الانقسامات، ابتداء بالنوع الأكثر عمومية الذي يتعلق بالنصوص التي لها شخص محاور أو تخلو منه. ويمكن تمييز هذا النوع الأول بوساطة عدد معين من «العلامات» - استخدام الضمائر الشخصية، وأزمنة الأفعال النحوية ومستويات الفضاء السردى المناسبة لها، وعلاقة الوسيلة *allocation*، والتضمين الذاتي، والأسلوب الشخصي. النوع الثاني «ليس له ما يميزه» بطرق شتى. تنتمي إلى هذا النوع المرويات التي توصف أنها «موضوعية». وتنقسم النصوص التي لها محاورون على وفق إن كانت العلامات المذكورة آنفا تميز المحاور بوصفه راويا أو شخصية (كلام الراوي مقابل كلام الشخصية). يأتي بعد ذلك التمييز بين مساحة الفعلية (أو السلبية) بقدر تعلق الأمر بالراوي. أخيرا، تتضمن كل هذه الانقسامات أيضا ذلك الانقسام بين *Er-* و *Ich-* *Erzählung*. بطور دولزيل نمذجته أكثر في «الأنماط السردية في الأدب التشيكي» (تورنتو: جامعة تورنتو، 1973). حيث يضاف فيها إلى الدراسة السابقة تحليلا بنيويا

للأنماط السردية التي يمكن أن تُنسب إما إلى كلام الراوي وإما إلى كلام الشخصيات. ويتحقق التمييز بين هذه الأنماط على أساس نصي مستقل قدر المستطاع عن المصطلح الأنثروبولوجي (الراوي «كلي الحضور»، وما إلى ذلك). يمارس الراوي، بهذه الطريقة، وظائف «تمثيل» الأحداث، «السيطرة» على البنية النصية أو «التأويل» أو «الفعل» في تعامل مع الشخصية التي تمارس الوظائف ذاتها بتناسب عكسي. من خلال ربط هذه الملامح مع التقسيم الرئيس بين Ich- Erzählung و Er-، ومن خلال إكمال النموذج الوظيفي بأخر فعلي نحوي، يتم الحصول على نموذج توسع فيه الانقسامات الثابتة التقسيم الابتدائي بين كلام الراوي وكلام الشخصية. وتسمح الدراسة التفصيلية للسرد الثري في الأدب التشيكي المعاصر (خصوصاً كونديرا) بكشف الدينامية في النموذج من خلال تطبيقه على تنوع الأساليب التي تطرح نفسها في الأعمال المدروسة. لذلك تُعاهى فكرة وجهة النظر مع التخطيطية الناجمة عن هذه السلسلة في الانقسامات. إن ما قلته من قبل عن التحليلات البنيوية المدروسة في الفصل الثاني يمكن أن يُطبق على هذا التحليل أيضاً، الوريث للبنوية الروسية والبراغية، تحديداً إنه ينتج عن عقلانية الصف الثاني التي تبرز للعيان المنطق العميق لفهم سردي ينتمي إلى الصف الأول. إن اعتماد الأول على الأخير، والقدرة المكتسبة للقارئ الذي يعبر عنه، تبدو لي أكثر وضوحاً في نمذجة للراوي منها في نمذجة على طريقة بروب، التي تعتمد على الأفعال التي تقلدها القصص، بسبب الطبيعة المشخصة التي لا تقبل الاختزال لدوري الراوي والشخصية. الأول هو شخص يروي شيئاً ما، والثاني شخص يفعل، يفكر، يشعر، ويتكلم.

(77)

قارن بوريس أوسبنسكي «شعرية التأليف: بنية النص الفني ونمذجة للشكل التأليفي»، ت: فالتينا زافانين وسوزان وتنج (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 1973). يعرّف أوسبنسكي مسعاه بأنه «نمذجة للخيارات التأليفية في الأدب بقدر علاقتها بوجهة النظر» (المصدر السابق، ص. 5). وهي نمذجة وليس تصنيفاً ما دامت لا تدعي أنها جامعة مانعة أو مغلقة. إن وجهة النظر هي واحدة فقط من الطرق التي توصل إلى النطق ببنية عمل فني. وهذا المفهوم شائع في كل في يهتم بتمثيل جزء ما من الواقع (الفيلم، المسرح، الرسم... الخ)، أي كل أشكال الفن التي تقدم ازدواجية المحتوى والشكل. يشبه مفهوم أوسبنسكي للعمل الفني بمفهوم لوتمان له الذي أشرنا إليه آنفاً. فهو أيضاً يسمي النص «أي تتابع من العلامات منظم على نحو دلالي». (المصدر السابق). ويحيل كل من لوتمان وأوسبنسكي على العمل الرائد الذي أنتجه ميخائيل باختين «مشكلة شعرية دوستويفسكي»، ت: ر. و. روتسل (آن آربر: مطبوعات آرتس، 1973) والذي ساعدوا إليه لاحقاً.

(78)

يركز لوتمان على وجه الخصوص على البنية المكوّنة من طبقات للنص الأدبي. «بنية النص الفني»، ص. ص. 59 - 69. تجمع هذه البنية متعددة الطبقات الفعالية النمذجة للعمل الفني إزاء الواقع وكذلك فعاليته للعب التي تشبك هي نفسها في أشكال سلوكية تقع في الأقل على مستويين في آن واحد هما: مستوى الممارسة اليومية ومستوى مواضع اللعب. إن العمل الفني وهو يجمع بهذا الشكل عمليات معقدة وتصادفية، يقترح صوراً غنية إلى هذا الحد أو ذاك، لكنها حقيقية أيضاً (المصدر السابق، ص. 65).

- سأعود في القسم الرابع إلى «أثر اللعب» [effet de jeu] (المصدر السابق، ص. 67)، والذي يغطي في الفرنسية الفرق بين «اللعبة» [game] و«اللعب» [play].
- (79) مرة أخرى، أكثر التقنيات السردية جدارة بالاهتمام من وجهة نظر الألعاب مع أزمة الفعل النحوي، تلك المعروفة باسم المونولوج المروي *erlebte Rede* - وهو ما يسميه النقاد الفرنسيون الأسلوب الحر غير المباشر *style indirect libre*، أو ما يسميه النقاد الناطقون بالإنجليزية *narrated monologue* - تنتج عن تلوث خطاب الراوي بخطاب الشخصية، التي تفرض عليه ضميرها وزمنها النحويين. ويلاحظ أوسبنسكي كل الفوارق الدقيقة الناجمة عن تنوع الأدوار التي يلعبها الراوي، اعتماداً على كونه يُسجل، يحزر، أو يعيد كتابة خطاب الشخصية.
- (80) يمكن أن يقارن هذا مع دراسة التباينات الزمنية لدى بروسست التي قام بها جينيت، وكذلك مع تحليل كوهن للنموذجين المتضادين المتغلبين على سرد ضمير المتكلم: سرد الاستعادة المتناظر على نحو واضح الذي يقدمه بروسست، حيث المسافة شاسعة بين الراوي والبطل، وسرد هنري جيمس التزامني والمتسق حيث يعاصر الراوي البطل.
- (81) توفر اللغة الروسية أيضاً الامكانيات النحوية المتعلقة بـ «الكيفية» للتعبير عن الملامح التكرارية والاستمرارية في السلوك أو في حالة ما.
- (82) للحصول على خلاصة ممتازة للمشكلة حتى عام 1970، قارن فرانسوا فان روسم - غوبين، *Point de vue ou perspective narrative*، في *Poétique*، ع / 4، (1940): 476 - 497.
- (83) يقترح جينيت في «الخطاب الجديد للحكاية» استبدال مصطلح «تبئير» بمصطلح وجهة النظر. بذلك يرتبط الشخص الذي تستلزمه لا محالة مقولة الراوي مع فكرة الصوت.
- (84) هذا هو السبب في أننا نجد عند العديد من النقاد الألمان والإنجليز صفة «*auktorial*» (ستانزل) أو «*authorial*» [أي خاص بالمؤلف - م] (كوهن). توفر هاتان الصفتان ميزة تأسيس نوع آخر من العلاقة بين المؤلف والسلطة [اللفظتان في الإنجليزية متقاربتان *author* و *authority* - م] وصفة «موثوق به» *authoritative* التي تجمع نطاقي المعنى. في مجال العلاقة بين المؤلف والسلطة قارن إدوارد سعيد «البدائيات»، ص ص. 16، 23، 84. وهذه الثيمة ترتبط بفكرته عن الإغاطة التي سبقت الإشارة إليها آنفاً، الفصل الأول، هـ. 43.
- (85) قارن أيضاً تزفيتان تودوروف، «ميخائيل باختين: المبدأ الحوارية» الذي أعقبه *Ecrits du Cercle du Bakhtin* (باريس: سوي، 1981).
- (86) الصفحات المكرسة للحوار بوصفه المبدأ «الميتالغوي» العام للغة في كل أفعالها الكلامية، يستحق الاهتمام بقدر ما تستحقه دراسة الأشكال الخاصة للرواية البوليفونية (المتعددة الأصوات). (قارن «شعرية دوستوفسكي»، ص ص. 150 - 227).
- (87) قارن المصدر السابق، ص. 23. إذ يؤكد باختين على السرعة التي تحدث بها التغيرات في سياق السرد، يلاحظ أن «الدينامية والسرعة... لا تشيران إلى انتصار الزمن، لأن السرعة هي الوسيلة الوحيدة للتغلب على الزمن في الزمن». (المصدر السابق، ص. 24).
- (88) نجد هنا الملامح الأربعة عشر التي يميزها باختين في الأدب الكرنفالي (المصدر السابق،

ص. 93 - 97). وهو لا يتردد في هذا المجال عن تناول «منطق داخلي يقرر التزاوج الذي لا تنقسم عراه بين كل عناصره» (المصدر السابق، ص. 98). بالإضافة إلى ذلك، فإن البقعة السرية التي تربط الخطاب المحتجب وعمق شخصية ما مع الخطاب المعروض على سطح شخصية أخرى تشكل عاملاً قوياً في التأليف.

(89) بصدد فكرة السرد «اللاحق» قارن جينيت «الخطاب السردى»، ص. 35، 223،

ويضيف «الخطاب الجديد للحكاية» ما يلي: إن الراوي الذي يعلن قبل الألوان تطورا لاحقا يخص الفعل الذي يروى «يظهر بذلك دون أي قدر من الغموض أن هذا الفعل السردى يتعدى بالنسبة للقصة التي تروى، أو على الأقل بالنسبة لذلك الجزء من القصة الذي يستبقه بهذه الطريقة» (المصدر السابق، ص. 54). وسنرى في الفصل الأخير من الجزء الثالث بأية طريقة يفضل هذا الموقع البغددي للصوت السردى في السرد القصصي إضفاء التاريخية على القصص الخيالي، والذي يعرض عن إضفاء القصصية على التاريخ.

(90) ساعدو في نهاية الجزء الثالث لدور شبه - الحداث هذا في إضفاء القصصية على التاريخ.

(91) بصدد القراءة بوصفها استجابة للصوت السردى للنص، قارن، فالديس «ظلال في

الكهف»، ص. 23. النص جدير بالثقة كما هو الصوت القصصي نفسه (المصدر السابق، ص. 25). يصبح هذا السؤال ملحا على نحو خاص في المحاكاة الساخرة. لا بد من أن يكون متاحا في نهاية المطاف التعرف على المحاكاة الساخرة المتميزة التي نجدها في «دون كيخوته»، مثلا، بوساطة علامات لا تقبل الخطأ. إن هذا «العنوان» للنص، الذي يتلفظ به الصوت السردى يشكل قصيدة النص بوصفها كذلك (قارن المصدر السابق، ص. 26 - 32)؛ انظر أيضا تاويل فالديس لـ «دون كيخوته»، (ص. 141 - 162).

الفصل الرابع

(1) قارن آنفاً ص. 5.

(2) قارن عمل فنك المشار إليه آنفاً، الفصل الثالث، هـ. 21. كما أن لوتمان يضع، بمعنى مشابه، ضمن «الإطار» الذي يميز كل عمل فني، العملية التأليفية التي تجعله «نموذجاً متناهِياً لغضاء لا متناه». «بنية النص الفني» ص. 210.

(3) تتداخل هذه الفكرة الخاصة بالتحالي المحايث على نحو دقيق مع فكرة القصصية كما طبقها ماريو فالديس على النص إجمالاً. تتحقق قصيدة النص في فعل القراءة («ظلال في الكهف»، ص. 45 - 76). ولا بد من ربط هذا التحليل مع ذلك الخاص بالصوت السردى بوصفه ذلك الذي يُقَدَّم النص. إن الصوت السردى هو حامل القصصية التي تعود إلى النص، والتي لا تتحقق إلا في العلاقة التشاركية التي تتكشف تدريجياً بين التوصل القادم من الصوت السردى واستجابة القراءة. ساعدو التصدي لهذا التحليل مرة أخرى بطريقة نظامية في الجزء الثالث.

(4) أ.أ. مندلو، «الزمن والرواية»، ص. 16.

(5) لن يتخذ تعبير «التنوعات الخيالية» معناه الكامل إلا عندما نكون في موقع نضع فيه نطاق الحلول التي توفرها لمعضلات الزمن مقابل الحل الذي يوفره تكوين الزمن التاريخي، أي في الجزء القادم من «الزمان والسرد».

- (6) فرجينيا وولف، «السيدة دالوي» (لندن: هوغارث برس، 1924، طبعة ثانية نيويورك: هاكورت بريس جوفانوفيج، 1953).
- (7) يكتب جيمس هافلي وهو يضع «السيدة دالوي» مقابل رواية جويس «يوليسيس»، «استخدمت [فرجينيا وولف] اليوم الواحد بوصفه وحدة لتظهر أنه لا وجود لشيء اسمه يوم واحد.» (السقف الزجاجي)، ص. 73، اقتبسته جين غوغوت، «فرجينيا وولف وأعمالها»، ت: جين ستوارت [لندن: هوغارث برس، 1965]، ص. 389.
- (8) كانت فرجينيا وولف فخورة جداً باكتشافها هذه التقنية السردية ووضعها موضع التطبيق. وقد سُمّتها في يومياتها «عملية شق الأنفاق»، إذ تقول «لقد استغرق مني اكتشاف ما اسميه عملية شق الأنفاق عاماً كاملاً من البحث المتلمس، والتي بواسطتها أُخبر عن الماضي على شكل دفعات، على وفق حاجتي إليه». («يوميات كاتبة»، تحرير: ليونارد وولف [لندن: هوغارث برس، 1959]، ص. 60، اقتبسته غوغوت، ص. 229). كما إنها كتبت في يومياتها خلال الفترة التي كانت فيها المخطوطة الأولى من «السيدة دالوي» لا تزال تسمى «الساعات»: «لا بد أن أطيل الحديث عن الساعات، واكتشافي: كيف احفر كهوفاً جميلة خلف شخصياتي: واعتقد إن ذلك يقدم ما أريده بالتحديد: الإنسانية، الفكاكة، العمق. والفكرة أن هذه الكهوف سترتبط بعضها مع البعض الآخر. وتظهر في ضوء النهار في اللحظة الراهنة». («يوميات كاتبة»، ص. 60، اقتبسته غوغوت، ص. 233 - 234). وهكذا فإن التقلات بين الفعل والتذكر تصبح تنفلاً بين السطحي والعميق. ويتحقق الاتصال بين مصيري سبتيموس وكلايسا بواسطة تقارب «الكهوف» الخفية التي يزورها الراوي. على السطح، نجدها تجتمع من خلال شخصية الدكتور برادشو، الذي ينتمي إلى الحبكة الثانويتين كليهما. لذلك فإن خبر وفاة سبتيموس، الذي يأتي به الدكتور، يفترض على السطح وحدة الحبكة.
- (9) يمثل استكشاف أبطال الرواية جميعاً الشاغل الأساس للفصل الثالث («السيدة دالوي» و«إلى المنارة») من كتاب جين الكسندر «مغامرة الشكل في روايات فرجينيا وولف» (بوت واشنطن، نيويورك: كنيكات برس، 1974). ص. 85 - 104. هنالك حكم بأن «السيدة دالوي» هي الرواية الوحيدة لفرجينيا وولف التي «تتطور انطلاقاً من شخصية» (المصدر السابق، ص. 85). وتتمكن جين الكسندر، من خلال عزلها لشخصية كلايسا بهذه الطريقة، أن تؤشر البهجة التي تختلط بالبهاء، التسويات مع عالم اجتماعي لا يفقد، بالنسبة لكلايسا، صلاته وشموخه. وهكذا تصبح كلايسا «رمزاً لطبقة»، «أدرك بيتر ولش أنها صلبة كالخشب لكنها خاوية برغم ذلك. إلا أن العلاقة الخفية مع سبتيموس وارين سمّت تنقل المنظور عبر أضاءتها للمخاطر التي يُعتقد أن حياة كلايسا تخيدها؛ تحديداً؛ التدمير المحتمل للشخصية في غمرة تفاعل العلاقات البشرية. بقود هذا المدخل السيكلوجي إلى تحليل ثاقب لطاق مشاعر الخوف والذعر التي تستكشفها الرواية. وتبدو لي المقارنة التي تقيّمها الكسندر مع رواية سارتر «الغثيان» (المصدر السابق، ص. 97) مبررة تماماً في هذا المجال.
- (10) ديفيد ديتشر، «الرواية والعالم الحديث» (شيكاغو: جامعة شيكاغو، 1939، طبعة منقحة، 1960). يرى ديتشر أن هذه العملية هي أكثر العناصر تقدماً في الفن القصصي لفرجينيا

وولف. فهي تتيح التناصح بين أنماط الفعل والاستبطان الذاتي. إن هذا الاقتران يؤلد «مزاجاً غسقياً من النزوع المتفتح إلى الأحلام» (المصدر السابق، ص. 189)، يكون القارئ مدعوا للمشاركة فيه. وقد أشارت فرجينيا وولف نفسها إلى هذا «المزاج» الذي يميز عملها كله بوضوح في مقالها «حول الرواية الحديثة»: «ما الحياة إلا حالة مضنية، غلاف شبه شفاف يحيط بنا منذ بداية الوعي حتى نهايته». (القارئ العادي [لندن: هوغارث برس، 1925، في جزأين 1932]، اقتبسه ديتشر، ص. 192). ويقترح ديتشر خطة بسيطة لتوضيح هذه التقنية الدقيقة والسهلة التحليل. فإما أن نلزم السكون ونستقبل بتحديثنا الأحداث المتنوعة الحاضرة معا في المكان، وإما أن نثبت أنفسنا في مكان، أو الأفضل في شخصية ما تعتبر مكاناً ثابتاً، ونسلم أنفسنا لمتابعة الماضي أو إلى الحركة قُدماً بمعينة وعي الزمن الذي تخصص به هذه الشخصية. بذلك تتكون التقنية القصصية من تناوب بين شتات الشخصيات في نقطة معينة من الزمن وشتات الذكريات داخل شخصية واحدة، قارن المخطط الذي يقدمه ديتشر، المصدر السابق، ص. 204 - 205. في هذا المجال، تعد فرجينيا وولف أكثر حرصاً بكثير من جويس في إقامة علاقات دالة لا تقلق اللبس ترسم مسار هذا التناوب. للحصول على مقارنة مع «بوليسيس»، التي بُنِيَت هي الأخرى شبكة خيوطها من الأقتراب والابتعاد ضمن مدة لا تزيد على يوم واحد، قارن المصدر السابق، ص. 190، 193، 198 - 199. ويعزو ديتشر الاختلاف في التقنية بين هذين الكاتبين إلى الاختلاف في قصديهما. «كانت غاية جويس أن يعزل الواقع عن كل المواقف الإنسانية في محاولة لنزع العنصر المعياري من القصص تماماً، لخلق عالم مكتف بذاته مستقل عن كل القيم التي يحملها المراقب، ومستقل حتى (كما لو كان ذلك ممكناً) عن كل القيم لدى المبدع. لكن فرجينيا وولف تهذب القيم بدل أن تستأصلها. إن رد فعلها تجاه المعايير المتهاوية ليس الارتياحية بل الصقل» (المصدر السابق، ص. 199). ولقد عاد ديتشر إلى تأويله لرواية «السيدة دالوي» في كتابه «فرجينيا وولف» وزاد عليه، (نورفوك؛ كون: نيو دايركشنز، 1942، نيكلسن أن وطسن، 1945، ص. 187 - 217)، وإليه ستكون إشارتي. ونعود جين غوغوت في العمل الذي أشرت إليه من قبل، وهو يستند على يوميات فرجينيا وولف التي لم تنشر إلا عام 1953، إلى مسألة العلاقة بين «بوليسيس» جويس و«السيدة دالوي»، ص. 241 - 245.

(11) تقرأ كلاريسا هذه اللازمة أثناء التسوق في واجهة دار لبيع الكتب. وهي تمثل في الوقت ذاته إحدى الجسور التي تبنينا التقنية السردية بين مصري كلاريسا وسبتيموس، المأخوذ كما سنرى بشكبير.

(12) واحد من رموز السلطة المتملصين: لمحة ظهور سيارة أمير ويلز (أليست الملكة، إن كانت هي، «رمزاً دائماً للدولة»؟ «السيدة دالوي»، ص. 23). حتى واجهات محلات باعة التحفيات تستدعي دورهم: «غربة أطلال الزمن» (المصدر السابق). كما إن هنالك الطائفة وذيلها الذي يعرض إعلاناً على شكل حروف مهيبه كبيرة. شخوص السلطة: لوردات وسيدات الاحتفالات السرمدية، وحتى ريتشارد دالوي المهذب، الخادم الأمين للدولة.

(13) تقول كلاريسا، «ها هي ذي الزياييث أبتني»، بكل ما تنطوي عليه صيغة التملك. وسوف يجد ذلك الإجابة عليه في ظهور الزياييث الأخير، إذ تلتحق بأبيها بينما الستار يوشك على النزول على حفلة السيدة دالاوي. «وأدرك فجأة أنها كانت الزياييث أبتني» (المصدر السابق، ص. 295).

(14) لا يمكن إلا أن تكون فرجينيا وولف قد استحضرت هنا كلمات شكسبير في «كما تحب».

روزالين: «أبتهل إليك، ما الساعة؟»

أورلاندو: «عليك أن تسأليني ما الوقت من اليوم؟ لا توجد ساعة في الغابة».

روزالين: «إذن فلا يوجد عاشق حق في الغابة؛ كان بوسع التنهد كل دقيقة والأنين كل ساعة أن يبلغا عن خطو الزمن الكسول بقدر ما تفعل الساعة».

أورلاندو: «و لماذا لا تقولي خطو الزمن الخاطف؟ أليس ذلك مناسباً بالقدر نفسه؟»

روزالين: «إطلاقاً، سيدي. الزمن يمضي بخطو يتنوع بتنوع الأشخاص. سأخبرك عن يمضي الزمن معه الهويني، ومن يسرع الزمن معه، ومن يعدو الزمن معه، ومن يقف ساكناً.» (الفصل الثالث، المشهد الثاني).

(15) قارن جون غراهام، «الزمن في روايات فيرجينيا وولف»، «دورية جامعة تورنتو» 18 (1949): 186 - 201، أعيد نشرها في «النقاد حول فيرجينيا وولف»، تحرير: جاكليين لانام (فلوريدا: جامعة ميامي، 1970)، ص. 28 - 35. يذهب هذا الناقد في تأويل انتحار سبتموس مذهبا بعيدا في الواقع. «الرؤيا الكاملة» لسبتموس (المصدر السابق، ص. 32) هي التي تمنح كلاريسا «القدرة على هزيمة الزمن» (المصدر السابق). وتدعم تأملات كلاريسا حول هذا الشاب، والتي سأسير إليها لاحقا، هذا الرأي. يقول جون غراهام إن كلاريسا كانت تفهم رؤيا سبتموس التي لم يتمكن من إيصالها إلا عن طريق الموت. نتيجة لذلك فإن عودة كلاريسا إلى حفلتها يرمز بالنسبة لها لـ «تجلي الزمن» (المصدر السابق، ص. 33). لدي ما يدعوني إلى التردد في قبول هذا التأويل لموت سبتموس حتى النهاية: «لكي يسير المرء الأغوار حتى المركز مثل سبتموس عليه إما أن يموت، وإما أن يصاب بالجنون، وإما أن يفقد إنسانيته على نحو ما لكي يوجد وجودا مستقلا عن الزمن.» (المصدر السابق، ص. 31). من جهة أخرى، يلاحظ هذا الناقد بوضوح «إن الرعب الحقيقي لرؤياه يكمن في كونها تدمره كواحد من مخلوقات عالم الزمن.» (المصدر السابق، ص. 30). إذن، ليس الزمن هو الفاني، إنها الأبدية التي تأتي معها بالموت. ولكن كيف يمكن للمرء أن يفصل هذه «الرؤيا الكاملة» - هذه المعرفة الحدسية - عن جنون سبتموس الذي يحمل كل خواص عصاب الخوف؟ ولابد أن اضيف أن تأويل جون غراهام لكشوفات سبتموس تمنحنا فرصة لبناء جسر بين تأويل «السيدة دالاوي» وتأويل «الجبل السحري» الذي سأحاوله لاحقا، عندما تتقدم ثيمة الأبدية وعلاقتها بالزمن إلى الواجهة.

(16) هنالك ملاحظة في يوميات فرجينيا وولف تحذر من الفصل الحدي الواضح بين الجنون والصحة: «أضع هنا خطة لدراسة الجنون والانتحار؛ العالم الذي يراه سليم العقل والمخبول وهما يفقان جنبا إلى جنب؛ شيء من هذا القبيل» («يوميات كاتبة»، ص. 52).

لا تفقد رؤيا الرجل المجنون أهليتها بسبب «جنونه». إن ترجيعاتها في روح كلاريسا هي المهمة في نهاية المطاف.

(17) «الزمان والسرد»، الجزء الأول، ص ص. 22 - 30.

(18) يرى أ. د. مودي في السيدة دالاي صورة حية للحياة السطحية التي تعيشها «الطبقة البريطانية الحاكمة»، كما يُسمى المجتمع اللندني في الكتاب نفسه، «السيدة دالاي بوصفها كوميديا» في «النقاد حول فرجينيا وولف»، ص ص. 48 - 58. صحيح أن السيدة دالاي تجسّد في آن واحد نقدا لمجتمعها وعجزا عن أن تتأى بنفسها عنه. هذا هو السبب في أن الجانب «الكوميدي» الذي يغذيه نهك الراوي الحاد، يبقى مسيطرا حتى المشهد الأخير في الحفلة، الذي يميزه حضور رئيس الوزراء. يبدو لي هذا التأويل موعلا في تبسيط يضعه على العكس من التأويل الذي أوردنا آنفا ووجد في موت سبتيموس، الذي قدمته كلاريسا على طريقته، القدرة على تحقيق تجلي الزمن. إن الحكاية عن الزمن في «السيدة دالاي» تقع في المتصف بين الملهاة والمعرفة الحديثة. وكما تلاحظ جين غوغوت بحق، «هنالك تطعيم للنقد الاجتماعي الذي قصدت إليه الكاتبة في الثيمة النفسية - الميتافيزيقية للرواية». (ص. 235). وغوغوت تشير هنا إلى ملاحظة أوردتها فرجينيا وولف في يومياتها: «أريد أن أقدم الحياة والموت، الجنون وسلامة العقل؛ أريد أن أنتقد النظام الاجتماعي، وأظهره فاعلا على أشده». («يوميات كاتبة»، ص. 57. أقتبسته غوغوت، ص. 228). وتظهر جين أو. لف في كتابها «عوالم في الوعي: الفكر الأسطوري - الشعري في روايات فرجينيا وولف» (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 1970) الأسبقية التي يتمتع بها البحث النفسي هذه على النقد الاجتماعي.

(19) هذا التعبير مصدره فرجينيا وولف نفسها في مقدمتها للطبعة الأمريكية من «السيدة دالاي». كان المقصود لسبتيموس «أن يكون قرينها» (قارن، أيزابيل غامبل، «قرين كلاريسا دالاي» في «النقاد حول فرجينيا وولف»، ص ص. 52 - 55).

(20) نعلم من مقدمتها أن المقدر في النسخة الأولى لكلاريسا أن تنتهي إلى الانتحار. لكن الكاتبة، من خلال إضافة شخصية سبتيموس ودفعه إلى الانتحار، سمحت للراوي - الصوت السرد الذي يخبر القارئ القصة - أن يقترب بمسار مصير السيدة دالاي أقرب ما يمكن إلى الانتحار إلا أنه يتخطى به غواية الموت.

(21) غراهام، «الزمن في روايات فرجينيا وولف»، ص ص. 32 - 33.

(22) لابد أن نمتنع دون شك عن إعطاء هبة الحضور هذه بُعد رسالة الخلاص. سبقي كلاريسا امرأة العالم التي يمثل الزمن التذكاري بالنسبة لها أمرا ذا شأن كبير لابد للمرء أن يتعلل بالشجاعة للتعامل معه. تبقى كلاريسا بهذا المعنى شخصية توفيقية. تلاحظ جين غوغوت أن العبارة الختامية «ها هي ذي» «تحتوي على كل شيء ولا تقول شيئا محددا». («فرجينيا وولف وأعمالها»، ص. 240). يعد هذا الحكم القاسي بعض الشيء مبررا إذا تركنا كلاريسا وحيدة في مواجهة امتياز النظام الاجتماعي. إن القرابة بين مصيري سبتيموس وكلاريسا تحكم على عمق آخر - عمق «الكهوف» التي «يربط» بينها الراوي - ليس الحكمة حسب، ولكن الثيمة النفسية الميتافيزيقية للرواية. إن نبرة الاعتداد في هذا الادعاء تتردد أعلى من دقائق بخ بن وكل الساعات، أقوى من الرعب والنشوة اللذين ظلا

منذ بداية القصة يتنازعان روح كلاريسا. إذا كان رفض سبتيموس للزمن التذكاري قادرا على توجيه السيدة دالوي لتعود أدراجها إلى الحياة الزائلة ومسراتها الهشة، فإنما لأنه وضعها على الطريق المؤدي إلى حياة فانية تقوم على افتراض يقبلها دون أسئلة.

(23) سيكون خطأ فادحا اعتبار هذه التجربة، مهما كانت محيرة، تعبيرا عن فلسفة خارج الرواية، حتى لو كانت فلسفة برغسون. لا علاقة للزمن التذكاري الذي يواجه كل من سبتيموس وكلاريسا بزم برغسون المكاني. فهو يوجد بعد ذاته، إن صح القول، وليس نتيجة خلط بين المكان والزمان. هذا هو السبب الذي جعلني أقارنه بدلا من ذلك بتاريخ نبش التذكاري. أما بالنسبة للزمن الداخلي، والذي تضفيه جولات الراوي في الكهوف تحت الأرض، فإن هنالك ما يجمعه مع فيض اللحظة أكثر مما يجمعه مع التواصل اللحني للامتداد لدى برغسون. إن صدى الساعة نفسه هو إحدى هذه اللحظات التي نجد تعريفا مختلفا لها كل مرة اعتمادا على المزاج المتزامن معها (قارن غوغوت، ص 386 - 392). بصرف النظر عن التشابهات والاختلافات بين الزمن عند فرجينيا وولف والزمن عند برغسون، فإن الخلل الأساس هنا هو عدم إعطاء الرواية بوصفها كذلك القدرة على استكشاف أنماط التجربة الزمنية التي تغلت من التفكير المفهوم الفلسفي، بسبب طبيعتها الملتبسة. aporetic وستكون هذه هي الثيمة المركزية في الجزء الأخير من كتابي.

(24) توماس مان، «الجيل السحري»، ت: ه. ت. لو - بورتر (نيويورك: الفرد أ. نوف 19، فنتاج بوكس، 1969).

(25) بخصوص هذه العلاقة، قارن هيرمان ويغاند، «الجيل السحري» (نيويورك: ابيلتون ستشري، 1933، أعادت طبعه جامعة نورث كارولينا، 1964).

(26) قارن مع ما تقدم، ص. ص. 137 - 142.

(27) يعود الراوي إلى ثيمة وقت القراءة في مواضع متعددة. يفعل ذلك في الحدث الحاسم، «الحساء الأبدى» («الجيل السحري»، ص ص 183 - 203)، ويتساءل في بداية الفصل السابع، على نحو أكثر دقة، إن كان بوسع المرء أن يخبر عن الزمن، أي يسرده (المصدر السابق، ص. 541). يقول الراوي، إذا لم يكن بوسع المرء أن يسرد الزمن، فإن بوسعه على الأقل "Von der Zeit erzählen Zu wollen" (يمكن للمرء أن يرغب في إبلاغ حكاية حول الزمن)، تقول الترجمة [المصدر السابق، ص. 542، التأكيد فيها]. لذلك فإن تعبير «رواية الزمن» Zeitroman يكتسب معناه المزدوج الذي ينطوي على رواية تنتشر على الزمن، وبالتالي تتطلب زمنا لكي تروى، ورواية حول الزمن. يعود الراوي إلى هذه المسألة الغامضة في إحد الأحداث المتعلقة بـ «مينيهر بيركورد»، وفي مطلع «الإله العظيم يسقط» (المصدر السابق، ص 624).

(28) يقوم هذا الغموض المقصود بمهمة التحذير. لن تكون «الجيل السحري» ببساطة التاريخ الرمزي الذي يبدأ من مرض الثقافة الأوربية وينتهي بموتها، قبل صاعقة عام 1914، ولا هي ببساطة حكاية تقص روجي. لسنا مضطرين إلى الاختيار عندما يتعلق الأمر بالرمزية السوسولوجية والرمزية السحرية.

(29) هنالك تقييم إيجابي لتعلم البطل اقترحه هيرمان ج. فيغاند عام 1933 في عمله المشار إليه

أنفا. كان فيغاند أول من شخص أن «الجبل السحري» «رواية تربوية». لكنه يرى في هذه الرواية المتعلقة «بتطوير الذات» (المصدر السابق، ص. 4) «تقصيا يسمي إلى التشنشة Bildung ويتعالى على أية غايات عملية». (المصدر السابق)، حيث يوضع الثقل الأساس على التماسك المتزايد لتجربة كلية ينتج عنها موقف إيجابي بخصوص الحياة إجمالاً. حتى في الأزمات الرئيسة المسجلة في القسم الأول (إغراء الهرب، الاستدعاء القادم من د. بيهرنز الذي يجعل من هانس مريضاً في بيرغوف، ليلة فلبرغس)، نجد البطل قادراً على الاختيار، «السمو» (Steigerung). بالطبع يقر فيغاند بغفوية أن نهاية القسم الأول تؤثر إلى نقطة الذروة في التعاطف مع الموت. وهو يسمي «الجبل السحري» «ملحمة المرض» (المصدر السابق، ص. 39). لكن القسم الثاني يظهر تبعية الفترة التي يمارسها الموت للفتنة التي تمارسها الحياة (المصدر السابق، ص. 49). يشهد حدث «الثلج» على «الذروة الروحية من الوضوح التي تؤثر إلى أوج قدرته على أن يجسر أقطاب التجربة الكونية ... وهو مدين بذلك للمورد الذي يمكنه في نهاية المطاف من أن يرتقي حتى بعاطفته تجاه كلوديا إلى هذه الصداقة الحادية. يرى فيغاند في جلسة استحضار الأرواح أنها تعرف بصلة تجربة البطل بالتصوف (الفصل الأخير من الكتاب مكرس بصورة جلية للتصوف)، ولكن الجلسة السرية، حسب المؤلف، لا تقود هانس كاستورب أبداً إلى أن يفقد السيطرة على إرادته في الحياة. فضلاً عن ذلك، فإن استكشاف المجهول، المحظور، يمتد إلى الكشف عن «جوهر روح الخطيئة بالنسبة لتوماس مان» (المصدر السابق، ص. 154)، هذا هو الجانب «الروسي» من كاستورب، جانب كلوديا. لقد تعلم منها أن لا وجود لفضول دون قدر معين من الضلال. لكن السؤال هو معرفة إن كان البطل قد دمج، كما يدعي فيغاند، هذه الغفوى من التجارب في كل متماسك («التركيب هو المبدأ الذي يتحكم في النموذج الذي تقدمه «الجبل السحري» من بدايتها إلى نهايتها». [المصدر السابق، ص. 157]). وسيجد القارئ في كتاب هانس مير «توماس مان» (فرانكفورت: سور كمب، 1980) تقديراً أكثر سلبية لتعلم هانس كاستورب في بيرغوف. يعمد مير بوضوح وهو يمر برواية الزمن Zeitroman من دون تعليق، إلى إبراز «ملحمة الحياة والموت» (المصدر السابق، ص. 114). إن نتيجة تربية البطل هي بالطبع تأسيس علاقة جديدة مع المرض، والموت، والانحلال، بوصفها وقائع Faktum الحياة وهي علاقة تتباين مع الحنين إلى الموت، القادم من نوفاليس، والذي يهيمن على «موت في البندقية»، وهو عمل توماس مان الذي سبق «الجبل السحري». ومان نفسه يؤكد هذا في محاضرة لوبيك:

"Was ich plante , war eine groteske Geschichte , worin die Faszination durch den Tod , die das Venezianischen Novelle gewesen war , ins Komische , gezogen werden sollte: etwas wie ein Satyrspiel also zum 'Tod in Venedig'"

اقتبس مير، (المصدر السابق، ص. 116). حسب مير فإن النبرة التهكمية المعتمدة في هذه الرواية التربوية تؤسس لتباين ثان، ليس فقط مع الميراث الرومانتيكي، ولكن أيضاً مع رواية التطور الداخلي الغفوية [نسبة إلى غوته.م]. بدلا من تطور متواصل للبطل، هنالك اعتقاد أن «الجبل السحري» تصور بطلا سلبيا من حيث الجوهر (المصدر السابق،

ص122)، متلقيا لضروب التطرف، لكنه يحتفظ دائما بمسافة تبعده عن كل الأشياء بالقدر نفسه، في الوسط كألمانيا نفسها، الحائرة بين الإنسانية وضرر الإنسانية، بين أيولوجية التقدم وأيولوجية الانحلال. إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون قد نقده البطل هو أن ينأى بنفسه (Abwendung) (المصدر السابق، ص127) عن كل الانطباعات، والمحاضرات، والحوارات التي يمر بها. نتيجة لهذا، فإن التركيز يجب أن ينصب بالقدر نفسه على التأثير التربوي الذي يمارسه الأبطال الآخرون - شتمبريني، نافتا، مدام شوشات، بيير كورن - إن أردنا أن نقيس بدقة الصورة الاجتماعية الزاخرة التي تقترب بـ «الجبل السحري» من بلزاك، بينما هي تنأى بنفسها عن غوته، وأكثر منه عن نوفاليس. إن هانس ميير غير غافل بالتأكيد عن التضاد بين الزمن في الأعلى والزمن في الأسفل، بل هو حتى يقارنه بوضوح مع التضاد الذي يقيمه برغسون بين مستوى الفعل ومستوى الأحلام. ولكن بقدر تعلق الأمر بهانس كاستورب نفسه، يرى ميير أن هانس كاستورب لا يتعلم شيئا بين الطفيليين البرجوازيين في بيرغوف، المحكوم عليهم جميعا بالموت، لأنه لم يكن ثمة ما يمكن أن يتعلمه المرء (المصدر السابق، ص137). وهنا تحديدا يختلف تأويلي عنه، دون أن يتفق مع تأويل فيغاند. إن ما كان متاحا لتعلمه في بيرغوف هو طريقة جديدة في التعامل مع الزمن وطمسه، وتجد النموذج الدال عليها في العلاقة التهامية التي تربط الراوي بسرده. وفي هذا المجال، أجد دعما في الدراسة الممتازة التي كرسها ميير للعبور من التهام إلى المحاكاة الساخرة لدى توماس مان (فان، المصدر السابق، ص ص171 - 183).

(30) رينشارد ثيبرغر في "Der Bergiff der Zeit bei Thomas Mann Von Zauberbeg Zum Joseph.

(31) يفص الفصل الثاني في الماضي. هذا الارتجاع الفني - الشائع تماما في روايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين - ليس بمعزل عن تكوين الأثر المنظوري الذي أشرت إليه أنفا. والفصل سيقم بالفعل Urerlebnisse، كما يعبر عنها فيغاند (فيغاند، ص ص. 25 - 39)، والتي سيفعل فعله بوصفه مرشدا خفيا للنمو الروحي الذي يوازي الاهتمام المتناقض بالزمن القفاس. إن الإحساس باستمرارية الأجيال، الذي يرمز إليه نقل الحوض المعمودي؛ المعنى المزدوج للموت، الذي هو في آن واحد مقدس وبذي، والذي أحس به لأول مرة أمام رفات جده، وذلك الإحساس الذي لا سبيل إلى كبحه بالحرية، الذي تُعبر عنه ذائفة لا تملّ التجريب والمغامرة؛ الميل الشهواني الذي يُثيره بإيحائية حدث استعارة قلم الرصاص من بريسلاف هبه، وهو قلم الرصاص نفسه الذي ستطلب كلوديا شوشات من هانس في مشهد «ليلة فلبرغس» أن يعيده إليها. إضافة إلى حقيقة أن هذه التجربة Urerlebnisse تحتوي طاقات متشعبة تجعل تجربة الزمن السلبية تجربة تصعيد Steigerung داخلي، وحقيقة استنارتها بعد مشهد «الوصول» وقبل السرد القلق الخاص باليوم الأول، يدعم الوظيفة المحددة الخاصة بالماضي قداما في تجربة طمس الزمن. كان من الضروري في البداية إعطاء الزمن عرافته، وكثافته، وسماكته لكي يقاس قياسا كليا الفقدان الذي تبدأ تجربته عندما تتلاشى مقاييس الزمن.

(32) ولكن مؤخرا [neulich]، لأرى، انتظر لحظة، ربما كان ذلك قبل ثمانية أسابيع...

- إذن يكون من الصعب أن نقول مؤخراً.

انقض عليه هانس كاستورب بحسم.

«ماذا! حسناً، ليس مؤخراً إذن ما دمت دقيقاً إلى هذا الحد. كنت أحاول الحساب فقط.

حسناً، إذن، قبل بعض الوقت.» (الجبل السحري، ص. 53).

(33) «يا إلهي! ثلاثة أسابيع! هل تسمع أيها الملازم؟ ألا تجد غريباً سماع شخص يقول:

«أتوقف هنا لثلاثة أسابيع أعود بعدها مرة أخرى؟» نحن هنا في الأعلى لا نعرف وحدة

زمن كالأسبوع؛ إن سمحت لي تلقينك سيدي العزيز - إن اصغر وحدة زمنية لدينا هي

الشهر. نحن نجري حسابنا على وفق الأسلوب الفخم [in grossen Stil]، إنه امتياز تتمتع

به نحن الظلال.» (المصدر السابق، ص. 58)

(34) يساعد يواكيم نفسه، بفضل الأسبقية التي ما زال يتمتع بها على هانس، على زيادة حيرة

ابن عمه حدة. «نعم، عندما تراقبه، الزمن، يمضي ببطء شديد. أنا مولع بالقياس، أربع

مرات في اليوم؛ لأنك عندما تعرف ما ترقى إليه الدقيقة فعلاً - أو سبع منها - في الأعلى

هنا، حيث تترك أيام الأسبوع السبعة خاطفة كما هو دأبها!» (المصدر السابق، ص. 65 -

66). ويضيف الراوي، في إشارة إلى هانس، «لم يكن معتاداً على التفلسف، لكنه

برغم ذلك شعر بحافز يدعو إلى ذلك.» (المصدر السابق، ص. 66).

(35) «الزم الهدوء! اشعر بصفاء عقل كامل اليوم. حسناً إذن، ما هو الزمن؟ سأل هانس

كاستورب.» (المصدر السابق). من الممتع متابعة محاكاة البطل السافرة لأوغسطين، الذي

يفترض أنه لا يعرفه. لكن هذا لا ينطبق بالتأكيد على الراوي.

(36) «لا زال لدي عدد كبير من الأفكار في رأسي حول الزمن؛ مركب كامل، إن صح هذا

الوصف.» (المصدر السابق، ص. 67). «يا إلهي، هل مازلنا في اليوم الأول فقط؟ يبدو

لي وكأنني أمضيت هنا زمناً طويلاً؛ دهرًا.

- كف عن التفلسف مرة أخرى حول الزمن، قال يواكيم وأضاف، «لقد أذهلني تماماً

هذا الصباح.»

أجاب هانس كاستورب؛ - لا، لا تقلق، لقد نسيت كل ما يتعلق بذلك «التعقيد». لقد

فقدت كل صفاء العقل الذي كان لدي، ذهب كله. (المصدر السابق، ص. 82).

- ومع ذلك، اشعر بطريقة أخرى كما لو إنني تقدمت في العمر وازدادت حكمة منذ

جئت ... هكذا اشعر.

- ازدادت حكمة، أيضاً؟ تساءل ستمبريني.» (المصدر السابق).

(37) يقول الراوي متدخلًا دون خجل، «نحن نقدم هذه الملاحظات هنا لأن الشاب هانس

كاستورب ساوهر شيء منها حسب» (المصدر السابق، ص. 105).

(38) «ولكن حتى ظواهر الحياة اليومية كان فيها الكثير مما اضطر هانس كاستورب أن يتعلمه:

الوجوه والحقائق التي لاحظها كان لابد من استذكارها، ورصد الجديد منها بتقبل

الشباب.» (المصدر السابق، ص. 106). ويتكلم الراوي بالمعنى نفسه عن روح هانس

كاستورب المقدمة Unternehmungsgest. يقارن تقرير هذا «التقديم» Exkurs مع دفاع

يواكيم عن الموسيقى، التي تحتفظ على الأقل بترتيب وتقسيمات. ويذهب ستمبريني حتى

أبعد؛ «تحرك الموسيقى الزمن، إنها تحركنا نحو أرقى استمتاع بالزمن؛ إنها تحرك؛

- ويقدر تعلق الأمر بهذا فإن لها قيمة أخلاقية، للفن قيمة أخلاقية بقدر ما هو مصدر تحريك». (المصدر السابق، ص. 114). لكن هانس كاستورب يتلقى هذه الخطبة المعصاة الأخلاقية، التي تبقى خطبة معلّم، بلا مبالاة.
- (39) نستذكر بين اللامات حوض المعمودية؛ «ذلك الرمز لما هو عابر ولما هو باق، للاستمرارية عبر التغيّر» (المصدر السابق، ص. 154)، وكذلك رأس الجد المرتعش (خلال ليلة فليرغس).
- (40) يجتمع صوتا الراوي والبطل معاً ليهتفا، «أواه، الزمن لغز يصعب حقاً تفسير جوهره!» (المصدر السابق، ص. 141). ينم هذا السؤال عن بعد نظر.
- (41) «بعد أسبوعين، بدأ الروتين اليومي لأولئك الموجودين هنا في الأعلى» يكتب في عينية طبيعة مقدسة. عندما تطلّع، من وجهة نظر (أولئك الموجودين في الأعلى) إلى الحياة كما نعيش هناك في الأسفل على الأرض المنبسطة، بدت له غريبة وغير طبيعية». (المصدر السابق، ص. 148)
- (42) من الجدير بالملاحظة أن المعلم الإيطالي يمتدح الزمن في غمرة ازدهاره للروس وميلهم الاستثنائي إلى إهمال الزمن. «الزمن هبة الله، أعطيت للإنسان لكي يستخدمها؛ استخدمها أيها المهندسون، لتخدم تطور الإنسانية» (ص. 243). يركز فيغاند هنا على اللعب الدقيق بين العقول الألمانية والإيطالية والسلافية. ويشكل هذا واحداً من ضروب التحديد الكلي لهذه الحكاية عن الزمن.
- (43) يقود المؤلف مرة أخرى قارئه من يده. «لنا كل الحق كما لأي شخص آخر في أن نكون أفكارنا عن القصة التي نرويها؟ ونود هنا المجازفة بتخمين أن الشاب هانس كاستورب لم يكن ليتجاوز إلى هذا الحد الفترات المقررة أصلاً لبقائه لو كان عمق الزمن الخاص به قد منح روحه البسيطة أي تفسير مقنع عقلياً لمعنى حياة الإنسان وغايتها». (المصدر السابق، ص. 229 - 230).
- (44) ألا يستدعي هذا لا محالة إلى العقل العشاء بين رؤوس الموتى في «البحث عن الزمن الضائع»، بعد الرؤيا الحاسمة في مكتبة آل غيرمانت؟
- (45) التهكم في العبارة الأخيرة «وخرجاً» ترك القارئ جاهلاً ما فعل هانس وكلوديا أثناء ما تبقى من تلك الليلة الكرنفالية. فيما بعد، سيثير كشف السر لوهزال المسكين فضولنا دون أن يشبعه. عندها يلاحظ المؤلف المتهمك، «هنالك كل الأسباب، من جانبنا ومن جانبه، التي تدعو إلى عدم التماذي في تناول الأمر» (المصدر السابق، ص. 428). لاحقاً، سيقول لكلوديا عند عودتها، «لقد قلت لك أنني اعتبره حليماً، ما كان بيننا» (المصدر السابق، ص. 557). ولن يُفلح فضول مينهير بيبركورن في رفع الغطاء عن المستور.
- (46) «قلّب هانس كاستورب هذه التساؤلات وأمثاله في عقله ... بالنسبة له نفسه، كان قد طرح السؤال تحديداً لأنه لم يكن يعرف الأجابة.» (المصدر السابق، ص. 244 - 245).
- (47) ثيرغر على حق بالتأكيد في ذكر روايات مان عن يوسف هنا، يوسف الذي كانت عاطفة رصد السماوات لديه وثيقة الصلة بمهجور الأساطير بقدر ما هي مع الحكمة القديمة.

- (48) «كلما أمعنت الفكر في ذلك، ازدادت ثقة أن سرير الراحة - واعني به الكرسي القابل للطوي، بالطبع - قد أعطاني وقتاً للفكر خلال هذه الأشهر العشرة يزيد عما حصلت عليه من الطاحونة في الأرض المنبسطة أسفل خلال كل السنوات المنصرمة. ببساطة، لا سبيل إلى إنكار ذلك.» (المصدر السابق، ص. 376).
- (49) لا تنفصل مغامرات الترحلق الطويلة عن هذا الانتصار للحرية. بل لقد زوّده حتى باستخدام حيوي للزمن، أغد المسرح بدوره لحدث «الثلج» الحاسم.
- (50) كان الزمن بالفعل ثيمة في العديد من أحاديثه المتشعبة. لقد شجب نافتا، «استغلال الزمن»، «هبة كونية من عطايا الرب» (المصدر السابق، ص. 403). «قارن أيضاً دفاعه عن الزمن الشيعوي. «حيث لن يُسمح لأحد بالحصول على الفائدة» (المصدر السابق، ص. 408).
- (51) «بكلمة واحدة، كان هانس كاستورب باسلاً هنا في الأعلى؛ إذا ما قفصنا بالبسالة ليس مجرد الالتزام الباهت بالأمر الواقع في وجه الطبيعة، ولكن الخضوع الواعي لها، حيث يُطرح جانباً الخوف من الموت بفعل نفرد لا يقاوم.» (المصدر السابق، ص. 477).
- (52) لاحظ التحكم في العنوان Als Soldat und brav (المصدر السابق، ص. 498). لقد أجبر يواكيم على أن يترك مهنة الجندية لكي يعود إلى مصحة فيلقى حتفه فيها. لكن دفنه كان دفن جندي، وفيه هاجس يستيق كل حالات الدفن التي تستطيع الحرب العظمى. وهي الحرب نفسها التي ستطلق فوق بيرغوهف كالصاعقة.
- (53) هل القبلة على الفم، على الطريقة الروسية، والتي يقارنها الراوي بطريقة الدكتور كروكوفسكي في التعامل مع موضوع الحياة «بمعنى متقلب بعض الشيء» (المصدر السابق، ص. 599)، أنصراً تؤشر أم هزيمة؟ أو، على نحو أدق، ليست تذكيراً تهكمياً بالمعنى المتقلب لكلمة «حب»، التي تنذبذب بين التقوى والشهوة الحسية؟
- (54) «رأى في كل مكان حوله الشاذ والخبيث، وكان يعرف معنى ما رأى: إنها الحياة بدون زمن، الحياة بدون رعاية أو أمل، ركود دائم؛ الحياة ميتة.» (المصدر السابق، ص. 555).
- (55) "Augenblicke kamen, wo dir aus Tode und Körperunzucht ahnungsvoll und regierungsweise ein Traum von Liebe erwuchs.".
- (56) مارسيل بروست «البحث عن الزمن الضائع»، ت: س. ك. سكوت مونكريف، وتيرنس كيلمارتن، وانديراس ميبير (نيويورك: راندم هاوس، 1981)، 3 مجلدات. وسوف أشير إلى هذا العمل طوال هذا الفصل بالأشارة إلى المجلد ورقم الصفحة.
- (57) جيل دولوز، «بروست والعلامات»، ت: ريتشارد هوارد (نيويورك: جورج برازيلر، 1972).
- (58) يجب أن لا يُنسبنا جدول العلامات شبه التزامني في عمل دولوز، وتراثيته التصورات الزمنية التي تتوافق مع هذا النموذج التبادلي من العلاقات، تاريخية هذا التعلم، أو على نحو خاص التاريخية الفريدة التي تطبع حادثة لحظة الإلهام نفسها، التي تغيّر بعد الواقعة معنى التدريب الأسبق، وقبل كل شيء دلالة الزمنية. إن الطبيعة الشاذة لعلامات الفن في علاقتها مع كل العلامات الأخرى هي ما يُولد هذه التاريخية الفريدة.
- (59) آن هنري، "Proust romancier: le tombeau égyptien"، (باريس، فلانماريون، 1983).

- (60) تَقْدَم هنري (المصدر السابق، ص ص. 33، 40) مقطعين هامين من الجزء الخامس من «نظام المثالية الترنسندنالية». قارن، ف.و. ج. شيلنغ، «نظام المثالية الترنسندنالية» 1800، ت: بيترهيت (نشارلوكسفيل: جامعة فرجينيا، 1978).
- (61) شوبنهاور، «العالم إرادة وتمثيلاً»، ت: و. ف. ج. بين (نيويورك: دوفر بوكس، 1966)، مجلداً.
- (62) «لقد تنبأ إدراك الهوية أن مكان إنجازه هو وعي الفنان، لكنه كان جوهرًا ميتافيزيقياً، وليس ذاتاً سيكولوجية؛ وهو ملمح لامناص للرواية من أن تنتهي إلى جعله عينياً». (هنري، ص. 44). ويرد فيما بعد: «لم يفكر بروست إلا بوضع نفسه في النطاق الوسطي بين النظام والواقع العيني الذي يتيح جنس الرواية.» (المصدر السابق، ص. 55).
- (63) ليست آن هنري بغائبة عن هذه المشكلة. «لن يُصار إلى أنجاز أي شيء دون إضاعة هذا العرض الفريد جداً الذي يقدمه بروست للهوية؛ إدراكها في قلب الاستذكار.» (المصدر السابق، ص. 43). لكن الإجابة التي تقدّمها تترك الصعوبة من دون حل، عندما تواصل البحث عن مفتاح عملية إضفاء الطابع النفسي التي تخضع لها جماليات العبقريّة خارج الرواية، في تحولات ثقافية فكرية أواخر القرن التاسع عشر. إن هذا القلبُ للعلاقة بين الأساس النظري والعملية السردية يقودنا إلى السؤال ماهي الثورة التي أحدثتها «البحث...» في تقليد رواية التطور الداخلي، التي أعاد توماس مان توجيهها بالطريقة التي حاولت أن أوضحها. إن الإزاحة عن المركز التي تمارسها «البحث...» على الحدث الخلاصي ضمن التدريب الطويل على العلامات تقودنا بالأحرى إلى فهم أن مارسيل بروست يخزّب، من خلال وضع عمله داخل تقليد رواية التطور الداخلي، قانون رواية التدريب بطريقة تختلف عن تلك التي أنجز بها مان ذلك. يُحدث بروست قطيعة مع الرؤيا المتفائلة لتطور متصل متصاعد يمر به البطل الباحث عن ذاته. فإذا قارنا بهذه الطريقة الإبداع الروائي لبروست مع تقليد رواية التطور الداخلي فلنأنا نجد أنه يكمن في ابتكار حبكة تربط معاً، بوساطة وسيلة سردية تحديداً، تعلم العلامات ونضج مهنة ما. تورد آن هنري نفسها هذه القرابة مع رواية التطور الداخلي، ولكنها ترى أن اختيار هذه الصيغة الروائية يشارك في التدهور الإجمالي الذي يؤثر في فلسفة الهوية المفقودة عندما تصبح سيكولوجيا زمن مفقود.
- (64) لا تخلو المشكلة المطروحة من تماثل مع تلك التي يطرحها جينيت في تحليله البنيوي. لقد رأى هو أيضاً في «فن الشعر» الذي أدرج في تأمل البطل حول خلود العمل الفني، تدخلاً من المؤلف في العمل. وكان ردي الحاسم هو تقديم فكرة عالم للعمل ولنجربة يمر بها بطل العمل داخل أفق هذا العالم. وهو ما يمنح العمل القوة على أن يسقط نفسه أبعد من نفسه في تعال خيالي. ويصح الرد نفسه على تفسير آن هنري. بقدر ما يسقط العمل راويًا - بطلاً يفكر بنجربته، يستطيع أن يتضمن، داخل محايشته المتعالية، الشتات المتناثر من النظرات الفلسفية.
- (65) برغم ذلك، يمكن ببساطة إدراك هذا الصوت في الأمثال الماثورة والحكم التي تسمح لنا برؤية الطبيعة النموذجية للتجربة المروية. كما أنه واضح للعيان في التهكم الكامن الذي

يسود سرد اكتشافات البطل في عالم المجتمع برمته. نوربوا Norpois، بريشوت Brishot، مدام فيردورين، وواحدة إثر الآخر من البرجوازيين والأرستقراطيين يقعون ضحايا لتعليقات جارحة يمكن أن تفهمها إذن لها قدر من الدربة. من جانب آخر فإن القارئ لا يدرك إلا في القراءة الثانية بعد أن يعرف نتيجة العمل ما يساوي عند حل شفرة علامات الحب، التهمك الذي يجده في حل شفرة العلامات الدنيوية: تلك النبرة من خيبة الأمل، التي تعجل في يوم الخيبة وتضفي بذلك معنى دون أن تقرره تقريراً «واضحاً»، معنى الزمن المفقود الذي تنتج كل تجربة غرامية. بكلمات أخرى، إن الصوت السردى هو المسؤول عن النبرة الإزدوائية الإجمالية التي تهيمن على حل شفرة علامات الحب. والصوت السردى أكثر تحفظاً في حل شفرة العلامات الحسية، برغم أن صوتها يدس نبرة متسائلة، استجاباً، طلباً للمعنى في قلب الانطباعات، حتى أنه يكسر هذا السحر ويبطل رقيتها. بهذه الطريقة يجعل الراوي البطل على الدوام وعياً يتفتح على الواقع الضمني.

(66) تخدم هذه اللحظات بين الصحو والنام بوصفها محورا ابتدائياً بالنسبة للذكريات المقحمة إحداهما في داخل الأخرى: «بدأت ذاكرتي نشاطها» (I، ص. 9). أما المحور الثاني فيتمثل في ربط غرفة نوم بأخرى: كومبري، بالبيك، باريس، دونسير، فينيسيا (المصدر السابق). والراوي لا يخفق في استذكار هذه البنية الضمنية في اللحظة المناسبة. «وهكذا كان، بحيث أنني ولفترة طويلة فيما بعد إذ أتمدّد في الليل واستعيد ذكريات قديمة من كومبري، لم أكن أرى منها إلا هذا النوع من اللوحة المنيرة، حادة المعالم على خلفية غامضة ومظلمة» (I، ص. 46) وستكون هذه هي الحال حتى انتهاء هذا الضرب من «التقديم» (كما يسميه هانس روبرت يابوس في كتابه *Zeit und Erinnerung in Marcel Prousts A la Recherche du Temps Perdu* [هايدلبرغ: كارل ونتر، 1955]) الذي يتضمن كل مرويّات الطفولة، وكذلك قصة غرام سوان.

(67) كما نتوقع، فإن هذا الطغس يُروى بزمان غير التام imparfait: «تلك القبة الواحة النفيسة التي كانت أمي تعتاد أن تغدقها عليّ عادة عندما أكون في السرير أوشك على النوم، كان يجب عليّ أن أنقلها من غرفة الطعام إلى غرفة نومي حيث كان عليّ أن أبقئها مُصانة طوال الوقت الذي كان يستغرقه مني خلع ملابسِي» (I، ص. 24).

(68) «كان يفترض أن أكون سعيداً، لكن لم أكن» (I، ص. 41).

(69) يكمن الفخ في السؤال الانتقالي، «هل ستصل في نهاية المطاف إلى السطح الصافي لوعبي؟ هذه الذكرى، هذه اللحظة القديمة، الميتة، التي رحلت مغناطيسية لحظة مشابهة لها كل هذه المسافة لتلجّ عليها، تزعجها، تصعد بها من أعماق وجودي؟ لا أدري» (I، ص. 50).

(70) يعلن الراوي في هذه العبارة عن المقطع المسمى «الزمن المستعاد» برمته، متأملاً محاولة البطل في استعادة النشوة: «وعندها أفتح للمرة الثانية فضاء فارغاً أمامها؛ واضع نصب عيني ذلك الطعم حديث العهد بعدُ لتلك اللقمة، وأشعر بشيء يتحرك داخلي، شيء يغادر مكان راحته ويحاول الصعود، شيء ظل مدفوناً كالمرساة على عمق سحيق، لا أعرف حتى الآن ما هو، لكن أستطيع أن استشعره يعمل على مهل، وأستطيع أن أقيس

المقاومة، أستطيع أن اسمع صدى الفضاءات العظيمة التي يجتازها» (I، ص . 49). سيكون تعبير «الفضاءات العظيمة التي يجتازها»، كما سنرى، كلمتنا الأخيرة.

(71) يؤول هانس روبرت يابوس تجربة الماديين بوصفها التطابق بين الذات التي تقوم بفعل السرد والذات التي هي مادة السرد، إضافة إلى ذلك فهو يرى في هذا الراهن *nunc* الابتدائي، المسبوق دائماً بغور سحيق العمق، برغم أنه يبقى قادراً على أن يفتح الباب أمام تقدم البطل نحو الأمام. لذا فإن ثمة تناقض مزدوج: منذ بداية السرد الذات التي تقوم بالسرد هي ذات تتذكر ما سبقها. لكن السرد يمنح البطل برغم ذلك، من خلال فعل السرد الراجع إلى الوراء، إمكانية أن يبدأ رحلته إلى الأمام. ويفضل هذا يتواصل أسلوب «المستقبل في الماضي» حتى نهاية الرواية. إن مشكلة العلاقة بين التوجه نحو المستقبل والرغبة النكوصية في الماضي تقع في المركز من الفصول المكثزة لبروست في كتاب جورج بوليه *Etudes Sur le temps humain* (باريس: بلون، 1952 - 1968)، المجلد الأول، ص 400 - 438؛ المجلد الرابع، ص 299 - 355.

(72) «إنه صرح يشغل، لنقل، فضاء ذا أبعاد أربعة - حيث اسم الرابع هو الزمان - ممتداً عبر القرون بصحنه الكنسي القديم، الذي بدا وكأنه يتسع شرفة بعد شرفة، ومعبداً بعد معبد ليفتح ليس بضع ياردات من الأرض، بل كل الحقب المتلاحقة فيخرج منتصراً (I، ص 66). ليس مصادفة أن «الزمن المستعاد»، وهي تغلق الدائرة، تنتهي باسترجاع أخير لكنيسة كومبري. إن برج كنيسة هيلاري هو بالفعل أحد رموز الزمان، وإذا استخدمنا تعبير يابوس، أحد أشكاله الرمزية.

(73) جورج بوليه، «الفضاء البروسي»، ت: إليوت كولمان (بالتيمور: جامعة جونز هوبكنز، 1977)، ص ص 57 - 69.

(74) لا يظهر أي تحديد دقيق للحقب الزمنية المختلفة: «تلك السنة» (I، ص . 158)، «ذلك الخريف» (I، ص ص 167، 169)، «في تلك اللحظة أيضاً» (I، ص . 170).

(75) «ربما كان ذلك من انطباع آخر تلقبته في مونجوفان، بعد سنوات، وهو انطباع ظل حينذاك غامضاً بالنسبة لي، ربما منه نشأت بعد أمد طويل فكرتي التي شكلتها عن السادية. وسنرى في حينه، أن ذكرى هذا الانطباع، ولأسباب أخرى تماماً، ستلعب دوراً هاماً في حياتي» (I، ص . 173). تساعدنا «سنرى في حينه» التي تتبعها سين الاستقبال على موازنة توجه العمل نحو الخلف إجمالاً بحركة إلى الأمام. إن هذا المشهد مُستعاد ومنعكس على المستقبل الخاص به في آن معاً، وبذلك يتحقق تيعيده. حول العلاقة بين الزمنية والرغبة لدى بروست، قارن جيسلين فلوريفال *Le Désir chez Proust* (لوفن/ باريس: نويلاز، 1971)، ص ص 107 - 173.

(76) «وقد ذكرتني تلك الأحلام بأن الساعة قد أزفت، مادمت أرغب في أن أصبح كاتباً يوماً ما، لأن أحدد نوع الكتب التي سأكتبها. ولكن ما أن طرحت علي نفسي هذا السؤال وحاولت أن أجد موضوعاً أستطيع أن انسج عليه مغزى فلسفياً ذا قيمة لانهائية، حتى توقف عقلي كما لو كان ساعة تتوقف، وواجهت وعيي مساحة من الفراغ، وشعرت إما بأنى أخلو من الموهبة تماماً وإما أن عاهة في الدماغ تموق تطورها» (I، ص ص 188 - 189). ثم بعد سطور قليلة: «وهكذا، وجدت في حالة من القنوط التام، أنني قد تيرات

من الأدب إلى الأبد، بالرغم من التشجيع الذي وجدته من بلوش» (I، ص ص . 189 - 190).

(77) «دون أن أواجه نفسي بحقيقة أن ما يقع خفياً وراء أبراج مارتينيل لابد أن يكون شبيهاً بعبارة جميلة، إذ أنه ظهر لي بصيغة كلمات منحتني المتعة، استمرت قلماً وقطعة من الورق من الدكتور، وبِرمِ ارتجاج العربية ألقت، لكي أرضي ضميري، المقطوعة التالية التي عثرت عليها لأول مرة مؤخراً، وأعيدها كما هي إلا من تعديلات صغيرة هنا وهناك.» (I، ص . 197).

(78) «بالإشارة نفسها، ولإصرارها على مصاحبة انطباعاتي في يومي هذا التي مازال بالإمكان ربطها بها، فإنها تمنح هذه الانطباعات أساساً، عمقاً، بعداً غائباً عن ما عداها.» (I، ص . 197).

(79) «وهكذا كنت أتمدد حتى الصباح في الغالب، حالماً بالأيام الخوالي في كومبري... وعبر توارد للذكريات، بقصة رويت لي بعد أعوام عديدة من مغادرتي ذلك المكان الصغير عن علاقة حب مر بها سوان قبل أن أولد...» (I، ص . 203).

(80) «إن مقطعاً من النوع الذي سيلي واضح وصريح بالنسبة للقارئ: «وجد سوان في نفسه، في ذكرى العبارة التي سمعها، في سوناتات معينة أخرى طلب من الناس عزفها له ليرى إن كان بوسعه اكتشاف جملته الموسيقية فيها، حضور واحد من أشكال الواقع اللامرئية التي توقفت عن الإيمان بوجودها، والتي كان يعي معها، كما كان للموسيقى نوع من الأثر المجدد على الجذب الأخلاقي الذي كان يعاني منه، يعني مرة أخرى الرغبة وحتى المقدرة على تقديس حياته.» (I، ص . 230). ومرة أخرى: «في سموها الشاهق كان ثمة إحساس بشيء تم وانتهى، كما هو مزاج التجرد الفلسفي الذي يعقب انفجار ندم عقيم.» (I، ص . 238).

(81) «ليس مما يخلو من الأهمية أن سوان كان فاشلاً ككاتب. لن يكتب أبداً دراسته عن فيرمير. وهنالك إيعاء فيما يخص علاقته بعبارة سوناتا فينتوي الموسيقية، بأنه سيموت دون أن يعرف كشف الفن. هذا ما تقرره «الزمن المستعاد» بوضوح (III، ص . 902).

(82) «يعد الراوي، لكي يشد مرسة سرده لـ «سوان عاشقاً» إلى السرد الرئيس، إلى ما هو شائع في سردي الغائب والمتكلم، فيجعل أوديت تظهر للمرة الأخيرة (على الأقل أوديت الأولى، التي لا يستطيع القارئ أن يخمن أنها ستصبح فيما بعد أم غيلبرت في سيرة البطل الغائبة القصصية) في غيبش حلم.» (I، ص . 411)، وبعدها في أفكاره حين يصحو. تنتهي «سوان عاشقاً» إلى منطقة شبه - الحلم ذاتها التي انتهى إليها سرد «كومبري».

(83) «لا يأبه المؤلف - وليس الراوي الآن - على الإطلاق في أن يجعل مارسيل الشاب وجيلبرت التي قابلها على الممر الصغير في كومبري يلتقيان في الشانزليزيه (وستبقى إشارتها اللفظة في تلك الأيام (I، ص . 154) لغزاً حتى «الزمن المستعاد». (I، ص . 711 - 712) لا تزعم بروس المصادفات الروائية. لأن الراوي وهو يحولها أولاً إلى انقلاب للحظ في قصته، ثم وهو يمنح لقاءات الصدفة معنى يكاد يكون خرافياً، ينجح في تحويل كل المصادفات إلى مصير مقدر. «البحث...» تحفل بهذه اللقاءات غير

المحتملة التي يجعلها السرد منتجة. أما آخرها، وأكثرها امتلاء بالمعنى فإنها، كما سنرى فيما بعد، الربط بين «طريق سوان» و«طريق غيرمانت» عبر ظهور ابنة جيلبرت وسنت - لوب في الصفحات الأخيرة من الكتاب.

(84) «عندما اكتشفت كم كنت غير أبيه بكمبري» (III، ص. 709). «لكنني، وقد فصلتني حياة كاملة عن أماكن تصادف الآن أنني أعبر خلالها، كان ثمة فقدان، بيني وبينها، فقدان لذلك التماس الذي منه يتولد، حتى قبل أن ندركه، ذلك الإحراق المباشر واللذيق والكامل للذاكرة». (III، ص. 710).

(85) حتى المعارضة الأدبية الشهيرة لآل غونكور (III، ص. 728 - 736)، التي تخدم بوصفها مبررا يستفيد منه الراوي للحط من شأن ذلك النوع من الأدب التذكيري memorialist الذي يستند على القدرة المباشرة على «النظر والإصغاء» (III، ص. 737)، تساعد على تعزيز النبوة العامة للسرد الذي ترد فيه، عبر القرف الذي تسببه لدى البطل قراءة الصفحات التي تعزى عبر خيال قصصي إلى آل غونكور من الأدب، وعبر المقبات التي تقيمها أمام تطوير مهته. (III، ص. 728، 737 - 738).

(86) صحيح أن تغيير مظهر السماء بفعل الأضواء الكاشفة، والطريقة التي ينظر بها إلى الطيارين على أنهم عاملات الفالكيري الفاغنريات (الفالكيري Valkyrie في الأساطير الشمالية عاملات للإله أودين يحمن فوق أرض المعارك لاختيار الأبطال الذين يقتلون في المعركة - المترجم) (III، ص. 781، 785 - 786) تضفي على مشهد باريس أثناء الحرب لمسة جمالية، يصعب بقدر تعلق الأمر بها القول إن كانت تسهم في خلق الشخصية الشبحية للمكان المحيط بها كله، أم إنها تشترك بالفعل في التحويل الأدبي الذي يحمل صفات الزمن المستعاد ذاتها. على أية حال، يتواصل الطيش جنبا إلى جنب مع خطر الموت. «تملا التسالي الاجتماعية ما يمكن أن يصبح، إذا ما واصل الألمان تقدمهم، الأيام الأخيرة لبومبي الخاصة بنا. فإذا ما كان مقدرا للمدينة الفناء، فإن ذلك بحد ذاته سيفقدنا من الطيش». (III، ص. 834).

(87) «ثم إنه أتضح أن ثمة لحياة كل منهما سرا موازيا، وهو أمر لم يخطر ببالي». (III، ص. 879). «يمنح التقارب بين حالتي الاختفاء هاتين الراوي فرصة الدخول في تأمل حول الموت، سيدمج فيما بعد في منظور الزمن المستعاد». «ومع ذلك، بدا وكأن الموت يتصاع لقوانين معينة». (III، ص. 881)، والمقصود بتحديد أكبر، الموت العرضي الذي يربط بطريقته الخاصة الصدفة والمصير المقدّر، إن لم نقل القضاء والقدر (المصدر السابق).

(88) «ولكن يحدث أحيانا أننا في اللحظة التي نفكر فيها أن كل شيء قد ضاع يصلنا التلميح الذي قد ينقذنا، بطرق المرء كل الأبواب التي تقوده إلى اللامكان، ثم يتعثر دون أن يدري بالباب الوحيد الذي يستطيع أن يدخل منه - وهو الباب الذي قد يسمى المرء منه عام للعثر عليه دون جدوى - فينتفح من تلقاء ذاته». (III، ص. 898).

(89) لاحظ أن هذا التفكير المطروح سردا ينتقل بوساطة الزمن غير التام، والذي يعتبره هارالد فايريش زمن الخلفية، على الضد من الماضي المطلق، زمن الحدث من زاوية ما يقدم السرد تفاصيله (قارن ما سبق ص. 71). يمثل تأمل الزمن بالفعل الخلفية التي يبرز على

مهادها قرار الكتابة وهناك حاجة إلى زمن ماضٍ مطلق جديد يختص بالحدوث الحكائي لتأويل هذا التأمل. « في تلك اللحظة دخل رئيس الخدم ليخبرني أن المقطوعة الموسيقية الأولى قد انتهت، لذا فإن بامكاني مغادرة المكتبة والذهاب إلى الغرف حيث كانت الحفلة. عندها تذكرت أين أنا. » (III ، ص . 957).

(90) « إن لحظة تتحرر من نظام الزمن، تخلق فينا، إذ نشعر بها، الإنسان الذي يتحرر من نظام الزمن » (III ، ص . 906).

(91) يخصص الراوي، في معرض كلامه عن الكائن خارج الزمني الذي كان يمثل البطل من دون علمه في حدث المادلين، ذلك الكائن الذي كان وحده يمتلك القدرة على إنجاز المهمة التي طالما أطاحت بمساعي ذاكرتي وفكري. » (III ، ص . 904).

(92) يستشرف الراوي دور الوسيط بين مكانيي الزمن المستعاد هذا، عندما يقرّ، « وقد لاحظت في خطرة من خطرات الفكر بخصوص العمل الفني الذي شعرت بأنني جاهز للبدء فيه، برغم أنني لم أصل بعد إلى قرار واع بشأنه، أن وضوح الأحداث المختلفة سترتب عليه مصاعب جمة. » (III ، ص . 903). ولابد من الانتباه، كما أشار جورج بوليه، إلى أن المزج في الزمن هو مزج في المكان أيضاً: « دائماً، عندما تقع هذه الانبعاثات، أجد أن المشهد البعيد الذي يستجمع حول الإحساس الشائع يشترك، كالمصارع، مع الموضوع الحاضر. » (III ، ص . 908).

(93) إن « اللغة الكلية الكونية » (III ، ص . 941) التي لا بد من ترجمة الانطباعات إليها غير مقطوعة الصلة هي أيضاً بالموت. فالعمل الأدبي بالنسبة للراوي في « البحث... »، شأنه شأن التاريخ بالنسبة لثوسيديدس، قد « يخلق من أولئك الذين لم يعد لهم حضور، في جوهرهم الحق، كسبا دائماً لعقول البشرية كلها » (III ، ص . 941). دائم ؟ تحت هذا الطموح تحتجب العلاقة مع الموت: الآلام خدم مجهولون كريهون، يكافح المراء ضدهم، وتحت سطوتهم التامة ينتهي به الأمر؛ خدم كالحون ومروعون يستحيل استبدالهم وهم يأخذون بأيدينا عبر ممرات خفية نحو الحقيقة والموت. ما أسعد أولئك الذين وقفوا وجهاً لوجه في حضرة الحقيقة، أولئك الذين تدق ساعة الحقيقة بالنسبة لهم قبل ساعة الموت، حتى وإن تقاربت المسافة بين الدفتين. » (III ، ص . 948).

(94) سأعود في الخاتمة إلى جلاء visibility الزمن « المتخارج »، الذي يضئ البشر الفانين بنور فانوسه السحري. نقرأ فيما بعد أيضاً، بالمعنى نفسه، « لا يتعلق الأمر الآن بما حل بمن عاصرني من الشباب في شبابي ببساطة، ولكن بما سيكون عليه حال الشباب اليوم الذين طبعوا في نفسي بهذه القوة الإحساس بالزمان ». (III ، ص . 987). مازالت المسألة تتعلق بـ « إحساس بانسراب الزمان بعيداً » (III ، ص . 1000) والتغيير في الكائنات بوصفه « أثراً للزمان لا يفعل فعله في فئة اجتماعية كاملة كما هو داخل الأفراد » (III ، ص . 1010). إن هذا التصوير للزمان، في رقصة الموت، سيصار إلى تضمينه في « معرض الصور الرمزية » (ياوس، ص ص . 152 - 166) الذي يشكل طوال « البحث... » الصور العديدة للزمن اللامرئي: العادة، الألم، النسيان، والآن الشيوخوخة. يجعل هذا النظام من الرموز « الزمان، بالنسبة للفنان » مرثياً، كما أميل إلى القول .

(95) « الزمان، الزمان المبهم والكالح، بحيث أستطيع رؤيته ولمسه، تجسد في هذه الفتاة،

فصيحها تحفة فنية، بينما بالمقابل، كان أثره علي مؤسفاً؛ لقد اكتفى بأداء عمله» (III، ص. 1088).

(96) تعقب هذه المقولة تلك التي اقتبستها للتو، وهي تستحق أن أوردتها كاملة: «يستطيع أن يصف مشهداً من خلال وصفه الأشياء التي لا حصر لها التي تكون حاضرة في لحظة معطاة في مكان معين شيئاً شئناً، لكنه لا يبلغ الحقيقة إلا عندما يتصدى لشيئين مختلفين، ويطرح الرابطة (rapport) بينهما - وهي رابطة تشبه في عالم الفن الرابطة الفريدة التي يوفرها في عالم العلوم قانون السببية - ويحصرهما داخل العلائق الضرورية التي تسم أسلوباً محكماً؛ لن نبليغ الحقيقة - وكذلك الحياة - إلا إذا نجحنا عبر مقارنة خاصة يشترك بها أحاسان، في استخلاص جوهرهما المشترك وإعادة الوحدة بينهما وقد تحررا من تصادفات الزمن، داخل استعارة ما». (III، ص. 925). قارن روجر شاتوك، «منظار بروسست المكبر: دراسة في الذاكرة، والزمن، والإدراك في (البحث عن الزمن الضائع)» (نيويورك: راندوم هاوس، 1963). يبدأ شاتوك دراسته، التي سأتني إلى ذكر مزاياها فيما بعد، بهذا المقطع الشهير.

(97) أنا مدين في الملاحظات التي ستأتي إلى كتاب شاتوك الذي ذكرته في الهامش السابق. إنه لا يحصر نفسه بملاحظة الصور البصرية المتناثرة على طول «البحث...» فقط (الفانوس السحري، والمشكال اللوني [وهو أنبوب تثبت في أحد نهايته مرآيا وقطع من زجاج ملون ويظهر نماذج ملونة عندما يُدار - المترجم]، والتلسكوب، والمجهر والعدسة المكبرة... الخ) ولكنه يحاول اكتشاف القواعد التي تحكم انعكاس الضوء البروستي اعتماداً على التباين المنظاري أيضاً. ليست البصريات البروستية مباشرة، بل هي مجزأة، وهو ما يسمح لشاتوك أن يصف «البحث...» إجمالاً بأنها «بصريات مجسمة للزمن». والمقطع المعتمد في هذا المضمار يرد فيه ما يلي: «لكل الأسباب هذه فإن حقلنا وجدت نفسي فيه كهذا... كان يشبه صندوق عجائب من الطراز القديم، لكنه صندوق عجائب السنين، رؤيا لا تخص لحظة واحدة، ولكن تخص شخصاً شخصاً يتموضع في المنظور التحريفي للزمان» (III، ص. 965).

(98) يشير شاتوك إلى هذا بإتقان تام. ليست نقطة الذروة في عمل بروسست لحظة سعادة، بل هي إدراك («منظار بروسست المكبر» ص. 37): «بعد طقس التعرف الأكبر في النهاية، تتلاشى الطبيعة الزائلة للحياة في غمرة اكتشاف صراط الفن المستقيم». (المصدر السابق، ص. 38)

(99) «لأن كل انطباع مزدوج، ونصفه الأول المغمد في الأشياء يمتد إلينا بوساطة نصف آخر نحن فقط من يعرفه، فإننا نسارع إلى العثور على وسيلة نهمل بوساطتها هذا النصف الثاني، بينما هو النصف الذي يتحمم علينا التركيز عليه». (III، ص. 927).

(100) «في الواقع، ظلت المهمة في الحالتين كليهما، سواء كنت مهتماً بالانطباعات من النوع الذي استوحته من منظر أبراج مارتنفيل، أم بذكريات ذلك التفاوت بين الخطوتين، أم بطعم المادلين، أن أزيل الأحاسيس المعطاة بوصفها علامات دالة على كثرة من القوانين والأفكار، من خلال محاولة التفكير بما أحسست به فقط - أي لنقل محبه من الظلال -، من خلال محاولة تحويله إلى ما يساويه روحياً». (III، ص. 912).

- (101) سنعود إلى الطور الأخير من خيمياء الكتابة في سياق القسم الرابع من الجزء القادم ضمن إطار تأملاتي حول الطريقة التي يجد العمل بها اكتماله في فعل القراءة.
- (102) «لم اذهب بحثاً عن البلاطتين المتفاوتتين في الفناء اللتين تعثرت بهما. لكن الطريقة التصادفية والمحتومة تحديداً، التي تمت بها مواجهة هذه الأحاسيس وغيرها، هي ما اثبت صحة الماضي الذي بثت فيه الحياة، وصحة الصور التي ساعدت على إطلاقها، إذ إننا نشعر مع هذه الأحاسيس بالمجهود الذي تبذله لتصعد مرة أخرى إلى النور، نشعر في أنفسنا بنشوة إعادة اكتشاف الواقعي (III ، ص . 913).
- (103) إشكالية الأثر بأكملها، التي سأعود التصدي لها في الجزء الثالث، موجودة هنا. « إن هذا الكتاب، الذي يتطلب حل شفرته مجهوداً يفوق ما يتطلبه أي كتاب آخر، هو أيضاً الكتاب الوحيد الذي أملا علينا الواقع، الوحيد الذي طبع فينا الواقع نفسه «التأثر» به. عندما ترك الحياة فينا فكرة - فكرة من أي نوع - فإن نموذجها المادي، الخطوط العريضة للأثر الذي تركه فينا، يملك بوصفه الأمانة على صحتها بالضرورة» (III ، ص . 914)
- (104) في هذا المجال، نجد أن الفنانين مثلما المؤرخين مدينون إلى شيء ما سابق عليهم. وهو موضوع آخر سأتناوله في الجزء الثالث. لكن هنالك مقطعاً آخر يدل عليه: «إن الكتاب الجوهري، الصادق دون سواء، ليس من الضرورة أن يتدعه بالمعنى المتداول للكلمة كاتب كبير - لأنه موجود بالفعل في كل واحد منا - ولابد أن يقوم هو بترجمته. إن وظيفة الكاتب ومهمته هما وظيفة المترجم ومهمته لا فرق.» (III ، ص . 926) .
- (105) يقول الراوي لنفسه، في تأمل لحصيلة «الطريقين» اللذين طالما تمشى فيهما البطل وخالفته أحلام يقظة لا حصر لها، الحصيلة المتمثلة في شخص مدموزيل دي سنت لوب، إن عمله برمه سيتكون من «التقاطعات» التي تعيد توحيد الانطباعات، والحقب، والمواقع بوصفها تقاطعات ومسافات تم اجتيازها.
- (106) المجاز الذي يتوافق مع هذا الزمان المجسد هو تكرار لذكرى كنيسة كومبري، سنت هيلاري نفسها في بداية « البحث ... » ونهايتها: « خطر لي فجأة أنني إذا كنت ما زلت أمتلك القدرة على إكمال عملي، فإن بعد الظهيرة هذه - كما هو شأن أيام معينة في الماضي السحيق في كومبري كان لها أثر علي - التي منحتني في نطاقها القصير فكرة عملي وخوفاً من إنني لن أقدر على الوصول به إلى التحقق في آن معا، فإنني سأطبعه بذلك الشكل الذي كان لي إحساس سبقي به في طفولتي في الكنيسة في كومبري، الشكل الذي يكون لا مرنياً في العادة من قبلنا، طوال حياتنا: شكل الزمان» (III ، ص . 1103). (لنقل هذه الإضاءة الأخيرة، يستخدم الراوي الماضي المطلق بالارتباط مع الظرف النحوي « فجأة»). تستعيد الكنيسة في كومبري مرة أخرى أخيرة قربها في المسافة الذي ظل منذ بداية « البحث...» يميز استحضار كومبري. إذن، فإن «الزمن المستعاد» تكرار. «هذه الفكرة عن زمن متجسد، عن سنوات مرت ولكنها غير منفصلة عنا، صار مقصدي الآن أن أركز عليه بكل قوة ممكنة في عملي. وفي هذه اللحظة ذاتها، في منزل الأمير دي غيرمانت، وكأنما ليشد من عزمي، هاهو ذا صوت خطوات والدتي وهما يرافقان المسيو سوان إلى الباب وجلجلة الجرس على بوابة الحديقة - مرناً، حديدياً، لا

منهايا، طازجا، حادا - تغلّمني أنه غادر أخيرا وأن أمي ستعود توا لتصعد السلم، يزن مرة أخرى في أذني، نعم، لاشك في أنني أسمع تلك الأصوات، رغم أنها متركزة في الماضي البعيد. (III، ص 1105).

(107) بصدد السؤال المتعلق بالكتابة، أي استحالة الكتابة، قارن، جيرارد جينيت، «سؤال الكتابة» Le Question del ecriture وليو بيرساني Deguisement du moi et art fragmentaire في رولان بارت وآخرين، «بحث بروست» Recherchesde Proust (باريس، سوي، 1980)، ص ص 7 - 12 و 13 - 33

الاستنتاج

- (1) قارن هنري غوهير L. Theatre et l existence (باريس: اوبري مونتاني، 1952، 1973)، Antonin Artaud et l essence du theatre (باريس: اوبري مونتاني، 1968)، Antonin Artaud et l essence du theatre (باريس: فرين، 1974).
- (2) «المخيلة الحوارية: أربعة مقالات» تحرير: مايكل هولكويس، ت: كارل امرسون ومايكل هولكويس (اوستن: جامعة تكساس، 1981).

فهرس الأعلام

255، 256، 257، 309

بارت (رولان) 48، 63، 64، 65، 286،
287، 295

باوند (عزرا) 56

بروب (فلاديمير) 14، 64، 67، 68، 69،
70، 71، 72، 73، 74، 75، 77، 78

82، 83، 85، 86، 87، 108، 288، 308

بروتوس القيصر 105

بروديل 140، 297

بروست (مارسيل) 17، 141، 145، 146،
147، 148، 150، 152، 155، 172

219، 220، 222، 223، 228، 238

241، 320، 327

بريمون (كلود) 15، 64، 76 - 85، 289،
290، 293

بلاك 31، 116، 317

بليك 46

بنجامين (ولتر) 60، 286

بنفست (أميل) 113، 114، 115، 116، 117،

122، 124، 129، 143، 144، 294

295، 297

- أ -

أرسطو 13، 24، 28، 29، 30، 35، 36،
38، 40، 52، 53، 67، 71، 74، 90

98، 99، 100، 117، 121، 123، 129

153، 169، 223، 253، 255، 257

258، 281، 282

أرنلدت (حنا) 243

أسخيلوس 184

أفلاطون 240، 296، 301

أفلوطين 89

إليوت 56

أوسنسكي (بوريس) 161، 162، 169، 254،
308

أوستن (جين) 156

أوغسطين 13، 24، 67، 89، 90، 170،
173، 186، 209، 218، 283، 318

أولتر (روبرت) 306

أويرباخ 146، 279، 303

- ب -

باختين (ميخائيل) 164، 166، 169، 254

- 305 ، 165 ، بوث (وين)
 بولتمان (رودلف) 57
 بولون (جان) 306
 بولين (جين) 155
 بوليه (جورج) 326 ، 323 ، 229
 بيكيت (صموئيل) 33 ، 56
- ت -
- 221 ، 223 تارد
 تشاتمان (سيمور) 302 ، 307
 تودوروف (تريفيتان) 64 ، 83 ، 277 ، 290
 297 ، 302 ، 309
 تولستوي 31 ، 165
 تيزنيه (لوسيان) 86
 تيليتش (بول) 57
- ث -
- 326 ثوسيديدس
 ثيرغر (ريشارد) 203 ، 317 ، 319
- ج -
- جالزورثي (جون) 139 ، 300
 جويس (جيمس) 56 ، 156 ، 257 ، 301
 306 ، 311 ، 312
 جيمس (هنري) 36 ، 158 ، 309
 جينيت (جيرار) 15 ، 17 ، 111 ، 112 ، 135
 136 ، 142 ، 144 ، 146 ، 147 ، 148
 150 ، 152 ، 254 ، 301 ، 304 ، 309
 310 ، 329
- د -
- 290 ، 292 دانو (آرثر سي)
 دانتي 184 ، 281
- 236 ديرفوس
 دوستوفسكي 164 ، 166
 دولوز (جيل) 219 ، 220 ، 230 ، 320
 دي لوباك (هنري) 44 ، 281
 دينتز (ديفيد) 311
 ديفو (دانيال) 33 ، 278
- ر -
- رحيم (فلاح) 19
 ردفيلد (جيمس) 256
 روزنبرغ (هارولد) 284
 ريتشاردسون (صموئيل) 34 ، 278
 ريد (توماس) 34
 ريكور (بول) 9 ، 10 ، 11 ، 12 ، 13 ، 14 ،
 15 ، 16 ، 17 ، 18 ، 19 ، 277 ، 293
- ز -
- الزريقاني (سالم) 19
- س -
- ستانز (فرانز ك.) 158 ، 159 ، 307
 ستيفنس (والاس) 58 ، 284
 سمبلين 180 ، 188
 سمث (باربرا هيرنشتين) 49 - 51 ، 283 ، 286
 سوريو (إيشان) 86 ، 291 ، 301
 سوسير (فريدنان دي) 63 ، 144 ، 289 ، 302 ،
 303
 سوفوكليس 123 ، 254
- ش -
- شاتوك (روجر) 245 ، 327
 شتراوس (كلود ليفي) 15 ، 69 ، 72 ، 287 ،
 291

فاينريش (هارالد) 17، 114، 117، 119،

120، 122، 123، 124، 126، 127،

128، 129، 130، 131، 132، 133،

134، 135، 136، 153، 162، 168،

297، 298

فلوير (غوستاف) 156، 298

فندريس (أ.) 304

فك (يوجين) 132، 298، 310

فولتر 127

فيير (ماكس) 107، 293

فيلدنغ (هنري) 138، 280

فين (بول) 29

- ك -

كافكا (فرانز) 33، 42، 155

كانط 39، 107

كرمود (فرانك) 13، 14، 18، 48، 51، 53،

54، 56، 57، 58، 59، 279، 282،

284، 285، 286

كونراد (جوزيف) 141، 301

كوهن (دوريت) 154، 155، 157، 162،

257، 305، 309

كيخوت (دون) 27

- ل -

لاكان (جاك) 15

لاكوست (ميشيل) 295

لوتمان (يوري) 161، 169، 254، 285

89

لوك (جون) 34، 35

لويس (وندهام) 56

ليبتز (ج. و. فون) 196

شتيرن (لورنس) 141

شكبير 53، 180، 185، 189، 281، 313

شلنغ (ف. و. ج.) 221، 223، 321

شليغل (أوغست ولهلم) 134

شنيدر (مونيك) 287

شهريار (السلطان) 251

شوبنهور 221، 222، 223، 321

شوشات (كلوديا) 191، 195، 202، 203،

204، 207، 208، 210، 211، 212،

213، 214

شيلر (ج. س. ف. فون) 31، 118، 134،

256، 296، 300

- ط -

طرطوف 42

- غ -

غراهام (جون) 313، 314

غريماس (أ. ج.) 15، 64، 72، 85، 86،

87، 88، 89، 90، 91، 92، 93، 96،

99، 100، 102، 103، 104، 106، 108،

109، 291، 293، 303

غوته (ج. و. فون) 31، 74، 129، 134،

136، 139، 196، 256، 296، 299،

300، 303، 316

غومبرتش (إ. ه.) 57

غونتر = مولر (غونتر)

غويز (هنري) 254، 329

- ف -

فاوست 41

فاينريش فراي (نورثرب) 13، 40، 43، 44،

45، 46، 51، 57، 58، 81، 257، 280

لينا يوس (كارولس) 14، 67، 70، 74، 76

- ه -

- م -

هاشم (شريف) 19

هامبرجر (كيت) 113، 117، 119، 154،

167، 168، 295، 296

هاملت 27، 41، 53

هنري (آن) 221، 222، 320، 321

هوسرل (أدموند) 132، 259، 298

هوميروس 29، 123، 254، 280

هيفل (ج. و. ف) 256، 278، 280

هيوم (ديفيد) 35

- و -

وايلد (أوسكار) 58

وولف (فرجينيا) 17، 31، 139، 140، 167،

172، 173 - 190، 310، 311، 313،

314

ويل (أريك) 59، 286

- ي -

ياوس (هانس روبرت) 251، 322، 323

يوليسيس 143

يوليسيس (جويس) 257

ييتس (وليم بتلر) 56

مارك (القديس) 237

مالارمية (ستيغان) 46، 249، 287

مان (نوماس) 17، 134، 137، 138، 141،

172، 190 - 192، 278، 300، 315

المسيح (عليه السلام) 42، 56، 207

مكبت 53

منك (لويس) 84

منكوفسكي (إ.) 190

موباسان 90، 96، 97، 99، 101، 102

مودي (أ.د.) 314

مولر (إيلينا) 299

مولر (غونتر) 16، 111، 135، 136، 137،

139، 140، 142، 143، 144، 147،

152، 299، 300، 301، 303

ميستر (ولهلهم) 139

ميلر (ج. هيلس) 49، 282

- ن -

نيشيه (فردريك) 57، 59، 180، 210، 284،

315

نيف (فردريك) 292، 293

فهرس المصطلحات

- أ -

- الاختزال 90
 اختزال المحاكاة إلى تقليد 35
 اختيار المنهج 139
 الأداء (مفهوم) 93، 107
 الأدب (رقيق) (وضيع) 249، 250، 256
 الإدراك معاً 111
 ادعاء الصحة 22
 الأدوار (الشيمة) 79، 83، 84، 98، 99
 الازدواجية 180
 الأزمات 108
 أزمة الفعل النحوي 112، 114، 117، 130،
 134، 162، 168
 أزمة اللغات الطبيعية 120
 الأزمة النحوية 64، 114، 133
 الاستباق (الاستباقات) 145، 146
 الاستحضار 118
 الاستذكار 124، 125، 133
 الاسترجاعات 140
 الاستعادة 145
 الاستعارة 245، 246، 250
- آدم في سفر التكوين 42
 الأبدية 173، 186، 211، 212، 218، 239
 إبراز المعالم (فكرة) 123، 126، 127، 129
 أبستمولوجيا (التفسير) التاريخي 62، 260
 الأبولوجية 41
 الأيغرام 49
 الاتجاه المعاكس 77، 90
 الإحالة الختامية الذاتية 283
 الاحتراس الشكلي 36
 احتمالية الصدق 33
 الأحداث الخارقة للعادة 140
 أحداث (مصطلح) 115
 أحزان ولهم ميسر 139، 196
 الإحساس بالاكتمال 49
 الإحساس بالنهاية (كتاب) 14، 48، 51، 58،
 283، 284
 الأحكام التأملية 111
 الأحلام 152

- الاستمرارية 96، 97
الاستنتاج (الاستنتاجات) الاستقرائي 245، 253
الأسطورة الأسكانولوجية 57، 58
الأسطورة التهكمية 43
الأسطورة الرؤيوية 59
الأسطورة الدينية 57
الأسطورة المحطمة 57، 59
أسطورة (مصطلح) 43
الأسلوب (الحر غير المباشر) 156، 247
إشكالية النهاية في السرد 282
إعادة التصور 11، 25، 58، 113، 169، 248، 262، 263
إعادة تصور (السرد) للزمن 171، 217، 260
إعادة التصور القصصي الخيالي للزمن 176
اعترافات أوغسطين 13، 90، 186
الإغريق 23
الأفعال النحوية 86
أفعال وفاعلين 64
الأفكار 30
الاقتصاد والمجتمع 107، 293
الانكسب السردى 223
الانكتمال 48
ألعاب مع الزمن 16، 111، 171، 193، 262
الإمبراطورية البريطانية 187
الامتياز الحصري 120
الأمواج (كتاب) 167
أنا - أنا - أصول (الأصل) 117، 118، 149، 150، 157، 159، 219، 296، 305
أنت (صيغة) 207
إنتاج الذات للمعنى (فكرة) 104
الأنثروبولوجيا (البنوية) 99، 287
الانحراف 39
انسحاب تهكمي من الواقع 43
الانشقاق (فرضية) 56، 58
الانصهار 146
الانضغاطات الزمنية 139
الانطباع 249
الانطباعي 159
انعطافات المراحل المعزولة 250
الانفتاح (فكرة) 172
أنماط الحالات السردية 158
الأوديسا 29
الأيديولوجيا (الإمبريالية) 51، 161
- ب -
باريس 99، 236، 237
الباطني 45، 46
باليك 233
بامبلا 34
البحث عن الزمن الضائع (كتاب) 17، 144، 146، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 153، 172، 219، 225، 234، 243، 250، 279، 304، 320
بروست والعلامات 219
بروسيا 99
بروميثيوس 42
بريمون 81
البطل 41، 109، 149، 150، 203، 218، 224، 229، 242، 250
البطل الإلهي 42
البطل الزائف 73، 74

- بطل المأساة 42
 بطل مضاد 197، 198
 البطل المقدس 41
 بطلنا المتواضع 214
 بخ بن (دقات، ساعة) 176، 179، 180، 181، 182، 183، 184
 البنى العميقة 91، 102
 بنيلوي 257
 البنية الابتدائية للمعنى 91
 البنيوية (الفرنسية) 11، 15، 16
 البوليفونية (فكرة) 164، 166
 بيرغوف (مصححة) 190، 191، 192، 195، 196، 198، 199، 200، 202، 206، 209، 210، 211، 213، 218
 بيكيت 33
 - ت -
 تاريخ الأجناس 30
 التاريخ الأدبي 46
 التاريخ المتسلسل 29
 التأليف السردى 33، 130، 153، 219، 228
 تأليف العمل الأدبي 160
 التأليف المحاكاتى 28
 تانسونفيل 235
 التأويل الباطنى 51
 التبادلية (النماذج) 56، 57، 59
 تباينات زمنية 147
 تبشير (مصطلح) 309
 التابع 139
 تابع ابتدائي (مفهوم) 82
 تابع الأفعال 79
 التابع الأولي 77
 التجانس 261
 التجربة (التجارب) الزمنية 141، 142، 144، 152، 157
 التجربة السردية (للزمن) 172
 التجربة الظاهرية للزمن 113
 التجربة الفريدة 196
 التجربة القصصية 135
 التجربة القصصية الخيالية 172
 التجربة القصصية للزمن (فكرة) 25، 152، 171، 222، 262
 تجربة المادلين 227
 التجربة المعيشة (للزمن) 24، 113، 114، 184
 التجربة المعيشة للقارئ 264
 التحدي (مفهوم) 107
 التحقق من الصدق 101
 التحليل البنيوي للسرد 63
 تحولات الحكمة 13، 27
 التحييد 132
 التخالف الزمني 145
 التخطيطية 40، 46
 التخطيطية الابتدائية 108
 التخطيطية السردية 40
 التخطيطية الصادرة عن ترسيب التقليد 45
 التخطيطية النهائية 108
 تدهور الكذب 58
 التراث 10
 الترنيب 145
 تركيب الأزمنة النحوية 129
 التركيب النحوي 120

- التركيبة الزمنية للمتتبع 258، 260
 التزامن (فكرة) 89، 124
 نسبة الأزمنة النحوية 129
 المشاكل الدقيق 63
 تشريع النقد (كتاب) 40، 43، 46
 التشويهاات المحكومة بقوانين 55
 التصميم 193
 التصور (التصوير) الشكلي 38، 172
 تصور الزمن في السرد القصصي 21
 التصور السردى (للزمن) 9، 22، 124، 130، 161، 169، 259، 261
 التطهير 41
 التطور الداخلي (رواية) 214
 التطور الزمني التعاقبي 24
 تطور الشخصية 74
 تطور القصة 74
 تطوير الذات 315
 التعاقب الزمني 69، 88، 89، 139
 تعقيد الحكمة 71
 تعيين أزمنة الفعل النحوي 131
 تفاعل القيود السيميائية 91، 96، 292
 التفسير 11
 التفسير التاريخي 258
 التفسير المعياري 66
 التقاليد الوطنية 256
 التقرير 111، 112، 148، 149، 154، 164، 171
 التقرير السردى 83، 143
 التقصي 88، 89
 التقليد السردى 102
 التقليدية (فكرة) 39، 47
 التكافؤ (فكرة) 104
 التكرار 34، 97
 التلغيف 111، 112، 117، 144، 148، 149، 164، 171
 التلغيف التاريخي 115
 التلغيف (السرد) (Utterance) السردى 16، 24، 143
 التمثيل 35
 تمثيل تبادلي 85
 التمثيل السجالي 107
 التمييز بين الحداثات 56
 التناص (مصطلح) 44
 تنظيم الأحداث 36
 التنظيم الحوارى (فكرة) 166
 التنوير المفاجيء 205
 تنوعات تخيلية 173
 التنوعات الخيالية 310
 التهكم 42
 التوازن، التوازن المقدس 180
 التوافق في الوحدة (فكرة) 45
 التوافق المتنافر 259
 التوافق المتنافر لتجربة الزمن 13
 توزيع ابتدائي 122
 توزيع الأزمنة (النحوية) 122، 135
 توم جونز (رواية) 138، 280
 تيار الوعي 174
 - ث -
 ثالوث المحاكاة 253
 ثالوثي 45

- ثقافات الإثنية 61
الثقافة 196، 197، 198
- حركة (مصطلح) 75، 76
الحركة الفعلية للحكاية 72
الحضور الكلي للزمنية الرمزية 146
حكايات (حكاية) حول الزمن 172، 241
الحكايات (الحكاية) الخرافية (الروسية) 69، 70، 73، 74، 77، 78، 81، 85، 289
حكايات (حكاية) الزمن 167، 172
الحكايات الشعبية 121
الحكايات عن الزمن 173
الحكاية النثرية 30
حكاية كومبري 228
حكم الاستعارة 12
الحكواتي 60
حل (حلول العقد) العقدة 71، 109
الحوار السقراطي 166
الحيادية 122
- خ -
الخاتمة المضادة 283
خارج - الزمني 151، 239، 240، 241، 422، 250
الختام 97
الختام السردى 50
الختام الشعري 48، 49، 282
الختام الغنائي 50
الختام المضاد 51
الخرافات (الخرافة) 41، 194
الخطاب (الخطابة) 10، 122، 144، 169
الخطاب التصنيفي 70
الخطاب التقريري 117
الخطاب الجديد للحكاية 309
- الجبل السحري (كتاب) 17، 134، 172، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 199، 204، 208، 211، 215، 217، 277، 306، 315
الجنطلت (فكرة) 139
الجميل السردية 83، 105
الجهة 93
الجوهر الفرد 45
- ح -
الحاضر 112، 114، 115
حاضر السرد 167
الحاضر القصصي (فكرة) 167، 168
الحاضر المعيش 116
الحافز الواقعي 150
الحالات السردية في الرواية 307
الحب 198، 205، 208، 231، 232، 234
الحبك (الحبكة) (مصطلح، فكرة) 13، 22، 23، 24، 25، 27، 28، 29، 30، 32، 33، 37، 52، 74، 81، 96، 111، 123، 153، 164، 253، 259
الحبك (الحبكة السردية) السردى 13، 260
الحبكة الشعرية 223
الحبكة الشهوية 42
الحبكة المأساوية 23، 75، 255
حبكة مواسية 284
الحدث (الخارق للمادة) 32، 129
الحرب العظمى 174، 185، 194

- الخطاب الحر 128
خطاب الحكاية 302
خطاب الراوي 165
الخطاب السردى (للحكاية) 143، 144، 149، 310، 305
الراوي 153
ربط الذكريات 232
الرزم (فكرة) 137، 303
رزم الزمن 138
رعب التاريخ 184، 186
رعب الزمن 185
رعب اللامتشكل 59
الرمز بصفته نموذجاً بدنياً 44
روايات الإثارة 124
روايات تولستوي 164
الرواية 21
الرواية البوليفونية 164، 167
رواية التطور الداخلي 31، 196، 197، 198، 211، 202
رواية تيار الوعي 31
الرواية الحديثة 155
الرواية الرسائية 35
الرواية الروسية 161
رواية الغائب 154
رواية الفعل 32، 36
رواية القرن التاسع عشر 48
رواية النمو الداخلي 238
الرواية الواقعية 44
روبنسون كروسو (كتاب) 34
روح الانتشار 13، 180
روح إنشاء التركيبة 163
- الخطاب الشخصية 165
خطاب الفعل 105
خطاب في المنهج 127
الخلاصة (فكرة) 147
الخلل المأساوي 41
خواص الجنس 166
الخيال العلمي 42
الخيما 213
- د -
داخل بعد الزمن 251
الدائرة الثانية من العلامات 230
الدراما (الحوارية) 123، 153، 154
الدرامي (النمط) 254، 255
درجة الصفر 133
دقات بن = بن بن
دلالة العمل الأدبي 264
دلالة الماضي 169
الدور (فكرة، مفهوم) 78، 80، 82
الديمومة 61، 62، 86
الدين 205
الديونيسيزية 41
- ذ -
الذاكرة 116، 178
الذاكرة الراحنة 146

- روح التحليل 163
 الرومانتيكية الألمانية 221، 222
 الرومانس 41
 الرؤيا الختامية 236
- ز -
- الزمان والرواية 306
 الزمان والسرد 7، 9، 10، 11، 15، 253
 الزمن 130
 الزمن التاريخي 24، 215
 زمن التجربة المعيشة 13
 الزمن التذكاري 180، 181، 183، 185، 186، 187، 190، 194
 زمن التذكر 140
 زمن التعاقب (الخطي) 56
 الزمن التعاقبي 190، 194
 زمن الحياة 142
 الزمن الخيالي 233
 الزمن الداخلي 194
 الزمن الرسمي 182، 181
 الزمن الرغبة 134
 زمن الرواية 55
 زمن الروح 12
 زمن الساعة 181، 190
 الزمن السردى 111، 191
 الزمن السريري 201
 زمن شعري 142
 الزمن الضائع 220، 223، 232
 زمن الفعل 125، 126، 133
 زمن فعل السرد 16، 136، 137، 138، 142
 الزمن 144، 192، 193
- زمن فعل السرد وزمن مادة السرد 135
 الزمن (فكرة) 24، 25، 115
 الزمن الفنان 242
 الزمن في حالته الصافية 151
 الزمن في روايات فرجينيا وولف 313، 314
 الزمن القابل للقياس 209
 زمن القصص 56
 زمن قصة البطل 150
 زمن مادة السرد 16، 136، 137، 144، 192، 193، 204
 زمن ماض مطلق 113، 168
 الزمن المتخارج 326
 الزمن المحايت 249
 الزمن المروي 7، 138، 142، 176، 177، 191، 208
 الزمن المستعاد (فكرة) 225، 226، 227، 228، 234، 235، 238، 239، 240، 241، 242، 243، 246، 247، 249
 251، 322
 الزمن المستقبل (فكرة) 125
 الزمن المعيش 116، 117، 119، 122، 134، 129، 146، 168
 الزمن المفقود 225، 226، 239، 240، 244، 246، 250
 الزمن الميت 139
 الزمن النحوي 17، 34، 130، 162
 زمن النص 125، 126، 133
 الزمن الواقعي 55، 167
 زمنية الحياة 137
 الزمنية السردية 24
 الزمنية (فكرة) 22

- سيكولوجيا 248
- سيمياء غريماس السردية 85
- السيمائية 64، 66، 95
- السيمائية السردية 24، 40، 61، 65، 260
- السيمائية السردية للمدخل النبوي 23
- سيمية 87
- ص -
- ساعة بخ بن = بخ بن
- ساغا فورسايت 139
- سحر جزني 306
- السرد (السردى، السرديون) 79، 99، 115، 122، 253، 254
- السرد الأدبي 29
- السرد النبوي 9
- السرد التاريخي 9، 11، 29، 81، 111، 115، 116، 257، 258، 261، 264
- سرد الذات 155
- السرد (سرد القصص) القصصي 7، 9، 21، 22، 24، 77، 111، 164، 255، 257، 258، 262، 264
- سرد الغائب 157
- السرد المكتمل 95
- السرد الملحمي 145
- السرد النفسي 155
- السرد اليوتوبي 132
- سرديات المتكلم 157
- السردية الختامية (فكرة) 104
- سفر التكوين 56
- سفر الرؤيا 52
- سقوط الإمبراطورية الرومانية 51
- سوان عاشقاً 231
- سوسيولوجيا تجريدية 248
- السيدة دالاوي (رواية كتاب) 17، 139، 172، 173، 174، 175، 178، 179، 181، 185، 187، 189، 190، 194، 217، 277، 299، 306، 310، 311
- ش -
- شبه الأزلي 53
- شبه - الحكمة 259
- شبه - الحدث 259، 261
- شبه - زمن (السرد) 145، 146
- شبه السيرة الذاتية 34، 35
- شبه - الشخصية 259
- الشخصيات (الملحمية) 30، 87، 162، 305
- الشخصية (فكرة) 30، 31، 32، 36، 153
- شخص السلطة 190
- الشد 121، 124
- الشروع 97
- الشعر الغنائي 49
- شعرية التأليف 160، 162، 164، 308
- شعرية دوستوفسكي 165، 166
- الشعرية المورفولوجية (كتاب) 136، 142
- شعرية النثر 290
- الشكل الانشقاقي 56
- الشكل الحدتي 30
- الشكلي 44
- شكة المثقفون 59
- الشيوعية 197، 212

- الظهور 100
الظهور اللغوي للمعنى المروي 95
- ص -
صالون فيردورين 232
صدقة 237
الصديقان (قصة) 97، 98، 99، 102، 292
صنع المعنى 141
صوت البطل 224
الصوت الحي 35، 36
صوت الراوي 165، 224
الصوت السردى (فكرة) 128، 152، 153، 164، 168، 170، 174، 193، 199
الصوت (فكرة) 148، 150، 157، 159، 160، 167، 255، 296
صورة تشبيهية 233
صياغات مزمنة 97
الصيغة الرسائلية 35
- ض -
ضبط قياس الزمنين (فكرة) 138
الضرورة المنطقية والفنية 73
الضمير الغائب 118
- ط -
طبيعة السرد 278
الطبيعة الشمولية للحبكة 32
الطرز الملهاوية 41
طريق آل غيرمانت 247
طريق سوان 225، 233، 234، 247
طمس الزمن 203، 207، 210
- ظ -
الظاهراتية 107، 256
الظروف النحوية 86
- ع -
العالم إرادة وتمثيلاً 221، 321
عالم الانشغال 124
عالم الحياة 195
عالم العمل 25
عالم عمورة 229
عالم الفن 51
عالم القارىء 48
عالم القصص 43، 59، 129
عالم (كلمة) 131
العالم المعيش 263
عالم الممارسة 135
عالم النص (فكرة) 25، 171
العبارات الجهورية 106
العبارة الاستعارية 12
العبور 95، 96
عبور الزمن: البحث عن الزمن الضائع 219
العزل جانباً 137
عزل اللغة 63
العزل (مصطلح) 299
العزلة 236
العزلة المأساوية 42
العقلانية التحليلية 75
العقلانية الجديدة 67
العقلانية السردية 76
العقلانية السيميائية 40، 96، 103
علاقة تناقض 91
العلاقة (فكرة) 28

- علم التشريح 206، 210
علم الجمال (كتاب) 256
علم الدلالة 84
علم دلالة أولي 113
علم الدلالة البنيوي (كتاب) 85، 86، 108، 291
علم دلالة الفعل 83، 84، 105، 153
علم الدلالة المعجمي 63، 65
علم السرد البنيوي 136
علم الصوت الوظيفي 63، 65
علم الفلك 210
علم اللغة 16، 62، 65
العملية التصورية 64
العناصر الدالة (المورفيمات) 121
العناصر الدالة (المونيمات) 65
العمود الأبدي 210
عودة الابن الضال 211
عودة البطل 72
عيس آذار 105
- غ -
الغربة الخرافية 58
غياب العاطفة 236
- ف -
فاعل ما (فكرة) 153
الفاعلون 64، 80، 85، 99
فاعلون مجازيون 99
الفخ (فكرة) 80
الفردوس المفقود 231
فرنسا 29، 221
- الفرويدية 11
فضاء الخطاب 57، 124
فضاء الرواية 135
الفضاء السرد (ي) 143، 145، 148، 253، 254، 255
الفعل الحدوثي 50
فعل السرد 16، 137
فعل شيء ما 92، 94، 100، 101، 105، 106
الفعل (فكرة) 32، 257
الفعل الماضي المطلق 168
الفعل المسرحي 35
الفعل النحوي 115
فعل يحاكي (فكرة) 32
الفقدان الابتدائي 72
فقدان الإحساس بالزمن 208
فقدان الهوية 222
الفكر 32، 36
الفلسفة التحليلية للفعل 290
الفلكلور 21
فلورنسا 233
فن التأليف 33، 258
فن الختام 51
فن السرد 139، 145، 197
فن السرد الساذج 23
فن الشعر لأرسطو 13، 28، 29، 35، 38، 40، 48، 52، 53، 90، 121، 223، 238، 253، 281، 282
فن القصة 37
الفن الكلاسيكي 29
الفهم البنيوي (للسرد) 15

- فهم الزمن 261
 الكرنفالي (الكرنفالية) 166، 256
 الكشف الرؤيوي 14، 40، 38، 27، 15، 13، 11، 47، 61، 81، 96، 146، 260
 كلاريسا 34
 كوبري 229، 235
 كومبري 225، 228، 229، 231، 232، 233، 234، 235، 237، 248
 الكيتونة 100
- ق -
 القسم التمهيدي من الحكاية 71
 القصد التمثيلي 38
 قصص التوافق 58
 قصص جرائم القتل الغامضة 42
 قصص الخيال العلمي 132
 القصص الخيالي (مصطلح) 11، 14، 22، 25، 112، 129، 154، 173
 القصص (مصطلح) 51
 القصص الملحمي 119
 قصص النهاية 57
 القصة المروية 31
 القصة المنقولة 143
 قوانين الشكل 141
 القيم التقوية 101
 القيود السيميائية على السرد (ب) 14، 61
- ك -
 كافكا 33، 42
 كأنما 132، 135
 كبش الفداء 42، 43
 الكتاب المقدس 52
 كتابة التاريخ 258، 259
 كذبة الأدب 236
- ل -
 اللاحياء 98
 اللازم (اللازمية فكرة) 61، 89
 اللامبالاة 140، 231
 اللاموت 98
 لحظات حرجة 209، 217
 اللحظات (اللحظة) السعيدة 201، 227، 238، 245، 246، 247
 لحظة الإلهام 238
 لحظة الخطاب 114، 115
 لسانيات النص 120
 اللعب (اللعبة) مع الزمن 141، 150، 152، 168، 304
 اللغة 10، 62، 63، 84
 لغة السرد 126
 اللغة الكلية الكونية 326
 اللغة الطوبولوجية (الموقعية) 108
 اللكسيمات 127
 ليلة فلبرغس 191، 203، 205، 207، 208، 210، 212، 213، 218
- م -
 الماركسية 11
 المأساة 21

- المأساة الأليزابيثية 48، 53، 54
 المأساوي 27، 40
 الماسونية الحرة 213
 ماض تام 255
 الماضي 112، 114، 115، 119، 133
 الماضي البسيط 125
 الماضي القصصي 116
 الماضي المركب الثاني 114
 الماضي المطلق 114، 118، 126، 131
 الماضي الواقعي 116، 118
 ماضية (مصطلح) 115
 المبدأ المونولوجي أو الأحادي الصوت 164
 المتعة الخاصة 230
 متفوق الشكينة 57
 المجازية 96، 102
 مجال الفعل 87
 مجموعات الأحداث التوسعية 140
 المحاكاة الدنيا 41
 المحاكاة الرفيعة 257
 محاكاة الشخصيات 165
 محاكاة العقول الأخرى (الآخرين) 154، 157
 المحاكاة العليا 41
 محاكاة فعل ما 36
 محاكاة الفعل (مفهوم) 32، 165
 المحاكاة (فكرة) 10، 11، 21، 22، 28، 38،
 48، 112، 123، 129، 134، 153، 154،
 173، 253، 258، 303
 محاكاة للوعي 154
 المحاكاة الهازئة 55
 المحاكاة الوضعية 257
 محاكاة الوعي 257
 المخيلة الحوارية 255، 329
 مذبحه الخطاب 143
 المربع السيمائي 92، 94، 102، 106
 مركز توليد الطاقة 141، 142
 المركز الساكن (لنظام) الكلمات 45، 46
 مسار الفعل 68
 المستقبل 112، 114، 115، 125، 133
 المستقبل الاحتمالي 114
 المستقبل في الماضي 224
 مسح محدود للمقولات المعنوية 103
 المسح النظامي للأدوار الرئيسة 83
 المشاهد (المعالم) 140
 مشكلة الاختتام 49
 المشهد أو الوصف (فكرة) 147
 مصححة دافوس 190
 معجزة المونولوج المروي 157
 معقولة التخطيطية 39
 معمدانية القديس مارك 237
 المعنى 85، 87، 90، 93، 141
 مغامرات البطل 216
 المفردات المتمكنة (اللكسيمات) 65
 مفهوم جينيت للعبة الزمن 17
 مقاييس الزمن 213
 مقدمة إلى التحليل البنوي للمرويات 48، 63،
 287
 الملحمة 21، 29، 37
 الملحمة القديمة 256
 الملحمي 27
 الملهاة 21

- ملهاة ميناندر 42
 الملهاوي 27، 40، 41
 الممارسة 173
 منطق الحكاية (كتاب) 76، 80، 81، 290
 منطق الفلسفة (كتاب) 59
 المنطق القصدي 105
 المنظور العلوي 158
 المنظور (فكرة) 158، 160
 المنظور الكلامي 124
 المنظور المكاني 162
 المواضع 38
 موباسان (كتاب) 85، 293، 303
 الموت 39، 57، 173، 186، 188، 195
 196، 197، 198، 205، 208، 211
 241، 249
 موت البرتين 236
 موت البطل 41، 242
 موت الروح 186
 موت سبتموس 186، 189
 موت السرد 59
 موت الفن السرد(ي) 39، 61
 موت كوتارد 236
 الموت المستعاد 251
 المورفولوجيا 104
 مورفولوجيا بروب للحكاية الشعبية 67
 مورفولوجيا الحكاية الشعبية 288
 المورفولوجيا الشعرية 141
 الموشع الديني 167
 المونولوج 156، 165، 166
 المونولوج الداخلي 155
 المونولوج المروي 156، 157، 159، 168،
 257
 المونولوج المقتبس 156
 ميلانو 185
 - ن -
 النحو (السرد) السرد 90، 102، 290
 النحو السطحي 93، 102، 104، 105، 106،
 107
 النحو العميق 104، 105
 نحو منطق للسرد 76
 نزاع التعاقب الزمني 66، 287
 النزعة الباطنية 45
 النزعة اليونانية 44
 النسق (مفهوم) 13
 النص 297
 النطق التركيبي للأزمة النحوية 127
 نظام المثالية الترنسندنتالية 221، 321
 نظرة بصرية (فكرة) 246
 نظير متماكن 98
 النقد 46
 النقد الأدبي 16، 18، 51، 257، 258
 النماذج التبادلية 13، 39، 40، 52، 54
 النموذج الابتدائي 45، 99، 105
 نموذج تبادلي مكرس 28
 النموذج التكويني 93
 النموذج الغائي 77
 نموذج غريماس الأول 72
 النموذج الغنائي 49
 نموذج القانون الشامل 66، 103
 النموذج المكون 91

- وجهة الصوت (فكرة) 169
 وجهة النظر (فكرة) 153، 157، 160، 161،
 162، 164، 165، 169، 255، 296
 وجهة نظر (المؤلف) 161
 وجهة النظر والصوت السردى 118
 الوجود السيميائي 100
 الوجود والزمان 187
 الوحدات الصوتية الفونيمات 65
 الوحدة الضائعة 223
 الوظائف 68
 الوظيفة السردية 15
 الوظيفة (فكرة) 78
 الوعي التذكري 146
 وعي الحياة 203
 الوفاء للتجربة 38
 ولادة العبقرية 222
 ولادة المأساة 59
 وليمة الموت 191
- نهاية العالم (فكرة) 52
 النهاية غير الحاسمة 50
 نهاية الفعل 50
 نهاية (القصص) القصة 50، 54
 نهاية الكتاب 52
 نهاية محايطة 54
 النهاية المخيبة للآمال 49
 النهاية (مصطلح) 284
 النهاية الوشكة 53
 نورث كارولاينا 7
 النيشوية 212
- ه -
- هامبورغ 190، 199، 209، 211
 الهجاء 46
 الهرمنوطيقا الإنجيلية 44
 الهوية 221
- و -
- الواقع (الواقعي) 132، 167
 واقعية الماضي التاريخي 263
- ي -
- يُعد فيه المشهد 58